المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع البلاغة

التشبيه التمثيلي في الصحيحين

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة

إعداد

الطالبة / فائزة سالم صالح يحيى أحمد

إشراف

الأستاذ الدكتور / محمد محمد أبو موسى

١٤٠٥ / ١٤٠٦ هـ

١٩٨٥ / ١٩٨٦ م


بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

" رَبِّ اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى
واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى "

سورة طه الآية ٢٥-٢٨

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" نضَّر الله عبدًا سمع مقالتى فحفظها
ووعاها وأدَّاها كما سمعها "

صحيح الترمذى

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمـــــة

اللهم إنا نحمدك على ما علمت من البيان ، وألهمت من التبيان وأسبغت من العطاء ،وأجزلت من النعماء .

ونعوذ بك اللهم من فتنة القول ،و زلة اللسان والتزيّد بما لا نحسنه كما نعوذ بك من فضول الهذر والعي والحصر . ونسألك الإصابة والسداد في كل قول وكل عمل انك سميع الدعاء.

ونصلي ونسلم على خير البرية سيد البلغاء أفصح العرب لساناً وأحكمهم بياناً وأحسنهم كلاماً صلاة تكون لنا نوراً من كل ظلمـــة وتهدينا إلى طريق الحق والرشاد .

إنّ أفضل ما تنتجه القرائح ما يتيسر به فهم كتاب الله وسنـــة نبيه عليه السلام . وعلم البلاغة من أجل العلوم لأنه يقف على وجـــه إعجاز القرآن ويبحث عن جلال الكلمة التي تحدى بها قوماً بلغـــوا من فصاحة اللسان ونصاعة البيان مبلغاً لم يبلغه غيرهم من أمـــم الأرض ، كما أنه يتحسس نبض اللغة ويكشف عن أدق مضمراتها في كلام البشر ابتداء من كلامه عليه السلام.

وقد رأيت أن عبد القاهر الذى بسط أبواب هذا العلم الشريـــف وأضاء مساره يقف وقفة طويلة عند التشبيه التمثيلي ويدقق في بيـــان الفرق بينه وبين التشبيه الصريح ،و يعنى عناية خاصة ببيان أســـرار بلاغته ، ولم أجد عبد القاهر وقف عند مسألة وقفة طويلة كما وقـــف عند هذه المسألة حتى رأيناها تستغرق أكثر كتاب أسرار البلاغة فوقفت

عندما وقف أراجع كلامه فأجده يدل دلالة واضحة على أن هـــذا الباب متسع جداً في الشعر والأدب ، فرأيت أن يكون هذا الموضوع هـــو موضوع بحثي على أن أفتح له باباً آخر يصله بكلام رسول الله صلى اللـه عليه وسلم ، وقد ساعدني على إدراك ذلك والإحاطة به استاذى المشرف وقد جمعت في دراستي بين طرفين كثر الجمع بينهما في كلام علمـــاء القرون الأولى ، ثم ضعف في كلام الملخصين والشراح وأصحاب الحواشـــي، و أعتقد أن هذا العلم إنما يصلـح آخره بما صلـح به أوله وهـــو هذه المزاوجة بين النظر فيما استخرجـه العلماء من أصول في بلاغة اللسان والدراسة التحليلية للكلام المختار ، وجعلت هذا البحث فـــي قسمين :

القسم الأول : دراسة التشبيه التمثيلي عند البلاغيين ، وكان هدفي فيه هو أن أصل إلى مصادر عبد القاهر في هذا الباب فإذا عـــزّ علي ذلك فإنّي لن أعدم الوقوع على ما ألهمه هذه الدراسة ، لأن الفرق بين التشبيه الصريح وتشبيه التمثيل لم يكن معلوماً قبل عبدالقاهـــر على ظاهره، و نجد عبد القاهر قد كتب هذا الباب كاملاً ولم يضـــف إليه اللاحقون شيئاً ذا غناء . بل إنه ضعف بعد عبد القاهر وهذا كان من أهم الأسباب التي دعتني إلى مراجعته عند من سبقوه بدقـــة .

والقسم الثاني : دراسة التمثيل في الصحيحين ، وقد كنت طوال مرحلة بحثي في هذا القسم أتقصى وأتوخى الإجابة عن الأسئلة التالية :

١ - مـــا المعاني التي عبر عنها الحديث بأسلوب التمثيل ؟
ولماذا هذه المعاني خاصة ؟

٢ - مـــا العناصر التي استمد منها الحديث بنيةالتمثيل ؟
وما هي طريقة تأليفها ؟ ولماذا هذه الطريقة خاصة ؟

٣ - مـــا المعاني القرآنية التي وراء صور التمثيل في الحديث؟
وما هو أسلوب القرآن في العبارة عنها ؟ وهل جـاءت
في القرآن على طريقة التمثيل ؟ وإذا كانت فما هـــي
الحدود الفاصلة بين تمثيلها في القرآن والحديـــــث ؟
وما مدى انتفاع الحديث الشريف بالعبارة القرآنية معنى وصياغة؟

٤ - أين يقع التمثيل في كلامه صلى الله عليه وسلم من صور التمثيل فـــي
كلام الجاهليين ؟ وما الفرق بين عناصر التمثيل في الشعر وبين
عناصره في الحديث الشريف ؟

وعلى هذا قام بحثي على بابين وبينهما تسعة فصول :

<u>الباب الأول :</u> خصصته لدراسة تشبيه التمثيل عند البلاغيين وقسمته
إلى فصلين :

الفصل الأول : درست فيه التمثيل قبل مرحلة عبد القاهـــر
بـــدءاً بالجاحـــــــظ وانتهاءً بأبي هلال العسكري .

الفصل الثاني : يعنى بالتمثيل عند عبد القاهر والمتأخرين ،
وقد قرنتهما معاً لأنّ آراء المتأخرين كانت تدور حول رأي عبد القاهر .

<u>أما الباب الثاني :</u> فقدتناول تشبيه التمثيل في الصحيحين وفيه سبعـــة
فصول :

الفصل الأول : يدور حول التراث البلاغي للبيان النبوى و ينقسم إلى قسمين :

الأول : يذكر أهم أوصاف العلماء للبيان النبوى ويحللها تحليلاً دقيقاً .

والثاني : يدرس أهم الدراسات التي قامت حول كلامه عليه السلام ويلم بها الماماً فيه شيء من التفصيل .

والفصل الثاني : يبحث عن المعاني التي جاء فيها التمثيل النبوى وهي واقعة في ستة أبواب :

١ - باب ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ - باب صفات المؤمنين وغيرهم .

٣ - باب العبادات .

٤ - باب فضل المدينة .

٥ - باب أحوال اليوم الآخر .

٦ - موضوعات متفرقة .

والفصل الثالث : يبحث في المصادر التي استمد منها البيان النبوى الشريف عناصر التمثيل ، وتتمثل في ثلاثة محاور :

١ - مظاهر الكون وما فيه من زروع وحيوان وثوابت طبيعية .

٢ - أحوال البيئة الثقافية والفكرية .

٣ - أحوال البيئة المعاشة .

وألحقت هذا الفصل بدراسة موضوع المناسبة النفسية عند القدماء والمحدثين ، وقد استخرجت من بيانه عليه السلام ما أعان على تحقيق القول في هذه المسألة .

الفصل الرابع : درست فيه أهم أسرار الصياغة في التمثيل النبوى التي تظهر بصورة مطردة في أكثر الأحاديث مثل التوكيد والإيجاز وعلاقات الجمل وأسلوب المقابلة والتقسيم وغير ذلك .

الفصل الخامس : بينت فيه أثر القرآن الكريم في التمثيل النبوى سواء في الأغراض أو المناصر ، وقد كشفت عن علاقات واضحة في هذا الباب .

الفصل السادس : يضع تمثيل الجاهليين إزاء التمثيل في كلامه عليه السلام في الأغراض والمناصر فيدرس ويوازن ويحلل ويستخرج .

الفصل السابع : يتعرض لدراسة بعض الأحاديث دراسة متكاملة ، وذلك ليتهيأ لنا في ضوء هذه الدراسة المتكاملة أن نجمع الوسائل التي دعانا المنهج إلى تفريقها ، فتناولت الحديث تناولاً انتفعت فيه بما قدمته في الفصول السابقة .

ثم الخاتمة ، وقد عرضت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج .

هذا ، ومن الصعوبات التي واجهتني ، أنني وقفت كثيراً عند مادة التمثيل في كلامه صلى الله عليه وسلم كيف أصنفها تصنيفاً علمياً يؤدى إلى نتائج علمية مقبولة ، ومع كثرة الدراسات البلاغية وتنوعها في
بلاغية تناولت فناً بلاغياً أو
القديم والحديث فاننا لم نجد دراسات ~~متنوعة المنهج~~ تتناول صورا
مسائل بلاغية في الحديث النبوى
~~بلاغية في كلام أهل الأدب حتى~~ تكون بمثابة الضوء الذى يساعدنا في أمثال هذا التناول . ولذلك فإن تصنيفي للمادة العلمية كان اجتهاداً محضاً ، فإن أصبت فلي أجران ، وإن أخطأت فلي أجر واحد ، وكم كنت أسائل الكتب والعلماء وما كنت أجد إلا إجابات مختصرة جداً .

وقد فكرت في أن أفرد لكل غرض من أغراض التمثيل فصلاً مستقلاً أدرس فيه الحديث من جهاته المتعددة ،لكنني رأيت أن الأبر بالدراسة أن أفرد كل فصل لجهة من جهات النظر ، ففصل للأغراض وآخر للعناصر وآخر للصياغة . . وهكذا حتى أتمكن من الوقوف على نتائج عامة . ولذلك فقد أكرر الحديث في أكثر من فصل ،ففي كل مرة نرى الحديث من جهة فيكون :

كالبَدْرِ مِنْ حيثُ التَفَتَّ رأَيْتَهُ يُهْدِي إلى عَيْنَيْكَ نُوراً ثاقِبا

وكنت أجد صعوبة في الوقوف على جميع معاني الحديث لكثرة روايات الحديث الواحد وتفرقها في سائر أبواب الكتاب الواحد كما هو الحال عند البخارى ،لأني قد أجد للحديث الواحد عدداً عديداً من الروايات وعلي أن أقف على كل رواية وعلى شرحها لتفهم معنى الحديث وأقوال العلماء فيه حتى يقوم عليه المعنى البلاغي .

ثم لا يسعني إلا أن أتوجه باامتناني البالغ إلى كلية اللغة العربية التي هيأت لنا مناهل المعرفة وأعانتنا على ورودها، فجزى الله علماءها القائمين عليها خير الجزاء . ثم أخص بالشكر الدكتور عليان ابن محمد الحازمي على ما بذله من جهد في إتمام هذا البحث .

وأتقدم بالشكر والتقدير والعرفان إلى مقام أستاذى وشيخي الجليل الدكتور محمد محمد أبوموسى الذى لا أوفيه حقه ، وكفى أنه علمنا أن شكر هذه النعمة لا يكون إلّا بالعمل الجاد في البحث والدرس ثم الإخلاص للحقيقة العلمية من غير تعصب ولا تحيز ثم المشاركة المثمرة

في غرس بذور هذه المعرفة وتعهدها بالعناية ، فأرجو من الله أن يؤهلنا لحمل هذه الأمانة والإخلاص لها . وقد كنت أرجع إليه في كل مسألة فأضعها بين يديه فتربو وتتنامى ، فآخذ منها ما يطيقه عقلي ويبلغه فهمي ، خاصة ونحن نبحث في علم دقيق المسلك بعيد المرتقى قليل الأنصار ، فجزاه الله عنا خير الجزاء وضاعف له جزيل العطاء وجعله من ورثة الأنبياء .

ثم أتقدم خافضة جناح الذل إلى والديّ اللذين حرصا على دفعي إلى هذا الطريق لأنه طريق واصل بمن سلكه إلى الجنة ، وكان ذلك مما غرساه في نفسي منذ النشأة ﴿ رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ .

كما أشكر كل من مد لي يد العون حتى خرج هذا البحث على هذه الصورة .

وأخيراً أرجو من الله أن يكون هذا الجهد خالصا لوجهه الكريم كما أسأله أن ينضّر وجوهنا ببركة كلام نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

والحمد لله رب العالمين الذى تتم بنعمته الصالحات.

الباب الأول

تشبيه التمثيل في الدراسة البلاغية

الفصل الأول :

التمثيل قبل عبد القاهر

الفصل الثاني :

التمثيل عند عبد القاهر والمتأخرين

الفصل الأول :

التمثيل قبل عبد القاهر

١ - التمثيل عند الجاحظ .

٢ - التمثيل عند ابن قتيبة .

٣ - التمثيل عند المبرد .

٤ - التمثيل عند ابن المعتز .

٥ - التمثيل عندابن طباطبا .

٦ - التمثيل عند قدامة بن جعفر .

٧ - التمثيل عندالرماني .

٨ - التمثيل عند أبي هلال العسكري .

التمثيل قبل عبد القاهر

لا تهدف هذه الدراسة إلى تتبع فن التشبيه بقسميه الصريح والتمثيل، وإنما تحاول أن تتلمس جذور التمثيل في هذه المرحلة المتقدمة، حيث لم ينضج بعد بصورة بينه، فتتقصى كلام أهل العلم في ذلك عساها تقع على إشارات تُنْبيء عن مدى احساسهم بتميز هذا الفن الذي هو موضوع دراستنا، وهم يدرسون التشبيه - أصوله أو خصائصه أو أسباب حسنه أوما يفرق بينه وبين غيره. وقد حاولت أن أتتبع ذلك في هذه المرحلة تتبعاً واعياً عند العلماء الذين كانت لدراستهم الأثر في ارساء لبنات التشبيه، بدءاً بالجاحظ وانتهاءً بأبي هلال العسكرى، وهما يضمان ابن قتيبه، والمبرد، وابن المعتز، وابن طباطبا، وقدامة بن جعفر والرماني.

ونحن نرى أن هذه الدراسة من الأهمية بمكان، لأنها تبين مكانة الأصول التي اعتمدها علماء البلاغة وهم يقسمون التشبيه إلى هذين القسمين الكبيرين، ثم نتبين - وهذا مهم جداً - التراث الذي كان بين يدي عبد القاهر والذي تمثله أحسن ما يكون التمثيل حين جهر بالفرق بين هذين الضربين من ضروب التشبيه.

وكنا أحياناً لا نجد إحساساً بتميز التمثيل كقسم من أقسام التشبيه فنكتفي ببيان طريقة العالم في تناول التشبيه، وعلى أي جانب ركز اهتمامه فيه ؟ والوقوف عند بعض القضايا التي تستحق المناقشة، والتي تمت إلى التمثيل بطرف من قريب أو بعيد فنناقشها. وبذلك نتتبع حركة سير عقول تلك الفئة وتكامل اتجاهاتهم وجهودهم في هذا البناء الشامخ من العلم، وصبرهم على استدرار حقائق الباب.

ونلاحظ أن التشبيه عامة قد بدأ تائهاً في خضم الدراسات الأخرى كما عند الجاحظ والمبرد وابن قتيبة ، ثم استقل واستقر في بابه ضمن الفنون البلاغية الأخرى كما نجده عند ابن المعتز ، ثم دُرس وحللت شواهده ،وعُمق النظر فيه ،فبانت أنواعه ، وتعددت أقسامه كما عند الرماني وقدامة .

*

الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)

للجاحظ إشارات متفرقة حول التشبيه في كتابه " الحيوان" وهذا ما اعتمدناه في تحديد وبيان دراسته لهذا الفن . وأول ما نلاحظه أن لفظ التشبيه ولفظ المثل عنده -كثيراً- ما يتبادلان المعنى ، يعني كثيراً ما يُسوي بينهما في الدلالة ، فهو يسمى التشبيه مثلاً في مواضع متفرقة . يقول في آية * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ * (١) يقول الجاحظ " فزعموا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب بهذا المذكور في صدر هذا الكلام " (٢) والتشبيه في الآية الكريمة سماه القرآن مثلاً * فمثله كمثل الكلب * وهو من ضرب التشبيه الذي إتفق البلاغيون على أنه تمثيل لأنه مركب ووجهه متأول .

وكذلك يطلق لفظ المثل على قوله تعالى * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤوسُ الشَّيَاطِينِ * (٣) فيقول " فقال

----

(١) سورة الأعراف : ١٧٥- ١٧٦ .

(٢) الحيوان : ٢/١٦ . (٣) الصافات : ٦٤-٦٥ .

أهل الطعن والخلاف ، فكيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه "(١) ويقول في موضع آخر " وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهته وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك "(٢).

وقد أطلق الجاحظ على الآية مثلاً ، وهي من التشبيه الصريح باتفاق الجميع ، لأنه لا وجه لأن تعد تمثيلاً .

ويستحسن الجاحظ صور التشبيه التي برع فيها أصحابها براعة عدتهم من السابقين إلى المعاني ،فهو يذكر قول بشار :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا   وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُه

وقول عمرو بن كلثوم في الغرض نفسه :

تَبْنِي سَنَابِكُهم من فوقَ أَرْؤُسِهِم
سَقْفاً كَواكِبُه البِيضُ المَبَاتِيرُ

ثم يقول " وهذا المعنى قد غلب عليه بشّار ، كما غلب عنترة على قوله :

فَتَرَى الذُّبَابَ بِهَا يُغَنِّي وَحْدَهُ   هَزِجاً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
غَرِداً يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ   فِعْلَ المُكِبِّ على الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

فلو أنَّ امرأ القيس عَرَضَ في هذا المعنى لعنترة لافتضح "(٣).

---

(١) الحيوان : ٦/٢١٢ .
(٢) الحيوان : ٤/٣٩ .
(٣) الحيوان : ٣/١٢٧ .

يدل كلامه هذا على قضيتين : الأولى مكانة بشار من الفضل في هذا المعنى ، على الرغم من كثرة توارد الشعراء عليه ،وقد وضعه أمام بيت عمرو بن كلثوم ،وهو شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات وجياد المعاني ،ولكن الجاحظ كان ذا حس بلاغي قادر على التعرف على أنماط الكلام ومراتبه ، قد استجاد قول بشار.

وهذا البيت من الشعر هو الذي قال فيه بشار " ما قرّبي القرار مذ سمعت قول امرئ القيس " كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً " حتى صنعت " كأنّ مُثارَ النقع فَوْقَ رؤوسنا "(١) . وكلام بشار هذا يتضمن نقطتين ،الأولى استحسان بيت امرئ القيس جداً ،والثانية حكمه على بيته بأنه غلب بيت امرئ القيس ولهذا قرّ قراره ،وهذا هو ما فهمه الجاحظ وسلم لبشار به ،ودل عليه بقوله "وهذا المعنى غلب عليه بشار".

وهكذا ظل البلاغيون يستحسنون هذا البيت دون الإبانة عن وجه الحسن فيه ،حتى جاء عبد القاهر وبَيّن بالتحليل الدقيق كيف غلب بشار على هذا المعنى بدقة صنعته وإحكام صورته(٢) .

ولم ينل بيت بشار السبق على بيت عمرو بن كلثوم فقط ،إنَّما على كل أقوال الشعراء في هذا المعنى . ولنتأمل بعض الصور لنتعرف على فضل بشار ، يقول المتنبي :

فَكَأنَّما كُسِيَ النَّهارُ بِهَا دُجَى لَيْلٍ وأَطْلَعَتِ الرِّماحُ كَوَاكِبَا(٣)

---

(١) العمدة : ١/٢٩١.

(٢) انظر أسرار البلاغة : ١٥١-١٥٢.

(٣) ديوان المتنبي بشرح العكبري : ١/١٢٨.

ويقول أيضاً :

يَزُورُ الأَعَادِي في سَمَاءِ عَجَاجَةٍ * أَسِنَّتُهُ في جَانِبَيْهَا الكَوَاكِبُ (١)

ويقول مسلم :

في عَسْكَرٍ شَرِقَ الأَرْضُ الفَضَاءُ به * كَاللَّيْلِ أَنْجُمُهُ القُضْبَانُ والأَسَلُ (٢)

انظر إلى كل بيت وتعرّف على صورة التشبيه فيه ثم قارنه بقول بشار تعرف فضل الرجل ، وإذا دققت وجدت هذا الفضل يكمن في كلمة " تهاوى " حيث أفصحت عن شيء لم تفصح عنه هذه الصور اللاحقة ، وهو الحركة في هذه الصورة وقد وقف عبد القاهر كثيراً عند هذه اللفظة .

والقضية الثانية التي أرادها الجاحظ هي أن أبيات عنترة في وصف الذباب تشبه أبيات بشار من حيث السبق إلى الصورة ، فعنترة قد أحسن الوصف وأجاد . ويلاحظ أن هذا التشبيه الذي استحسنه الجاحظ يشارك بشاراً في ملاحظة الحركة التي عليها المشبه ، وكما أن فضل بيت بشار إنّما كان بكلمة " تهاوى " فكذلك فضل كلام عنترة ربما يرجع إلى كلمة " هزجاً " التي هي وصف لحال المشبه ، وكيف لاحظها الشاعر حين ذكر " فِعْلَ الشَّارِب " وكذلك قابل قوله في المشبه " يَحُكُّ ذِرَاعَه " بقوله في المشبه به " فِعْلَ المُكِبِّ " .

وحين تنظر إلى تعليقات الجاحظ من زاوية أخرى تجدها تدل على أن هناك معانٍ يقع عليها بعض الشعراء ويحوزونها وينفردون بها ، وكل من يأتون بعدهم يكونون تبعاً لهم وعيالاً عليهم ،

---

(١) المصدر السابق ١/١٠٧ .
(٢) ذكره العكبرى وهو يشرح قول المتنبي (فكأنما كسى النهار) ١ : ١٢٨ .

وهذا باب من أبواب الأدب لم يندفع إليه الباحثون بالقدر الكافي بعد فليست عندنا دراسات محدده تحدد إبداع الشعراء في أبواب المعاني فنقول مثلاً إنّ فلاناً هو أول من كشف عن هذا المعنى كما قالوا إنّ عنترة هو أول من شبه الذباب بالشارب المترنم ،وإن امرأ القيس أول من قيد الأوابد ،وأول من شبه الثغر في لونه بشجر السيال وأول من شبه الخيل بالعصا واللقوة والسباع(١).

ويذكر الجاحظ أبيات عنترة مرة ثانية وهو يتحدث عن قضية الأخذ عند الشعراء ،فيقول إنّ عنترة تقدم في هذا المعنى ، ومن رام الأخذ منه أو تقليده ساء طبعه ،وفسد شعره وكأن الشاعر في بعض حالاته ينفذ إلى لب المعنى ومحضه ويحوزه بعبارة هي من لب الكلام ومحضه ،ويكون هذا هو الشأو والغاية التي ليست وراءها غاية في هذا الباب ، فلا يغلبه أحد فيه . وعنترة وصف فأحسن ،وشبه فأجاد ، حتى إن الشعراء بعد أن عرفوا بسبقه إلى هذا المعنى تحاموه وأعرضوا عن التشبيه بمثل هذه الصورة ،أو بما يقاربها . وإدراك ذلك يتحقق بتفلية الشعر الجاهلي ثم شعر المحدثين عن مثل هذه الصورة ،أو ما يشابهها ،ثم دراستها وبيان قيمتها أمام أبيات عنترة. ويذكر حازم القرطاجني أن ابن الرومي قد تعرض لمعنى عنترة هذا فعيب عليه ذلك ، ولم يُقبل معناه . قال يصف الروض:

وَغَرِدَ رَبْعِي الذُّبَابِ خِلَالَهَا ... كما حَثْحَثَ النَّشوانُ صنجاً مُشرعا

فَكَانَ لهَا زَنْجُ الذُّبابِ هُنَاكم ... على شَدَواتِ الطَّيرِ ضَرْباً مُوَقَّعا

---

(١) انظر الشعر والشعراء ،ابن قتيبة: ١/ ١٣٤-١٣٩.

ثم يدافع حازم عن أبيات ابن الرومي فيقول "إن ابن الرومي قد نحا بالتشبيه نحواً آخر وزاد في المعنى ، إلَّا أن ذلك دل على تقصيره ولم يوصله إلى بيت عنترة ".(١)

ويذكر الدكتور منصور عبد الرحمن في كتابه " مصادر التفكير النقدي والبلاغي عند حازم " أن القرطاجني قد قلد عنترة في مثل أبياته في مقصورته حين يقول :

أَلقى ذراعاً فَوْق أخرى وَحكَى تكلف الأَجْذَم في قَطْع السَنا

كأنَّما النور الذي يقرعــــه مقتدحاً لزنده سَـــقط ورى

فهو أيضاً لم يسلم من العيب الذي عيب به ابن الرومي.(٢)

وقد سمى ابن رشيق مثل هذه التشبيهات " بالتشبيهات العُقم "،(٣) وهو يتفق مع الجاحظ حين يقول " لم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة ".(٤)

يقول الجاحظ " ولا يعلم في الأرض شاعر تَقدّم في تشبيه مُصيب تام ، وفي معنًى غريبٍ عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مُخْترع ، إلا وكُلُّ من جاء من الشُّعراء من بعده أو معه إن هو لم يَعْد على لفظه فيسرق بعضه أو يدّعيه بأسره فإنّه لا يَدَعُ أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه ، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال إنّه

---

(١) منهاج البلغاء : ١٩٥. (٢) ص : ٢٢٢.

(٣) انظر العمدة : ٢٩٦/١. (٤) الحيوان : ٣١٢/٣.

خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الأول هذا إذا قرّعوه به إلاّ ما كان من عنترة في وصف الذباب ، فإنّه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم ،ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه ،أنّه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر".(١)

والكلام على طوله يبين أهمية ما تلقي به القرائح من فرائد المعاني ، خاصة الأبيات التي تحمل صورة فنية لم تتكرر في تاريخ الشعر ، وإن كان ينقصنا أن يكون هذا بيناً لنا في أدبنا كله .

وهكذا رأينا اختلاف أبيات عنترة عن بيت بشار ، فعنترة قد استقصى المعنى ولم يبق منه شيئاً ،لأنه معنى غير رحب ولا ثرى ، وذلك بخلاف معنى بشار ،ففرق بين " غناء الذباب " و " زحف الجيش" فالثاني أغزر وأرحب ،ويتحمل توارد الصور بخلاف الأول ،

وبعد أن يذكر الجاحظ أبيات عنترة عقب حديثه عن أخذ المعاني يقول : " يريد فعل الأقطع المكبّ على الزّناد ، والأجذم المقطوع اليدين ، فوصف الذباب إذا كان واقفاً ثم حك إحدى يديه بالأخرى فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين يقدح بعودين ،ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ، ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة".(٢)

والجاحظ هنا يحلّل المثل ويبين طريقة وضع المشبه بإزاء المشبه به ،ويشرح جوانب الصورة وعناصرها ،وإصابة الشاعر في اقتناصه

---

(١) الحيوان : ٣ / ٣١١ - ٣١٢ .
(٢) المصدر السابق: ٣ / ٣١٢ .

لهذه الهيئة ، وضبط جهة التشبيه ، وتفصيل عناصره ،وندرة وجودها في الواقع . وفي قوله " لم أسمع في هذا المعنى ... " لفتة لـم تتسع لها الدراسة البلاغية كما ينبغي وهي الإشارة إلى الصور المشابهـة للصورةالمدروسة ،وجمعها ،وعقد الموازنة بينها للوقوف على دقائق الفروق ،ومواطن الاستحسان ، وقد قلب الجاحظ - رحمه الله - الشعر ،ورأى الصور المشابهة لصورة عنترة تبعد عنها في الحسن فلم يرضها ،فعرف فضله .

وكذلك حلّل الجاحظ طريقة قيام المثل في آية * فمثله كمثل الكلب إنْ تَحْمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ... * فلاءم بين طرفي التشبيه ، راداً على من قال إن الصورة لا تضرب مثلاً لهـذا الغرض ، واضعاً كل عنصر تجاه ما يشبهه من الآية . يقول: " فليس ببعيد أن يشبّه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات ، في بدء حرصه عليها وطلبه لها ،بالكلب في حرصه وطلبه ، فإنّ الكلب يعطي الجدّ والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ،وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ، ورده لهابعد الحرص عليها ،وفرط الرغبة فيها ،بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له ،وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها ، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً إليك ومدبراً عنك ، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش".(١)

فالجاحظ كان كثير العناية بالصور المركبة التي تتعدد عناصرها وأجزاؤها ،وكثير الاهتمام بالملاءمة بين طرفيها ليتضح وجه الشبه كما في الآية وأبيات عنترة. وكأنه لون خفي من الإحساس بتميز هـذا

---

(١) المصدر السابق ٢/١٦ - ١٧ .

النوع الذي أسماه المتأخرون تمثيلاً ، وهذه هي التي نبحث عنها وهي واضحة وضوحاً لا يلتبس ، فلا شك أن الصور المركبة كانت موضع عناية الجاحظ بشكل ظاهر.

وقد ذكر الجاحظ أصولاً في التشبيه يشترك فيها التشبيه الصريح والتمثيل على حد سواء ، سبق بها الجاحظ ، وأخذها عنه البلاغيون ، فيذكر أن تشبيه الشيء بالشيء لا يعني أنه يشاركه في كل الصفات ، إنما يكون الشبه من جهة وقوع الاشتراك في صفة أو صفات تجمع بينهما ، مع بقاء كل على هيئته الخاصة ، لا تخرج عن حدوده وصفاته إلى الطرف الآخر . يقول الجاحظ : " وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس والغيث والبحر وبالأسد والسيف وبالحية وبالنجم ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان ، وإذا ذموا قالوا : هو الكلب والخنزير ، وهو القرد والحمار ... ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم ولا يخرجون بذلك الانسان الى هذه الحدود وهذه الأسماء ..." (١)

وفي هذا النص إشارة إلى الأشياء التي شبه العرب بها ، مما يحيط بهم من مظاهر الكون وما يقع تحت أبصارهم ، وفيه طرق باب دراسة المشبهات بها من حيث معرفتها معرفة مستوعبة ، ورصد منازعها التي انتزعت منها . وهذا ما سأؤسس عليه بحث عناصر التمثيل في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم - إن شاء الله -.

والجاحظ تتبع تشبيهات العرب للمرأة في الشعر فوجدها تدور حول مدارات متعددة يقول " سمّوا الجاريةَ غزالاً وسمّوها أيضاً خِشْفاً

---

(١) المصدر السابق ١/٢١١.

ومُهْرة وفاخِتةً وحمامةً وزهرةً وقضيباً ،وخيزرانا على ذلك المعنى ، وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب فذكروا الأسد والثور والحمل والجدي والعقرب والحوت ،وسموها بالقوس والسنبلة والميزان وغيرها"(١).

وكلامه هذا يُعد نواة لدراسات جادة ، تهدف إلى وضع معجم تشبيهي في كل باب من أبواب المعاني ، لنتعرف فيه على المجالات والسياقات التي جاء فيها التشبيه ،ثم التعرف على العناصر التي أُستمد منها التشبيه وتنوعها ، وطريقة تركيبها ،وما تحمله من إيحاءات تفيض على المعنى الذي عبر بها عنه ، وبيان أثر البيئة وأحوالها على هذه الصور عند شعراء العصر الواحد على حده ، وليس علينا في إتمام المعجم التشبيهي للعصر الجاهلي إلاّ استقصاء تشبيهات كل شاعر فندرس معجم تشبيهات طرفه ... ولبيد ... وزهير وهكذا سائر شعراء الجاهلية ثم نجمعها ليتكون لنا معجم تشبيهات العصر ، وإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي واستقصينا التشبيهات التي دارت أمكننا أن نحدد بعد ذلك الخطوات التي خطاها بيان العربية في هذا الباب ،فنعرف أول من شبه بكل عنصر ومن تبعه في ذلك والزمن الذي ظهر فيه كل عنصر .. وهكذا يكون لكل صورة ما يشبه التاريخ الذي يحكي سيرتها نشأة وذيوعاً (٢).

ونعود إلى الجاحظ فنقول : كما أنه اهتم بما يشبه به العرب ، أيضاً أهتم باستخدامات العنصر الواحد في تشبيهات مختلفة ، فالفرس يشبه بالنعامة في صفات كثيرة في طول وظيفيها ،وقصر ساقيها ،وعُرى نَسيَيها .

---

(١) المصدر السابق : ٢/ ٢١١ .

(٢) انظر مقدمة التصوير البياني ،د . محمد أبوموسى : ٨ - ٩ - ١٠ .

وبالكلب من جهة هرات شدقه ،وطول لسانه ،وكثرة ريقه ،وهو في هذا ينقل كلام أبي عبيدة".[١]

ويذكرفي مواضع متفرقة من كتابه الحيوان تطبيقاً لذلك ، فيذكر أشعاراً في تشبيه القدر بالنعامة ،وتشبيه الغيوم بالنعامة أوالسحاب بالنعامة ومشي الشيخ بمشي الرئال ، وتشبيه الناقة بالظليم[٢] ، وهذا لو تأملناه كلام جيد ، وقد وعاه عبد القاهر واستمد منه قوله في مزايا التمثيل ،ودلالته على قدرة الشاعر على اقتناص المعاني المتعددة من الشيء الواحد . يقول عبد القاهر " وإنّه ليأتيك من الشيء الواحد بأشباه عده ، ويشتق من الأصل الواحد أغصاناً في كل غصن ثمرة على حدة "[٣] انظر إلى هذه العبارة الأخيرة وتأمل كيف تستخرج من الحقيقة الواحدة جملة من الحقائق كل منها متميزه و مختلفة (ثمره على حده) .

---

(١) انظر الحيوان : ١/ ٢٧٥- ٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق : ٤/ ٣٣١- ٣٥٠ - ٣٥٣ - ٣٥٦- ٣٦٦ .

(٣) أسرار البلاغة : ١١٤- ١١٥ .

ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)

لابن قتيبة فصل في "حُسن التشبيه في الشعر" في كتابه "عيون الأخبار"، لم يتنبه إليه كثير من الدارسين، يذكر فيه مايستحسنه من تشبيهات العرب، فكان أحياناً يشرح التشبيه ويحلله، وحيناً آخر يذكر الشواهد المستحسنة فيسكت عنها. ومن المؤكد أن موقفه هذا يُبنى على أصل للحسن اعتبره في نفسه.

وقد رأينا أن نقف عند كل صنف لنتبين وجوه الاستحسان عنده، وهل فيها ما يختص بالتمثيل أم لا.

كان ابن قتيبة حفياً بالتشبيهات المركبة، كلفاً بالوقوف عند هيئة المشبه به، وهذه مهمة جداً فيما نحن فيه، فيذكر قول ابن الزبير الأسدي في الثريا :

وَقَدْ لاَحَ في الغَوْرِ الثّريا كأنّما   بهِ رَايةُ بَيْضاءُ تَخْفِقُ لِلطَّعْنِ

و يقول " شبه الثريا حين تدلت للمغيب براية بيضاء خفقت للطعن"(١)

عد ابن قتيبة هذا البيت من حسن التشبيهات على الرغم من كثرة تشبيه الشعراء الثريا وأحوالها، واختلاف أذواق أهل العلم في الاختيار، فمثلاً يستحسن المبرد قول امرئ القيس في الثريا :

إذَا ما الثُّرَيا في السماءِ تَعَرَّضَتْ   تَعَرُّضَ أثنَاءِ الوِشاحِ المفصَّلِ

يقول " وقد أكثروا في الثريا فلم يأتوا بمن يقارب هذا المعنى، ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ "(٢)

---

(١) عيون الأخبار م٢/ ١٨٦ .   (٢) الكامل: ٣/ ٣٢ .

فامرؤ القيس شبه الثريا في حالة تعرضها ، واعتبر التفصيل في هيئة الوشاح ، وابن الزبير يشبه الثريا حين تلوح في الغور وهو المكان المنخفض البعيد براية بيضاء عبث بها الريح فظلت تخفق وتضطرب فتختلف جهاتها . فهو قد لاحظ أكثر القيود والاعتبارات في هيئة المشبه ،فصورها في هيئة المشبه به ، لاحظ بياض الثريا فشبهها بالراية البيضاء ،ثم لاحظ تلألؤ نورها واختلافه بين الضعف والقوة ، فاشترط في الراية أنها تخفق للطعن ،وبمراعاة كل هذه القيود تكونت صورة المشبه به المركبة التي حسن بها التشبيه .

ومن التشبيهات المستحسنة عند ابن قتيبة لتركيب هيئة المشبه به فيها قول عنترة :

وخلا الذُّبَابُ بها فليسَ بِبَارِحٍ   هَزِجاً كفعْلِ الشاربِ المُتَرَنِّمِ

غَرِداً يَحُكُّ ذِرَاعَه بِذِرَاعِهِ   فِعْلَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأجْذَمِ

يقول " شبه حكة يده برجل مقطوع الكفين يقدح النار بعودين" (١)

فهو يشرح كيفية مجيء صورة المشبه به ، وكيفية إنضمام العناصر التي تكوّن الصورة ،وابن قتيبة كان صاحب ذوق حي ودقيق ، استحسن هذه الأبيات التي استحسنها كثير من البلاغيين ،وظلت من أهم شواهدهم على اختلاف العصور ، وقد عدها ابن رشيق من أفخم التشبيهات وأعظمها وسماها بالتشبيهات العُقم التي لا تتكرر . وقال عنها ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء وهو يتحدث عن عنترة إن هذا التشبيه " مما سبق إليه ولم يُنَازَعْ فيه " (٢)

---

(١) عيون الأخبار،م٢ / ١٨٦ .   (٢) جـ١ / ٢٥٩ .

وفي كلامه السابق يبين بعض أسباب الإجادة ،فهو يقول إن عنترة شبه الذباب في الروض في حالة حكه يده بيده بهيئة الرجل ، وهذا الرجل مقطوع اليدين ، ثم إنه يقدح النار ويعودين ، وهذه كما نرى هيئة مركبة ، تتكون من عدة عناصر تم التشبيه بها ، وابن قتيبة في تحليله هذا يخطو نحو الكشف عن أسرار حسن هذه التشبيهات التي قال بها العلماء ، فهو هنا يحلّل الأحداث المركبة .

ويستحسن ابن قتيبة بيت امرئ القيس المشهور ، الذي أجاد فيه ،وانفرد به :

كأنَّ قلوبَ الطَّيرِ رَطْباً ويابساً　　لدَى وكرِهَا العنَّاب والحَشَفُ البالي

يقول فيه " شبَّه الرطب بالعناب ، واليابس بالحشف ،وشبه شيئين بشيئين في بيت واحد "(١) فكأنه بقوله هذا قد فطن إلى أن الحسن راجع إلى حسن الترتيب . وتعليقه هذا يشبه تعليق الجاحظ على هذا البيت في كتاب الحيوان حيث يقول " ولم نر في التشبيه كقوله حين شبه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين في بيت واحد "(٢) . إلا أن قول ابن قتيبة يزيد زيادة يسيره في قوله " شبه الرطب بالعناب واليابس بالحشف " وهي شرح لقوله " شبه شيئين بشيئين " .

ونحن في هذه المرحلة لا بد أن نرصد مثل هذه الزيادات مهما كانت يسيره ،لأنها تفسر لنا طريقة نموحقائق العلم .

ويستحسن التشبيهات التي تكون صورة المشبه به فيها بعيدة خفية لا تحضر إلى الذهن عند سماع المشبه ،وتحتاج في معرفة

---

(١) عيون الأخبار ٢/١٨٧ .　　(٢) الحيوان : ٣/٥٢ .

جوانبها إلى تأمل ونظر . ويذكر قول أعرابي في العنب :

يَحْمِلن أوعِيَةَ السُّلافِ كأنَّما   يَحْملنَهَا بأكَارِعِ النِّغْـــرَانِ

ويقول " أوعية السُّلاف : العنب جعله ظرفاً للخمر ،وشبه العناقيد التي تحمل الحب بأرجل النغران "(١) يشبه الشاعر العناقيد في تشعب فروعها ،واختلافها بين الطول والقصر ،والإتجاه نحو نواحي مختلفة بهيئة أرجل النغران ،وأرجل النغران لا يفطن إليها إلاَّ شاعر له بصر نافذ ، وقدرة على دقة الملاحظة فهي بعيدة كل البعد عن عناقيد العنب ،ولكن الشاعر جمع بينهما ،والجمع بين المتباعدات أصل من أصول التشبيه والتمثيل يحسنان به .

وكان يستحسن الصور التي تأتي على خلاف ماشاع وتعورف ، يذكر قول النابغة :

نَظَرَتْ إليْكَ بحاجةٍ لَمْ تَقْضِها   نَظَرَ المَرِيضِ إلى وُجُوهِ العُـــوَّدِ

فيقول : " يقول نظرت إليك ولم تقدر أن تتكلم ، كما ينظر المريض إلى وجوه عواده ولا يقدر أن يكلمهم "(٢) . وقد عاب الأصمعي هذا التشبيه أمام الرشيد لعدم ملاءمته للنفس ،ولبشاعة ذكر المرضى عند ذكر نظرات الصاحبة(٣) . وقد استحسن ابن قتيبة هذه الصورة لغرابتها ،ومجيئها على هذه الهيئة المخالفة.

---

(١) عيون الأخبار م٢/ ١٨٦ ، والنغران : طائر مثل العصفور أحمر المنقار .

(٢) المصدر السابق م٢/ ١٨٩ .

(٣) نضرة الإغريض ، المظفر العلوي : ١٥٦ .

ويرى ابن قتيبة أن التشبيه يقوم أصلاً على إلحاق ناقص بكامل ،وضعيف في الصفة إلى ما هو أقوى منه صفة ،فإذا ما عكس لم يحسن . ويذكر قول الأحمر :

كَأَنَّ نيرانَهم في كُلِّ مَنْزِلَةٍ مُصَبَّغَاتٌ على أرسانِ قَصَّارِ (١)

ثم يقول " الناس يستحسنون هذا ،وأنا أرى أن أقول : الأولى أن يشبه المصبغات بالنيران ،لا النيران بالمصبغات " (٢).

فهو وإن لم يستحسن هذا البيت لكنه يذكره في معرض حديثه عن حسن التشبيه لأنّ الناس قد استحسنوه .

أما الأمثلة والشواهد التي سكت عن بيان وجه الحسن فيها فقد حاولنا تلمس أصل ذلك الاستحسان ، إما من خلال حديثه عنها في كتابه الشعر والشعراء أو من خلال استحسان البلاغيين لها .

فمن الأبيات التي سكت عن الكشف عن مواطن حسنها قول بشار :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فوقَ رُؤُوسِهم وأسيافَنَا ليلٌ تَهَاوَى كواكبُهْ

وقول النابغة :

فإنَّكَ كاللّيلِ الّذي هو مُدْرِكي وإنْ خِلتَ أنَّ المُنْتأى عنك واسِعُ

يقول ابن قتيبة عن بيت بشار في الشعر والشعراء " ومما سبق إليه بشار (٣)

وقد ذكرنا سابقاً كيف أن الجاحظ قد استجاد هذا البيت لسبقه وتفرده في صورة المشبه به ،فابن قتيبة يتفق مع الجاحظ في وجه الحسن .

---

(١) المصبغات : الثياب التي صُبغت ،والأرسان : الحبل ،القصار: الذي يُحَوِّرُ الثياب ويدقّها بالقصْرة وهي قطعة من الخشب.

(٢) عيون الأخبار م ٢/١٩١ . (٣) جـ ٢ /٧٦٣ .

ويقول في بيت النابغة " ومما سبق إليه ولم يُنَازَعه "(١) فبشار سبق إلى قوله هذا ونازعه الشعراء فلم يبلغوا مقداره ،أما النابغة فقد سبق ولم يُنَازعه أحد ، وبهذا البيت حكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النابغة بأنه أشعر شعراء غطفان (٢) ،وذلك لأن النابغة قد شبه بالليل من جهة أمر غير معروف أعني غير متعارف على التشبيه به عند ذكر الليل ،فالأصل في الليل الظلمة والسواد ، وهنا شبهه من جهة البسط والإتيان على كل شيء ، ولذلك فالنابغة قد سبق إلى هذا المعنى . أما قول ابن قتيبة " ولم يُنَازَعه " فيعني أنه لم يشبه شاعر قط الليل من هذه الجهة ،فالشعراء يشبهون الليل عادة من جهة الظلمة والسواد ولذلك لم يحاول أحدهم منازعة النابغة في التشبيه بهذا الوجه .

ويستحسن ابن قتيبة قول الطرماح :

يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ البِلَادُ كَأَنَّهُ ... سَيْفٌ عَلى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُغْمَدُ

يذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء أن الطرماح قد أحسن في هذا البيت ، وقد سبقه النابغة إلى هذا المعنى ، لكنه لم يحسن فيه .

يقول النابغة :

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُوشَىٍّ أَكَارِعُهُ ... طاوى المَصِير كَسَيْفِ الصيقل الفَرَدِ (٣)

---

(١) الشعر والشعراء : ١/ ١٧٧ .

(٢) انظر المصدر السابق : ١/ ١٦٥ .

(٣) ديوان النابغة : ١١ ، وجره : اسم مكان مشهور بين مكة والبصرة الأكارع : القوائم ، طاوى المصير : ضامر المصران (البطن) الصيقل الفرد : كالسيف اللامع المميز ، الشعر والشعراء : ١/ ١٧٦ .

وقد استحسنه الأصمعي كذلك وقال " إن فيه استعارة لطيفة في قوله تُضْمِرُه ،وشبه شيئين بشيئين في قوله يبدو وتضمره ،ويُسل ويُغمد وهو طباق حسن ، وفي البيت حسن التفسير وصحة المقابلة "(١).

ففي البيت وجوه متعددة من الحسن ، هي استعارة الإضمار للخفاء، والطباق، و تفسير المعنى بالتشبيه ومقابله جملتين بجملتين (يبدو وتضمر - يسل ويغمد) ثم إنّ النابغة قد راعى حركة الجرى في قولـــه : يبدو وتضمره أي يظهر ويختفي.ويستحسن ابن قتيبة قول عدي بن الرّقاع :

تُزْجِي أَغَنّ كَأَنّ إِبْرَة رَوْقِهِ قَلَمُ أَصَابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَهَـــا

يقول ابن قتيبة في هذا البيت في كتاب الشعر والشعراء أن عدياً أحسن من وصف الظبية بأبيات منها هذا البيت(٢) . وقصة عدي مع جرير حول هذا البيت مشهورة ،ذكرها عبد القاهر وغيره ،وتقول أن عدياً أنشد جريراً قصيدته :

" عرفَ الديارَ توهماً فاعتَادَهَا "

فلما بلغ : تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنّ إِبْرَةَ رَوْقِــــه

قال جرير : رحمته وقلت ما عساه يفعل وهو أعرابي جلف جاف ، فلما قال : " قلم أصاب من الدواة مدادها" استحالت الرحمة حسداً ،لأنّ عدياً قد أتى بمشبه به لا يتأتى إلى الذهن منذ الوهلة الأولى(٣) ، فهوقد شبه إبره الروق تشبيهاً احتوى كل صفاتها ،وهذا لم يصل إليه جرير في قوله وهو يصف أذن الخيل :

---

(١) نضرة الإغريض ، المظفر العلوى : ١٥٧-١٥٨.
(٢) انظر الشعر والشعراء : ١ / ٦٢٢.
(٣) انظر أسرار البلاغة : ١٣٢.

يَخْرُجْنَ مِنْ مُسْتَطِيرِ النَّقْعِ دَامِيَةً كَأَنَّ آذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلَامِ

وقول عدي متولد من قول جرير (١) . فابن قتيبة استحسن ما استحسنه البلاغيون في قول عدى ،لأنّ صورته من الصور البعيدة التي لا تدخل في حيز المشبه ،ثم إصابه الشاعرفي إحداث الإتفاق بين هذه المتباعدات.

وهكذا تتنوع أصول الاستحسان عند ابن قتيبة ، ولا نجد له إحساساً بالتمثيل ولكن حسبه أن يقدم لنا جملة من الشواهد تحت عنوان "محاسن التشبيه" ثم نراجع هذه الشواهد فنجد أكثرها من التشبيه المركب. ويبلغ عدد الشواهد التي ساقها ستة وعشرين شاهداً ،المركب منها ثمانية عشر بيتا أو أكثر ، وهذا موءشر واضح يدل على أهمية التركيب ، وتميز صوره .

وإذا نظرنا إلى جهد ابن قتيبة في هذا الباب من زاوية أخرى نراه ينبهمّ بعده إلى تحليل هذه الشواهد ،واستخراج أصول الاستحسان منها لأنّ استحسانه أياها يعني أنها منطوية على علل لهذا الاستحسان ، وقد كان أهل العلم في زمن ابن قتيبة وفي الزمن الذي بعده ولا يزالون يقولون إن كل استحسان لا بد له من علة ، وكل هذا مما يجب أن يعتبره من يبحث في تاريخ المسألة العلمية، وكيف كانت تتنامى ، وقد يكون هذا التنامي بطيئاً جداً لا يعدو إضافة جملة واحدة في بعض الحالات .

---

(١) انظر العمدة ؛ ١/ ٢٦٤ .

المبرد (ت ٢٨٥هـ)

عقد المبرد دراسة طويلة عن التشبيه في كتابه الكامل ، حشد فيها كثيراً من التشبيهات استحسنها ، ولم يكن المبرد يفرق بين التشبيه الصريح والتمثيل ولذلك فهو يسمي التشبيه تمثيلاً ، فيقول مثلاً " ومن تمثيل امرئ القيس العجيب قوله (١) :

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وأَرْحُلِنَا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ

ويقول في قوله تعالى ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ " إنما يمثل الغائب بالحاضر ورؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها " (٢) فالآية من باب التشبيه الصريح وقد أطلق عليها تمثيلاً ، وكان يهتم كثيراً بالجانب اللغوي والنحوي وهو يشرح الأبيات ويوضحها ، ولذلك فإنّ أحكامه النقدية كانت قليلة ومبهمة فيقول : ومن حسن التشبيه ... ومن عجيب التشبيه ... ومن التشبيه المصيب ... ومن التشبيه المستحسن ، فلا نعرف متى يتحقق العجب ؟ وكيف يعيب التشبيه ؟ ... وكيف يستحسن ؟ .. وما هو مقياس الإصابة والحسن ؟ ... ، ومثل هذه الأحكام يصعب تحديد المراد منها على وجه التحقيق والتأكيد ، لأنها تتداخل تداخلاً يزيل الفروق . وعلى كل حال فهذا كله يعد مادة حسنة للنظر والمدارسة والاستخلاص .

وقد بدأ المبرد بتشبيهات القدماء ثم المحدثين ، وأكثر من ذكر تشبيهات امرئ القيس ، وذي الرُّمة في العصر الإسلامي ، والشماخ

---

(١) الكامل : ٣٢/٣ .

(٢) المصدر السابق: ٩٣/٢ .

في الأموي . وهو لا يعدون من أكثر الشعراء تشبيهاً آنذاك ، كما يكثر من تشبيهات الحسن بن هاني من تشبيهات المحدثين . وكان يرى أن التشبيه باب واسع ، اقتطف منه ما رآه حسناً فهو يقول " والتشبيه كثير ، وهو باب كأنّه لا آخر له وإنّما ذكرنا منه شيئاً لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني (١) ويقول " والتشبيه جار كثير في كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم ، لم يبعد (٢) .

ويقول : " والتشبيه من أكثر كلام الناس " (٣).

وفي كلامه هذا لفت لأهل عصره بضرورة دراسة هذا الفن ، وأنه من أهم أصول الكلام ، وأكثره في كلام العرب . وانظر إلى قوله كثير في كلام العرب ثم قوله من أكثر كلام الناس وقوله وهو باب كأنه لا آخر له .

ويقسم المبرد التشبيه إلى أربعة أقسام : مفرط و مصيب ومقارب وبعيد . وهذا التقسيم قائم على مدى مطابقة المشبه به للمشبه ، فالمفرط هو ما كان المشبه به مبنياً على المبالغة ، مثل هو أندى من البحر وأشجع من أسامة .

والمقارب اشتراك الصورتين في أكثر من صفة . والبعيد تشبيه الشيء بما لا يصح التشبيه به كقول المتنبي : (٤)

بل لوَ رأتني أختُ جِيرَانِنَا إذ أنَا في الدار كأنّي حِمار

---

(١) الكامل : ٣ / ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق : ٣ / ٩٣ .

(٣) المصدر السابق : ٣ / ١٢٢ .

(٤) المصدر السابق : ٣ / ١٢٢ .

فقد شبه نفسه بالحمار في القوة والصلابة ،وهذا بعيد عن الأغراض التي يُشبَّه بها الحمار عند العرب ،لأنّ العرب تُشَبِّه بالحمار في معرض الغفلة والبلادة.

حين نتأمل جملةالتشبيهات في دراسته نلاحظ أن أكثر اختياره واقع على التشبيهات المركبة ،والتي تضاعف التشبيهات المفردة .
وكانت للمبرد أحكام على بعض صور التشبيه تنبيء عن اهتمامه بهذا النوع فيذكر أبياتاً يحسبها لتوبه من الحُمَيِّر تقول :

كَأَنَّ القَلْبَ ليلةَ قيلَ يُغْدَى ... بِلَيْلى العامِرِيَّة أو يُـراحُ

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَـتْ ... تُجَاذِبُه وَقَدْ عَلِقَ الجنـاحُ

لها فَرْخَانِ قَدْ غُلِقا بِوَكْـرٍ ... فَعُشُّهُمَا تُصَفِّقُهُ الرِّيـاحُ

فلا بالليلِ نَالَتْ ما ترجّي ... ولا بالصبحِ كان لها بَـراحُ (١)

ثم يقول " وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقدار"

يريد المبرد أنه كثر تصوير الشعراء لوجد النفس وألم الفراق يوم الرحيل بصور متعددة مختلفة ، متفاوتة في الحسن ، ولكن الشاعر هنا بلغ غاية ومقداراً لم يبلغوه فقد شبه حالته يوم رحيل ليلى بقصة هذه القطاة ، التي هي رمز للحب والوفاء والحنين والضعف ، شاء القدر أن تقع في شباك صائد ،ثم كُثّفت الصورة بذكر الفرخين اللذين هما في غاية الضعف والعجز وقد تركتهما في وكر ، أخذت الريح الشديدة تصفقه ، وتحاول انتزاعه ،فاجتمعت بذلك كل عناصر القوة والرهبة من شباك وليل وظلمة وريح ،واحيطت بعناصر

---

(١) المصدر السابق ٣٨/٢ .

الضعف والعجز من قطاة وأفراخ ، وهكذا يُدْخل الشاعر عنصر الأمومة ليزيد من إيحاءات الصورة وشجنها ، ثم يتدسس الشاعر في فؤاد هذه القطاة ليعرف أدق خلجاتها . والمبرد لم يقل مقولته هذه إلاّ عندما لمعت هذه الصورة بسخائها وفيوضاتها في نفسه ، وكان أيضاً على علم بتصويرات الشعراء لهذا الموقف لكنه لم يجد الاستيعاب التام والتأثير الشديد ، لأنهم لم يبلغوا المقدار ودراسة مثل هذه الأغراض والتعرف على العناصر التي بث فيها الشعراء أشجى ما في نفوسهم من الموضوعات الثرية التي تفتح باباً للتعرف على أخصب ما في أدبنا من صور (١) .

ويذكر المبرد قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (٢) ثم يقول : " في أنهم قد تعاموا عنها ، وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها ، حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها " (٣) فأبان عن أكثر عناصر المشبه به وهي هيئة تشمل الحمار والأسفار وجهلهم بما فيها ، كما أنه قابل بين الهيئتين اللتين كونتا التشبيه .

وكان المبرد كثير الاحتفاء بالهيئة المركبة التي يبرز فيها عنصر الحركة ، فيذكر أن ما هو مطرد عند العرب تشبيه سير الناقة ، وحركة قوائمها ، فيذكر شواهد متعددة تبرز عنصر الحركة فيها من ذلك قول الراجز (٣) :

كَأَنَّهَا لَيْلَةَ غِبِّ الأَزْرَقِ ... وقد مَدَدْنَا بَاعَهَا لِلسُّوَقِ

خَرْقَاءُ بين السَّلَمَيْنِ تَرْتَقِي

---

(١) انظر التصوير البياني ، د . محمد أبو موسى : ٦ .

(٢) سورة الجمعة : ٥ .

(٣) الكامل ، ٣ / ١٣٢ .

(٤) المصدر السابق ، ٣ / ١٠٢ .

ثم يقول المبرد " يقول استفرغناماعندها في السَّير ، يقال : تَبوَّعَتْ و انْبَاعَتْ إذا مَدَّتْ بَاعَها وقوله " خرقاء بين السلمين ترتقي " يقول : لكثرةِ حركةِ الخرقاء ،وقلةِ حذْقها بالصُّعود ".(١)

ويذكر المبرد أيضا قول الشماخ في وصف حركة قوائم الناقة :(٢)

كَأَنَّ ذِرَاعَيها ذِراعا مُدِلَّةٍ ... بُعَيْدَ السِّبابِ حاوَلَتْ أنْ تَعَذَّرا

مِن البِيضِ أعطافاإذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ ... فِرَاسَ بنَ غَنْمٍ أو لَقِيطَ بنَ يَعْمُرا

بها شَرَقٌ من زَعْفَرانٍ وعَنْبَرٍ ... أطارَتْ من الحُسْنِ الرِّدَاءَ المُحَبَّرا

تقولُ وَقَدْ بَلَّ الدموعُ خِمارَها ... أبَى عِفَّتِي ومَنْصِبي أن أُعَيَّرا

كأنَّ بذِفْرَاهَا مَنَادِيلَ فَارَقَتْ ... أكُفَّ رجالٍ يَعْصِرُونَ الصَّنوْ بَسْرَا(٣)

ثم يقول " شَبَّه يديها بيَدَيْ مُدِلَّةٍ بجمالٍ ومنصبٍ قد سابَّتْ وأقبلتْ تعتذرُ وتشيرُ بيديها فوَصَف جمالَها الذى به تُدِلُّ ،وَمَنْصبَها المتصلَ بمن ذَكَرتْهُ ".(٤) ثم يذكر المبرد أبياتاً أخرى تقول :

كأنَّ ذراعيها ذراعَا بَذِيَّةٍ ... مُفَجَّعَةٍ لاقَتْ خَلائِلَ من عَفْر

سَمِعْنَ لها واستفرغتْ في حديثها

فلا شيءَ يَفْرِي باليدَيْنِ كما تَفْرِي

---

(١) عَبُّ الأزْرَقِ : موضع ماء ، مددناباعها للسوق : استفرغناماعندها من السير .

(٢) الكامل ؛ ٣/١٠٣ .

(٣) بُعيد السباب : أي في عقب المسابة قامت تعتذر إلى الناس، البيض : جمع بيضاء أي نقية العرض من الدنس ،الاعطاف : الجوانب ، اتصلت : انتسبت ،فراس : رجل عزيز ،وغنم : ابن تغلب ، أي أنَّها شريفة النسب ، شَرَقٌ : صبغ ،أُطارت : رمت المحبر : المزين .

(٤) الكامل ؛ ٣/١٠٣ .

ويقول " ولو قيل إنّ هذا من أبلغ ما قيل في هذا الوصف ماكان ذلك بعيداً . وَصَفَهَا بأنها بَذِيَّةٌ ، وقد فُجِعَتْ بما أُشْمِتَتْ ونِيلَ منها ولقيتْ خلائلها بعدَ زمانٍ وتلك الشكوى كامنة فيها ، وأَصْغَيْنَ لها فتسمَّعن "(١) .

وسنحاول أن نبين سبب استحسانه لهذا الوصف ،ووجه قوله بأبلغيه هذه الصورة . وقد أحسن الشاعر حين شبه ذراعي الناقة بذراعي امرأة بذيه أي أن في لسانها فحش ، وبذاء ،وهي لا تهجع ليلها من هذرها ، ثم هي مفجّعة وناهيك عن بذيّة فُجِعَتْ ، لاقت خلائلها وهذا أدعىٰ إلى أن تستخرج كل طاقتها في الحديث وحركة اليدين ،ثم إن الشاعر هنا ذكر شيئاً فطن إليه المبرد ، وهو قوله " واستفرغت في حديثها " أي تجردت للحديث وانصبّت فيه وأفرغت ، قال المبرد " لاقت خلائلها بعد زمان وتلك الشكوى كامنةفيها " فذكر بذلك داعية استفراغها في حديثها ، وتأمل كلام المبرد تجد أنه منصبّ على بيان قوة دوافع الحديث عندها فهي " بذيه ... فجعت ... لقيت خلائلها .. وتلك الشكوى كامنة "ثم إن الشاعر بعدما ألمح إلى قوة دوافع الحديث وحركة اليدين عندها في قوله " مفجعة لاقت خلائل من عفر ... سمعن لها واستفرغت في حديثها .." رتب على ذلك الغاية من كلامه وكأن الذي مضى كان تمهيداً لقوله " فلا شيء يفري باليدين كما تفري " وانظر إلى العموم في قوله " لا شيء " وكيف جعل حركة يديها فوق كل حركة . ثم ارجع إلى بيت الشماخ وتأمل المرأة هناك . هي مدله

---

(١) المصدر السابق ٣/١٠٥-١٠٦ .

بجمالها وبراءة ساحتها وقد نالها سباب من ابن ضرتها إذ قال عليها كلاماً جار فيه وأهجرا ، وهناك أبيات اسقطها المبرد في روايته وهي كما في الديوان :

كَـأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا مُدِلَّةٍ بُعَيْدَ السِّبَابِ حاولتْ أن تَعَذَّرا
مُمَجَّدةِ الأعراقِ قَالَ ابنُ ضَرَّةٍ عليْهَا كلاماً جارَ فيه وأَهْجَـرا
تَقُولُ لها جاراتُها إذ أَتَيْنَهَا يَحِقُّ لِلَيْلَى أن تُعَانَ وتُنْصَرا
يَعُرْنَ لِمبْهاجٍ أزالتْ حَلِيلَهَا غمامةُ صَيْفٍ ماؤُهَا غيرُ أَكْدَرا (١)

تأمل هذه المرأة هي كريمة ذات نسب عريق ، ومن حي عظيم من العرب ثم هي كريمة شريفة من البيض أعطافاً ، والمراد هنا النقاء والطهر والبعد عن المعايب والدنس ، وهي ذات نعمة بها شرق من زعفران ... ، ومثل هذه لا تكون كالأخرى في أنها تستفرغ في الكلام ، وتنصب فيه ، وتفري باليدين فرياً لم يفره أحد ، بل هي جدير بأنها حيية عيية ، خاصة وأن كلامها هنا دفع للهجر الذي رماه بها ابن ضرتها ، وهو أولى بأن يجعلها أكثر اضطرابا .

ونلاحظ أن المبرد أسقط ثلاثة أبيات ساقها الشماخ لبيان

---

(١) ديوان الشماخ : ١٢٤- ١٢٥ ، مدله : إنها تدل بحسن ذراعيها . بعيد السباب : عقب المسابة ، الأعراق : جمع عرق بالكسر . وعرق كل شيء أصله أي أنها تنسب إلى أصول عريقة في المجد ، ابن ضره : ابن امرأة زوجها ، الهجر: الإفحاش في المنطق ، مبهاج : سالغة في البهجة وهي الحسن ، الحليل : الزوج .

براءة ساحتها فجاراتها يعلمن ذلك ويرينها أحق بأن تعان وتنصرا ، وأنهن يفرن منها وأنها بالغة البهجة ،وأنها أهملت حليلهـــا ولم تلتفت إليه إلاَّ غمامة صيف . . وهذا كله من الدوافع الدافعة إلى قوة الحديث ، الذي يتبعه قوة حركة اليدين ، ومع كل هــــذا فالشاعر الآخر أكثر إصابة ،لأنه ذكر البذاءة والفجيعة وملاقـــاة الخلائل بعد طول غيبة ،وطول تكتم للأمر ،وأنها استفرغت الحديث كله وأنها بلغت غاية الانفعال والحركة ،فلا شيء يفري باليديـــن كما تفري .

وشعر الشماخ شعر رائع فذ ولكنه ليس في وصف حركـــة ذراعي الناقة وإنَّما في هذا الخروج إلى وصف المرأة ،وهـــــذا الإفتتان في تصوير حسبها وعفتها وجمالها ، تأمل قوله " أطـارت من الحسن الرداء المحبرا " وقوله أزالت حليلها غمامة صيف " وهناك شيء يدخل في صميم وصف حركة الذراعين ، هذا الشيء هو أن امرأة الشماخ قامت تعتذر ولم يذكر لمن تعتذر ، وقال المرتضـــى أي تعتذر للناس (١) ، إذن فهي في وسط عام ، وهوحديث تدفـــع به سباباً لهـــا . بينما امرأة الشاعر الآخر لقيت خلائل سمعن لهـا . والفرق كبير بينهما .

وهكذا وقفنا على وجه الأبلغية في الوصف وأسبابه التي قال بها المبرد وقد ظهر ذلك من خلال مقارنتها بأبيات الشماخ في الغرض نفسه ، وبهذا نجد أن المبرد يقف كثيراً عند الصور المركبة ،ويعلق عليها ، ويستحسنها ويعجب بها ، لكنه لم يكن يفرق بين التمثيل والتشبيه ، إنما كان لديه إحساس بعيد به عن طريق هذه الصورة المركبة .

---

(١) انظر أمالي المرتضى : ١/٥٥٧ .

ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)

يعد كتاب البديع لابن المعتز من أوائل الكتب التي تخلصت من الخلط بين فنون البلاغة ، وبين غيرها من الدراسات الأخرى .

وقد خصصه لفنون أسماها فنون البديع ،ذكر أنها موجودة عند القدماء على حد وجودها عند المحدثين الذين قالوا إنهم سبقوا إليها . وبعد أن فرغ من الحديث عنها تحدث عن محاسن الكلام ،وذكر فنوناً تدخل تحتها منها التشبيه ودراسته فيه مختصرة جداً ،وكنت علي أن أدع الوقوف عنده لولا أنني رأيته ينبه إلى أشياء أردت بيانها .

وقد قسم التشبيه إلى قسمين ، القسم الأول عند القدماء ،والآخر عند المحدثين واكتفى في دراسته هذه بسرد الأمثلة ،ووضعها تحت أحكام تقويمية، ولم يبين المراد منها فيقول : " ومن التشبيهات العجيبة - ومن التشبيه الحسن - ومن أحسن التشبيه " وقد حاولنا تحديد المراد بهذه الأصول على وجه المقاربة . ويبدأ ابن المعتز التشبيه بإمام الشعراء امرئ القيس ،فيستحسن من شعره ما يشبه فيه الشيء بالشيء في أكثر من حالة له كقوله :

وَمَسْرُودَةُ السَّكِّ مَوْضُونَةٌ ... تَضَاءَلُ في الطَّيِّ كَالمِبْرَدِ

تَفِيضُ على المرءِ أَرْدَانُهَا ... كَفَيْضِ الأَتِيِّ على الجَدْجَدِ (١)

فقد شبهها في حال طيها حين تلطف وتطوى فتصغر بالمبرد ،وشبهها في حال فيض أكمامها بالسيل الذي يفيض على الأرض الصلبة .

---

(١) البديع : ٦٨ ، موضونة : الدرع المنسوجة ،أردانها : أكمامها ، الأتِيّ : السيل ، الجدجد : الأرض الصلبة .

كما يستحسن قوله في وصف أحوال قلوب الطير (١) :

كَأَنَّ قُلوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابساً   لدى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

وهذا من الأول لأنّ التشبيه فيه يحيط بالشيء من أكثر من جهة ، وهذه هي المزية عند ابن المعتز ،لأنّ الشاعر يصطنع هذا الأسلوب في الكشف والإبانة ،وابن المعتز من أجادوا التشبيه في شعرهم.

كذلك هو يستحسن ويحتفي بتشبيهات الأصوات ،لأنّ فيها تكمن قدرة الشاعر على تسمع أدق خصوصيات الصوت والإحساس بها ،وهذا إنما يكون من صفاء الحس ، وسلامة الطبع وهي من أهم أدوات الشاعر.

والعناية بالتشبيهات في باب المسموعات كانت لفته جيدة من ابن المعتز وسّعها عبد القاهر.

ويحتفي ابن المعتز بالتشبيهات التي هي أشبه بذوقه الملوكي ، كاستحسانه لقول النابغة (٢) :

تراهُنَّ خَلْفَ القوْمِ زوراً عيونُها   جُلوسَ الشيوخِ في مُسوكِ الأرانبِ

فصورة جلوس الشيوخ في ثياب المرانب منتزعة من بيئته العلية وأهل الثراء والعيش المبسوط. ومما يدخل تحت هذا النوع استحسانه لقول مروان (٣) لبعض الخوارج في كتاب أرسله له " إنّي وإياك كالزجاجة والحجر إن وقع عليها رضها وإن وقعت عليه فضّها " .

كما أنه يستحسن الصور الغريبة الخفية ،والتي تحتاج في الوصول إليها إلى قدر من الفكر والبحث كقول زهير (٤) :

---

(١) البديع : ٦٩.   (٢) المصدر السابق : ٦٩.
(٣) المصدر السابق : ٧١.   (٤) المصدر السابق : ٦٩.

يَكُرْنَ بُكوراً واسْتَحَرْنَ بسحْرَةٍ   فهُنَّ بوادى الرسّ كاليَدِ في الفَمِ

فكما أن اليد قريبة من الفم فكذلك هم من وادي الرس ، وما أشد البعد بين الصورتين اللتين ألَّف بينهما أحسن ما يكون التأليف .

ويدخل في استحسانه كثير من الصور التي استحسنها البلاغيون والأدباء من قبله ومن بعده ، كأبيات عنترة في وصف الروض (١) :

جَادَتْ عليه كلُّ بِكرٍ حُرَّةٍ   فَتَرَكْنَ كُلَّ قرارةٍ كالدرهَمِ

هزِجاً يَحُكُّ ....

وقول عدى في وصف الظبية (٢) :

تُزْجِى أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

وقول الطرماح في الثور (٣) :

يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ البِلادُ كأنَّهُ   سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

ومن تشبيهات المحدثين يستحسن التشبيه بالصور الحضارية ، التي تمثل بيئة عصره كقول بشار (٤) :

كأنَّ فُؤادَه كُرَةٌ تُنَزَّى   حِذارَ البَيْنِ لونفع الحِذارُ

وكقول أبي نواس في وصف الناقة (٥) :

كأنَّما رِجْلُهَا قَفا يَدِهَا   رِجْلُ غلامٍ يَلْهُو بِدَبُّوقِ

---

(١) المصدر السابق : ٧٠   (٢) المصدر السابق : ٧١

(٣) المصدر السابق : ٧١   (٤) المصدر السابق : ٧٢

(٥) المصدر السابق : ٧٣

ويستحسن التشبيهات التي تصور فيها المحسوسات بمعانٍ عقلية وهذا ما عُرف بعد ذلك عند عبد القاهر بالتمثيل المقلوب كقول العلوي الأصفهاني: (١)

كَأَنَّ انتضاءَ البَدْرِ من تحت غَيْمِهِ   نجاءٌ من البأساءِ بعد وقوعِ

فانتضاء البدر من تحت الغيمة يرى ويدرك بالبصر، والنجاء من البأساء معنى عقلي .

وكقول الآخر: (٢)

عَظُمَتْ روادِفُها فأدَتْ خِصْرَها   وَوِشاحُها قَلِقٌ كقلبٍ مُغْرَمِ

وكقول الآخر في البرق: (٣)

وتارةً يَنْبُضُ باستخفاءْ   كَلَمْحَةٍ من ذي هوىً مُرائي

أسرَّها خوفاً من الأعداء

وهذا النوع الذي استحسنه ابن المعتز وقبله قد رفضه بعض البلاغيين كالعسكري ، واستحسنه عبد القاهر ، وله كلام جليل فيه سنذكره في بابه إنْ شاء الله .

---

(١) المصدر السابق : ٧٢ .

(٢) المصدر السابق : ٧٤ .

(٣) المصدر السابق : ٧٤ .

ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ)

تطورت دراسة التشبيه عند ابن طباطبا ،في كتابه " عيار الشعر"،فصارت أكثر وضوحاً وضبطاً من ذي قبل ،وقد نهجت نهجاً يقوم على التقسيم والضبط والتعريف . وامتازت نظرته للتشبيه بالعمق فقد نظر إليه من جهة الجامع بين طرفيه المتباعدين وذكر أنواعه، واعتبار هذا الجامع هو الأساس الذي أقام عليه عبد القاهر تقسيمه للتشبيه إلى صريح وتمثيل بعد ذلك .

وسنحاول في هذه الدراسة أن نعرف هل توصل إلى التمثيل من خلال هذه التقسيمات أم لا .

جعل ابن طباطبا التشبيه على ضروب مختلفة ،فالشيء يشبه بالشيء في الصورة أو الهيئة أواللون أوالصوت أوالحركة ،وقد يجتمع في التشبيه الواحد أكثر من وجه فيتحقق بذلك حسن التشبيه يقول ابن طباطبا "وربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض ، فإذا اتفق في الشيء المشبه بالشيء معنيان أو ثلاثة معانٍ من هذه الأوصاف قوي التشبيه وتأكد الصدق فيه ،وحسن الشعر به " .(١)

فابن طباطبا هنا يذكر متى يحسن التشبيه،وهوبذلك يشرح الأحكام التقويمية التي كنا نراها عند المبرد وابن المعتز مبهمة مجملة ،ويقول ابن طباطبا في موضع آخر محدداً أحسن التشبيه " فأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبهاً به صورة ومعنى " .(٢) وهو هنا يؤكد على قوة

----

(١) عيار الشعر : ٢٢ . (٢) المصدر السابق : ١٧ .

المشابهة بين الطرفين ، وظهور الصفة في كل منهما ظهوراً يجعله كأنه أصل فيها ، فهو يشبه بغيره فيها ويشبه به غيره .

وهكذا يتضح لنا حسن التشبيه أو أحسن التشبيه عند ابن طباطبا .

ونلاحظ أن أكثر ما يذكره من أمثلة تعد من جيد التشبيه التي إتفق البلاغيون على استحسانها فيذكر بيت امرئ القيس في وصف قلوب الطير ، وبيت عدي بن الرقاع في وصف إبرة الروق ، وعنترة في وصف الذباب ، والنابغة وامرئ القيس في الليل ، وغيرها من الصور المستحسنة بل أنه زاد عليها مما رآه حسناً وأكثرها من التشبيه المركب . كما نلاحظ أن التشبيهات التي تشترك في أكثر من جامع تكون في الغالب مركبة الهيئة ، فمن تشبيه الشيء بالشيء لوناً وصورة قول النابغة :

تَجْلو بقادِمَتَيْ حَمَامةِ أيكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثَاتُه بالإثْمِدِ

كالاقحوان غداةَ غبَّ سمائِه جفتْ أعاليهِ وأسْفَلُه نَدِي

ومن تشبيه الشيء بالشيء صورة ولوناً و حركة وهيئة قول ذي الرمة :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الدَّمعُ يَنْسَكِبُ كأنَّهُ من كُلَى مفريةٍ سَرِبُ

وفراءُ غرفيةٍ أثأى خوارزُهَا مشلشلٌ ضيعته بينها الكُتَبُ (٢)

---

(١) تجلو بقادمة : تبدى عن شفاه سود كالقوادم من الريش .
اللثات : الواحدة لثة موضع الاسنان من الفم ، الأيكة : الشجر الملتف ، الاثمد : يصف شفتيها بالسمرة كأنما صبغتا بالكحل عب سمائه : بعد سقوط مطرة (الديوان) ، عيار الشعر : ٢٤ .

(٢) كلى : جمع كليه وهى رقعه رقعة المزادة ، أثأى خوارزها : أثأى جمع الخرزتين فصارتا واحد ، مشلشل : متصل القطر ، والكُتَب : جمع كُتْبه وهى الخُرزة ، عيار الشعر : ٢٤ .

شبه تتابع قطر الدمع من عينه ، بقرات ماء مزادة قطعت رقعتها فظل يقطر ماؤها باتصال وتتابع .

وقد أولى ابن طباطبا تشبيه الشيء بالشيء في المعنى عناية كبيرة فيذكره مرتين الأولى : تشبيه الشيء بالشيء في معاني الطباع والغرائز كتشبيه الجواد الكثير العطاء بالبحر ،والشجاع بالأسد ، والعالي الهمة بالنجم.

الثانية : تشبيه الشيء بالشيء في معانٍ عقلية ،وهذا النوع يكون المشبه فيه عقلي والمشبه به حسي ، وهوأحد وجوه التمثيل عند عبد القاهر والسكاكي . ومن أمثلته كما يذكر ابن طباطبا قول النابغة :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أعطاكَ سورةً ... تَرَى كلَّ ملكٍ دونَها يتذبذبُ
فإنَّكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ منهن كوكبُ (١)

شبه هنا حاله بين الملوك وعلو سلطانه فوق سلطانهم وذهاب هيبتهم بهيبة ملكه . بحال الشمس مع الكواكب في أنها تمحو بقوة ضيائها أضواء النجوم فتتلاشى منازلها . ويذهب سلطانها بسلطان هذه الكواكب . ومن أمثلة هذا النوع قوله أيضاً :

وإِنَّكَ غيثٌ يُنعِشُ النَّاسَ سَيْبُهُ ... وسيفٌ أُعيرتْه المنيةُ قاطعُ (٢)

يشبه الممدوح بالغيث في وفرة العطاء والإحياء وأن الناس بهذا العطاء يحيون كما تحيا الأرض بالغيث ، وشبهه بالسيف القاطع في الشجاعة وشدة البأس وغاية الإقدام ، وهذا السيف الذي شبه به هو سيف من سيوف الموت وناهيك عن شدة سيوف الموت .

---

(١) سوره : مكانة ،يتذبذب : يتردد بين شيئين (الديوان) ،عيار الشعر : ٢٨ .

(٢) سيبه : عطاؤه وكرمه ،عيار الشعر : ٢٨ .

ويقول النابغة الجعدي :(١)

فقد بَليتُ وأفناني الزّمانُ كما يُفنِي تقلُّبُ أقطارِ الرَّحى القُطُبا

شبه الشاعر كبر سنه ودنو أجله بعد أن وجد من أمر الزمان ما وجد بقطب الرحى الذي يفني ويطحن ما يوضع تحته من الحب ، وكما أن الرحى كلما دارت أفنت ما تحتها ،كذلك الأيام تمر وتتابع وكلما مرت أنذرته بالفناء ، فنقص عمره ودنا أجله .

فالمعاني المشبهة في هذه الأبيات معنوية ،والمشبه به صورة حسية والجامع معنوي كما يذكر ابن طباطبا . ودراسته لهذا النوع ووضعه في إطار مستقل ضرب من الهاجس والاحساس بتفرده ، ولو أنه وقف عند هذا النوع ودرسه دراسة متعمقة لتوصل إلى ما يميزه عن التشبيهات الأخرى التي ذكرها .

ويشير ابن طباطبا إلى مسألة مهمة وهو بصدد ذكر تشبيه الشيء بالشيء في المعاني المتداولة التي جرت على ألسنة الناس وشاعت من تشبيه الجميل بالشمس والشجاع بالأسد أو كالتشبيه بالسموأل في الوفاء ،وحاتم في السخاء وسحبان في البلاغة ،فيذكر أن الشاعر الحاذق هو من استطاع أن يُدخل عنصر الحيوية ،ويجدد هذه المعاني ، وينفض ما عليها من الرتابة والملل ،ويضيف بعضها إلى بعض لتتغير صورتها وتتبدل فتحسن يقول .. "فالشاعر الحاذق يمزج بين هذه المعاني في التشبيهات لتكثر شواهدها ويتأكد حسنها ،ويتوقّى الاقتصار عن ذكر المعاني التي يغير عليها دون الإبداع فيها والتلطيف لها لئلا يكون كالشيء المعاد المملول "(٢) فتجديد المعاني والصور

---

(١) عيار الشعر : ٢٩ .   (٢) المصدر السابق : ٢٧ .

المبتذلة لا يكون إلّا بمقدرة لا يقل شأنها عن مقدرة الابتكار والإبداع ، فهو يدعو الشعراء إلى التصرف في المعاني وخلقها خلقاً جديداً ، وتفتيق الحجب عن معانٍ شعرية جديدة من معانٍ قديمة . وهذا في ظني هو العمل الأكثر صعوبة ، وقد ذكر علي بن عبد العزيز الجرجاني هذا النوع وأسهب الحديث فيه وذكر أمثلة عليه.(١)

وأهتم ابن طباطبا بالحركة في بناء الصورة فأدخلها ضمن الجامع، وفطن إلى ما في الأسلوب من حيوية وتشخيص حين تدخل فيه ، حتى ترى شاخصة ماثلة أمام الأعين .

واخضاع ابن طباطبا التشبيه لهذا التقسيم يفقد الأبيات الشعرية من القيم الفنية والأسرار البلاغية ، فهو حين يذكر تشبيه الشيء بالشيء في اللون يذكر قول امرئ القيس :(٢)

وَليلٍ كَموْجِ البَحرِ أرخَى سُدولَهُ   عليَّ بأنْواعِ الهُمُومِ ليبْتَلي

وهذا البيت غني بالمعاني والإيحاءات التي يحملها الليل غير السواد والظلمة .

ويفطن أبو هلال العسكري إلى ذلك ، ونعلم أنه قد نقل تقسيمات ابن طباطبا كلها منها هذا البيت الذي قال فيه " وفي هذا معنى الهول أيضاً ".(٣) فهو قد تنبه إلى المزيد من الدلالات التي يحملها المشبه به . وابن طباطبا لا يفوته إدراك الهول في ذكر الليل لأنه من خطباء قريش وأبصرهم بالكلام ولكنه أراد تحديد الاقسام وضبط ما لا بد من ضبطه ، بدليل أنه في موضع آخر يذكر تشبيهاً لامرئ القيس فيحلله تحليلاً

---

(١) انظر الوساطة : ١٨٧ ومابعدها .
انظر التصوير البياني ، د . محمد أبو موسى : ١٦٢ ومابعدها .
(٢) عيار الشعر : ٣٢ .
(٣) الصناعتين : ٢٧٠ .

ينبيء عن حاسته الأدبية ، وتذوقه الفني للتشبيه ، حيث يقف عند العناصر المكونة للمشبه به ويحللها ويلائم بينها وبين المشبه ، ويربط ذلك بأحوال القوم في معايشهم يقول امرؤ القيس :

نظرتُ إليْهَا والنّجومُ كأنّها مَصَابيحُ رهبان تُشَبُّ لقُفال

يقول فيها " فشبه النجوم بمصابيح رهبان لفرط ضيائها وتعهد الرهبان لمصابيحهم وقيامهم عليها لتزهر الى الصبح ، فكذلك النجوم زاهـــرة طول الليل وتتضاءل للصباح كتضاؤل المصابيح له . وقال " تُشَبُّ لقفال : " لأنْ أحياء العرب بالبادية إذَا قفلت إلى مواضعها التي تأوى إليها من مصيف إلى مشتى ، ومن مشتى إلى مربع أوقدت نيراناً على قدر كثرة منازلها وقلتها ليهتدى بها ".(١)

فمعرفة معنى البيت لا يتم إلاّ بمعرفة معنى قوله " تُشَبُّ لِقُفال ".

---

(١) عيار الشعر : ٢٨ .

قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)

تحدث قدامة عن التشبيه في كتابه " نقد الشعر " ، عدّه أحد المعاني (*) الشعرية في الشعر . وسنحاول في هذه الدراسة أن نعرف هل توصل إلى التمثيل من خلال دراسته هذه أو لا ؟

يرى قدامة أن أحسن التشبيه ما تشارك فيه الطرفان في صفات كثيرة وهذا هو مقياس الحسن عند ابن طباطبا - كما بينا سابقاً - يقول قدامة "فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد " (١).

وقد فهم ابن رشيق كلام قدامة هذا على غير وجهه فقال : "إن التشبيه الحسن عند قدامة هو ما وقع الاشتراك بين طرفين من جنس واحد واتحادهما أكثر من انفرادهما كقول امرئ القيس :

لهُ أيطلا ظبي وساقا نعامةٍ وإرخاء سِرْحان وتقريبُ تتفُلِ

ثم يذكر ابن رشيق أن أفضل التشبيه ما قرب بين متباعدين بينهما مناسبة واشتراك في صفات كثيرة (٢) ، وهذا الذي قاله ليس إلّا رأي قدامه في حسن التشبيه ، فهو قد اعترض عليه أولاً ، ثم نقل رأيه في الحسن ولم ينسبه إليه . وقول امرئ القيس الذي دلل به ابن رشيق على حسن التشبيه عند قدامة ذكره قدامة في سياق ذكر وجوه تصرف التشبيه الحسن ، وهو لم يستحسن بيت امرئ القيس من أجل العلة التي

(*) جعل التشبيه من معاني الشعر كالمديح والوصف والغزل .. وغير ذلك من الأغراض .

(١) نقد الشعر : ١٢٤ .

(٢) انظر العمدة ١/ ٢٨٩ ، التصوير البياني ، د . محمد أبو موسى : ١١٢-١١٣ .

ذكرها ابن رشيق إنّما لما فيه من وجازة واقتدار الشاعر على جمع كل هذه الصفات في بيت واحد [١] . يقول قدامة فيه : " وقد يقع في التشبيه تصرف إلى وجوه تستحسن فمنها أن تجمع تشبيهات كثيرة في بيت واحد وألفاظ يسيرة كما قال امروء القيس ".[٢]

ومن الأمثلة التي ذكرها قدامه بعد أن بين أن أحسن التشبيه ما كان الشبه فيه أو الجامع واضحاً قول يزيد بن عوف العليمي [٣] :

فغبّ دخالاً جرعَه مُتَواتِرٌ كوقعِ السّحابِ بالطِّرافِ الممدّد

فقد شبه صوت اللبن على عصب المري بصوت المطر الذي يقع على الأديم القديم ، والطرفان متباعدان أشد ما يكون التباعد إلّا أن الوجه يكاد يدني الطرفين ويوحدهما لشدة الشبه بينهما وهذا هو الحسن عند قدامة .

ومن هذا النوع قول المرار بن سعيد :

لها قلاصٌ نعام يرتقين بها كأنهن سُبيٌّ لا يسوُ هُدّم

يلائم قدامة بين الطرفين ، ويبين المعاني المشتركة بينهما فيقول : " فما أحسن ما شبه فواضل ريش النعام بانسدال الأطمار الرثة على اللابس لها ، ولا سيما السبي فإنّ في مشيتهم أعجمية تشبه مشي النعام ، وفي ألوان ثيابهم قتمة من الدرن تشبه قتمة ريش النعام ، ففي الشيئين اشتراك في معانٍ كثيرة " [٤] .

---

(١) انظر التصوير البياني ، د . محمد أبوموسى : ١١٢-١١٣ .

(٢) نقد الشعر : (٣) المصدر السابق : ١٢٤ .

(٤) المصدر السابق : ١٢٧ .

فحسن هذا البيت والذي قبله راجع إلى قوة الشبه واتساع الجامع بين الطرفين . فانسدال ريش النعام شديد الشبه بأطمار السبي الرثة البالية ،وقد بين قدامه الصلة بينهما في أمور . مع ملاحظة شدة ما بينهما من تباعد .

ويتحدث قدامة في موضع آخر عن فن أسماه "التمثيل" وحديثه فيه مبهم وقد عرفه بقوله " وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيصنع كلاماً يدل على معنى آخر وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه ".(١)

وهذا ما عرف بالاستعارة التمثيلية أو التمثيل على حد المجاز كما يقول عبد القاهر،والمراد بقوله " يريد الشاعر إشارة إلى معنى " أي معنى المشبه المطوي ذكره وقوله " يضع كلاماً يدل على معنى آخر " هي صورة المشبه به التي تعبّر عن معنى المشبه من ذلك قول الرماح بن مياده :

أَلم تكُ في يُمنَى يديك جعلتني فلا تجعلنّي بعدها في شمالكا

ولو أنني أذنَبْتُ ما كنتَ هالكاً على خِصلةٍ من صالحات فعالك

يقول كنت مقرباً إليك مقدماً عندك كالشيء الذي في يمنى يديك محتفياً به راضياً عنه ، فلا تسخط عليّ وتغضب مني وتجعلني كالشيء الذي يحصل في شمال اليد . واليد اليمنى تستخدم في كل شيء هو موضع عناية وحفاوة وعكسها الشمال فهي تستخدم لما أهمل و رفض قبوله .

يقول قدامة في هذا البيت " فعدل أن يقول في البيت الأول إنه كان عنده مقدماً فلا يؤخره أومقرباً فلا يبعده ،أو مجتبى

---

(١) المصدر السابق: ١٥٩ - ١٦٠ .

فلا يجتنبه ، إلى أن قال : إنه كان في يمنى يديه فلا تجعله في اليسرى ، ذهاباً بحسو الأمر الذي قصد الإشارة إليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل له والإبداع في المقالة ".(١)

وقد فطن قدامة إلى أن التمثيل إذا جاء على هذا الحد : أي على سبيل المجاز كان مثلاً وهذا مهم في الذي نحن فيه لأن إجراء التمثيل على الاستعارة التمثيلية ليس بعيداً عن إجراء التمثيل على التشبيه التمثيلي من حيث أن التشبيه أصل الاستعارة وهي مؤسسة عليه ،وقد انتقل عبد القاهر بطريقة تلقائية إلى تسمية الاستعارة القائمة على سبيل التمثيل تمثيلاً على حد الاستعارة ، لأن الاستعارة لا تعدو أن تكون مرحلة متميزة تتلو مرحلة التشبيه ،وتستمر على طريقه .

---

(١) المصدر السابق : ١٦٠ .

الرماني (ت ٣٨٦هـ)

للرماني بحث عن التشبيه في كتابه " النكت في إعجاز القرآن " وهو مقصور على التشبيهات القرآنية ،لأنه تحدث عنها وهو بصدد بيان وجوه الإعجاز البلاغي .

ودراسته هذه تختلف عن دراسة التشبيه عند من سبقه كالمبرد وقدامة وابن طباطبا وغيره ، لأنه رأى أننا لا نجد في تشبيهات القرآن ذلك التفاوت والتمايز الذي نجده في الشعر ، فلابد من وجود نوع من الدراسة خاصة بالقرآن ،ولا بد من وضع نمط خاص بالقرآن لا تتفاوت فيه درجات الحسن ، فنظر إلى التشبيه من جهة طرفيه من حيث الخروج من مستوى من مستويات الإدراك إلى مستوى آخر أبين منه وأوضح ،فالتقسيم إذن لا يقوم على الناحية الشكلية الخارجية بل يتعمق ويتغلغل في أساسيات المعنى يقول الرماني : " والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، ومنها إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة ،ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة "(١).

والأقسام الثلاثة الأولى أفاد منها عبد القاهر كثيراً في بناء أساسيات التمثيل عنده ،لأنها إخراج من معنى عقلي إلى شيء حسي ، وهذا أصل من أصول التمثيل ،ويبدو تأثر عبد القاهر بالرماني واضحاً في بحثه حيث استل منه خيوطاً أولية نسج منها هذا الفن المستقل وهذا ما تنبه إليه الدكتور محمد أبوموسى (٢) في بحثه عن الرماني .

---

(١) النكت "ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن " : ٨١ .

(٢) انظر الإعجاز البلاغي : ٩٩-١٠٠ .

وبتقسيم الرماني هذا تتكامل جهات النظر في التشبيه فمنهم من نظر إليه من جهة وجه الشبه ،ومنهم من نظر إليه من حيث الإفراد والتركيب والتعدد ، ومنهم من نظر إليه من جهة الطرفين كالرماني ،وبذلك تتعمق دراسة التشبيه وتتكامل في هذه المرحلة المتقدمة .

وبالإضافة إلى عناية الرماني بالطرفين فقد اعتنى أيضاً بجهة الشبه فوضحه في كل مثل وأبان عنه بطريقة مختصرة مستوعبة لجميع العناصر والقيود في التشبيه . فمن أمثلة النوع الأول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١) ثم يذكر الرماني الجامع بين الطرفين فيقول : " وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة " (٢) ونظرته للجامع تعد أعمق وأشمل من نظرة ابن طباطبا ، فقد كان يذكر الوجه على وجه الإجمال ،أما الرماني فقد استدل على الجامع من صورة المشبه به التي توفرت فيها الصفة الأساسية التي يراد إبرازها في المشبه . ثم يشير الرماني إلى دقة التعبير القرآني وملاءمته لسياقه ،ويبين كيف أن كل كلمة وقعت موقعها المناسب يقول " لوقيل يحسبه الرأى ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدّر لكان بليغاً ،وأبلغ منه لفظ القرآن لأنّ الظمآن أشد حرصاً عليه وتعلق قلب به " (٣)

وفي كلامه هذا لفت إلى ضرورة مراعاة طريقة نظم المثل والنظر في عناصره والبحث عما وراءه ، لأنّ ذلك يمثل جزءاً من التشبيه (٤).

---

(١) سورة النور : ٣٩ .
(٢) النكت " ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن " : ٨٢ .
(٣) المصدر السابق : ٨٢ .
(٤) انظر الإعجاز البلاغي ،د . محمد أبوموسى : ١٠٢

وفي كلمة " الظمأ " مزيد من التحرق واللهفة ،وتعلق القلب بالماء ،والجد في طلبه والبحث عنه . وهذه المعاني لا توجد في كلمة " الرائي " والتنبه إلى أسرار اختيار كل كلمة في موضعها من أهم طرق معرفة دلالات الألفاظ ، التي يقع بها الإعجاز ،وهو من أدق مباحث البحث البلاغي .

ويشير الرماني إلى أن عظمة هذه الآية ترجع إلى حسن التشبيه ونواحي أخرى تتعلق بنظمه . يقول " وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من أحسن التشبيه فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم ،وعذوبة اللفظ ،وكثرة الفائدة ،وصحة الدلالة "(١) .

ولكن ما المراد بالحسن في التشبيه في هذه الآية ؟ وإلى ما يرجع ؟ وهل الحسن عنده كالحسن عند ابن طباطبا أو ابن المعتز أو غيره ؟ أم أن الحسن هنا يختلف وتختلف جهاته وتتعدد مناحيه ، لأنه حسن في التشبيه القرآني ؟ وإذا كان كذلك فمن أي شيء نشأ ؟ هل من إخراج المعنى الذهني المجرد المحض إلى الحس والتصوير ؟ أو من حسن هيئة المشبه به ودقة تكوينات عناصره وإيحاءاتها ، واستيعابها لجهات المشبه ؟ أو لغرابة الصورة وبعدها عن المشبه مع شدة قرب الشبه بينهما ؟ أو إلى كل هذه الجهات ؟ .

أما حسن النظم وعذوبة اللفظ فهي ولا شك نتاج صياغة المثل وبنائه (٢) .

ومن أمثلة النوع الأول أيضاً قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (٣) .

---

(١) النكت : ٨٢ .
(٢) انظر الإعجاز البلاغي الدكتور محمد أبو موسى : ١٠٣ .
(٣) سورة إبراهيم : ١٨ .

تختلف الصورة في هذه الآية وتتجه نحو معنًى آخر والجامع كما يقول "الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة "(١) الصورة الأولى تهتم بتصوير اللهفة وشدة الفاقة والحاجة إلى الأعمال ثم الخيبة وبطلان ما كان يرجى ، أما هذه الصورة فانّها تمثل صورة الضياع ، وفقدان هذه الأعمال في إطار من الرعب والفزع ،وعناصر هذه الصورة هي الرماد الذي لا قيمة له مع خفته وقلته ، ثم الريح الهوجاء ، واليوم العاصف ، وهكذا تتكاتف العناصر وتتضافر فتعصف بهذا الرماد وتذهب به ،وكذلك هي أعمال الكافرين تذهب بدداً يوم القيامة مهما جلّت فلا يبقى فيها شيء لأنها أعمال منفصلة عن خالق هذا الكون ومبذولة لغيره ونلمح في قوله * اشْتَدَّتْ *معنى القوة والشدة في هذه الريح .

ومن أمثلة النوع الثاني وهو إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة قوله تعالى * اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ في الأَمْوَالِ والأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ *(٢) .

وقوله تعالى * إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أو نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ *(٣)

---

(١) النكت : ٨٢ .

(٢) سورة الحديد : ٢٠ . (٣) سورة يونس : ٢٤ .

ونلاحظ أن الرماني كان يهتم بالآيات ذات غرض واحد ، والتي تجتمع لتحقق معنىً له جهات متنوعة ، ولكل آية مغزى جاءت به ، فالآيات الأولى جاءت لغرض بيان أعمال الذين كفروا ، والآيات الثانية جاءت في وصف حالة إقبال الدّنيا وإدبارها مع فروق في مغزى كل آية بصورتها وعناصرها وقد جاءت آيتا الحياة الدّنيا لتصور سنة من سنن اللّه في الكون تبلدت أحاسيس النفس تجاهها . يبثها القرآن ويحييها في النفس بل ويوقظها بهذا التصوير المتكرر في الحياة .

فالعناصر في الآية الأولى : الغيث والنبات وأحواله من الهيجان والإصفرار . والعناصر في الآية الثانية : الماء المنزل من السماء ، ونبات الأرض ومراحل تكوينه من حالة زهوه وإعجاب الناس وانتفاعهم به إلى أن يصير هشيماً تذهب به الريح . وتتفق الآيتان في كثير من العناصر مع اختلاف مدلولاتها كالماء ... والنبات والجفاف بعد نضرة ، ويختلف مدلول كل آية ، فالأولى تتحدث عن انشغال الناس في الدنيا فنجد اللعب واللهو والزينة ، ولكل كلمة معنى فاللعب غير اللهو وغير الزينة ، ونجد كذلك التفاخر والتكاثر .

والآية الثانية جاءت لتبين إقبال الدنيا ثم إدبارها .. وهكذا ..

ومن أمثلة النوع الثالث وهو اخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما علم بالبديهة كقوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ..﴾ (١)

ثم ينتزع الرماني وجه الشبه من صورة المشبه به فيقول " وقد اجتمعا في الجهل بما حملا وفي ذلك العيب بطريقة من ضيع العلم

---

(١) سورة الجمعة : ٥

بالإتكال على حفظ الرواية من غير دراية "[١] ويعنى بقوله (ما علم بالبديهة) أي أن ما هو مركوز في الطباع وفي بدائه الناس أن صورة الحمار الذي يحمل أسفاراً تدل على الجهل والغباوة . وهذه الآية هي التي أقام عليها عبد القاهر بيان طريقة التركيب في التمثيل فتحدث عنها في مواضع عدة بإسهاب ،وكأن كل أمثلة التمثيل بعد ذلك انبثقت منها .

وبذلك تعتبر دراسة الرماني أول دراسة بين أيدينا تقوم على هذا التقسيم وتراعي مستويات الإدراك . والأنواع الثلاثة التي ذكرنا أمثلتها تشترك في الانتقال من المعنى الذهني إلى الحسي ،ولذلك فهي أحد وجوه التمثيل عند عبد القاهر[٢] ، كما أن تركيب الصورة من عناصر كونت هيئات وصور مركبة يدخل تحت التمثيل عند المتأخرين .

ودراسة الرماني تعتبر أول دراسة تشير إلى جذور التمثيل قبل عبد القاهر إشارةقوية .

---

(١) النكت : ٨٤ .

(٢) انظر الإعجاز البلاغي ١١٢-١١٣ .

أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)

يتسم مبحث التشبيه في كتاب الصناعتين بأنه يتناول أكثر دراسات السابقين للتشبيه مع بعض إضافاته وآرائه البلاغية فيه . فيذكر تقسيمات الرماني دون أن يشير إلى أنه نقل منه ،ثم يتحدث عن طريقة العرب في التشبيه التي ساروا عليها وتداولوها كتشبيه الجواد بالبحر والمطر والشجاع بالأسد والحسن بالشمس ، وهذه منقولة من كلام ابن طباطبا في التشبيه ثم يقسم العسكري التشبيهات من حيث النظر إلى جهة الشبه كما فعل ابن طباطبا وهو في ذلك ينقل أكثر أمثلة ابن طباطبا وتقسيماته مع بعض التصرف البسيط في الأمثلة ، وإضافة بعض الآيات القرآنية ، وكان أحياناً يشرح التشبيه وما غمض من الكلمات ، كما أنه أضاف بعض الأمثلة وهو يذكر تشبيه الشيء بالشيء في المعنى غير التي ذكرها ابن طباطبا إلّا أنه لم يعقب ولم يشرح .وكان يستحسن التشبيهات التي تتعدد فتصل إلى ثلاثة تشبيهات أوأربعة . وقد يستحسن صوراً مركبة فيفرق عناصرها ليحصل التعدد كما في بيت بشار ويقول إنه من بديع التشبيه وغريبه . وقد تفرد باستقصاء بعض التشبيهات من كتاب كليلة ودمنة ،تشتمل على الحكمة والموعظة ، من هذه التشبيهات " الدنيا كالماء المالح كلما ازددت منه شرباً ازددت عطشاً " ، " صحبة الأشرار تورث الشر كالريح إذا مرت على المنتن حملت نتناً وإذا مرت على الطيب حملت طيباً " ، " لا يخفى فضل ذي العلم وإن أخفاه كالمسك يخبئ و يستر ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح " ، " الدنيا كدودة القز لا تزداد بالأبريسم على نفسها لفاً إلّا ازدادت من الخروج بعداً ".[1]

---

(١) الصناعتين : ٢٦٦ - ٢٦٧ .

ونلاحظ أن هذه الحكم من باب تصوير المعاني العقلية بصور حسية ،كما نلاحظ أن العسكري قد بدأ بحثه بتقسيمات الرماني ثم أردفها بتشبيهات الطباع والغرائز ، ثم ذكر تشبيهات كليلة ودمنة ، ثم انتقل إلى تشبيهات الشعر بأنواعها ، وهذا يعني أنه اهتم أولاً بالتشبيهات المعنوية في صور حسية ، لأنها تأتي في القرآن ، وفي حكم الحكماء وما تعارف عليه القوم . أي في المعاني المالية في الكلام .

وهكذا فالعسكري اهتم بهذا النوع الذي سمي بعد ذلك تمثيلاً .

ونخرج من هذا الفصل بخلاصة تقرر أن التمثيل في هذه المرحلة لم يكن قد تحددت معالمه وعُرفت حدوده ، إنّما كان مجرد أحاسيس مبهمة لا ندعي أنها قد عرفت التمثيل بمسماه وأصوله وبكونه نوعاً مستقلاً من التشبيه ، وإن كانت بعض هذه الأحاسيس قد ساهمت في بلورة هذا الفن عند عبد القاهر على حد ما بينا آنفاً .

الفصل الثاني:
التمثيل عند عبد القاهر والمتأخرين

التمثيل عند عبد القاهر

أ ـ تعريف التمثيل والفرق بينه وبين التشبيه الصريح .

ب ـ أضرب التمثيل .

جـ ـ مواقع التمثيل .

د ـ أسباب تأثير التمثيل .

هـ ـ التمثيل المقلوب .

التمثيل عند عبد القاهر

رأينا في الفصل السابق أن قصارى ما يمكن أن نزعمه في بيان موقف السابقين لعبد القاهر من الفرق بين التشبيه الصريح وتشبيه التمثيل ، هو أن هذا الفرق كان يومض في أذهانهم إيماضاً دون أن تتحدد ملامحه ،وأن هذا الإيماض كان يظهر فيما نراه من حفاوتهم الأكثر بالتشبيهات المركبة التي صارت فيما بعد تشبيه التمثيل ،بعدما تخطت معالجات عبد القاهر التي سوف نقف عندها في هذا الفصل .

ويعد عبد القاهر أول من وقف عند التمثيل الذي هو قسيم التشبيه الصريح فقد كان حديثه من أول الأمر محاولة لإظهاره وتحديد معالمه . وقد أجهد نفسه في بيان الفروق بينه وبين التشبيه الصريح فأبرز خصائصه ومميزاته ،وعالجه معالجة يتصل كثير منها بأحوال النفس ومكنوناتها ،كما أنه توصل من خلاله إلى خصائص بلاغية ذات قيمة في فهم أسرار البيان ،وتذوق عناصره .

والأساس الذي أقام عليه دراسته الخصبة الرائعة في هذا الباب هو النظر إلى حال قيام وجه الشبه " الصفة " بالطرفين ،فقد نظر ودقق ولحظ فرقاً جيداً في هذا الباب فوجه الشبه إمّا أن يكون صريحاً ظاهراً في الطرفين أو مؤولاً في أحدهما والذي يكون الوجه فيه ظاهراً يسمى تشبيها صريحا ،فوجه الشبه في قولنا خد كالورد هوالحمرة في الطرفين .

وما كان الوجه فيه مؤولاً يسمى تمثيلاً ،ووجه الشبه في التمثيل لا يكون قائماً في الطرفين على حد التشبيه الصريح ،ولا يكون الاشتراك

فيه في الصفة ،وإنّما في أمر هو مقتضى الصفة .

ويبدأ عبد القاهر في توضيح هذه المسألة بالأمثلة المتداولة ليسهل فهمها ، ففي قولنا " حجة كالشمس في الظهور" نقول فيه إن وجه الشبه هو الظهور الذي تراه العين قائماً في الشمس قياماً لا يلتبس ولكنه ليس قائماً في الحجة على الحد الذي تراه العين وإنّما الذي في الحجة شيء يشبه هذا الظهور هو لازم له ومقتضى ، فوضوح الحجة يكون بزوال الشبهة عنها وانكشاف حقيقتها ، وهويشبه زوال الحجاب عن الشمس ثم سطوعها ، وهذا الشبه لا يدرك بالعين إنّما بالعقل والقلب.(١)

أو كقولنا " كلام كالعسل في الحلاوة " فالحلاوة قائمة في العسل والقائم في الكلام هو مقتضاها ،وهو ما تقتضيه الحلاوة من اللذة أو الحالة النفسية التي تستروح لها النفس وتطيب عند سماع الكلمة العذبة الحسنة ، فالحالة التي تجدها الأذن عند سماع الكلمة يمكن أن تكون بإزاء الحالة التي يجدها اللسان حين يذوق العسل لأنها تشبهها ،وهكذا تتجاوب الحواس وتتلاقى وتتبادل المدركات . يقول عبد القاهر " حتى لو تمثلت الحالتان للعيون لكانتا تريان على صورة واحدة ولوجدتا من التناسب على حد الحمرة من الخد والحمرة من الورد "(٢) فالعقلي المؤول يلتقي مع الحسي الظاهر.

ثم نظر عبد القاهر إلى طريقة التأويل في الكلام فوجدها على

---

(١) انظر أسرار البلاغة : ٧٢-٧٣ .

(٢) أسرار البلاغة : ٧٩ .

طبقات متنوعة ،منها السهل الذي قرب مأخذه وانكشف تأويله وهذا النوع نجده جارياً على أفواه العامة ،وتتداوله الألسن كما في قولنا " حجة كالشمس ".

ونوع آخر يحتاج إلى قدر من التأمل وقليل من التفكر كقولهم في صفة الكلام " ألفاظه كالماء في السلاسة ،وكالنسيم في الرقة ، وكالعسل في الحلاوة " وهذا وصف للكلام الخالي من معايب الألفاظ. ووجوه الشبه الحسية هذه "السلاسة ، والرقة ،والحلاوة " قائمة على التحقيق في المشبه به ،وقائمة على التأول في المشبه بمعنى أن الذي في المشبه شيء هو من مقتضاه ولازمه .

ونوع ثالث : هو غامض ووجهه خفي ،يحتاج إلى مزيد من المراجعة ، والنظر الواعي حتى يدرك دقيق لمحه ،ولطف سره . ويدخل تحت هذا النوع الشعر وكلام العرب العالي ،والحكم المأثورة كقول كعب الأشقري وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه ، وذكر مكانهم من الفضل والبأس ، فسأله في آخر القصة قال : فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ . . قال : كانوا حماة السرح نهاراً ، فإذا أليلوا ففرسان البيات ،قال : فأيهم كان أنجد ؟ . قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها ".

وقد قيل إن هذا القول لفاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، وقيل إن كعب الأشقري أخذه منها فوصف به بن المهلب (١) .
ولم يبين عبد القاهر طريقة قيام التأويل في هذا القول وكأنه عول على قارئه إقامته بعد أن عرفه الطريقة واكتفى بأن يقول :

---

(١) هامش أسرار البلاغة : ٧٤ .

" فهذا كما نرى ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق به والنظر ،ألا ترى أنه لا يفهمه إلاّ من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة ".(١)

وعبد القاهر كان يدرك دقة هذا التأويل ،وعدم إدراك العامة له كالصريح ،لأنّ الوصول إليه يحتاج إلى ذهن صافٍ يطيل التأمل في الكلام ويعرف مسالكه ومساربه ،ويحسن سياسته ،ويخرج منه أجمل ما فيه ،ويجتهد في استخراج وجه الشبه قياساً على مذهب التأول في الأمثلة السابقة.

ووجه الشبه في المثل هو المساواة التامة التي نراها في أطراف الحلقة بحيث لا تستطيع العين أن تتبين فيها شيئاً من التفاوت ، وهذا الوجه لا يجري في المشبه جريانه في المشبه به ، وإنّما الذي يوجد في المشبه هو لازم هذه المساواة المحسوسة التي تراها العين ، أي التناسب التام في وجوه الفضل بين المذكورين.

وعبد القاهر حين ألح على وجوب المقتضى كان حريصاً على أن يظل وجه الشبه في المشبه به بحقيقته ، وأن تظل صورة المشبه به على حالها بجزئياتها ، تفيض بكثير من المعاني التي تعود على المشبه ، وألا يجعل المشبه العقلي يغطي على هذا التصوير والتجسيم الذي جاء أصلاً ليوضحه ،ولا تزال الصورة تنطق بأغزر المعاني وأجلها .

وعبد القاهر حين قسم التمثيل إلى طبقات ومراتب كأنه يشير إلى أن هذا الفن كما يأتي في الأساليب العالية الرفيعة فلا يدرك وجهه إلّا الخاصة، يأتي أيضاً في كلام غيرهم من عامة الناس فيدركون وجهه ، فهو من الأساليب الفطرية المتغلغلة في أصول هذا اللسان.

---

(١) أسرار البلاغة : ٧٤ - ٧٥.

وكان عبد القاهر يلح كثيراً على بيان أن التمثيل وإن كانت له أصوله فهو جزء من التشبيه ، فكل تمثيل تشبيه ،وليس كل تشبيه تمثيلاً ، فيبين الفرق بينهما ،وفي كل فرق يذكره تظهر مزيه من مزايا التمثيل ، ومزية من مزايا التشبيه ، يقول إننا نقول إن ابن المعتز حسن التشبيهات ولا نقول حسن التمثيل ،لأننا نعني تشبيه المبصرات بعضها ببعض ، وكل ما لم يأت فيه الوجه على وجه التأول فلا يسمى تمثيلاً ، وكلامه هذا يدل على أن تشبيه المبصرات لا يسمى تمثيلاً وما جاء فيه على غير طريقة التأويل لا يسمى تمثيلاً ، فالتمثيل يختص بتصوير المعقولات بالمحسوسات ،ووجه الشبه فيه يأتي على طريق التأويل . ويقول عبد القاهر إن كل ما لا يصح أن يسمى تمثيلاً فلفظ المثل لا يستعمل فيه (١) ، أي أن التشبيه الصريح حين يأتي في الكلام لا يطلق عليه لفظ المثل أي لا يقال هو مثل لأن المثل عند عبد القاهر مرادف للتمثيل .

وبعد أن تحقق لعبد القاهر هذا الفرق الرائع والساطع بين التشبيه الصريح والتمثيل قال " فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين التشبيه والتمثيل . وفي تتبع ما أجملت من أمرهما وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأنس بالحقائق ".(٢)

عبد القاهر هنا يدعو من يأنس بالحقائق ،ويقدر جهود العقول الخصبة ، يدعوه لمتابعته في تشقيق حقائق هذا العلم ، الذي بناه من خيط رفيع استله من تلك الملاحظة في حال قيام الوجه بالطرفين فأقام عليها أساسه ،ثم أن هذه الحقائق ليست إلّا ضربة معول على

----

(١) انظر المصدر السابق : ٧٧ . (٢) المصدر السابق : ٧٨ .

نبع ثري فياض ، وأن هذا الباب متسع ومتشعب ،وأن وراء هـــذه الحقائق حقائق أخرى ، ووراء هذا الإجمال تفاصيل ،يحسن استخراجها من كان في طبقته ،وتغريه قضايا العلم ،وكان رحمه الله - بعيد الهمة في طلب الحقائق .

كما كان عبد القاهر يطيل التأمل في الحيثيات التي أقام عليها التمثيل وميزه بسببها عن التشبيه الصريح ،وكان مجال العناية والتأمل والنظر والفحص عنده هو وجه الشبه ، فيرى أن الأجدر باسم التشبيـــه هو ما كان صريحاً والاشتراك فيه قائم في نفس الصفة ، ثم يشيـــر عبد القاهر إشارة ضمنية إلى أسبقية هذا الضرب " ومعلوم أن الاشتراك في نفس الصفة أسبق في التصور من الاشتراك في مقتضى الصفة كمـــا أن الصفة نفسها مقدمة في الوهم على مقتضاها ".(١) ولا أتجاسر وأدعو إلى أن نخطو بالبحث خطوة تنطلق من هذه اللمحة فنزعم مثلاً أن صور التشبيه غير الصريح " التمثيل " كان يقتضي ضرباً من الثقافة الذهنيـة هو أدق وأرق مما يقتضيه التشبيه الصريح ،وأننا إذا عدنا إلى الشعـــر الجاهلي وجدناه يتدافع بصور التشبيه الصريح بينما تتراءى صور التمثيل ، فهو نادر في هذا الشعر .

فالصفة مقدمة على مقتضاها ،وهذا باب يجب متابعته والاهتمـــام به . ويقرر عبدالقاهر أن وجه الشبه في التشبيه الصريح يرى حقيقـــة في كلا الطرفين فالحمرة في خد كالورد نراها في الخد وفي الـــورد على وجه واحد .

أما في التمثيل فإن الوجه لا يُرى في الطرفين على وجـــه

---

(١) المصدر السابق : ٧٩ - ٨٠ .

الوجود الحقيقي إنما يجيء على وجه المقاربة ،فأحدهما كأنه الثاني وليس هو يقول عبد القاهر فيه " المشبهات المتأولة التي ينتزعها العقل من الشيء للشيء لا تكون على حد المشابهات الأصلية الظاهرة بل الشبه العقلي كان الشيء به يكون شبيهاً بالمشبه به "(١).

ويستدرك عبد القاهر في آخر بحثه عن التمثيل فرقاً آخر بين التمثيل والتشبيه الصريح ،وهو فرق لطيف كما يقول . فيشير إلى أننا في التمثيل نرى وجه الشبه مرتين ،فهو يوجد في المشبه على ظاهر الأمر ويدرك إدراكاً خفياً ، ثم نراه يظهر في المشبه به ظهوراً بيناً ، وهذا هو المراد من قول عبد القاهر " فههنا لطيفة أخرى - تعطيك للتمثيل مثالا عن طريق المشاهدة و وذاك أنك بالتمثيل في حكم من يرى صورة واحدة ،إلّا أنه يراها تارة في المرآة وتارة على ظاهر الأمر "(٢).

ففي قولنا " كلام كالعسل في الحلاوة " نرى ما يشبه الحلاوة في المشبه ، وهذه لو كانت في العسل لكانت هي الحلاوة فكأننا نعكس على المشبه مرآة توضح التأويل فيه ،وهكذا ينتزع المعنى من دائرة الخفاء إلى الظهور عن طريق هذه المرآة ثم إن هذه المرآة التي تُرى فيها الصورة مرة ثانية في الأشياء المحسوسة هي التي تعيننا على إدراك الوجه في المعقولات لأننا لو أزلنا أوصاف هذه المحسوسات من إدراكنا لعجزنا عن إدراك الأوصاف المعقولة ،فلو أزلنا عن أوهامنا عذوبة الماء وسلاسته في قولنا " كلام كالماء في السلاسة " فإنّه لا يمكننا إدراك عذوبة الكلام لأننا نجهل عذوبة الماء ،فمعرفة وجه الشبه

---

(١) المصدر السابق : ٨٠.   (٢) المصدر السابق : ٢٠٦.

العقلي في التمثيل لا يكون إلا بمعرفة ما يشبهها .

وعبد القاهر يتحدث هنا عن استقرار المعرفة الحسية في النفس ،وثبوت عناصر المشبه به في الإدراك . يقول عبد القاهر : " يبين ذلك أنا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا ،ونفوسنا صور الأجسام في القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة ، لم يمكننا تخيل شيء من تلك الأوصاف في الأشياء المعقولة ، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيداً من حيث العزة والسلطان ، قريباً من حيث الجود والإحسان حتى يخطر ببالك وتطمح بفكرك ،إلى صورة البدر و بعد جرمه عنك و قرب نوره منك "(١).

فلا يمكننا أن نمثل بالبدر في علو الرجل في سلطانه ودنوه من عطائه ما لم تكن صورته راسخة في معارفنا ومداركنا .

ودراسته هذه فيها شيء من التعمق في المسائل والخروج بها إلى ما يشبه الفلسفة .

---

(١) المصدر السابق : ٢٠٦

أضرب التمثيل :

يعقد عبد القاهر فصلاً ينظر فيه إلى المشبه به وأنواعه ،وكيفية انتزاع الوجه منه ، والكشف عن أهمية العناصر في تكوين وجه الشبه . فوجه الشبه الذي ينتزع من المشبه به أوالوصف كما يسميه عبد القاهر ينقسم إلى قسمين :

الأول : ينتزع الوصف من المفرد ،أي من المشبه به لأمر يرجع إلى المشبه به نفسه ،كتشبيه الكلام بالعسل في الحلاوة " فوجه الشبه ينتزع من العسل وهومفرد .

الثاني : أنه ينتزع من جملة أوعدة جمل ،وهذا النوع يأتي على طرق كثيرة مختلفة ،أظهر هذه الطرق وأشيعها ما يمثله قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارا .. ﴾ . وقد وقف عبدالقاهر أمام هذه الآية طويلاً ، وكأنها المفتاح الذي يدخل من خلالها إلى دائرةالتركيب في التمثيل ،فيحللها ، ويبحث عن جوانبها . فالآية تُشبِّه حملة التوراة الذين كدّوا أنفسهم في حفظها ، ولم يقيموا حدودها جهلاً بها بالحمار الذي يحمل الأسفار القيمة وهوبالطبع لا يعرف عنها شيئاً ،فوجه الشبه ينتزع من الحمار وأحواله في الصورة أي الحمار والأسفار وحمله لها ، ثم الجهل ،فحملة التوراة في جهلهم بودائعها كالحمار الذي يحمل ثمار العقول ونتاج المعارف وليس له فيها إلاّ الكدوالتعب دون العلم والفائدة . وهكذا تتضام أجزاء الصورة بخيط محكم دقيق يحصل التمثيل به ، فلا حمل إلاّ بحامل ،ولا حامل إلاّ بمحمول عليه ، والحامل الحمار

والمحمول الأسفار ، ثم ما يتعلق بهما من المعاناة مع الجهل والبلادة .
يقول عبد القاهر " النتيجة المطلوبة وهي الذم بالشقاء في شيء يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول إلى تلك الفائدة واستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سبباً في نيل شيء من تلك المنافع والنعم " (١) .

وينبه عبد القاهر إلى دقيقة مهمة ، وهي أنه قد يظن أن الآية تشبه حمل اليهود للتوراة بحمل الحمار للأسفار من حيث هو حمل ، لأن الحافظ للشيء بقلبه يُشبّه الحامل للشيء على ظهره ، ولكن الأمر ليس كذلك في الآية ، لأنه ليس المراد مجرد الحمل وإنّما حمل الشيء النافع مع الجهل به .

وقد يُعقد التمثيل على أمرين لا يمتزجان امتزاج آية حملة التوراة ولا يتفرقان ، وهذا نمط ثالث كقولنا " هو يصفو ويكدر " " هو يمر ويحلو " " هو يشجو ويأسو " فالمراد أنه يتوارد عليه الصفاء مرة والكدر مرة .. وهكذا بقية الأمثلة ، فهو يربط بين حالتين مختلفتين ، لا تتشابك ولا تتلاحم ، فقولنا هو يصفو جزء من المعنى وهو وإن كان يحقق معنىً مستقلاً إلاّ أن المراد لا يتم إلاّ بأن نضم إليه " ويكدر " ، وقد ينفصل أحد التشبيهين عن الآخر فيتغير المعنى فحين نقول " هو يصفو " أي يصفو على كل حال ، وحين نقول "هو يكدر " أي يكدر على كل حال ، وبذلك يختلف هذا التشبيه عن التشبيه " بالحمار الذي يحمل أسفاراً " لأن فيه اجتماعاً وتلاحماً وامتزاجاً . وقد فرق بينهما

---

(١) اسرار البلاغة : ٨١-٨٢ .

عبد القاهر فقال : " والنكتة أن التشبيه بالحمل للأسفار إنما كان بشرط أن يقترن به الجهل ولم يكن الوصف بالصفاء والتشبيه بالماء فيه بشرط أن يقترن به الكدر ،ولذلك لو قلت " يصفو ولا يكدر " لم تزدد في صميم التشبيه وحقيقته شيئاً وإنما استدمت الصفة كقولك يصفو أبداً وعلى كل حال ".(١)

ويلح عبد القاهر على البحث عن الفروق بين صور التشبيهات لتتحدد مزية كل صنف . ومن أنواع التمثيل قولهم " هو كالقابض على الماء " " والراقم في الماء " وهذان المثلان يضربان لعدم الحصول على شيء مع السعي إليه، لأن فائدة قبض اليد على الشيء بأن يحصل فيها ما هو مقبوض منه فيبقى أثره في اليد ،وكذلك الرقم في الماء فائدته تحصل إذا بقي أثره في الماء فإذا لم يبق فإن المنفعة لا تتحقق. ووجه الشبه في هذين المثلين ينتزعان مما بين القبض والماء ،والرقم والماء . ومنه قولهم " أخذ القوس باريها " مثل لمن وُضع في يده الأمر ،لأنه يحسنه والوجه مأخوذ من أخذ باري القوس القوس .

أو قولهم " مازال يفتل منه في الذروة والغارب " مثل يضرب في الفعل أو القول يصرف به الإنسان عن ما كان عليه إلى غيره ،ووجه الشبه مأخوذ من الجملة كلها من الفتل وتعديه إلى الذروة والغارب. وهكذا . . فحين تتعدد أجزاء المشبه به ينتزع الشبه من الفعل أو ما يقوم مقامه من المشتقات وما يتعلق به من بقية أفراد الجملة ، فالفعل قد يتعدى إلى المفعول أو ما يجري مجراه كالجار والمجرور والحال كقوله " كالحادي وليس له بعير " . وقد يجتمع المفعول به

---

(١) المصدر السابق : ٨٢ - ٨٣ .

مع الجار والمجرور كقول الهذلي " وهل يجتمعُ السيفان في الغمد " معناه أنت كمن يَجْمع السيفين في غمد . . . ثم يضبط عبد القاهر المسألة هنا بعد أن أجلها فيما سبق ، لأنه هناك بصدد تفتيق أساسيات مسألة وهنا بدأ يشرح ويقسم ، فهو حين يذكر هذا النوع من التشبيه يضع له القاعدة التي تشمله فيقول " لا بد لك في هذا الضرب من الشبه من جملة صريحة أو حكم الجملة ."(١) ثم يعدد أنواعها . . . وقد أحس عبد القاهر باتساع هذا النوع فقال " وخصائص هذا النوع من التمثيل أكثر من أن تُضبط وقد وقفتك على الطريقة ".(٢)

فحقائق هذا الباب تفيض بين يديه وحصرها بحاجة إلى جهد ونظر واستقصاء في الكلام ، وكان ظنه في أهل العلم من بعده خيراً - رحمه الله - وقد رأى أن هذا الوجه من أقوى الوجوه في التمثيل ، لأن وجه الشبه ينتزع من الفعل وما يتمدى إليه . يقول :

" . . فهذا أحد الوجوه التي يكون الشبه العقلي بها حاصلاً لك من جملة من الكلام وأظنه من أقوى الأسباب والعلل فيه ".(٣)

وهذا النوع يكثر وجوده في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ودواوين الشعراء ،وقد استقصيت التمثيل عند أبي فراس الحمداني فوجدت أكثره من هذا النمط يتمدى فيه الفعل إلى أجزاء الجملة ليكون منه وجه الشبه ، يقول أبو فراس :

ورُبَّ كلامٍ مَرَّ فوقَ مسامعي   كما طنَّ في لُوحِ الهجير ذُبابُ(٤)

---

(١) و (٢) و (٣) اسرار البلاغة : ٨٦ .

(٤) لوح : هواء ،الهجير : الحر الشديد ،الديوان : ١٤ .

فالفعل قد تعدى إلى الجار والمجرور ، والشبه منتزع مما بين طن الذباب ولوح الهجير. ويقول :

تَرَدّى رداءَ الذّلِ لما لقيتهُ ... كما تتردّى بالغُبار المناكـبُ (١)

تعدى الفعل إلى الجار والمجرور والشبه منتزع مما بين التردي والمناكب والغبار .وقوله :

وَلَوْ شِئْنَا حَمَيْنَاهَا البوادِي ... كما تَحْمِي أُسودُ الغابِ غَابَـا (٢)

الشبه مأخوذ من الجملة (تحمي أُسود الغاب غابا) .

وقولـه :

تَرَكْنَاكَ في بطنِ الفلاةِ تجوبُها ... كما انْتَفَقَ اليربوعُ يلتثِمُ التُرابا (٣)

ويلتثم الترابا صفة لانتفاق اليربوع وإليها يتعدى . والجملة حالية .

وقولـه :

تُدافِعُني الأيام عما أُريده ... كَمَا دَفَعَ الدَّينَ الغريمُ المماطِلُ (٤)

فالوجه في كل ذلك منتزع من الفعل وما يتعلق به ،والتركيب هنا له هيئة يتميز بها ،وكأنه قصة حدث أي فعل وما يتعلق به " تحمي أُســود الغاب غابا " " طن في لوح الهجير ذباب " " أخذ القوس باريها " " يجمع السيفين في غمد ".

وهذا غير ما في قوله تعالى ﴿ إنّما مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزلنَاهُ من السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأنْعَامُ حتّى إذَا أَخَذتِ الأرضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرون عليها أَتاهَـا أَمْرُنَا لَيلاً أو نهاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كأن لَّم تَغْنَ بالأمْسِ ﴾ لأن الصورة

---

(١) الديوان : ٢٣ .
(٢) الديوان : ٢٠ .
(٣) الديوان : ٢٨ .
(٤) الديوان : ١٣٧ .

هنا متنوعة العناصر والأحداث وهي أحرى باسم التركيب والتداخل فقد مُثلَ للحياة الدنيا بحالة الماء الذي نزل إلى الأرض فاهتزت له وابتهجت وأينعت من كل ما ينفع الناس والأنعام ففرح أهلها وظنوا أنهم بلغوا مرادهم ففاجأها أمر الله فصارت هشيمة يابسة ، والمشبه به هيئةتركيبية في غاية اللطافة والدقة ترتبت فيها الجمل ثانيها على أولها وثالثها على ثانيها ،فكونت بناء متكاملاً يختل إذا ما سقطت جملة منه ، وهي عشر جمل ترابطت فصارت كأنها جملة واحدة لها نسق واحد وبناء واحد ،فالمشبه به الماء وجملة * أنزلناهُ من السَّماءِ * صفة لها ، وقوله * فاختَلَطَ بهِ نَبَاتُ الأرضِ * معطوف على * أنزلناه * وقوله * مِمَّا يأكُلُ النَّاسَ والأنعَام * جملة صفةلقوله * فاختلطَ * ، ثم تأتي جملة * حتَّىإذَا أخَذتِ الأرضُ زُخْرفَهَا * جملةشرطية عطفت عليها جملة * وازينَتْ * وجملة * أتَاهَا أمْرُنَا * جواب الشرط وجملة * فَجَعَلنَاهَا حَصِيداً * معطوفة على جوا ب الشرط . . .

وهكذا . . . نرى الكلام قد تشابك وكون هذه الصورة الحية بعناصرها الكثيرة انتزع من مجموعها وجه الشبه يقول عبد القاهر : " ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر حتى إنك لوحذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه "(١) وهذه الصورة تختلف عن آية حملة التوراة لأن تلك امتزاج واختلاط ،وهذه الآية مراحل متتابعة مرتبة ترتيباً مخصوصاً ، لا تتقدم جملة ولا تتأخر ولا تحذف ،ولا تضاف وإلا أختل المعنى .

---

(١) أسرار البلاغة :٨٧ .

وهناك نوع آخر كأنه وسط بين النوعين السابقين فالمشبه بـه ليس حدثاً واحداً أعني فعلاً بمتعلقاته كأخذ القوس باريها ، والفتل في الذروة والغارب ، وليس أحداثاً كثيرة متلاحقة ومرتبة على حد آية * مثل الحياة الدنيا ... * وإنما هو جملتان أوحدثان يمثلان ابتداءً وانتهاءً كقول الشاعر :

لَقَدْ اطْمَعَتْنِي بالوِصَالِ تَبَسماً   وَبَعْدَ رَجَائِي أعرضَتْ وَتولتِ

كما أبْرَقتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ   فلما رَأوْهَا أقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فالمشبه به السحابة التي عرضت لقوم هم في غاية الحاجة إليها ، فلما رأوها طمعوا فيها وأملوا الرجاء منها بالماء الذي يطفيء ظمأهم ، ويبدد حرقتهم ثم ما لبثت هذه السحابة أن تفرقت وذهبت فذهب معها أملهم ، فهي مثل لابتداء مطمع مع انتهاء موءيس ، فالابتداء المطمع جملة أو حدث يصور أملهم " ابرقت قوماً عطاشاً غمامة " والانتهاء الموءيس جملة أوحدث يصور ذهاب الرجاء ونهاية الموقف الأول على غير ما كان متوقعاً " فلما رأوها اقشعت وتجلت ".

فالوجه هنا يقتضي الترتيب على حد جملة الشرط ، فالجواب يترتب على فعله ، وهذا النوع قد يتوهم فيه أن إحدى الجملتين تحقق التشبيه ثم لا يكون كذلك عند التأمل والتظر ، فالمعنى لا يكمل بالجملة الأولى بل لا بد من الجملة الثانية التي يحصل بهما إقامة الشبه وتحقيقه . وهذا النوع وجوده نادر في الشعر ، ولم يقع عليه إلّا عبد القاهر ونقله المتأخرون عنه ولم يضيفوا إليه .

وهكذا .. كانت طريقة عبد القاهر هي تصفح الكلام والنظر فيه ليلتقط صور هذا الفن ونوادره ويضعها أصلاً يقاس عليه بلاغة

أهل الكلام في هذا الفن .

وبيت الشاعر هذا وترتيبه على هذه الطريقة ليس كقولنا " هو يصفو ويكدر " لأن قولنا هو يصفو ويكدر يصف المذكور في حالين مختلفين حال الصفاء وحال الكدر دون أن يربط أحدهما بالآخر ،وأن يكون أولهما مسلماً لآخرهما ،فإذا قلنا هو يصفو فيكدر أوهو يصفو ثم يكدر تكون قد اقتربنا من قول الشاعر :

وما ينتزع منه وجه الشبه من جملتين ولا يتصور فصل إحداهما عن الأخرى قول يزيد بن الوليد لمروان بن محمد " بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام". وهذا مثل جاء على حد الاستعارة ويضرب لمن يتردد بين أمرين ،والمعنى لا يكتمل إلا بالجملتين فإن قلنا تقدم رجلاً دون وتؤخر أخرى انعدمت الفائدة وكذلك لو قلنا تؤخر أخرى دون " تقدم رجلاً ".

وهكذا فإنّ عبد القاهر يرى أن أحوال التمثيل المركب لا يأتي على حال واحد وإنّما قد يكون فعلاً وما يتعلق به ،وقد يكون جملتين مرتبطتين برباط واحد . وهذا الرباط قد يختلف فمنه ما يكون الغرض منه مجرد الجمع مثل" يصفو ويكدر" ، وقد يكون الجمع مع الترتيب مثل " يصفو فيكدر " وقد يكون أساس الترتيب هوابتداء وانتهاء مثل البيت السابق,وقد يكون التركيب مبنياً على عدة جمل مثل آية * مثل الحياة الدنيا * وهكذا نجد كل ذلك من باب التمثيل المركب.

ثم يقول عبد القاهر إن هذه الأمثلة التي جاءت بدون كاف التشبيه والتي جاءت على طريق الاستعارة ترجع في الأصل إلى التشبيه وإن لم

يصرح فيها بحرف التشبيه ،لأن الاستعارة تقوم على التشبيه فالمعنى " مثلك مثل من يقدم رجلاً ويؤخر أخرى " ،"وأنت كمن يرقم في الماء " ، " وكمن يضرب في حديد بارد " . ونجده يضبط المسألة في كتابه دلائل الإعجاز يقول " وأما التمثيل الذي يكون مجازاً لمجيئك به على حد الاستعارة فمثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه " أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى " ثم اختصر الكلام . . وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحوا التمثيل ثم لم يفصحوا بذلك وأخرجوا اللفظ مخرجه إذا لم يريدوا تمثيلاً ".(١) . ويميز عبد القاهر المسألة حين يذكر أن المقصود بالمماثلة عند أبي أحمد العسكري هو التمثيل حتى وإن لم تقم على التشبيه . والظاهر أن المماثلة عند العسكري هي الاستعارة التمثيلية بدليل قوله " وذكر أبو أحمد العسكري أن هذا النحو من الكلام يسمى المماثلة ،وهذه التسمية توهم أنه شيء غير المراد بالمثل والتمثيل ، وليس الأمر كذلك كيف وأنت تقول " مثلك مثل من يقدم رجلاً ويؤخر أخرى " ووزن هذا أنك تقول زيد الأسد فيكون تشبيهاً على الحقيقة وإن كنت لم تصرح بحرف التشبيه ".(٢)

ثم يذكر عبد القاهر حقيقة تتصل بالتمثيل و هي أن المثل أي التمثيل قد يكون جملة مسبوقة باسم هو المشبه به ويكون بقاء هذا المشبه به ضرورة بحيث لا يصلح أن تنقل هذه الجملة إلى المشبه ،لأنه لا يصح إجراؤها عليه ،ولا يصح حذف المشبه به وإجراء جملة المثل على المشبه .

وهذا الاسم يكون إمّا اسمًا موصولاً والجملة صلته ،أونكرة والجملة صفة ، أو معرفة والجملة مبتدأة.

---

(١) دلائل الإعجاز : ٦٨-٦٩ . (٢) أسرار البلاغة : ٩٠ .

والنوع الأول الذي يكون فيه المشبه به اسماً موصولاً ومابعده صلة الموصول كقوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾.

والنوع الثاني حين يكون المشبه به نكرة ومابعده صفة لها كقول النبي صلى الله عليه وسلم " الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة ".

والثالث : كقوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ العنكبوت اتَّخَذَتْ بيتاً ﴾ فالمشبه به معرفة ومابعده جملة مبتدأة .

وهذا استقصاء لأحوال هذا الاسم (المشبه به) لأنه لايخرج عن أن يكون معرفة أو نكرة ،ثم إن المعرفة إذا كانت معرفة بالموصولية كان المنظور إليه معه هو الصلة.

مواقع التمثيل وتأثيره :

يبدأ عبد القاهر بهذا الفصل مرحلة ثانية في البحث عن التمثيل فالأولى اعتنى فيها بوضع الملامح الأساسية للتمثيل فبين أن أبرزها بناء التمثيل على التأول وشرح هذا التأول ،ووضح الفرق بينه وبين الصريح ، ثم نظر إلى أحوال المشبه به فيه ، فوجد أنه قد يكون مفرداً وقد يكون مركباً ثم نظر في أحوال المركب فوجده لا يأتي على حال واحدة .

وهنا ينظر إلى التمثيل من ناحية علقته بالقلب ومسايرته لأحوال النفس فيحلل هذا العلقه .

وهوفي تحليله هذا يتابع ويتغلغل ويخرج الفكرة من وراء الفكرة ، ويبحث عن العلة من وراء العله ،ولا يزال ينسج خيوطاً من المعارف والحقائق بخيوط يستلها من مكامنها الغائرة من فقه هذا الفن ويكشف عن أعمق ما فيه ،وأغمض مافيه ،وأرحب ما فيه .

ويبين عبد القاهر أن المعاني البسيطة باللغة المجردة التي لا تثير ولا تلفت إذا صيغت بأسلوب التمثيل علا مقدارها ،وارتفع شأنها ، وصارت لهامكانة أخرى ، فالمعاني بالتمثيل تتغير و تصير معاني أخر وتظهر بثوب آخر ، وفي معارض حسنه .

يقول عبد القاهر " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ،كساها أبهة ،وكسبها منقبة ، و رفع من أقدارها ، وشبّ من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس

لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً ".(١)

ويدور كلام عبد القاهر في بيان أثر التمثيل على نقاط عني بالكشف عنها وأرجع كلامه إليها .

١ - أثر أسلوب التمثيل على المعنى نفسه :

وهنا يذكر عبد القاهر أن المعنى يكتسب بهذا الأسلوب منقبة يعني شرفاً وسمواً ، وكأن المعاني ترتفع وتتضع ، وأن طرائق رفعتها واتضاعها هي وسائل صياغتها وهذه مسألة مهمة ، لأنها لا تفضل باباً من أبواب المعاني على باب آخر وإنّما تجعلها كلها في باب الأدب سواء ، وإنّما يكون التفاضل بوسائل الإبانة وطرائق اللغة ، وتصاريف الكلام .

ويذكر عبد القاهر أيضاً أن أسلوب التمثيل يمنح المعاني شيوعاً واتساعاً " شبّ من نارها " ويرفع قيمتها ويكسبها منقبة يعني أن رواة الكلام يتناقلونها لجودتها فتشيع وتنتشر ، وقديماً وصف الشعراء الشعر الجيد بهذا ، وأنه يهب مع الريح أو أن الشاعر يهديه مع الريح ، وأنه يرد المياه أي يتناشده الركبان وهم واردون وتقول العرب بيت سائر تحدو به الإبل ولفظ شارد ، وجاء في وصف الشعر الحسن الذي يتداوله الرواة وتتهاداه الألسن قول القاضي أبي الحسن :

وَجوّابةُ الأفقِ موقوفة تسيرُ ولم تَبرحْ الحضره (٢)

---

(١) أسرار البلاغة : ٩٢-٩٣ .

(٢) المصدر السابق : ١١٢ .

٢ - أثر أسلوب التمثيل في نفس السامع :

وهنا تفتنّ عبارات عبد القاهر في الكشف عن هذا الأثر ،فالتمثيل يضاعف قوى النفس في تقبل هذه المعاني واحتضانها ، ويستثير لها من أقصى النفس الصبابة الكلف ، وهذه عبارة عجيبة في الكشف عن قوة اللغة ومداخلتها أقاصي الأفئدة ، وإهاجتها الصبابة والكلف ،وهو الحب كل الحب والاندماج كل الاندماج والمخالطة كل المخالطة ،وهذا هو السحر الذي جاء في عبارة المصطفى صلى الله عليه وسلم " إنّ من البيان لسحرا " . عبد القاهر هنا يكشف ضرباً من المحبة للغة ،كأنه حب الواله المتيم " من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ".

ثم يبين عبد القاهر أن هذا الفن يأتي في سائر أبواب المعاني الشعرية والنثرية فيرتفع بها إلى مرتبة عالية من التأثير يبلغ بها الغاية التي جاء من أجلها .

يأتي في المديح ،فيهز نفس السامع ،ويطربها ،ويشيع الفضائل النفسية التي يتضمنها أسلوب المديح ،ويعظّمها في نفوس السامعين ، ويغريهم بها ،ومن ثم تُلَبى حوائج القائل ، وتقبل شفاعته وذلك لأنه أتى ببديع المعاني وأجل الصور وكان كما قال الأعشى :

والشِّعْرُ يَسْتَنْزِلُ الكريمَ كما ... يُنْزِلُ رَعْدُ السَّحابةِ السَّبَلا (١)

ثم لا تلبث مقالته أن تسير سير الأمثال ،فتخلد ذكر الممدوح وتحيي ذكره أبداً .

إنّ الثناءَ ليحيي ذكرَ صاحبِهِ ... كالغيثِ يُحيي نَداهُ السهلَ والجبلا (٢)

ويأتي في الذم ،فيكون أشد ما يكون الهجاء ،ويبلغ جرح اللسان به كجرح السنان بل أشد ، ووقعه كوقع السيف .

---

(١) ديوان الأعشى : ١٣٨ . (٢) العمدة ،ابن رشيق : ٢٩/١ .

كما أنه يأتي في الحجاج ، وبالرغم من أنه مجال عقلي ليس من مجالات الأدب ، حيث تتصارع فيه الحقائق الفكرية والعقلية ، إلّا أن التمثيل يلح على هذا الباب ، فيُسطع الحجة ، ويقوي برهانها ويأتي أيضاً في الاعتذار فينزع سخائم النفس وأحقادها ويعقدها برباط المحبة ، فيفعل ما يفعله الراقي في العقد وهكذا يقرن الكلام بالسحر والنفث في العقد ، فهو من أشد الوسائل التأثيرية في النفس.

ويأتي أيضاً في الافتخار والوعظ وغيرها من معاني الكلام ، فالتمثيل يدخل في مختلف أنماط الكلام ، لأنه يمثل جزءاً من طبع هذا اللسان وهذا ما أشار إليه حين قال "وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه وتتبعت أبوابه وشعوبه "(١).

وهذا يعني أن نتتبع التمثيل في كل معنى من المعاني الشعرية في القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام العرب لنقف على التمثيل في المديح ، والتمثيل في الهجاء ، والتمثيل في الوعظ . . . إلى غير ذلك من أبواب المعاني .

ثم يُدخل عبد القاهر قوله السابق في مجال التطبيق ، ويمثل لهذه الأغراض ، ويبين الفرق بين مجيء المعنى مجرداً ومجيئه ممثلاً فيتغلغل في الكلام ليوقفنا على هذا الأثر ، ويبين أثره في النفس.

يذكر قول البحتري :

دانٍ على أيدي العُفاة وَشاسِعُ عَنْ كُلِّ نِدٍ في النّدى وضريب

كالبَدْرِ أفْرطَ في العُلوِ وضَوْءُهُ للعُصْبَةِ السَارينَ جِدُّ قَريب

ثم يقول " فكر في حالك وحال المعنى معك وأنت في البيت الأول لم

---

(١) أسرار البلاغة : ٩٦ .

تنته إلى الثاني ولم تتدبر نصرته أياه ،وتمثيله له فيما يطلى على الإنسان عيناه ويؤدي إليه ناظراه ، ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه ، وتأملت طرفيه ،فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك ، وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك وتحببه إليك ،ونبله في نفسك ،وتوفيره لأنسك ، وتحكم لي بالصدق فيما قلت والحق فيما ادعيت ".(١)

عبد القاهر هنا يحلل حركة النفس حين تتلقى المعاني والصور ، فيصف حالات الإحساس بها ويرصدها رصد من تكشفت له طبائع النفوس ، وأخفى أحوالها فرآها ملء عينيه ونفسه فأقام عليها تجاربه ،وخرج بنتائجه انظر إليه وهو يقول " فكر في حالك .. وحال المعنى .. ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه .. فهو يدعونا إلى التأمل واستبطان المعنى المجرد ،والاستقصاء في التعرف عليه . فالمعنى انتقل من مستوى إدراكي خفي إلى مستوى الإبانة الحسي ، فبعد أن كان العقل يعالج المعنى صارت العين تراه ،فالإحساس بالمعنى ليس عن طريق الأذن فقط إنما أيضاً عن طريق الرؤية والنظر وهكذا تتعدد نوافذ المعنى إلى القلب بفضل طريقة التمثيل.

ثم إن طريقة عبد القاهر هذه طريقة جليلة في التدرب على كيفية قراءة النص الأدبي وتذوقه ،ومن ثم تمثله وتلمس أسراره وخوافيه وكل ذلك يحتاج إلى متابعة وممارسة دؤبة حتى تصقل الحاسة ،وتصدق الموهبة ، فمعرفة طبائع الكلام ،وإدراك فروق المعاني لا تتأتى إلا بصقل النفس وأخذها في ذلك مأخذ الجد والمثابرة.

---

(١) المصدر السابق : ٩٨ - ٩٩.

ويعول عبد القاهر هنا على ما يجده المرء في فؤاده ،وهذه طريقته في أكثر من باب ، فهو يتذوق الكلام ،ويبين مزيته ،ثم لا يذكر ما يضبط المسألة ،وإنّما يعول على أثرها في النفوس ،وفي ذلك دلالة على أن القدرة على ضبط كل أسرار بلاغة الكلام في ضابط علمي محدد لم تتح بتمامها لا لعبد القاهر ولا لغيره ،وإنّما تجد في كلام الجميع تعويلاً على ما يجده المرء في فؤاده .

انظر إلى كلام عبد القاهر في حذف المسند إليه لا تجده يذكر علة واحدة لبلاغة الباب وإنّما يرجع إلى النفس دائما وما يجده فيها فيقول " تأمل الآن هذه الأبيات كلها واستقرها واحداً واحداً أوانظر إلى موقعها في نفسك ،وإلى ما تجده من اللطف والظرف "(١) .

وفي باب التمثيل يقول " وكذلك فتعهد الفرق بين أن تقول : " فلان يكد نفسه في قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئاً وتسكت وبين أن تتلو الآية وتنشد قول الشاعر:

زَوَامِل لِلأَشْعَارِ لاَ عِلْمَ عِنْدَهُم ... يجَيِّدِهَا إلّا كَعِلْمِ الأَبَاعِرِ

لعَمْرُكَ ما يَدْرِي البَعِيرُ إذَا غَدَا ... بأَوْسَاقِهِ أَو رَاحَ مَا في الغَرَائِرِ"(٢)

أي ارجع إلى الكلام الأول واعرف أثره في نفسك ثم اقرأ الكلام الثاني -وتأمل إحساس نفسك به وتأمل الفرق بين الحالين .

ففي القول الأول عبر عن معنى الكد في القراءة مع عدم الفهم بألفاظ مجردة لا وجه للمزية فيها ،ويذكر آية حملة التوراة تمكن المعنى من النفس بهذه الصورة العجيبة التي اقترنت باليهود وحملة التوراة .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٥١ . (٢) أسرار البلاغة : ٩٩ .

أما قول الشاعر فقد شبه حملة الأشعار في جهلهم بها بالبعير الذي يحمل فوق ظهره الغرائر ولا يدري مابها .

والصورة الأولى أبلغ وأوضح لأنّ عناصر الصورة أكثر بروزاً وتجسيداً ، ثم إنّ تمثيل الجاهل بالحمار الذي هو مثل في البلادة والغباوة وقلة المعرفة أنسب وأوقع من تشبيهه بالبعير .

وكذلك فرق بين أن تقول " أرى قوماً لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر بل في الأخلاق دقة ، وفي الكرم ضعف وقلة " ، وبين أن تتبعه بقول الحكيم " أما البيت فحسن وأما الساكن فردي‌ء " وقول ابن لنكك :

في شجر السّرو منهم مثلٌ   له رواء وماله ثمـــــــــــر

وقول ابن الرومي :

فغدا كالخلاف يورق للعيـ   ـن ويأبى الإ ثمار كل الإباء

وقول الآخر :

فإن طرة راقتك فانظر فربّما   أمرّ مذاق العود والعود أخضر " (١)

الصور كلها مثل لمن له مظهر وليس له مخبر ، والشعراء قد اختلفوا في تصويره ، فالأول يشبهه بالبيت ، والثاني بشجر السرو ، والثالث بشجر الخلاف ، والرابع بالعود الأخضر .

وعبد القاهر يريد أن يوقفنا على حسن صور التمثيل ، وما تحدثه في المعنى المجرد الذي عبرت عنه ، وإن تعددت وتنوعت في تمثيلها كما كان يريد أن يوقفنا على معرفة طبقات الكلام ودرجاته في التعبيـــر

---

(١) المصدر السابق : ٩٩ .

عن الغرض الواحد ،ونحن نلمح الحسن في قول ابن الرومي :

بَذَلَ الوَعْدَ للأخلاءِ سَمْحاً . وأبَى بعد ذاك بَذْلَ العطاء

فَغَدَا كالخلاف يُورِق للعين ويأبَى الإثمارَ كُلَّ الإبـــاء

فقد أسند الإباء للخلاف فهو يأبى ويرضى بل ويبالغ في إبائه حين يقول كل الإباء ،ثم قابل بين "بذل الوعد " والخلاف الذي يورق للعين . وقابل بين " أبى بذل العطاء " وبين " يأبى الإثمار " ثم انظر إلى وجه الفرق بين قوله في المشبه به „ يورق - ويأبى" : بالمضارع ،وفي المشبه „ بذل وأبى " بالماضي ،وانظر إلى قوله "بذل " ثم " يأبى كل الإباء " وقد استسقط بعض أهل العصر هذا التمثيل ، لعلل ليست لهم وسوف نفرد ذلك بالنظر في موضع آخر .

ولنستمع إلى قول عبد القاهر وقد غلب عليه الإحساس بالحسن في بناء التمثيل عقب المعاني " وانظر إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر ويفتر ثغره ويبسم ،وكيف تشتار الأرى من مذاقته كما ترى الحسن في شارته ".(١)

ويستمر عبد القاهر في بيان الفرق بين العبارات المجردة وصور التمثيل من حيث إحساس النفس بها فيقول " انشد قول ابن لنكك :

إذا أخو الحُسن أضحى فعله سمجاً

رَأيتَ صُورته من أقْبَحِ الصور

وتبين المعنى واعرف مقداره ثم انشد البيت بعده :

وهَبْكَ كالشّمس في حسن ألم ترنـا

نفرمنها إذَا مَالتْ إلى الضّــرر

وانظر كيف يزيد شرفه عندك ".(٢)

---

(١) المصدر السابق : ٩٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٠٠ .

وهذا عند عبد القاهر يعد تفصيلاً تحليلياً لما قاله في صدر كلامه تأمل قوله "كيف يزيد شرفه" وقارنه بقوله قبل ذلك "وكسبها منقبة ورفع من أقدارها ..".

ننظر إلى البيت الأول فنجد كيف أنه يثير في النفس تأملات وتساؤلات كيف يكون فِعْلُ الإنسان سبباً في قبح صورته ؟ ومتى يكون ذلك ؟ وما علاقة خَلْق الإنسان بخُلُقه ... ثم يأتي البيت الآخر فيجيب بالحجة والدليل "وهبك كالشمس .." بصورة قريبة من الإنسان صورة الشمس التي نراها في كل وقت من اليوم تستدفئ بها و ننتفع بها لكنها إذا مالت إلى الضرر ابتعدنا عنها ،وكذلك الجميل المنظر من الناس تتعلق به الأنظار ويتعامل معه الناس ويحبونه ،فإذا ما ظهر قبح عمله ، نفروا منه وابتعدوا عنه ، فأخفت أفعاله حسن صورته .. وهكذا نجد النفس في حركة دائبة تبحث عن الحجة والدليل ويصير المعنى القلق المستغرب مقبولاً مأنوساً واقعاً في النفس متمكناً .

ويكثر عبد القاهر من أمثلة هذا الباب فقد حرص على أن يدرب القارئ على كيفية تلقي هذا النوع من المعاني فيخاطب قارئه بمثل " انظر كيف يزيد شرفه عندك ... وانظر هل نشر المعنى تمام حلته وأظهر المكنون من حسنه ... قابل بين أن تقول ... وأن تقول واستقص في تعرف قيمة المعنى و حسن مزيته مجرداً ثم اتبعه إياه بقوله كذا ... وكذا ... "(١) إلى غير ذلك من جمل اللفت والإثارة .

---

(١) المصدر السابق :١٠٠ - ١٠١ .

ونكتفي بما تناولناه من أمثلة ،وحسب القارئ أن يرجع إلى كتابه ليقف بنفسه على كلام الشيخ ،وكده في تقريب محاسن هذه اللغة الشريفة إلى نفوس طلابها ، واختياره للأمثلة من الكلام العالي القدر من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ومن دواوين الشعراء (١) .

---

(١) انظر المصدر السابق ١٠٠-١٠١ .

أسباب تأثير التمثيـــــل

انتقل عبد القاهر إلى هذا البحث ليبين أسباب تأثير التمثيل على النفس بعد أن سجل أدق آثاره في النفس ، وهنا يبحث عن علـــة هذا التأثير لماذا يستثار لها الكلف والصبابة ، ولماذا تعطيهـــا النفوس محبة وشغفاً ؟ ، ولما ينشر تمام حلته ؟

وقد بدأ كلامه بإثارة عديد من الأسئلة تدور حول بحثه عن الأسباب يقول " فأما القول في العلة والسبب : لم كان للتمثيـــل هذا التأثير ؟ وبيان جهته ومأتاه وما الذي أوجبه واقتضاه ؟ " (١)

فعبد القاهر يفتح بهذه الأسئلة باباً جديداً من أبواب البحث في بلاغة هذا الأسلوب ،وهذه من الطرق البارعة في إثارة قضايا العلم بالإلحاح على المسألة ؟ و محاصرة جوانبها حتى تتكشف أسرارها .

وإذا كان البحث عن المزايا من أنفس مباحث هذا العلم الجليل فإن الذي هو أنفس منه البحث عن أسباب هذه المزايا ، لأنه نظـــر في الباب الأعلى ، وبحث في المسألة الأرقى ،أعني أنه يأتي في درج تصاعد البحث بعد البحث في المزايا ، وهو باب معارفه قليلة وليس فيه شيء يزيد عن مقالة عبد القاهر في باب التمثيل وغيره .

ويقرر أن هذه الأسباب والمزايا لأهميتها يتحقق بها فخامـــة التمثيل و نبله وشرفه وكماله يقول " وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا لـــه أسباباً وعللاً كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل و ينبل ، ويشرف و يكمل ".(٢)

---

(١) أسرار البلاغة : ١٠٢ .   (٢) المصدر السابق : ١٠٢ .

وهذه الأوصاف وإن اختلف مفهوم كل صفة فهي كالمترادفات تدور حول أصول واحدة في الكلام.

وقد بدأ ببيان الأظهر فالأظهر ،انظر إليه وهو يقول : " فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي،

*

الخروج من خفي إلى جلي :

من المعلوم أن النفس تأنس وتستروح للأشياء حين تظهر بعد خفاء ،أي تنتقل من مستوى إدراكي غامض إلى آخر أوضح منه كأن يصرح بها بعد كناية عنها أو تنتقل من صورة من صور المعرفة إلى صورة تكون فيها أعرف.

وفي التمثيل يخرج المعنى من المعقول إلى المحسوس المصور المرئي ، وفي ذلك أنس للنفس ،لأن النفس تقف على الشيء وتعاينه بعد أن كانت تسمع به وتفهمه ولا تراه ، ولأن المحسوس أقوى في الاستدلال والبرهان ، ولأنه موصول بالنفس والفطرة ، فهي حين يلوح لها الشيء الخفي تتطلع للإبانة عنه ،ومعرفة حقيقته ،فتصير في حركة دائبة من البحث عما يريحها ويجلي لها خوافيه ،ويكشف غلالة الإبهام عنه ،فإذا ما انكشف المعنى في صورة محسوسة ارتاحت النفس له ،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أخبر بالنفس الإنسانية ، " ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين " .فعبد القاهر ذكر هذا الحديث مدللاً على أصالة الشيء المحسوس المدرك.

ونلاحظ أن عبد القاهر انتقل في التعرف على أصول هذا الفن من التأمل ومتابعة وجه الشبه إلى النظر في الطرفين . . ومزايا التمثيل كلها أتت عن طريق التأمل في الطرفين.

والتحول من مستوى إدراكي إلى آخر قد فطن إليه الرماني في دراسته لتشبيهات القرآن الكريم قبل عبد القاهر، ومما لا شك فيه أن عبد القاهر قد أطلع على كل التراث التشبيهي للسابقين ووجد بذوراً لمادته عند الرماني .

ويؤكد الدكتور محمد أبو موسى ذلك، ويرى أن كلام عبد القاهر شرح بارع وتفسير ذكي لما أجمله الرماني (١) يقول عبد القاهر وهو بصدد الحديث عن مزايا التمثيل " فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع" (٢).

ويقابل الدكتور محمد أبو موسى بين عبارات عبد القاهر وعبارات الرماني للوقوف على هذا التأثير، فقول الرماني " والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر" (٣) تجده في قول عبد القاهر " إنّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي " وقول الرماني " إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه" (٤) هو قول عبد القاهر " نحو أن تنقلها من العقل إلى الحس" وقول الرماني " إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة " (٥) هو قول عبد القاهر " وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع".

---

(١) انظر الإعجاز البلاغي : ٩٩ . (٢) أسرار البلاغة : ١٠٢ .
(٣) و (٤) و (٥) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٨١ .

ولم يقف عبد القاهر عند بيان علة التأثير السابقة ،وهي أن أنس النفس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي وإنّما انتقل يبحث عن علة هذه العلة ، فوقف يبحث لماذا تأنس النفس بالمعرفة الحسية ، ويجيب عن ذلك بأن المحسوسات هي الوسيلة الأولى لعلم الإنسان حيث لم يكن يدرك إلاّ المحسوسات التي يقع عليها بصره ،ويلمسها بيديه ، لأنّ عقله وإدراكه لا يتسع إلاّ لذلك ثم انبثقت معرفته بها ، فبعد أن أدرك المحسوسات من حوله تطورت دلالاتها فتحولت إلى معانٍ عقلية ،ولهذا نجد أكثر كلمات اللغة لها أصل حسي سابق لمعانيها الذهنية ، والإنسان-كما يقول عبد القاهر- يحن ويشتاق للقديم مهما كان بدائياً ، لأنه يرى من خلاله أصول فطرته وهنا يتمثل بقول الشاعر:

نَقّل فؤادك حيث شئت من الهَوى ما الْحُبُ إلاّ للحبيـــــب الأولِ

وبهذا يكون عبد القاهر قد وصل حقيقة القول بعلة العلة .

وقد تفرع من كلام عبد القاهر في مسألة أنس النفس بالتمثيل حديث عده المتأخرون من أغراض التشبيه ، فقد رأى أن التمثيل يأتي فـــي معانٍ وأغراض ، والمعاني التي يجيء التمثيل في عقبها على ضربين : أمّا غريبة بعيدة أي أن المعنى مشكوك في وجوده لغرابته ولذلـــك فهو يحتاج إلى ما يثبته ويبرهن على صحته ،فتأتي صورة التمثيل لتفعل ذلك ،كقول المتنبي :

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ مِنهُـمُ فإنّ المسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَـزالِ

يقول الشاعر : إن الممدوح فاق الأنام حتى إنه خرج عن جنس البشر، فاحتاج إلى ما يثبت دعواه ،فشبهه بالمسك الذي هو من جنس الـــدم إلاّ أنه خرج عن صفة الدم وحقيقته إلى أجناس الطيب.وبهذا فالتمثيل قد أثبت الحجة ونفى الريب عنها .

وصياغة المتنبي هنا صياغة واعية لطبيعة المعنى ، لأنه جعل طرفي المعنى أعني المعنى الغريب " تفق الأنام وأنت منهم " والمعنى الذي هو مثال " المسك بعض دم الغزال " جعل ذلك طرفي جملة بواسطة حرف الشرط " إن " فرمى المعنى وصورته وبرهانه وحجته " في النفس مرة واحدة ، ولم يدع النفس لحظة مع المعنى المجرد وما يحتوره من شك واستغراب ، وإنّما جعل الصورة من تمام الكلام .

والغرض الثاني بيان مقدار المعنى ، والمعاني تتفاوت مقاديرها في العقل وتختلف فيأتي التمثيل ليحددها كقول الشاعر:

فأَصْبَحْتُ مِنْ ليلى الغَداةَ كقَابِضٍ على الماءِ خَانَتْهُ فروجُ الأَصَابعِ

فجملة التشبيه جاءت خبراً " لأصبحت " حيث لا يتم المعنى إلاّ بجملة التمثيل .

ويقول عبد القاهر " الشاعر لما قال " كقابض على الماء خانته فروج الأصابع " أراك رؤية لا تشك معها ولا ترتاب أنه بلغ في خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصى المبالغ " (١) .

ثم يعمم عبد القاهر المسألة فيقول إنّ التمثيل في أعقاب المعاني يأتي لزوال الشك والريب ، ثم يحقق ويحرر المسألة فيرى أن هذا الحكم قد يتخلف في بعض صور التمثيل لأنّ الخبر أحياناً لا يكون بحاجة إلى ما يثبته أو يبين مقداره إنّما يكون مثبتاً بصدق الخبر وله مقدار معروف ، وفي هذه الحالة يبقى للتمثيل قيمة بلاغية رفيعة وهي تأثير الصور الحسية في النفس مع العلم بصدق الخبر . يقول عبد القاهر:

---

(١) أسرار البلاغة : ١٠٥ .

" ونحن بنوع من التسهيل والتسامح نقع على أن الأنس الحاصل بانتقالك في الشيء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب ". ثم يقول " فأما إذا رجعنا إلى التحقق فإنا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر "(١) فمن شأن الصور المحسوسة التأثير في النفس حتى ولو كان المعنى ليس موضع شك ومعلوم المقدار .

وقد عول المتأخرون على ما ذكره عبد القاهر في المعاني التي تجيء التمثيل في عقبها واسموه أغراض التشبيه واكملوا ما بدأه من أغراض .

وبعد أن حرر عبد القاهر هذه المسألة ذكر أن فائدة التمثيل أنس النفس وطمأنينتها بالمعاني ،كما جاء في القرآن الكريم حكاية عن إبراهيم عليه السلام حين سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى مع إيمانه الجازم بالقدرة الإلهية حيث أراد أن يعلم بالعيان ما كان يدركه بوجدانه فتأنس نفسه ولذلك قال الله تعالى له * أَوَلَمْ تُؤْمِن قال : بَلَى ولكن ليطمئن قلبي *(٢) .

فالرؤية تؤنس النفس ،وتشرح الصدر، وتجدد العهد بالمعاني . ومشاهدة صور التمثيل بالعين شاخصة وهي تحدث تختلف عن رؤيتها من خلال الأذن ،وعبد القاهر يفرق بينهما .

يقول " فأنت إذا قلت للرجل أنت مضيع للحزم في سعيك ومخطيء وجه الرشاد وطالب لما لا تناله إذا كان الطلب على هذه الصفة ،ومن هذه الجهة ثم عقبته بقولك " وهل يحصل في كف القابض

---

(١) المصدر السابق : ١٠٥-١٠٦ . (٢) سورة البقرة ٢٦٠ .

على الماء شيء مما يقبض عليه» ،فلو تركنا حديث تعريف المقدار في الشدة والمبالغة ونفي الفائدة من أصلها جانباً بقي لنا ما تقتضيه الرؤية للموصوف على ما وصف عليه من الحالة المتجددة مع العلم بصدق الصفة ، يبين ذلك أنه لو كان الرجل مثلاً على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شيء فأدخل يده في الماء وقال : انظر هل حصل في كفي من الماء شيء ؟ فكذلك أنت في أمرك وكان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل". (١)

فقوله في الأول " هل يحصل في كف القابض على الماء شيء " لا تؤنس أنس قوله وقد أدخل يده في الماء " انظر هل حصل في كفي من الماء شيء " . وعبد القاهر يلفت هنا إلى التصوير بالحركات القائمة وأثرها في نقل المعاني . وهذا النوع لم تشبع دراسته في التراث ،فلا تجده إلا إشارات قليلة (٢) على حد قول عبد القاهر هذا ، حيث تتجسد الحركات وترى بالعين لا في الخيال ،إنما شاخصة جارية على مسرح الحياة فالمشاهدة تحرك النفس ،وتمكن المعاني من القلب وتؤكدها بالتجربة والتطبيق .

ويلح عبد القاهر على مسألة أنس النفس بالمشاهدة المرئية فيعرض لتشبيهات ذهنية ويقارنها بتشبيهات التمثيل الذي يأتي فيه المشبه بصورة حسية ،يشبه الشاعر الليل فيقول :

في لَيل صُوْل تَناهَى العَرْضُ والطّول
كأنّما ليّله بالحشْرِ موصُول

---

(١) أسرار البلاغة : ١٠٦ .
(٢) انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، د . محمد أبو موسى ٤٣٠-٤٣١ .

ولكن النفس لا تأنس به أنسها بقول آخر يصف النهار :

* وَيَوْم كظل الرّمح قَصر طوله *

فالتشبيه الأول أكثر مبالغة من حيث الدلالة اللغوية ، فالليل الموصول بالحشر ليل طويل جداً لا حد له ،وظل الرمح قصير ،ومع هذا فإنّ التمثيل الثاني أبلغ وأحسن ، لأنه صور الفكرة بصورة مرئية تُرى بالعين . والشاعر في التشبيه الأول عرض صوراً ذهنية فحسب ولذلك فهي لا تؤثر تأثير الثانية .

ويقول : وكذلك فرق بين أن تقول " يوم كأقصر ما يتصور وكأنه ساعة وكلمح البصر و "كلا ولا " فتجد هذا مع كونه تمثيلاً لا يؤنسك إيناس قولهم : أيام كأباهيم القطا ، وقول ابن المعتز :

بدّلت من يَوْم كظِل حصاة ليلاً كظِل الرمح غير مُوَات (١)

ومن أسباب تأثير التمثيل :

الجمع بين المتباعدين :

إذا ما حقق الشاعر الجمع بين متباعدين كان ذلك أدل على قوة نفسه ،وصحة طبعه ،وقدرته على كشف محجّبات الغيب و مكنوناته ، فهذا الوجود خاضع لنظام دقيق يقوم عليه لا يتغير ولا يتبدل ولا يختل ،وبهذا النظام يتحقق سير الحياة ،والنفس الإنسانية مشوقة إلى معرفة الأسرار والعلاقات المنطوية وراء هذا النظام المعجب .

---

(١) انظر التصوير البياني ،د . محمد أبو موسى : ١٣١-١٣٢ .

فإذا ما نظر الشاعر إلى الأشياء وتأملها واستوعبها واستطاع أن يكشف عن العلائق الخفية فيها وقع فعله من النفس موقعاً حميداً فالذي في الأرض يلتقي مع الذي في السماء ، وما في الإنسان يلتقي مع ما في الكون والطبيعة من حوله ،وهكذا تتعانق الأشياء وتتوافق .

و يقرر عبد القاهر أن العلاقات القائمة بين المتباعدات توجد في التشبيه الصريح والتمثيل ، إلاّ أنها في التمثيل أكثر وأبعد وأوقع . ففي التمثيل يعظم التباعد ، لأنّ كل طرف من مدار يختلف عن الآخر ، فالمشبه من عالم العقليات ،والمشبه به من مدار المحسوسات ، وهذا يعني أن الجمع بينهما أدق وأحسن وأعجب للنفس وأدل على الصنعة الشعرية . وعبد القاهر نظر إلى هذه المسألة من جهة إحساس النفس بها وأن من طبائع النفوس الارتياح والمسرة لعقد مثل هذه العلاقات ،لأنها تلامس أشواق النفس وأنسها برؤية هذه الروابط في هذا الكون يقول " ومبني الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يُعهد ظهوره منه ،وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر ،وكان الشغف منها أجدر "(١) . فهو أمر يعود إلى الفطرة .

ويلفت الدكتور محمد أبو موسى إلى أنّ عبد القاهر انتفع في هذا البحث بمروية لسهل بن هارون ذكرها الجاحظ(٢) ،وهذه المروية تهدف إلى بيان أن النفوس تشغف وتحب الغريب النادر الذي يخرج من غير مظنته . يقول فيها لو أن رجلين كانا على مقدار واحد من الفصاحة والبيان ،وأرادا التحدث أو الخطابة ،وكان أحدهما جميل المنظر ، بهي الملبس ذا حسب شريف ، والآخر بادّ الهيئة ،خامل الذكر ،

---

(١) أسرار البلاغة : ١١٠ . (٢) خصائص التراكيب : ١٨-١٩ .

دميم المنظر ،فالناس تقضي للدميم على النبيل ، تعجباً واستغراباً منه ،ذلك لأنّ النفوس كانت له أحقر ، ومن فصاحته وبيانه أياس ،فإذا بدا منه ما لم يتوقعوه ويحسبوا له ،كان ذلك العجب والاستغراب منهم ، فحسن كلامه في صدورهم وكبر في عيونهم ،ويعلل ذلك بقوله " لأنّ الشيء من غير معدنه أغرب ،وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع "(١).

ويقول عبد القاهر " إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ،وكانت النفوس لها أطرب وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب "(٢) فالنفس به أعجب وله أطرب وللأريحية أقرب .

فالحسن بين المتباعدين راجع في الأصل إلى المفاجأة بمخالفة توقعات النفس ، فحين يظهر الشيء مخالفاً لهذا الاعتقاد ارتاحت وعجبت لهذا الائتلاف الغريب بعد الاختلاف.

ويذكر الباقلاني وهو يتحدث عن وجوه الإعجاز القرآني براعة القرآن في "جعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب ،والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد"(٣).

فالتأليف لا يكون في التشبيه والتمثيل فحسب إنّما يمتد ليشمل الكثير من أنماط الكلام ،وضروب المعرفة.

---

(١) البيان والتبيين : ١ / ٨٩-٩٠.

(٢) أسرار البلاغة : ١٠٩. (٣) إعجاز القرآن : ٢٨.

ويذكر عبد القاهر أن الجمع بين المتباعدين هو باب التمثيل ومجال صنعته ، وهو الأصل فيه ، ولو حاولنا أن نحدد ما جاء في الشعر والأدب من محاسن المتباعدات ، وما يتولد عنها من مزايا في هذا الباب ، فإننا لا نستطيع ذلك ونكون كما قال الشيخ " إنك إذا قصدت ذكر ظرائفه وعدّ محاسنه في هذا المعنى ، والبدع التي يخترعها بحذقه ، والتأليفات التي يصل إليها برفقه ازدحمت عليك ، وغمرت جانبيك فلم تدر أيها تذكر ولا عن أيها تعبر كما قال :

إذا أتاهَا طَالِبٌ يَسْتَامُها   تكاثَرَتْ في عينِهِ كِرامُهَا " (١)

فالجمع بين المتباعدات وتأليف المختلف يحسن عند عبد القاهر لا لقدرة الشاعر على إظهار العلاقة بين المتشابهين لأن ذلك أمر مفروغ منه ، ولا لخروج الكلام متلاحماً متلائماً بسبكه ، واستوائه لأن ذلك واضح عن طريق كاف التشبيه التي هي بمثابة القنطرة التي تجمع بين المعنيين ، إنّما يكمن الحسن في قدرة الشاعر على اجتلاب صورة تُعجِبُ وتُطرب ، وتحرك قوى الاستحسان ، وتفيض بالمعاني الثرية .

وقد وقفت أتأمل رؤية عبد القاهر حول هذا الأصل في التمثيل ، وأتبين معناه ، وكيف يكون ، ثم حاولت التثبت والتحقق من كلامه فتناولت ديوان المتنبي ، وجمعت منه جملة من التمثيلات ، ووقفت بدءاً حائرة أمامها ، أقيس هذه المزايا ، وأحاول أن استكشف مافيها من قدرة على تحريك قوى الاستحسان ، وإثارة الكامن من الاستظراف ، وذكر ظرائفه ، بل وعد محاسنه واحدة واحدة ، ومعرفة البدع التي يخترعها ورصدها .

---

(١) أسرار البلاغة : ١١١ .

يقول المتنبي :

هَذَا الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْهُ حَاضِراً   مِثْلُ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْهُ غَائِبَا
كَالبَدْرِ مِنْ حَيْثُ الْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ   يُهْدِي إِلى عَيْنَيْكَ نُوراً ثَاقِبَا
كَالبَحْرِ يَقْذِفُ لِلقَرِيبِ جَوَاهِراً   جُوداً وَيَبْعَثُ لِلبَعِيدِ سَحَائِبَا
كَالشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَضَوْءُهَا   يَغْشَى البِلَادَ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا (١)

هذه الصور الثلاث المتعاقبة جاءت بعد معنى عقلي ، فيه شيء من الغرابة والغموض فهذا الممدوح تجد منه في حالة حضوره ما تجده منه في حالة غيابه ، فنفعه دائم ،وعطاؤه مستمر على مقدار واحد ، سواء كان حاضراً أو كان غائباً . تأمل المقابلة أو المماثلة بين المعنيين ،ثم تأمل وتحقق منه كيف يكون الرجل حاضراً غائباً ، وقد يكون قوله " حاضراً وغائباً " حال للمخاطب أي أنك إذا جئته تجده جواداً كريماً ، وإن غبت عنه يصلك خيره وجوده ،كما لو كنت عنده . . . ، وهذه المعاني غريبة لأنَّ المعروف أن من قرب من موضع الندى والخير أو فر حظاً وأكثر عطاءً ممن بعد عنه ، ولذلك فإنَّ الشاعر أردفها بأمثال ثلاثة ، ليوقر هذه المعاني في النفس ، وتقتنع بها ، ثم انظر بماذا شبهه ؟ وإذا عرفت ذلك فهل تحركت قوى الاستحسان في نفسك ؟ وأُثير الكامن من الاستظراف أم لا ؟ إنه شبّه ما يدرك بالعقول بما هو شاهد مرئي ،شبه البدر في حالة من أحواله ،وبالبحر الذي يعطي ويبعث، وبالشمس في إنارتها للمشرق والمغرب .

---

(١) ديوان المتنبي : ١ / ١٣٠ . (بشرح العكبرى) .

تأمل الصورة الأولى ،صورة البدر من حيث التفت رأيته يهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً فنوره يملأ الأمكنة قاصيها ودانيها ،فهو يهدي خير ما يهدي ،يهدي النور الذي يبدد ظلمة الليل ،وينير الكون ، ويهب الأمن ،ويؤنس النفس ،ويملأ الأعين بنوره الثاقب ،وفي القمر غير هذه المعاني ففيه معنى السمو والرفعة والتألق ، وفيه معنى التفرد والإحاطة والعطاء .. وهذه المعاني التي انتزعها المتنبي من البدر معانٍ غير مألوفة ،فالشعراء ينتزعون عادة من البدر النباهة والحسن والرفعة ،والمتنبي انتزع منه أشياء أخرى تناسب معنى التساوي في نيل الفضل ،وهذه المعاني هي البدع التي يخترعها التمثيل والتي تزدحم علينا ،وتغمر جانبينا فلا ندري أيها نذكر ولا عن أيها نعبر.

ثم يُشبّه الممدوح أيضاً بالبحر يقذف للقريب جوهراً ويبعث للبعيد سحائباً فهو يعطي أفضل ما يعطي ،ويهب أحسن ما يهب ، يعطي الغنى لمن قرب منه ويرسل السحائب الممتلئة ماء لمن بعد عنه ، فيحيي الأرض وينعش الناس ، فهو بحر مدده لا ينفذ ولا ينقطع.

ثم انظر إلى تساوي البناء والنغم في قوله " يقذف للقريب جوهراً ويبعث للبعيد سحائباً"، ثم انظر إلى تنوع عطاء هذا البحر الزخار القذاف ، فهو يقذف إلى هذا ويرسل إلى ذاك .

ثم ينتقل من البحر بموجه وذخره إلى الشمس المتألقة في كبد السماء وهي ترسل ضوءها إلى مشارق الأرض ومغاربها فتبعث الحياة والضوء والدفء. وفي الصورة هذه معنى التسلط والكبرياء والبسط والوصول إلى كل مكان .. وهكذا لا تزال الصور تفيض بالمعاني والإيحاءات ،تتكاثر وتتغازر وتتزاحم لتعبر عن أدق أحوال وصفات هذا الممدوح ،وترتبط

به غاية الربط ويقترن هو بها فيشاركها في أكثر صفاتها ،وكل صورة توءكد معنى فيه .فالأولى توءكد معنى وجوده في كل مكان ، والثانية توءكد كرمه ووفرةعطائه وشموله ،والثالثة تدل على العلو والرفعة والشموخ .

ويقول المتنبي في أبيات أخرى :

هُوَ البحرُ غُصْ فيهِ إذا كانَ راكِداً
عَلى الدُّرِّ واحْذَرْهُ إذا كانَ مُزْبِدا
فإنّي رَأيْتُ البَحْرَ يَعْثُرُ بالفتى
وهذا الّذي يَأْتي الفَتى مُتَعَمِّدا (١)

المتنبي طوى ذكر أحوال المشبه واستدل عليها بصورة المشبه به ، وهي أبلغ لأنَّ السامع هو الذي ينتزع المعاني المرادة التي تلائم معنى المثل ، فهو هنا يُشبِّه ممدوحه بالبحر لا من جهة عطائه للبعيد والقريب إنّما من جهة استدرار المنافع منه بالبحر في حالة سكونه وهدوئه فينتفع بخيراته ،ويُستخرج منه الدر والجواهر ،فإذا ما غضب واهتاج انقلبت أحواله واضطربت ، فكان مخوفاً تُخشى عواقبه ، وممدوحه كهذا البحر إذا أتيته وهو راضٍ مسرور في وقت سلمه وعزته فإنّه يكرم قاصده ،ويحسن مثواه ،ويمنحه من جزيل عطائه ، ومن فيض جوده أفضل ما يعطي السائلين ،وإذا أتيته في وقت غضبه وشغله وضيقه فاحذره ولا تواجهه بما تريد ، ولا تسأله . هذه هي أحوال الممدوح ،يتألق في سماء الجود والسخاء حين يرضى ،وحين يغضب يُتقى شره .

---

(١) الديوان (شرح العكبري) ١/ ٢٨٢ .

والشاعر يريد أن يصفه بالحلم وسعة الاقتدار.

وانظر إلى صورة المشبه به تجد فيها هدوء البحر، ووفرة عطائه، وإقبال الناس عليه لقضاء حوائجهم، واختلاف مطالبهم.

ثم تأمل حاله وقد هاج وماج، تجد فيه الشدة والموت، والعتو والجبروت والهول واحتراس الناس من الاقتراب منه.

والبحر هنا يعطي معنى يغاير المعنى الذي أعطاه في التشبيه الأول، ومن هنا تبرز قدرة الشاعر على نزع أحوال متعددة من الشيء الواحد، واستنطاقه لمعانٍ تجري في واقع الحياة، ثم عاد المتنبي ونظر فرأى أن ممدوحه يفوق البحر، فأحواله تتحول وتتبدل دون قصد أو تعمد، وما يأتي الفتى من عطائه وجواهره ودرره على وجه المصادفة، أما عطاء ممدوحه ونفعه فهو عن تمكن واقتدار وسعه، فهو وإن كان كالبحر إلا أنه يفوقه ويعلو عليه. ومن أبيات التمثيل عنده قوله:

إِذَا خلَعْتُ على عِرْضٍ لَهُ حُلَلاً   وَجَدْتُهَا مِنْهُ فِي أَبْهَى مِن الحُلَلِ
بذِي الغَبَاوَةِ مِن إِنْشَادِهَا ضَرَرٌ   كَمَا تُضِرُّ رِيَاحُ الوردِ بالجُعَلِ (١)

المتنبي هنا يخلع الحلل ولا تخلع عليه الحلل، فشعره حلل وبرود فاخرة يلقيها على من يشاء من ذوي الفضل والمجد، فهو من ملوك الشعر وحين يخلعها على عظيم القدر رفيع المجد فإنها تزداد حسناً وجمالاً به وكذلك شعره الذي يمدح به أهل الفضل فإنه يشتهر، ويزداد حسناً بخصال ممدوحه، انظر إلى قوله إذا خلعت التي تشير إلى كثرة قصائده التي يمدح بها ذوي الفضل. ثم إن هذه القصائد كما أنها تطرب وتخلب

---

(١) الديوان : ٣/ ٤٠٥

ذوي النفوس السليمة فإنها تضر ذوي النفوس السيئة الجاهلة التي لا حظ لها من التذوق والفن .

ولنتأمل .. كيف ركب المتنبي المعنى ، فالقصائد تزداد حسناً وبهاءً حين يمدح بها الكريم ، وحين ينشدها ذوي الغباوة فإنّ القصائد لا تتضرر ، إنّما يتضرر قارئها ، وفي هذا المعنى غرابة تشوب النفس عند سماعه وتثير تفكيرها .. كيف يتضرر ذوي الجهالة من المعاني الحسان ؟ ثم يأتي المثل ليكشف ويجلي عن الريبة التي أحيطت بالمعنى ، فيشبه بالجعل الذي يتضرر من رائحة الورد ، والجعل دويبة صغيرة تموت من ريح الورد ، وتعيش أن اعيدت في الأوساخ كما قال الجاحظ (١) .

فشعره هو الورد الذي ينشر عطره ، وهو الحلل والبرود اليمانية وفي الجعل معنى الحقارة وقلة الشأن ، وعدم تمييز الحسن من القبيح ، فهو يتضرر من الحسن وينعش بالقبيح .

ومن تمثيلات المتنبي قوله :

فَتًى كالسَّحابِ الجُونِ يُخْشَى ويُرْتَجَى
يُرَجَّى الْحَيا مِنْها ، وتُخْشَى الصَّواعِقُ
ولكِنَّها تَمْضِي وَهَذا مُخَيِّمٌ
وتَكْذِبُ أحْيانًا وَذَا الدَّهرَ صادِقُ (٢)

يشبه حال الممدوح من حيث يرتجي فضله ، ويخشى غضبه بالسحاب الجون أو السوداء المليئة بالخير فيؤمل منها القطر الغزير النافع ، ويخشى صواعقها

---

(١) انظر الحيوان : ٣/٣٤٩ . (٢) الديوان : ٢/٣٤٦ .

ورعدها لأنها ما دامت سحابة كبيرة جوانية فصواعقها قوية إن أرسلتها .

وكذلك الممدوح يتألق في سماء الفضل والسؤدد ،بجوده وسخائه ، ويرتفع بها عن الناس ،فيرجوه أولياؤه و يخشاه أعداؤه.

ثم انظر إلى السحاب الجون الممتلئة ماء ، وكيف يكون عطاؤه غزيراً يسقي الأرض و ينعشها فتنبت مساقطها ،وتزهر ،وينتفع منها الناس ؟ ثم كيف تكون النفس في حالة من الرعب والخشية وهي ترسل صواعقها المهلكة ،التي ترعب النفس و تهلك الحرث والنسل .

وبعد أن استخرج هذين المعنيين المتناقضين من السحاب عاد ونظر فيه فوجد أن خيره يذهب فينقطع وأنه يرجى ثم يذهب ،أما هذا الممدوح فخيره دائم ،وعطاؤه مستمر.

وتشبيه أحوال الممدوح بأحوال الشيء ثم تفضيل الممدوح على ما شبهه به من المسارب،أو المنازع التي تكثر في شعر المتنبي ،وقد رأينا ذلك في الأبيات السابقة ،ومن يفلي ديوانه يقع على الكثير من مثل هذه المنازع ويقول أيضاً :

أَرَى كلَّ ذي مُلكٍ إليكَ مَصيرُهُ كأنّكَ بَحْرٌ والملوكُ جَداوِلُ
إذا مَطَرَتْ مِنْهمْ وَمِنْكَ سَحائِبُ فوابِلُهُم طَلٌّ وَطَلُّكَ وَابِلُ (١)

يصف المتنبي علو قدر الممدوح ومكانته التي تجعل الملوك يتقربون منه ، ويلوذون به ويرجعون إليه ،فيشبّهه بالبحر وما عداه من الملوك بالأنهار الصغيرة التي تصب في هذا البحر ،وتعود إليه ، ثم إن سحائب هذا البحر سحائب مليئة بالماء العذب المغيث المطفيء لكل ظمأ ،والمنبت

---

(١) الديوان :٣/ ١١٦.

لكل أرض ،أما سحائب الجداول فهي سحائب شاحبة ضحلة قليلة الماء ،إذا أمطرت هذه السحائب أخرجت أقصى ما فيها ،فكان قطرها طلاً قليلاً ، والطلّ : أخف المطر وأضعفه قطلها قليل إذا ما قيس بطلّ تلك السحائب الغزيرة الفياضة . وانظر إلى هذا الممدوح حين يشبه بالبحر وما فيه من سعة وفيض واقتدار وعطاء كثير ، ثم انظر إلى معناه وقد انضمت إليه السحائب وما فيها من رفعة ونقاء وجود لا حدود له ، ثم غزارة عطائها القليل ، وعدم الإحاطة بكثير وابله ،فالممدوح قد فاق في قوته وفاق في جوده .

وتأمل المعاني التي استخدم فيها البحر والجدول والسحائب تجدها معاني جديدة طريفة متنوعة ،وكيف أنّ المتنبي كان كثير التشبيه بالبحر في أحواله المختلفة ، وبالسحائب في معانٍ متعددة ، وكيف أحسن انتزاع كل هذه المعاني . وهكذا يظل التمثيل مثيراً لقوى الاستحسان ،مخترعاً لكثير من البدع . وانظر إلى قول المتنبي :

وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكَادُ بُيُوتُهُ ... إِذَا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ مِنْ نُورِهَا الْحِبْرُ
كَأَنَّ الْمَعَانِي فِي فَصَاحَةِ لَفْظِهَا ... نُجُومُ الثُّرَيَّا أَوْخَلَائِقُكَ الزُّهْرُ (١)

يشبه شعره في حسن لفظه وحسن معناه وجودته ،واشتهاره وتداوله بين الناس بنجوم الثريا ،وهي نجوم كثيرة العدد شديدة الضياء ،ومازال الناس يستحسنون ذكرها في أشعارهم ،وينظمون فيها أحلى القصائد ، ولا يزالون يسترشدون بها في ظلمة الليل، ثم يعطف عليها أخلاقه التي لا ينكرها أحد ، تأمل كيف شبه شعره بالنجوم وبالخلائق وجمعها على هذه الهيئة .

---

(١) الديوان : ٢/١٥٧ .

وتأمل قوله قبل ذلك " وما قلت من شعر .. " وما فيه من معنى إشراق هذه المعاني ووضاءتها، وكأن النور يشع منها حتى ليبيض بها الحبر، وهذا يلفت إلى أن تشبيهها بالنجوم يراد به أيضاً معنى إشراقها ووضوحها ولأنها هذا بجانب نقاء اللفظ وجودة النظم، وكأن ألفاظه در منظوم لأن في الثريا هذا المعنى.

وتأمل قول المتنبي :

كأنَّكَ بَرْدُ الماءِ لا عَيْشَ دُونَهُ ولوكنتَ بَرْدَ الماءِ لم يكُنْ العِشْرُ (١)

المتنبي هنا يستخرج من الماء معنى آخر يؤكده في ممدوحه، هو أنه لا عيش بدون هذا الممدوح، وكأنه لا حياة إلا به، وكما أنه لا عيش إلا ببرد الماء كذلك لا عيش إلا به. ثم ينتقل على طريقته فيفضل صاحبه على الماء ويقول : ولوكنت برد الماء لم يكن هناك ظمأ والعشر آخر ظمأ الإبل كما يقول العكبرى في شرحه، وإنما يكون الري دائماً لأن عذوبتك سوف تكون رياً دائماً والعلاقة بين المدوح والماء والسحاب والبحر شائعة كما هومعروف، ولكن المتنبي ينفذ إلى غير المألوف منها وهذا فضله.

ثم يصف عبد القاهر حس الشاعر ورؤيته للأشياء وهو يصوغ التمثيل أو وهو يلج عالم الشعر عامة يقول " وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمعرق، وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام

---

(١) الديوان : ٢/١٥٦.

شبهاً في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة ،وينطق لك الأخرس ، و يعطيك البيان من الأعجم ، و يريك الحياة في الجماد ،و يريك التئام عين الأضداد فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين (١).

إنّها لغة الشعر وخيالاته وصوره التي تزيل الفوارق ،وتصوغ عالماً آخر يختلف عن العالم الخارجي عالم الواقع ، عالم سحري له نظامه وأحواله وطرقه وموضوعاته . وعبد القاهر كثيراً ما يربط اللغة بالسحر ، وبالنفث في العقد ،لأنّ لها أسراراً وغوامض تكمن في طاقاتها ،يقف الإنسان أمامها حائراً عاجزاً ،ولا يزال غموضها قائماً يغرينا ويخاتلنا ، فإذا ما انكشف لنا كان كالسحر في التأثير . والشاعر يخضع اللغة الحقيقية لكيفيات خاصة وينظمها تنظيماً جديداً عن طريق المجاز والتمثيل ،ويخضعها لأحاسيسه ووجدانه ونفسه ،فالمشرق والمغرب يتصافحان ويلتقيان ، والمشئم والمعرق يجتمعان ويتحدان ،وتلغى المسافات وأنّى ذلك في واقع الحياة ، فنرى للمعاني العقلية أشباحاً قائمة في الواقع فمخلف الوعد كشجرة السرو ،وشجرة الخلاف ،والسنة بيضاء والأخرس ينطق ،والأطلال تتكلم ، قال النابغة :

فاسْتَعْجَمَتْ دارُ نُعْمٍ ما تُكَلِّمُنا والدّارُ لو كلّمَتْنا ذات أسرار (٢)

والشجر يحزن والجبل ينادي ،والريح تلعب في ملاعبها من الروض الخصيب:

وألفاظٍ كما لَعِبَتْ شَمَالُ مَلاعِبَها على الرّوضِ الخَصيبِ (٣)

والمشيب يضحك على الشباب :

أعاذِلَ قد كَبِرْتُ على العِتابِ وقد ضَحِكَ المشيبُ على الشّبابِ (٤)

---

(١) أسرار البلاغة: ١١١ . (٢) ديوان النابغة : ١٨ .
(٣) ديوان الشريف الرضي : ٢/١٠٤ . (٤) ديوان ابن المعتز : ٥١ .

فالكائنات تتبادل في صفاتها وأحوالها ، لأنّ اللغة تكسبها صفات جديدة وخصائص غير الخصائص المألوفة وتوشك أن ترى عالماً مجازياً وليس لغة مجازية فحسب ،ونحن في الواقع لا نرى المجاز في اللغة وحدها ،وإنّما وراء هذا المجاز اللغوي عالم مجازي وإلّا لما كان له فائدة .

كما تجتمع الأضداد فالشيء أسود وأبيض ،ودان وشاسع ، وغائب وحاضر ،وماء ونار ، قال الشاعر:

أَنَا نارٌ في مُرتَقَى نظر الحاسد ماءٌ جارٍ مع الإخوانِ

فالماء والنار لا يجتمعان إلّا في حس الشاعر ،والماء في هذا البيت غير الماء الذي نشربه لأنه ماء يلتقي مع نار ، فهو ماء من جهة الصفاء والمنفعة نار في الإحراق والأذى . أو كقول الشاعر :

له مَنْظرٌ في العين أبيَضُ ناصع ولكنّه في القلب أسودُ أسفعُ

فالشعر أبيض ناصع البياض في الحقيقة لكنه في القلب أسود أسفع لأنه ينذر بدنو الأجل .

أو قوله :

أيا غائباً حاضراً في الفُؤادِ سَلامٌ على الحَاضِرِ الغائبِ

وكون الإنسان غائباً حاضراً لا يتحقق إلّا في الشعر ،فالمفارق الذي غابت هيئته لا تزال صورته حاضرة في النفس والقلب .

ومن التمثيل الجامع بين المتضادات :

دانٍ على أيدي العفاة وشاسعٌ عن كلّ ندّ في النّدى وضريب (١)

كالبدر أفرط ....

فالممدوح دان شاسع .

---

(١) أبيات الشعر من أسرار البلاغة ص [illegible]

وهكذا يصنع الشاعر عالماً آخر ،يصوغه الخيال ،ويخلقه خلقاً آخر تتلاحم فيه الأشياء ،وتُزال الفوارق والحدود ،فإنّ الشاعر يهمس للوجود بسره وألمه وأمله ليشاركه . ينظر إلى ما حوله بعين تفيض بالحياة والتآلف والحب ، فيكلم الأصم ويناغي الأعجم ،ويلوم اليوم ، ويشتكي إلى ريح الصبا ، وكأن الكون من حوله صار من عشيرته ، فيغوص في أغمض أسراره وأبعد أعماقه ، ومن خلال هذه اللغة يروي ظمأ نفسه الغريبة في الكون ،ويدخل بلغته عالم الأحلام والأسرار ،ولا يتأتى كل هذا إلاّ لوقاد الحس من الشعراء الذي ينشد رحابة عالم آخر يهاجر إليه . وهذا هو ما يسمى بالوجود اللغوي عند المحدثين الذين يجعلون من النص الأدبي عالماً ونمطاً من الصلات المتبادلة والعلاقات الخاصة .

ونعود فنقول إن عبد القاهر قد أوغل في باب الضدية فيذكر أن التمثيل يجمع بين الضد وضده فيجعل العدم وجوداً ،والوجود عدماً والميت حياً والحي ميتاً ،فالرجل إذا بقيت له سيرة حسنه بعد مماته وإنقطاع أسباب الحياة نقول كأنه لم يمت ،وهذا نوع من التصرف الخيالي والبياني ،تنقلب فيه حقائق الأشياء ،فالذكر عمر ثانٍ كما قال المتنبي :

* ذِكْرُ الفتى عُمْرُه الثاني *

أي كعمره الثاني ،ومن لطائف هذا الباب جعل الموت نفسه حياة ثانية فيقال : فلان عاش حين مات . وعبد القاهر أُولع بالإكثار من ذكر الجمع بين الأضداد ، ولم يوضح طريقة سلوكها في التمثيل لكنه رأى أن حُسْن هذه اللغة يظهر فيها ،فهي تجمع ما لا يجمع في الواقع .

وهكذا فالتمثيل لا يَحْسن فقط لأنه يحرك قوى الاستحسان ، ولا لأنه يكشف عن بدع يخترعها ،وإنّما أيضًا لتأليفه بين متباينين ، ولتمثيله المعاني العقلية بصور حسية ،ولسريان حركة الخيال فيه ، وتلاقي الأضداد ، كل هذه الأشياء وأشياء أخر إذا جمعناها تحقق بها حسن التمثيل ،واستظرف .

ثم يذكر عبد القاهر أنه كما يأتي التمثيل جامعاً بين متباعدات أو متضادات ،أيضاً يجمع بين مختلفات في إحساس النفس ، فالنفس تأنس بالمعاني التي تؤنسها ،وتنفر من المعاني التي تنفّرها ،وأسلوب التمثيل يجمع بين هذين المعنيين فيؤلف بينهما ، وكأن المعنى المستأنس يفرغ قدراً من إيحاءاته وفيوضاته على المعنى المستبشع فيؤنسه ، فالمعاني في اللغة حين تتجاوز تتآلف وتتآنس ،وذلك يعود إلى القدرة البارعة في عقد الصلات الكلامية واللغوية بين الأشياء المتنافرة ،والتأثير على الوجدان الإنساني واقناعه بما كان ينفر منه .

يقول عبد القاهر في ذلك " وهل يخفى تقريبه المتباعدين ، وتوفيقه بين المختلفين ،وأنت تجد إصابة الرجل في الحجة وحسن تخليصه للكلام وقد مُثلت تارة بالهناء ومعالجة الإبل الجربى به ، وأخرى بحز القصّاب اللحم وإعماله السكين في تقطيعه وتفريقه في قولهم " يضع الهناء مواضع النُقَبَ " وهو الجرب " ويطبق المفصل " فانظر هل ترى مزيداً من التناكر والتنافر على ما بين طلا القطران وجنس القول والبيان ، ثم كرر النظر وتأمل كيف حصل الائتلاف ،وكيف جاء من جمع أحدهما إلى الآخر ما يأنس إليه العقل ويحمده الطبع "(١)

---

(١) أسرار البلاغة : ١١٣ .

وهكذا نجد الإنسان يغلب على الكلام فيقوله ثم يغلبه الكلام فيقوده ويؤنسه ويؤثر فيه .

والألفة والمؤانسة ضرورية في صياغة الكلام وليست خاصة بأسلوب التمثيل . فهناك ملاءمة بين الكلمات ، فقد قالوا لفظة متمكنة ومقبوله لا نبوّ فيها ، وفي خلافه قلقة ونابية ليست لجاراتها لِفْقاً ، وليست هناك مؤاخاة بينها وبين جاراتها ،ويدخل في هذا وصف الشعر بأنه أبناء علات وقولهم يقول البيت وأخاه .(١)

ويدخل تحت هذا الباب كلام الباقلاني الذي ذكرناه سابقاً وهو تأليف المختلف .

ومن أسباب جودة التمثيل :

الحاجة إلى الفكر والروية في استخراج معانيه :

يتحدث عبد القاهر عن هذه المزية التي تأتي على وجه الدقة في التمثيل ، ليس ذلك فقط إنّما يمتد حديثه عنها في الشعر عامة .

وقد تدسس عبد القاهر في حال النفس وهي تواجه التمثيل فرصد أدق أحوالها ،ووقف أمام تلك الفترة التي يقف فيها الفكر أمام صورة التمثيل ليتفهم المعنى ،ويعاني انتزاعه ،ويستخرج دقائقه بالإلحاح والتأمل حتى تظهر المعاني المرادة وتنثال .

انظر إليه وهو يصف حالة النفس عند انبلاج المعاني " ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أوالاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ،وبالميزة أولى ،فكان موقعه من

---

(١) انظر دلائل الإعجاز : ٤٤ - ٤٥ . البيان والتبيين : ١/ ٦٥-٦٧ .

النفس أجل وألطف ،وكانت به أضن وأشفف وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ .

وَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي (١)

وهكذا فإن التمثيل من المعاني الشريفة العالية في هذه اللغة ، ولا يتبدل ولا ينكشف سرها إلاّ بعد جهد وحسن تأتي ،وكلما لطفت ودقت معانيه ،احتاج إلى مزيد من التأمل وتحريك الخاطر .وابن الأثير يسمي هذا النوع من المعاني الذي لا يعطي غرضه إلاّ بعد مماطلة أفخر الشعر (٢) .

ولا نعني بهذه المعاني الدلالات الطافية على سطوح الكلام ، إنّما نعني المعاني الثاوية في بطونها ،وكثير من المعاني في التمثيل تكون عالقة في أحوال صورة المشبه به ،وليست الدلالة عليها بطريقة مباشرة ولذلك فهي تحتاج إلى ما قلناه من جهد و مكابدة وتأمل ويذكر عبد القاهر أن التمثيل الذي يحتاج إلى هذا المقدار من الفكر هو من مثل قول المتنبي :

وَمَا التَّأْنِيثُ لاِسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلاَ التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِلاَلِ

ويسبق هذا البيت قوله :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ

فهو يقول لو كان النساء كمثل هذه المرأة في الفضل والعفاف والكمال لفضلت النساء على الرجال ، ثم يأتي ببيت التمثيل ليؤكد به معنى تفضيل النساء على الرجال . والنفس تقف طويلاً أمام هذا البيت لتفهم

---

(١) أسرار البلاغة : ١١٨ .   (٢) انظر المثل السائر : ٤/ ٢٠ .

صورة المشبه به ثم معرفة معانيه التي تنعكس على المشبه وهذا يتطلب تحريك الخاطر والهمة في طلبه .

أو قوله أيضاً :

رَأَيْتُكَ في الَّذين أَرَى مُلوكاً ... كَأَنَّكَ مُستقيمٌ في مُحَال

وقوله :

فإنْ تَفُقِ الأَنامَ وأنتَ مِنْهُمْ ... فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

ويذكر عبد القاهر أن هذا النوع من المعاني غزير الوجود لا يصل إليه إلاّ الناقد البصير العارف بطبائع اللغة ، القادر على سياسة المعاني ، فليس كل من عرف علم العربية كشف عن مثل هذه المعاني ، كما أنه ليس كل من طرق الباب ولج ، ولا كل من وقف بأعتاب الملوك أُذن له يقول في ذلك " فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلاّ أن تشقه عنه ، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ، ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه ، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة ، ويكون في ذلك من أهل المعرفة ".(١)

فعبد القاهر يتحدث عن نوعية العقول الناقدة ، القادرة على التعرف على أنماط جواهر المعاني فليس كل من حاولها وصل إليها وكأنه يشير إلى تلك الفئة التي قال عنها في دلائل الإعجاز وهو يتحدث عن فضيلة علم البيان وكأنه شرح مجمل لكلامه هذا " ولا يعلم أن ها هنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الرويـة والفكر ولطائف مستقاها العقل ،

---

(١) أسرار البلاغة : ١١٩ ، ١٢٠ .

وخصائص معانٍ ينفرد بها قوم قد هدوا إليها ،ودلوا عليها ، وكشف لهم عنها ،ورفعت الحجب بينهم وبينها ،وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ،ووجب أن يفضل بعضه بعضاً ".(١)

تأمل قوله في دلائل الإعجاز " رفعت الحجب بينهم وبينها " وقوله في أسرار البلاغة " كالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه " ، تجد في كل ذلك تأكيداً على سمو هذا الضرب من ضروب المعرفة وأنه عزيز لا ينقاد إلاّ لفئة قليلة ، قد تهيأت إليه ودُلت عليه ثم يذكر عبد القاهر أن هذا النوع من المعاني غير التعقيد والتعمية في الشعر ، لأنّ التعقيد يحتاج إلى فكر وتأمل أيضاً ،ولكن ليس في استخراج دقائق المعنى وإنّما في مواجهة اختلال نظم الكلام وتعثر تأليفه ،وبعد المكابدة في هذا الطريق المتعثر لا تقع على شيء نفيس انظر إلى قول عبد القاهر وهو يصف معاناة النفس أمام هذا النوع من المعاني " وإنّما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب في مثله ، وكدك بسوء الدلالة ،وأودع المعنى لك في قالب غير مستو ولا مملس بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه منك عسر عليك ،وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن".(٢)

وكما يصف عبد القاهر المعاني اللطيفة بالجوهر والدر والعزيز المحتجب فإنّه يصف أسلوب التعقيد بالخرز وبالبخيل :

ومن أبيات الإغراب قول المتنبي :

وكذا اسْمُ أغْطِيَةِ العُيون جُفُونُها مِنْ أنَّها عَمَلَ السُّيُوفِ عَوَامِلُ

---

(١) دلائل الإعجاز : ٧ . (٢) أسرار البلاغة : ١٢٠ .

فالشاعر يدّعي أن سبب تسمية غطاء العين جفناً لأنها تعمل عمل السيوف ، والأصل في التركيب " من أنها عوامل عمل السيوف " فقدم المعمول خبر " أن " وتقديمه ضعيف فضعفت بسببه الدلالة ، ثم إن المعنى قريب مبتذل لا حسن فيه .

وهناك الاغراب في المعنى الذى لا يهتدى النحو إلى إصلاحه كإغراب أبي تمام :

ثانِيَةٍ في كَبِدِ السَّماءِ ولَمْ يَكُنْ لاثنَيْنِ ثانٍ إذْ هُما في الغَارِ

وقوله :

يَدِى لِمَنْ شَاءَ رَهْنٌ لَمْ يَذُقْ جُرَعاً

مِنْ رَاحَتَيْكَ دَرَى ما الصَّابُ والعَسَلُ

أصل المعنى - والله لا أدرى من لم يذق جرعا من راحتيك - فحذف حرف النفي فاختل المعنى (١) .

وقضية الغموض في الشعر من القضايا المذكورة في أيامنا ويزعم البعض أنها من قضايا الشعر الحديث ، ومن عرف الشعر القديم ودرسه لا يستطيع مواجهة النصوص الحديثة والكشف عن وجه الغموض فيها ، لأن الشعر القديم كله سهل واضح .

يقول الدكتور عز الدين اسماعيل " وكثير ممن ألفوا قراءة الشعر العربي القديم يواجهون صعوبة كبيرة في التجاوب مع الشعر الجديد ، وربما رفضوه من أجل هذه الصعوبة . فالمؤكد أن هذا الشعر الجديد يمثل اتجاهاً جمالياً يختلف عن اتجاه الشعر القديم ، بل ربما وقف منه موقف النقيض " (٢) .

---

(١) انظر ديوان أبي تمام ، شرح التبريزي : ٣ / ١١ .

(٢) الشعر العربي المعاصر - قضاياه وظواهره : ١٨٧ .

ويقول " إن القدر الأكبر من الشعر القديم يغلب عليه طابع الوضوح والسهولة لأنه يستخدم لغة محددة الأبعاد ،منطقية لا يميزها عن لغة النثر إلاّ ما فيها من ارتباط بالأوزان العروضية "(١).

وهذا الكلام ليس على اطلاقه ، فالشعر القديم ليس سهلاً ساذجاً كما يتصور ،وإنّما فيه من الودائع النفيسة والأسرار العالية ما وصفه عبد القاهر فيما ذكرناه من النصوص ،فيه دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر ولطائف مستقاها العقل ،والذين ألفوا قراءة الشعر القديم قراءة صحيحة هم أقوام قد انفردوا بخصائص ممّا هدوا إليها كما يقول عبد القاهر هم طبقة ممتازة من الثقافة والفهم وصحة الطباع ،وكأن الدكتور عز الدين لا يفرق بين فهم العامة للشعر القديم وبين فهم هو مستوى آخر من التحليل والدرس والتذوق .

نعم ، الشعر القديم يقدم عطاءً عاماً لأهل اللسان كافة ، فكل من عنده فهم يفهم قدرا ما من كلام الشاعر ثم تبقى في الشعر معارفه العليا وأسراره الخفية لا يهتدى إليها إلاّ طبقة خاصة كما هو واضح .

والذين يتكلمون في مسألة الغموض في الشعر الحديث لا يلتفتون إلى هذا المستوى العالي من العطاء في الشعر القديم ،وإنّما ينصب كلامهم على ما يفهمه الجميع ممن يخاطبون باللغة من أهل اللسان .

ومن يتكلم وسط الجماعات العربية يستشهد بالشعر أو القرآن أو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يسمعون ويأخذون منه على قدر أفهامهم ، وهذا شيء غير الدراسة التحليلية التي تجتهد في كشف غوامض اللغة ودقائق صورها ،وكذلك يقال في الشعر

---

(١) المصدر السابق : ١٩٣-١٩٤ .

ويقول عبد القاهر " وليس إذا كان الكلام في غاية البيان وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً ".(١)
ثم يفرق الدكتور عز الدين بين الغموض والابهام فيقول " ينبغي أن نميز بين الغموض والابهام وأنا استخدم هذين اللفظين في مقابل اللفظين الانجليزيين : (obscurity و ambiguity) فنحن نستخدم في الأغلب لفظة الغموض ونادرا ما نستخدم لفظة الإبهام مع أن الشيء المبهم المستغلق ليس هو دائما بالضرورة الشيء الغامض . وقد سبق أن حلل " امبسون " صفة الإبهام هذه تحليلاً ذكياً في كتابه "أنماط سبعة من الابهام " أعتقد أنه من النافع هنا الاستفادة منه ، فالابهام عنده صفة نحوية بصفة أساسية ، أى ترتبط بالنحو وتركيب الجملة في حين أن الغموض " صفة خيالية " تنشأ قبل مرحلة التعبير المنطقية ".(٢)

ويقول الدكتور ان في الشعر العربي أبياتا من النوع الأول أى المبهم الذى يتعلق ابهامه بصفة نحوية كأبيات المتنبي الغامضة وقول الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا أبو أمه حى ابوه يقاربه

"... ان البيت السابق ليس غامضا ، ولكنه مبهم لأن المشكلة الأساسية فيه لا ترتبط بالخيال أو بشيء منه ، إنما هي قبل كل شيء مشكلة لغوية قائمة في طبيعة التركيب اللغوى نفسه ، وفهم البيت - على هذا الأساس - يتطلب منا حل مشكلة هذا التركيب اللغوى ".(٣)

ليس الحل في البيت تحديد عائد الضمائر كما يرى الدكتور ، لأن سوء الدلالة فيه عائد إلى التقديم والتأخير ، فأصل المعنى " وما مثله في

---

(١) أسرار البلاغة : ١٢٣ .
(٢) الشعر العربي المعاصر : ١٨٩ . (٣) المصدر السابق : ١٨٩ .

الناس حي يقاربه إلّا مملكا أبو أمه أبوه " وهذا البيت عند البلاغيين من شواهد التعقيد اللفظي الذى يرجع غموض المعنى فيه إلى أمر يتعلق بنظمه . والدكتور عزالدين يسميه إبهاماً تفريعاً على مقالة " أمبسون " وواضح جدا أن مراد " أمبسون " بالإبهام هو مراد البلاغيين بالتعقيد ، وأن مراده بالغموض هو مراد عبد القاهر بالشعر المحوج إلى الفكر .

ويلاحظ أن الدكتور عزالدين ، وهويتكلم في هذه المسألة قد أغفل كلام عبد القاهر ، مع أن التلاقي بين كلام عبد القاهر وكلام " امبسون " واضح في جوهر الفكرة . وهذه الدراسة يقدمها الدكتور عزالدين إلى طلاب أدب العربية ،ولهذا لا يجوز إغفال فكر عبد القاهر الذى هو جزء من تراث أدب العربية والتعويل فقط على مقالة " امبسون " . ثم إن مصطلح الابهام الذى هو ترجمة كلمة (ambiguity) نقله الدكتور عزالدين من معناه البلاغي الذى هو عنصر من عناصر الجودة والقوة في الكلام إلى معنى التعقيد والظلمة والالباس وغير ذلك مما يفهم من هذه اللفظة في الانجليزية ، فهذه الكلمة عند الدكتور عزالدين صارت من أوصاف الرداءة بينما هي ليست كذلك في تراث العربية ، ومن أجل أبواب البلاغة في الأسلوب باب الإيضاح بعد الابهام فالمعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهماً فإنّه يفيده بلاغة ويكسبه إعجاباً وفخامة ،وذلك لأنه إذا قرع السمع من جهة الإبهام ، فإنّ السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب ، ... ،فهو يوقع السامع في حيرة ،وتفكر واستعظام ، لما قرع سمعه فلا تزال نفسه تنزع اليه وتشتاق إلى معرفته والاطلاع

على كنه حقيقته ، وبعد أن يفسر ويوضح يفخم المعنى ويعظم شأنه "(١) وهكذا لا يجوز تفريغه من دلالته التراثية القديمة . وقد يقال إن أمانة النقل عن "امبسون" تقتضي أن يحافظ على مدلول الألفاظ ، فإننا نقول : كان من الواجب أن ينبه الدكتور إلى هذا التغاير في الدلالات الاصطلاحية .

ونعود إلى عبد القاهر فنقول إن الشعر عنده هو ما يذل فيه جهد ومعاناة ومراجعة سواء من متلقيه أو قائله .

ولو كان فهم الشعر سهلا لعد كلام العامة من الشعر ، ولما تفاضل رواة الشعر عن نقاده عن سامعيه ، وفرق بين الشعر وبين الكلام العادى ، وفرق بين متلقٍ وآخر لهذا الشعر . يقول عبد القاهر: " ولو كان الجنس الذى يوصف من المعاني باللطافة ويعد من وسائط العقود لا يحوجك إلى الفكر ولا يحرك من حرصك على طلبه بمنع جانبه ، وببعض الادلال عليك ، وإعطائك الوصل بعد الصد ، والقرب بعد البعد ، لكان " باقلّى حارّ " وبيت معنى هو عين القلادة وواسطة العقد واحداً ولسقط تفاضل السامعين في الفهم والتصور والتبيين ، وكان كل من روى الشعر عالماً به وكل من حفظه - إذا كان يعرف اللغة على الجملة - ناقداً في تمييز جيده من رديئه ".(٢)

وقد وضع عبد القاهر التمثيل مع هذا الشعر العالي ، ليدل على دقة هذا الفن وعلو شأنه ، ولذا فهو يوقفنا على طريقة تلقي

---

(١) الطراز ، العلوى ٢/٧٨ .

(٢) أسرار البلاغة : ١٢٢ .

المعاني اللطيفة في التمثيل ،وطريقة قراءته ،ويتم ذلك بمراودة الخاطر والتأمل الحصيف في الكلام ،والتفكر في بنائه ، وهو هنا يطبق الفكرة التي ظل يلح عليها طوال الباب عملياً ،وقد تناول أبيات البحترى :

دانٍ على أيدِى العُفاةِ وشاسعٌ عن كُلِّ ندٍّ في النَّدى وضريب

كالبدْرِ أَفْرَطَ في العُلُوِّ وضَوْءُهُ للعُصْبَةِ السَّارينَ جِدُّ قريبِ

وقد لقيت هذه الأبيات من عبد القاهر عناية كبيرة ،فقد تناولها في كثير من قضايا التمثيل ،وذلك لأنها من جياد المعاني اللطيفة ،والصنعة الشريفة التي يختفي فيها كد الشاعر ، المهم أن في هذه الأبيات عناصر لغوية حية لا يقع عليها إلا البصير بالشعر ونقده .

يقول عبد القاهر " فإن المعاني الشريفة اللطيفة لا بد فيها من بناء ثانٍ على أول ،ورد تالٍ إلى سابق ،أفلست تحتاج في الوقوف على الغرض من قوله "كالبدر أفرط في العلو" إلى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه ووجه المجاز في كونه دانياً شاسعاً وترقم ذلك في قلبك ، ثم تعود إلى ما يعرض البيت الثاني عليك من حال البدر ،ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى ، وترد البصر من هذه إلى تلك وتنظر إليه كيف شرط في العلو الإفراط ليشاكل قوله "شاسع" لأن الشسوع هو الشديد من البعد ،ثم قابله بما يشاكله من مراعاة التناهي في القرب فقال " جد قريب " فهذا هو الذى أردت بالحاجة إلى الفكر وبأن المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في تنبيله ".(١)

---

(١) المصدر السابق : ١٢٣ .

انظر إلى قوله " فتتصور حقيقة المراد .. ترقم ذلك في قلبك .. ثم تعود إلى ما يعرض فى البيت الثاني ... ثم تقابل إحدى الصورتين ... وتنظر إليه ... ثم قابله بما يشاكله "، وكيف أن عبد القاهر كان حريصاً على شرح طريقة قراءة الشعر ، وتتبع حركة النفس لفهم معاني البيت .. تقرأ البيت الأول وتلتفت إلى العناصر وتستوعب بينة الشعر ودلالته ، ولماذا أقحمت هذه اللفظة ، وكيف تلاءمت مع الأخرى ... وهكذا نتعرف على عناصر الشعر اللغوية التي تفصح عن دلالات الشعر ، والتي تبدو كبراعم حية في الأبيات ، وكل ذلك لا يكون إلاّ بعد طول مراوده للشعر ، وتأمل خوافيه ، وتذوق كلماته التي تفضى إلى جوهر المعنى .

وبعد أن وقف عبد القاهر عند متلقى هذا النوع من الشعر الرفيع ، انتقل إلى الحديث عن جهد الشاعر في حوك شعره ، لأن الشعر كد ومعاناة ، فقد تواتر عن النقاد والشعراء وصف صعوبة الخوض في بحوره ، قيل للمفضل الضبى " لم لا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به ؟ قال : علمي به هو الذى يمنعني من قوله" (١) . وكان الفرزدق يقول : خلع ضرس أهون علي من قول بيت شعر (٢) . وقد نقل إلينا الشعراء هذه المعاناة والمشقة في أشعارهم ، يقول سويد كُراعِ العُكليّ :

أَبِيتُ بأبوابِ القوافى كأنَّما　　أُصادِى بها سِرْباً من الوَحشِ نُزَّعَا
أُكالِئُها حتّى أُعَرِّسَ بعدما　　يكون سُحَيراً أو بُعَيداً فأهجَعا
عَواصِيَ إلاّ ما جعلتُ أمامَها　　عصا مِرْبَدٍ تغشى نحوراً وأذرُعا (٣)

---

(١) العمدة لابن رشيق : ١١٧/١ . (٢) انظر البيان والتبيين : ١ / ١٣٠ .
(٣) المصدر السابق : ١٢/٢ .

ويقول عديّ بن الرّقاع :

وقصيدةٍ قدْ بتُّ أجمعُ بينَها ... حتّى أقوّمَ ميلَها وسنادها

نظرَ المثقِّف في كُعوب قناتِه ... حتّى يُقيمَ ثِقافُهُ مُنآدها

وعلِمْتُ حتّى لسْتُ أسْأَلُ عالِما ... عنْ حَرْف واحدة لكيْ أزْدادَها (١)

ويقول أبو حيّة النّميْرى :

إنَّ القصائِدَ قدْ علِمْنَ بأنّني ... صَنَعُ اللِّسانِ بهنَّ لا أتنحَّلُ

وإذا ابْتدأْتُ عروضَ نسْجِ ريّضٍ ... جعَلتْ تذِلُّ لِما أُريدُ وتُسْهِلُ

حتّى تُطاوِعَني ولوْ يرتاضُها ... غيري لَحاولَ صَعْبةً لا تقْبَلُ (٢)

يقول عبد القاهر " وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله فهل تشك في أن الشاعر الذى أداه إليك ،ونشر برّه لديك قد تحمل فيه المشقة الشديدة ،وقطع إليه الشقة البعيدة وأنه لم يصل إلى دره حتى غاص ،وأنه لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص " (٣).

وهذا الشعر المؤسس على إعمال الذهن وإنعام النظر والمراجعة والذى اختاره عبد القاهر كمذهب في الشعر ،ذكره الباقلاني في معرض حديثه عن مذاهب الاختيار في الشعر يقول " إن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة وألطف تعملا ، وأن يتخير الألفاظ الرشيقة للمعاني البديعة والقوافي الواقعة كمذهب البحترى " (٤).

ويعد عبد القاهر البحترى من أصحاب هذا المذهب حيث

---

(١) الحيوان : ٣/٦٤

(٢) دلائل الإعجاز : ٥١١ - ٥١٢ .

(٣) أسرار البلاغة : ١٢٣ .

(٤) إعجاز القرآن : ١١٥ .

ذكر أبياته وحلّلها وذكر أن له من المعاني ما لا يحتاج إلا الى قليل من التفكر وله من المعاني ما لا تنكشف دقائق صنعته .

ثم يبدأ عبد القاهر في بيان جهة النظر والتعمل وبذل الجهد في التمثيل فيرى أنه يكون في الجمع بين المختلفات في الجنس يقول : " وانها لصنعة تستدعي جودة القريحة والحذق الذى يلطف ويدق في أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات في ربقة ، ويعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكه وما شرفت صنعة ولا ذكر بالفضيلة عمل إلّا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى ما لا يحتاج إليه غيرهما "(١) والحاجة إلى الجهد في الجمع بين الطرفين المختلفين هو رأس الأمر في التمثيل والأصل الذى يقوم عليه لاختلاف المدركات المكونة للمثل ، وأخذ الشبه للشيء مما يخالفه في الجنس .

ويذكر عبد القاهر أمثلة لا ينظر إليها من جهة المعاني إنّما من جهة اختلاف الأجناس التي يحدث بينها التمثيل . وبمقدار تلك الصلات يفضل التمثيل مع مراعاة التأليف بين الطرفين ، فبمقدار بعدهما يكون مقدار ملاءمتهما ، ويكون الاتفاق من حيث العقل والحدس بمقدار الاختلاف من حيث الحس .

ويستحق صاحب هذا التمثيل الفضل لا لأنه أوجد شبهاً لم يكن موجوداً إنّما لأنه اكتشف وجه شبه ، وفطن إلى ما لم يفطن إليه غيره ، ولأنه كد وأدام النظر ، وأخذ على نفسه أخذاً صادقاً .

يقول عبد القاهر : " ولم أرد بقولي إن الحذق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك

---

(١) أسرار البلاغة : ١٢٧ .

مشابهة ليس لها أصل في العقل ،وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل"(١).
فالمشابهات تقطن في غياهب الأشياء وهي من محجباتها ،ومن وقع عليها فهو الملهم المؤيد المحدث كما يقول عبد القاهر ،وهو السابق وهو غائص الدر، فالفضل منتسب إليه ،ومن جاء بالمعنى نفسه فهو تابع له آخذ منه ،لأنها ليست من المعاني المتداولة التي يعرفها العامة ويقعون عليها ، إنما هي من خواص المعاني ، فصور التمثيل من نتاج القرائح الفذة والعقول الفطنة المتميزة فهذا هو "الحاذق الصنع والملهم المؤيد" الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة ، حتى يصير إماماً ويكون من بعده تبعاً له وعيالاً عليه ، وحتى تنسب تلك الصفة له فيقال عمل فلان وصنعة فلان(٢).

وقول عبد القاهر " الحاذق الصنع ،الملهم المؤيد ،الألمعي المحدث ،المتعلم الذكي ،المقتدى المصيب " هي صفات فطرية لا بد أن يتصف بها ناظم المثل ، لأن بها يكون الإبداع والقدرة على شق غيب المعاني .

ثم إن هذا الذى أخذ المعنى من مخترعه لا يخلو من الفضل لأنه أحسن في اقتدائه ولأنه حاكى صورة جيدة ، بل أنه كدوعاني في تجديد طراوتها وسكب قدر من جهده عليها .

من هذه المعاني التي تداولها الشعراء تمثيل معنى القرب في الفضل والبعد في المكانة بالبدر البعيد في منزلة القريب في ضوئه .

----

(١) المصدر السابق : ١٣٠-١٣١.
(٢) انظر المصدر السابق : ١٢٩-١٣٠.

يقول أبو تمام :

قَريبُ النَّدَى نَائي المَحلّ كأنَّهُ   هِلَالُ قَرِيبُ النُّورِ نَاءٍ مَنَازِلُه

ويقول البحترى :

دانٍ على أيْدى العُفَاة وشَاسِعٌ   عن كُلّ نِدّ في النَّدى وضَرِيبِ

كالبَدْرِ أفْرطَ في العُلُوّ ضَوْءُهُ   للعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

وقد أخذ المتنبي هذا المعنى فقال :

كالشَّمْسِ في كَبد السَّماءِ وضَوْءُها   يَغْشَى البِلَاد مَشَارِقاً ومَغَارِبَا

ويذكر الجرجاني أن هذا البيت من سرقاته (١) .

ويشبه عبد القاهر دقة الصنعة في التمثيل وحسن ملاءمتها بالدقة في سائر الصناعات ،كما كان يطلق على نظم الكلام أوصافاً منقولة من مجالات أخرى ، فهو كالنسج والصياغة والبناء والوشي والتحبير يقول " فأما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا ،لأنك تكون في ذلك بمنزلة الصانع الأخرق يضع في تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه حتى تخرج الصورة مضطربة وتجيء فيها نتو" (٢) .

ويقول : " أن القطع التي يجيء من مجموعها صورة الشنف والخاتم أو غيرهما من الصور المركبة من أجزاء مختلفة الشكل لو لم يكن بينها تناسب أمكن ذلك التناسب أن يلائم بينها الملاءمة المخصوصة ويوصل الوصل الخاص لم يكن ليحصل لك من تأليفها الصورة المقصودة " (٣) .

فالتناسب بين أجزاء الشنف والخاتم الذى يُحدث الملاءمة

---

(١) انظر الوساطة ، فصل " سرقات المتنبي " : ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٢) اسرار البلاغة : ١٣٠ .   (٣) المصدر السابق : ١٣١ .

المخصوصة هو التناسب بين طرفي التمثيل وحسن الملاءمة .

وكذلك التناسب بين أجزاء الصورة المصورة كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافاً في الشكل والهيئة ،كان التلاؤم أحسن ،والائتلاف أبين .

والأصول الفنية التي يتمثلها الرسام في اختياره وتوزيع ألوانه هي الأصول التي يتوخاها الشاعر في تركيب عناصره ومراعاة تلاؤمها . وقد ذكر بعض الدارسين أن الربط بين الشعر وبين بقية الفنون كالتصوير والنحت مما استمده عبد القاهر من أرسطو ، وهذا عندهم كالشيء الثابت لا يُمارى فيه ،والصواب خلافه وذلك بمراجعة كلام عبد القاهر يتبين لنا أن الشيخ استخرجه من كلام الأوائل الواتر في أوصاف الكلام واستمع اليه يحدثك عن مصدر الفكرة عنده " وهو يحكى لنا قصة تجربته الرائعة في فهم أسرار الشعر والأدب " قال في هذا السياق : " ووجدت المعول على أن ههنا نظماً وترتيباً وتأليفاً وتركيباً وصياغة وتصويراً ونسجاً وتحبيراً وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذى هي مجاز فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها "(١) وواضح من نصه هذا أن الربط بين الشعر والتصوير وبقية الصناعات التي من هذا الباب كان قائماً في ألفاظ أهل هذا الشأن ،لأنهم وصفوا الشعر والكلام العالي بأوصاف من ضروب الفنون الأخرى . يقول أبو تمام :

كالدُّرِّ والمَرْجانِ أُلِّفَ نَظْمُهُ ... بالشَّذْرِ في عُنُق الفَتاةِ الرُّوْدِ
كشَقِيقةِ البُرْدِ المُنَمْنَمِ وَشْيُهُ ... في أرْضِ مَهْرَةَ أو بِلادِ تَزِيدِ (٢)

ويقول الأصمعي :

أبَى الشّعرُ إلاّ أن يفيءَ رديُّه ... عليَّ ويأبى منه ما كان محكما
فياليتني- إذ لم أُجِدْ حَوْكَ وَشْيِهِ ... ولم أكُ من فرسانه - كنتُ مُقْحَمَا (٣)

---

(١) دلائل الإعجاز : ٣٤-٣٥ . (٢) الديوان : ١/٣٩٨ .
(٣) العمدة ،ابن رشيق : ١/١١٧ .

ويقول البحترى :

إليكَ القوافي نازعاتٍ قواصدا يُسَيَّرُ ضاحِي وَشْيِها وَيُنَمْنَمُ (١)

ويقول :

بِمَنْقُوشَةٍ نَقْشَ الدَّنانيرِ يُنْتَقَى لها اللفْظُ مُخْتاراً كما يُنْتَقَى التِّبْرُ (٢)

فالشعر في دقته " كشقيقة البرد المنمنم " وكموك الوشى " و " كالوشى المنمنم " و " كنقش الدنانير " فهو كسائر الصناعات ذات الدقة والمهارة .

وأشير الى مسألة لا يجوز إغفالها ،وهي أنني كنت قد عزمت على أن أكتب في هذه الدراسة بحثاً عن مصادر عبد القاهر في باب التمثيل ،ولكني وجدت اعتماد عبد القاهر على عقله في استخراج الفروق أمراً بيناً لا يلتبس ،كما أنه في القليل النادر كان يعول على من سبقوه كأبي أحمد العسكرى ويذكر ذلك صراحة أو الرماني في أساسيات بعض المسائل .

ولذلك فقد رأيت من التزيد والتكثر أن أفرد المسألة بدراسة هي ظاهرة .

ومن أسباب جودة التشبيه والتمثيل معا :

قرب الشبه وبعده :

يعالج عبد القاهر التشبيه هنا من جهة تختلف عن الجهات السابقة ،وذلك أنه ينظر إليه من ناحية المشبه به . فرأى أن بعض الشبه يصل إلى الذهن منذ الوهلة الأولى فتتلقاه النفس وتدركه وتحيط به دون أى جهد أو معاوده نظر أو تقص جوانبه .

---

(١) الديوان : ٣/١٩٣١ .   (٢) الديوان : ٢/٨٧٥ .

والبعض الآخر لا يُدرك إلاّ بمعاودة النظر ومراجعة المعنى مرة أخرى للتعرف على دقائق التشبيه وجهته ومأتاه .

أخذ عبد القاهر كعادته يبحث عن أسباب ذلك وعلله وإلى ما يرجع إليه ذلك فرجّعه الى سببين :

١ - التفصيل والإجمال . ٢ - الغرابة والابتذال .

١ - التفصل والاجمال :

قبل أن يذكر عبد القاهر أى حقيقة عنه في التشبيه ، يتحدث عن الإدراك التفصيلي والمجمل للأشياء عند الإنسان ، فيبين أن من طبائع النفس إدراك الشيء إجمالاً بالنظرة الاولى وعند التحقيق والتدقيق تُدرك التفاصيل الجانبية للأشياء ، وكذلك الشأن في جميع الحواس المدرك بها ، فالسمع يدرك الكلام جملة وحين يعاد تدرك تفاصيله وخصائصه ، وكذلك حاسة الذوق تدرك الطعم أولاً ثم ما يميزه عن غيره من صفات هذا الذوق ، وبمقدار إدراك تفاصيل الشيء تحدد مكانته ، وعلى أساسه يحصل التمايز بين سامع وسامع وقارئ وقارئ .

وبعد أن يبين عبد القاهر كيفية مجيء هذا الأصل في المدركات ينتقل إلى التشبيه ويقيس عليه هذا الأصل فيرى أن التشبيه يدرك عامة عند سماعه لأول وهله ، ثم عند التقصي والاستقصاء تتكشف أدق أحوال المشبه به وأوصافه وكلما زاد التأمل ظهرت خوافي المشبه في المشبه به .

وينظر عبد القاهر هنا إلى عناصر المشبه به ، وايفائها لأحوال المشبه ، وحملها أدق الخواطر والأحاسيس النفسية ويدعو إلى التعامل مع التشبيه بطريقة تحليلية وتفصيلية حتى نقف على دقائق

المعاني وأثراها . وهذا الجانب من التشبيه لم يهتم به غير عبد القاهر ، وظل عند المتأخرين من بعده كأنه تكرار لما قاله و يعرف التفضيل فيقول : " واعلم أن قولنا " التفصيل " عبارة جامعة و محصولها على الجملة أن معك وصفين أو أوصافاً فأنت تنظرنيها واحداً واحداً ، وتفصل بالتأمل بعضها عن بعض وقد أرتك في الجملة حاجة إلى أن تنظر في أكثر من شيء واحد وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة ".(١)

انظر إلى قوله : " تنظر فيها واحداً واحداً وتفصل بالتأمل بعضها عن بعض " فلا بد من تجزئة الصورة ،وتأمل معاني عناصرها واحداً واحدا وما تؤديه من الدقائق .

٢ - الغرابة والابتذال :

هذا سبب آخر لقرب التشبيه وبعده ، يدرسه عبد القاهر كأصل من أصول النفس ثم يربطه بالتشبيه كما فعل في التفصيل فيقرر أن الشيء الذى تكثر رؤية العين له ويتردد دوماً على مواقع الأبصار يكون مبتذلاً .

والشيء الذى يبعد عن الأنظار وتقل رؤية العين له يكون غريباً ويعزو عبد القاهر استقامة هذا الأمر إلى العين فيقول : " وذلك أن العيون هي التي تحفظ صور الأشياء على النفوس ،وتجدد عهدها بها ، وتحرسها من أن تندثر ،وتمنعها من أن تزول ".(٢)

وكذلك الشأن في التشبيه فعناصره إذا كانت تتكرر تحت الأبصار يكون تشبيهاً مبتذلا ،وإذا كانت بعيدة عن مواقع الأنظار فهو تشبيه غريب بعيد ، ولذلك فهو يحتاج إلى فكر و قطع مسافة للوصول

---

(١) أسرار البلاغة : ١٤٤ .

(٢) المصدر السابق: ١٤٣ .

إليه ، وتأمل جوانبه ، والمبتذل لا يحتاج في تحصيله إلى أي جهـد لأنه مفروس في النفس ، وبهذا يلتقي المبتذل مع إدراك الشبه جملة ، والغريب مع التفصيل في الحاجة إلى نظر وتأمل .

والمعاني المتداولة بين الناس يعتبرها العلماء من المعاني العامة المشتركة ويعالجونها في باب السرقات الأدبية ، فيذكر القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني أن مثل هذه المعاني لا يجوز ادعاء السرقة والاختلاس فيها ، لأنها مشتركة متقررة في النفوس لكثرة ترددها عليها فهي متقررة في البداءة و مركبة في النفس تركيب الخلقة على حد قوله . يقول " فمتى نظرت فرأيت أن تشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد البطيء بالحجر والحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار ، والصبّ المستهام بالمخبول في حيرته ، والسليم في سهره ، والسقيم في أنينه وتألمه أمور متقررة في النفوس متصورة للعقول ، ويشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح والأعجم والشاعر المفحم ، حكمت بأن السرقة عنها مُنْتَفية ، والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع ".(١)

وقد رأى عبد القاهر أن العلماء قد اشبعوا الحديث فيه فلم يهتم به قدر إهتمامه بالنوع الغريب .

ويتفاوت وجود الغرابة في التشبيه فقد تكون هيئة المشبه به موغلة في الغرابة كأن تكون عناصرها من الواقع ولكن صورتها المركبة ليست في الواقع كالتشبيه بأعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد أو بدبابيس عسجد قضبها من زبرجد ".

---

(١) الوساطة : ١٧٣ - ١٨٤ .

فالجزئيات موجودة ،وهيئة الصورة مكتملة لا وجود لها في الواقع بل هي خيالية ، ولذلك يسميها العلماء التشبيه الخيالي .

وقد تكون الصورة غريبة ،وعناصرها موجودة في الواقع إلاّ أن هيئتها نادرة الوجود .

وهكذا تقوى الغرابة وتضعف في التشبيه ،وكلما قويت وندرت الصورة حسن التشبيه ولطف. يقول عبد القاهر واصفاً التشبيه الذي اجتمع فيه التفصيل والغرابة " فإنّك تراهما بحسب نسبتهما منهما وتحققهما بهما ،قد أعطتاهما لطف الغرابة ،ونفضتا عليهما صِبْغ الحسن ، وكستاهما روع الإعجاب ".(١)

انظر إلى قوله " لطف الغرابة ،وصبغ الحسن ،وروع الاعجاب ".

ويتحقق فضل الشاعر في قدرته على تركيب مثل هذا النوع الأول الممتنع ،لأنه يدل على سعة خياله ،وصفاء حسه وقوة ذهنه في التقاط الأشياء ،وتشكيل الصور.

ويذكر عبد القاهر أن هناك عناصر اُبتذلت لا لأنها تقع تحت الأبصار على الدوام بل لكثرة شيوعها واستعمالها ، فقد كانت غرابتها محتجبة ثم استخرجت من أكمامها وتداولت حتى جرت على ألسنة العامة ، ولكن يظل الفضل عائداً لمن جلبها من مكامنها البعيدة ،وبدأ بذكرها . وهذا الشأن لا يقتصر على التشبيه فقط ، بل يمتد ليشمل كافة الأساليب التي كانت غريبة ومصونه ،ثم صارت عامة تلوكها كل الألسن . ويضرب عبد القاهر لذلك مثلاً بقولهم " لا يشق غباره " فهي كلمة مبتذلة ابتذال قولنا لا يلحق ،ولا يدرك وهو كالبرق .(٢)

---

(١) أسرار البلاغة : ١٥٠ .

(٢) انظر المصدر السابق : ١٦٦ .

وكأن عبد القاهر يلفت هنا إلى ضرورة الاهتمام بهذا النوع وعدم اهماله لشيوعه ،لأن جالبه قد بذل فيه المشقة وقطع دونه الشطون البعيدة.

ويبدو تأثر عبد القاهر بالقاضي الجرجاني ظاهراً ،فهو يذكر أن الذى لا يُسمى سرقة رغم ابتذاله صنفان :

الأول : المشترك العام الذى لا ينفرد به أحد ،وهو مفروس في النفوس .

والثاني : "الذى سبق المتقدم إليه ففازبه ،ثم تدوول بعده فكثر واستعمل فصار كالأول في الجلاء والاستشهاد والاستفاضة على ألسن الشعراء ، فحمى نفسه عن السرق ،وأزال عن صاحبه مذمة الأخذ كما يشاهد ذلك في تمثيل الطلل بالكتاب والبرد ،والفتاة بالغزال في جيدها وعينيها ،والمهاة في حسنها وصفائها "(١).

ويقابله في كلام عبد القاهر النوع الذى يرى ويبصر أبداً والنوع الذى كثر استعماله فابتذل .

ويذكر عبد القاهر من مزايا التمثيل عامة اقتناص جملة المعاني المتنوعة من الشيء الواحد ،وهذا يعتمد على قدرة الشاعر على استنطاق الأشياء بأكثر من معنى ، وتنوع وجوه الشبه فيه ، وبذلك تبرز لنا طاقة الشاعر بالأشياء من حوله ،فهو يلتقى بها ليثرى دلالاتها وإيحاءاتها بعد أن يلتحم خياله بها .

---

(١) الوساطة : ١٨٥ .

فمثلاً الزند تتنوع أحواله ،وكل حالة له تُشبه بها معانٍ متعددة فبإيراءه يعطى شبه الجواد ،وشبه الذكي الفطن ،وشبه النجح في الأمور والظفر بالمراد ، فلكل وجه دلالاته ،وكأن الشاعر يرى الأشياء رؤى متعددة ،وهذا راجع إلى ذكاء الطبع ،وقوة الشعور ،وسداد النظر وكذلك إصلاد الزند فيه أشباه من أحوال كثيرة ،ففيه شبه بالبخيل ، وشبه البليد ، وشبه من يخيب سعيه ... ، ولمعرفة تعدد معاني العنصر الواحد يستدعي البحث في دواوين الشعر ،وتتبع وجود العنصر عند كل شاعر ،والكشف عن المعاني التي عبر بها عنه .

ومثل هذه التفريعات للشيء الواحد لا يدركها إلا الشاعر الفطن الذكي المتأمل .

وقد تتبع عبد القاهر أحوال القمر المتنوعة في الشعر ،مطبقاً رؤيته الشعرية التي لاحظ وجودها في التمثيل . فالقمر يعطي معنى الكمال بعد النقصان ، يقول البحتري :

شرفٌ تزيَّد بالعراقِ إلى الّذي | عهدوه بالبيضاء ، أو ببلنْجرا
مثل الهلالِ بَدَاْ فلَمْ يَبْرَح بِهِ | صَوْغ الليالي فيه حتّى أقْمَرا

كما يأتي الهلال في معنى الكمال بعد النقصان ثم النقصان بعد الكمال :

المرءُ مثلُ هِلالٍ حين تُبصره | يَبْدو ضئيلاً ضعيفاً ثُم يَتَّسِقُ
يزداد حتّى إذا ما تمّ أعقبه | كرّ الجديدين نقصاً ثُم يَنْمَحِقُ

ويأتي لمعنى الوجود في كل مكان كقول المتنبي :

كالبَدْرِ مِنْ حيثُ الْتَفَتَّ رأيته | يَهْدِي إلى عينيك نوراً ثاقبا

وقول البحتري :

كالبَدْرِ أَفْرَطَ في العُلوِّ وضَوْؤُه ... للعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قريبِ

إلى غير ذلك من أحواله التي تأتي لمعانٍ عقلية مجردة .

وهكذا فإن خضنا وبحثنا عن المعاني المطروقة في العنصر الواحد لوجدنا أسراراً كثيرة وصوراً متنوعة تكثر و تغزر وتحسن خاصة في التمثيل و يبدو أن عبد القاهر أفاد في بحثه هذا من القاضي الجرجاني حين يقول : " وللشعراء في التشبيه أغراض ، فإذا شبهوا بالشمس في موضع الوصف بالحسن أرادوا به البهاء والرونق والضياء ،ونصوع اللون والتمام ، وإذا ذكروه في الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموم مطلعها وانتشار شعاعها ،واشتراك الخاص والعام في معرفتها وتعظيمها ، وإذا قرنوه بالجلال والرفعة أرادوا به أنوارها ،وارتفاع محلها ، وإذا ذكروه في باب النفع والإرفاق قصدوا به تأثيرها في النشوء والنماء والتحليل والتصفية ، ولكل واحد من هذه الوجوه باب مفرد ،وطريق مميز "(١).

ولم يقف عبد القاهر عند حدود هذه المسألة المقررة من القاضي الجرجاني بل دفع بها إلى الأمام وأوصلها بالشعر والأدب و نظر وبحث عن وجوه المعنى الواحد في عنصر من العناصر ،وهذا هو المنهج العلمي الصحيح في البحث عن جوانب الفكرة لا في تقنينها وتبويبها فحسب.

---

(١) الوساطة: ٤٧٤ .

التمثيل المقلـــوب

يقلب التشبيه الصريح في أكثر الأحوال على وجه لا يختـــل معه البناء التشبيهي ،ولا يتغير المعنى ، فقد يكون الفرع أصلاً ،والأصل فرعاً ،وذلك بأن يُشبّه الشيء بالشيء في حال ، ثم يعكس فيكون المشبه به مشبهاً ،والمشبه مشبهاً به ،وهذا يجرى في هذا النوع الصريح علـى وجه ظاهر بين بحسب قصد المتكلم ،فالمصابيح تُشبّه بالنجوم ، والنجوم تُشبّه بالمصابيح ،فنقول نجوم كالمصابيح ومصابيح كالنجوم ، ونقول خداً كالورد وورد كالخد .

أما في التمثيل فإن الحالة تختلف اختلافاً كلياً ،لأن المعانـي المعنوية فيه تُشبه بالأشياء الحسية ،وهي ليست واحدة في المجـال الإدراكي ولذلك فإن لها طريقاً آخراً حقق فيه عبد القاهر.

وقد عرّف البلاغيون طريقة مجيء القلب في التشبيه وتحدثوا عنه فمنهم من قبله ،ومنهم من رفضه كابن قتيبة . ويحاول عبد القاهر - غالباً - أن يوسّع الحديث في المسائل المتشابهة ويوجد الفروق بينها ، فبعد أن تحدث عن مجيء القلب في التشبيه على صورة بينه اتجه نحـــو التمثيل ليقيس هذا الأصل . انظر إليه وهو يحاول أن يفض مغاليـق هذا النوع بتساؤلاته " إذ قد تبين كيف يكون جعل الفرع أصـلاً والأصل فرعاً في التشبيه الصريح فارجع إلى التمثيل ،وانظر هـل تجيء فيه هذه الطريقة على هذه السمة والقوة ،ثم تأمل ما حمل من التمثيل عليها ، كيف حكمه ؟ ، وهل هو مساو لما رأيت في التشبيه الصريـح وحاذ حذوه على التحقيق ؟ أم الحال على خلاف ".(١)

---

(١) أسرار البلاغة : ١٩٦ .

انظر .. كيف يسأل ويلح ،وكأن حقائق المسألة ستنبلج من خلال هذه الأسئلة . وهذه طريقته حين يبدأ في طرح القضايا المهمة التي تبعث الهمم في تحصيل أوجه الحقائق .

وقبل التحقيق في مسألة عبد القاهر سنحاول أن نتتبع تطلعات أو بدايات هذه القضية في كتب غيره من البلاغيين ،فنجدها عند العسكري في الصناعتين ،وعند ابن رشيق في العمدة ،وهذا معاصر لعبد القاهر كما نعلم.

فالعسكري بعد أن يذكر تقسيمات الرماني للتشبيه حسب مستويات الإدراك ـ دون أن يذكر أنها له ـ يقول " وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه ما يرى العيان بما يُنال بالفكر وهو ردئ ، وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقة ".(١)

وأظن أن هذا الكلام للرماني أيضاً وإن لم نجده في كتابه النكت وهو يتحدث عن التشبيه .

المهم أن العسكري يحكم برداءته ،لأنه مذهب محدث ، انتشر وكثر في شعر المحدثين ،وإن كان بعض الناس يستجيدونه وهذا احساس من العسكري بأن في هذا اللون ما يستجاد إلّا أن جريانه على خلاف تشبيهات القرآن كان دافعاً قويا للقول بالرداءة .

أما ابن رشيق فإنه يذكر أن الرماني يعتبر التشبيه القبيح هو ما يخرج فيه الشيء من الأوضح الى الأغمض ويدخل تحته هذا النوع وهو تشبيه الحسي الواضح بالعقلي الغامض.

---

(١) الصناعتين : ٢٦٤ .

ويرد عليه ابن رشيق قائلاً إن هذا المذهب قد ورد في القرآن الكريم وفي الشعر الفصيح ولا يختص بالمحدثين فقط يقول : " إذا كان قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم في النفس دليله بأكثر مما هو عليه في الحقيقة ،كأنه أراد المبالغة ،ولعله يقول أو يقول المحتج له معرفة النفس والمعقول أعظم من إدراك الحاسة ".(١)

فالعقليات درجة أعلى من الحسيات والكلام ينتقل في تطوره من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى ،هذا أول وجه لتعليل مجيء هذا النوع على هذه الطريقة ،والسبب الآخر وجوده في القرآن الكريم والشعر الفصيح ، قال تعالى ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ورءوس الشياطين التي شبه بها لا تعد من الأشياء الحسية المرئية.

ويقول امرؤ القيس :

أَيَقْتُلُنِي وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فأنياب الأغوال ليست من الأشياء الحسية المرئية التي ترى عياناً.

وقال أعرابي قديم:

يزَمِّلونَ حديثَ الضِّغْنِ بينهم ... والضغن أسود أو في وَجْهِه كَلَفُ

فالضغن المدرك بالعقل له لون المحسوسات،فهو قد أثبت وقوعه في القرآن والشعر ليبين أنه لا وجه لاستبشاعه كما يقول الرماني.

ثم يذكر ابن رشيق استخدام المحدثين له في أشعارهم . يقول أبو تمام :

وأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ النَّدى ... بَيَاضُ العطَايَا في سَوَادِ المَطَالِبِ

فالعطايا بيضاء ،والمطالب سوداء.

---

(١) العمدة ١/ ٢٨٨.

وقال بعض المولدين :

وَتُدِيرُ عَيْناً في صَفِيحَةِ فِضَّةٍ   كَسَوادِ يَأْسٍ في بَيَاضِ رَجَاءِ

فاليأس أسود والرجاء أبيض . يقول ابن رشيق في هذا البيت " فاليأس على الحقيقة غير أسود لأنه لا يدرك بالعيان ،ولكن صورته في المعقول وتمثيله كذلك مجازاً والرجاء أيضاً على هذا التقدير في البياض ".(١) فالعقول تجسد المعاني المعقولة وتعطيها صفة المحسوسات ويكون ذلك على سبيل المجاز.

ثم يتناول عبد القاهر هذا الموضوع ،فيتجه إلى مجال أوسع إلى اللغة ،وعرفها ،وتصاريفها .

ويذكر أن ما جاء على طريقة تشبيه المحسوس بالمعقول يسمى تمثيلاً مقلوباً ،لأنه جاء على عكس التمثيل ،فالأصل فيه قد صار فرعاً ، والفرع أصلاً ،وهذا النوع جاء ليفيد المبالغة - كما قال ابن رشيق - وايهام أن الفرع صار أصلاً قد اكتملت فيه صفة الأصل ،فكأن هذه المعنويات اشتهرت بهذه الأوصاف حتى قاربت مدار الحسيات بل وزادت فصارت كأنها الأصل ، وقد ساعد على إشاعة هذا اللون تطور حقائق الفكر ، فأبرزت المعنويات في أثواب حسية ولذلك فإن عبد القاهر يبنى هذا النوع على التمثيل والتأويل أى تخييل المعنوى في صورة حسية ،وقيامه على وجه التأويل . ففي قول الشاعر:

كَأَنَّ النُّجُومَ بينَ دجاها   سُنن لاحَ بينهُنَّ ابتداعُ

---

(١) المصدر السابق : ١/٢٨٩ .

يوهمنا الشاعر هنا أن الضوء في السنة والظلمة في البدعة أمر متقرر وشائع فيهما حتى إنه يجعله أصلاً لهما، ولذلك بنى الكلام على توهم النور فيما لا نور فيه وما في السنة من هداية العقل والسلوك يشبه النور وليس نورا، وفي البدعة ضلال العقل والضلال وهو يشبه الظلمة وليس بأسود . فالتمثيل هنا قائم على وجه التخييل والتأويل .

وينبه عبد القاهر إلى أن في الحديث معنى آخر غير ما ذكرناه ، فكما أن سواد الليل يزيد النجوم ضياءً وحسناً ،كذلك بطلان البدعة والشبهة تزيد السنة نصوعاً وظهوراً ،لأن الشيء يظهر ويتميز بضده .

ومن التمثيل المقلوب قوله :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالزَّمَانُ كَأَنَّه   يَوم النَّوىٰ وفؤاد مَنْ لَمْ يَعْشَق

فلكثرة ما وصف يوم النوى بالقسوة والحزن ،اكتسب لون السواد ، ثم عطف عليه قلب من لم يعشق اعتقاداً من الشاعر أن القلب الذى لا يداخله العشق والغزل قلب مظلم قاس . وهذا نوع من الظرف شاع بين العامة ، كقلب المنافق والكافر يوصفان بالسواد .

وهذا النوع لا يوجد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية فهو وليد بيئة تطورت فيها حقائق الفكر وتداخلت صفات المعقولات في المحسوسات وتعارف عليها الناس واستقرت في عاداتهم .

وقد جاء في القرآن وصف الجهل والكفر بالظلمة ووصف العلم والإيمان بالنور قال سبحانه * ليخرجكم من الظلمات الى النور * أى من الكفر إلى الايمان .

وجاء في الحديث وصف الرسالة بالنور والبياض قال عليه السلام " أتيتكم بالحنيفية البيضاء " .

والذى لم يأت هو تمثيل المقلوب من هذا الباب على حد الشواهد التي ذكرت .

التمثيل عند المتأخرين

أ - التمثيل عند السكاكي .

ب - التمثيل عند الخطيب القزويني .

جـ - التمثيل عند أصحاب شرح التلخيص :

١ - سعد الدين التفتازاني .

٢ - بهاء الدين السبكي .

٣ - ابن يعقوب المغربي .

التمثيل عند المتأخرين

بدأت البلاغة العربية طوراً جديداً بعد عبد القاهر وقامت على منهج التحرير والمناقشة والإضافة لمسائل البلاغة في تراث عبد القاهر ، ثم التلخيص والتقنين والتبويب لها ، وسميت الكتب التي أودعت هذه الحقائق بالتلخيصات والشروح والحواشي .

وقد اختلفت وجهات النظر وتشعبت في بعض القضايا البلاغية في هذه الكتب كاختلافهم في تحديد مفهوم التمثيل ، فللسكاكي مذهب وللخطيب القزويني مذهب ولأصحاب شروح التلخيص مذهب آخر يختلف ويتفق مع مفهومه عند عبد القاهر.

التمثيل عند السكاكي : (ت ٦٢٦هـ)

يعرّفه بقوله " واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقي وكان منتزعاً من عدة أمور خص باسم التمثيل "(١). ويختلف تعريفه هذا مع تعريف عبد القاهر في وجوه ويتفق معه في وجوه أخر.

فوجه الشبه عند السكاكي لا بد أن يكون غير حقيقي أي غير حسي ، وما دام غير حسي فهو عقلي قائم في الطرفين .

أما وجه الشبه عند عبد القاهر فلابد أن يكون قائماً في أحد الطرفين على وجه التأول . ثم يشترط السكاكي في أن يكون وجه الشبه منتزعاً من هيئة مركبة ، وبذلك ينعتق من تمثيل المفرد عند عبد القاهر ، ومن الأمثلة التي ذكرها السكاكي قول الشاعر:

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الحَسُـو ... دِ فإنَّ صَبْرَكَ قاتِلُه
فالنَّارُ تأْكُلُ نَفْسَهـا ... إنْ لَمْ تَجِدْ ما تأْكُلُه

---

(١) المفتاح : ١٤٨.

شبه الحسود في عدم مقاولته التي تعين على نفث ما في صدره بالنار التي لا تُمَدّ بالحطب فتنطفيء ، ووجه الشبه قائم في الطرفين ، وهو الفناء لعدم وجود مدد البقاء وهو وصف عقلي ثابت في الحسود وفي النار .

يقول السكاكي " هو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه في المقاولة مع علمك بتطلبه إياها عسى أن يتوصل بها إلى نفثه مصدور من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك وإنه كما ترى منتزع من عدة أمور ".(١)

ويجتهد السكاكي كثيراً في انتزاع وجه شبه عقلي قائم في الطرفين ويذكر قول عبد القدوس :

وإنْ من أدّبته في الصِبا كالعُودِ يُسقَى الماءُ في غَرسه
حتى تَراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبْصَرتَ من يبسه

" فإنّ تشبيه المؤدب في صباه بالعود المسقي أو أن الغرس المؤنق بأوراقه ونضرته ليس إلا فيما يلازم كونه مهذب الأخلاق مرضي السيرة حميد الفعال لتأدية المطلوب ".(٢)

وتأدية المطلوب أي قيام المشابهة التي ينتزع منها وجه الشبه على أتم وجه .

وهذان الشاهدان ذكرهما عبد القاهر في باب التمثيل وهو يفرق بينه وبين التشبيه الصريح ، وقد تناولهما السكاكي بالدراسة والتحليل .

---

(١) المصدر السابق : ١٤٨ .
(٢) المصدر السابق : ١٤٨ .

وكان السكاكي يطلق على وجه الشبه الأمر التصوري أو الأمر التوهمي أو الصفة غير الحقيقية . وكل هذه التسميات تفضي إلى مسمى واحد وهو وجه الشبه العقلي .

ويذكر السكاكي جملة آيات ، يبين وجه الشبه فيها كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴾ .

وجه الشبه كما يقول السكاكي - " رفع الطمع إلى تسني مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب " (١) .

وقوله تعالى ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ .

وجه الشبه " أنهم في المقام المطمع في حصول المطالب ونجح المآرب لا يحظون إلا بضد المطموع فيه من مجرد مقاساة الأهوال " (٢) .

وقد ظلت هذه التحديدات لوجه الشبه متداولة عند البلاغيين من بعده ، وهي بذلك قد أغفلت كثيراً من المعاني والإيحاءات التي تتكاثر وتغزر في صورة المشبه به ، بل أنها أغفلت المشبه به كمثال ينطق بجملة المعاني المقصودة ، وترى فيه هذه المعاني المحسوسة ظاهرة .

فالسكاكي ومن تبعه قاموا بتجريد المعنى العقلي من الصورة المحسوسة في المشبه به ، فهذه الصورة الفنية بالمعاني والأحوال في

---

(١) المصدر السابق : ١٤٨ . (٢) المصدر السابق : ١٤٩ .

في آية ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ . أو آية ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ يستخلص منها السكاكي هذا المعنى الذهني المجرد بينما يقوم مذهب عبد القاهر على تأملها ومعرفة أحوال المشبه المنعكسة فيها ، فالأمر عند عبد القاهر هو هذا الوجه المحسوس والصفات القائمة في هذه الصورة من اللهفة نحو النور ثم اضاءة هذا النور ثم ذهابه أي الحالة المترتبة في المشهد والذي يوجد ما يشبهها في حال المنافق ، الصورة عند عبد القاهر تظل مثالاً للمعنى الأول قائماً بين المعنيين ويقوم العقل بعملية الترجمة والتأويل فيدرك ما في المشبه من أصول تشابه هذه الأحوال ويجعل هذا بإزاء ذلك .

ثم نلاحظ أن تمثيلات السكاكي كلها إخراج المعنى المعنوي إلى صورة حسية وهي كذلك عند عبد القاهر .

فتمثيل السكاكي أشبه بتمثيل عبد القاهر من جهة إخراج المعنوي إلى حسي أما شرط التركيب فهو مما انفرد به السكاكي ، لأن التمثيل عند عبد القاهر قد يكون في المفرد .

فكل تمثيل عند السكاكي تمثيل عند عبد القاهر وليس العكس لانفراد عبد القاهر بالمفرد كما قلنا .

*

التمثيل عند الخطيب : (ت ٧٣٩هـ)

تتسم دراسة الخطيب القزويني بتبسيط المسائل البلاغية ، وتقديمها في ثوب سهل التناول لطلبة العلم في كتابيه " التلخيص ، الإيضاح " ، وقد لخص فيهما كتاب المفتاح للسكاكي .

وتعريفه للتمثيل يختلف عن تعريف عبد القاهر والسكاكي ،وإن كان مذهب السكاكي يعد أصلاً لمذهبه يقول " التمثيل ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين أو أمور "(١) وهو بهذا يوسع معنى التمثيل فيشمل كل تشبيه مركب الوجه سواء كان هذا الوجه حقيقياً أوغير حقيقي ، أومتأولاً ،أو كان تشبيه مركب حسي بمركب حسي أو إخراج المعنوي إلى حسي أو من الحسي إلى معنوي .

كما أنه يتحلل من تمثيل الإفراد في الوجه عند عبد القاهر ، ومن قيد السكاكي " غيرحقيقي " .

وبتعريف الخطيب هذا صار مذهبه أوسع المذاهب وأخفها وأيسرها .

كما أنه لم يذكر أمثلة لتمثيله إنما قال في كتابه التلخيص " كما مر " أي كما مر من التشبيهات المركبة .

وإذا تأملنا كل من تعريف عبد القاهر والسكاكي والخطيب نجد أن بعضها قد تولد من بعض ، وانبثق منه ،فالتقت في أشياء واختلفت في أخرى . فأصل المسألة عند عبد القاهر " ما كان وجهه متأولاً " . ثم إن عبد القاهر أولى المركب مزيد عناية على حد ما ذكر في آية حطة التوراة وآية * مثل الحياة الدنيا *.

ثم جاء السكاكي وأطلق " غير حقيقي " مكان التأول واقتبس المركب في الوجه و ترك المفرد .

ثم جاء الخطيب وصرف النظر عن موضوع التأول وغير الحقيقي أي صرف النظر عن طريق قيام الوجه بأحد الطرفين وسوى بين ما كان الوجه

----

(١) الإيضاح : ٢/٢٧١ .

قائماً فيهما على سبيل الحقيقة وما كان قائماً على وجه التأول ،وعني فقط بمسألة التركيب .

وهكذا رأينا الفكرة عند عبد القاهر ثم أخذ منها السكاكي وترك ثم جاء الخطيب واستخلص منها ما استخلص .

*

التمثيل عند أصحاب شروح التلخيص :

قامت بعد الخطيب القزويني كثير من الشروح لشرح كتابه " التلخيص " لتبسيط وشرح ما غمض من كلام الخطيب . وسوف نقف عند بعض هذه الشروح لنحدد مفهوم التمثيل عندها هل بقي كما كان عند الخطيب أم أن مفهومه اختلف ؟

١ - التفتازاني (ت ٧٩١هـ) :

شرح التلخيص في المطول ثم اختصره وسماه المختصر ،والتمثيل عنده لا يخرج عن التمثيل عند الخطيب يعرفه فيقول " أما التمثيل .. أي التشبيه الذي وجهه وصف منتزع من متعدد أي أمرين أو أمور كما مر من تشبيه الثريا وتشبيه مثار النقع مع الأسياف وتشبيه الشمس بالمرآة في كف الأشل وغير ذلك "(١) .

ويقصد بقوله " تشبيه الثريا " قول قيس بن الأسلت :

وَقَدْ لاحَ في الصبح الثُّرَيّا كماترى كعُنْقُودِ مُلاحِيَّةٍ حينَ نَوّرا

---

(١) شروح التلخيص : ٣٠/٤٣٢- ٤٣٣ .

وهذا تشبيه مفرد بمفرد ووجه الشبه ينتزع فيه من مكونات المشبه به الدال على هيئة فهو مفسرد من حيث هوعنقود وملاحيه منور ولكنه يتضمن هيئة هي هذا الشكل المخصوص واللون المخصوص وعلى ذلك يكون وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدد .

ويدخل في التمثيل أيضاً تشبيه مثار النقع مع الأسياف فطرفاه مركبان ووجه الشبه فيه مركب .

كأنَّ مُثارَ النَّقعِ فوقَ رُؤُوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُهُ

وتشبيه الشمس بالمرآة في كف الأشل وهوتشبيه مفرد بمركب ووجه الشبه مركب :

* والشَّمسُ كالمرآةِ في كَفِّ الأشَلِّ *

فسعد الدين يشترط أن يكون الوجه مركباً بصرف النظر عن الطرفين فقد يكون تشبيه مفرد بمفرد أو مركب بمركب أومفرد بمركب والعكس.

ثم جاء السيد الجرجاني (ت ٨١٦هـ) واعترض على كلام سعد الدين في حاشيته على المطول وقال إن معنى قول الخطيب في التمثيل يعني أنه لا بد أن ينتزع الوجه من هيئة مركبة في الطرفين لا من مفرد مكون من أجزاء كما في تشبيه المفرد بالمفرد ولا يجوز اعتبار الوجه دون الطرفين في التمثيل . كما أن تشبيه المفرد بالمفرد لا يدخل تحت التمثيل عند الخطيب البتة .

يقول السيد الجرجاني"لا يخفى أن المتبادر من انتزاع وجه التشبيه من متعدد انتزاعه من متعدد في طرفي التشبيه لا كونه مركباً من متعدد هو أجزاؤه كما توهمه الشارح فأورد في مثاله تشبيه المفرد بالمفرد"(١).

---

(١) حاشية المطول : ٣٣٨ .

ثم يذكر أن الخطيب قد صرح بذلك وهو يتحدث عن الاستعارة التمثيلية التي تقوم على التشبيه ،فينقل نصوصاً له تؤيد ذلك يقول السيد " ومما يؤيد ما ذكرناه أن المصنف قال فيما بعد المجاز المركب هو اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل ،وقال الشارح هناك تشبيه التمثيل ما يكون وجهه منتزعاً من متعدد واحترز بهذا القيد عن الاستعارة في المفرد ".(١)

وهذا تفسير جيد لكلام الخطيب لأنه يقصر التمثيل على ما كان مركب الطرفين أو أحدهما وهو الأقرب إلى معنى انتزاع وجه الشبه من متعدد فالتعدد يكون من الطرفين ولا يكون في الوجه وحده ، وما دام الوجه انتزع من متعدد يكون لا محالة متعدداً .

وبدون تفسير السيد هذا يمكن أن يدخل قولنا هو أسد في التمثيل إذا كان المراد الشجاعة والبطش والسيادة لأن الأسد يعطي هذه المعاني ونكون إذن قد انتزعنا وجهاً متعدداً من مفرد الشبه المركب .

٢ - السبكي (ت ٧٧٣هـ) :

أما بهاء الدين السبكي في شرحه " عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح " فإنه لا يذكر الأنواع التي يأتي فيها التمثيل إنما عرفه كتعريف الخطيب .

يقول " فالتمثيل ما كان وجه الشبه فيه وصفاً منتزعاً من متعدد أمرين أو أمور وقيده السكاكي بكونه غير حقيقي وكأن المصنف لا يرى هذا القيد بل يكون تمثيلاً سواء أكان حقيقياً أم لا ".(٢)

---

(١) حاشية المطول : ٣٣٨ .

(٢) شروح التلخيص ٣/٤٣٣ .

فتعريف السبكي يتفق مع مذهب الخطيب تماماً فهو قد فطن إلى أن التمثيل عند الخطيب هو التمثيل عند السكاكي إلّا أن الخطيب قد تحرر من القيد الذي فرضه السكاكي على وجه الشبه لأنه لا يقال (وقيده فلان) إلّا وهناك شيء مشترك بين الشيئين .

*

٣ - ابن يعقوب المغربي (ت ١١١٠هـ)

أما ابن يعقوب المغربي في كتابه "مواهب الفتاح في شروح تلخيص المفتاح" فإنه يسهب الحديث في مسألة التمثيل وينظر إليه من جهة الوجه والطرفين فيقول لا بد إن ينتزع الوجه من متعدد سواء ما يتعلق بأجزاء الشيء الواحد أو بأشياء متعددة . ويدخل تحته تشبيه المفرد بالمفرد والمركب بالمركب والمفرد بالمركب والمركب بالمفرد .

يقول : " التشبيه الذي وجهه وصف منتزع أي مأخوذ من متعدد أي مما له تعدد في الجملة سواء كان ذلك التعدد متعلقاً بأجزاء الشيء الواحد أو لا فدخل فيه على هذا أربعة أقسام ما كان طرفاه مفردين وما كانا مركبين وما كان الأول مفرداً والثاني غير مركب والعكس ".(١)

ثم يشرح قول الخطيب "كما مر" فيذكر الأمثلة التي ذكرها سعد الدين في هذا الباب .

ثم يقول إننا إذا اعتبرنا المفرد من باب التمثيل فإن التشبيه سيكون أعم محلاً من مجاز التمثيل أي من الاستعارة التمثيلية وهذه

---

(١) المصدر السابق : ٣/ ٤٣٢ .

لا تَدخل الاستعارة المفردة تحتها .

ثم يخرج ابن يعقوب هذه المسألة ويحررها بأن يقول " ويحتمل أن يراد بالمنتزع من المتعدد ما لا إفراد في طرفيه فيطابق ما سيأتي والله أعلم ".

وهذا الذي ذكره هو رأي السيد الجرجاني الذي ذكرناه سابقاً . وهو الذي نختاره .

الباب الثاني
تشبيه التمثيل في الصحيحين

الفصل الأول :
التراث البلاغي حول البيان النبوي

الفصل الثاني :
المعاني التي جاءت على طريقة التمثيل

الفصل الثالث :
عناصر التمثيل في البيان النبوي

الفصل الرابع :
من أسرار الصياغة في التمثيل النبوي

الفصل الخامس :
أثر القرآن الكريم في التمثيل النبوي

الفصل السادس :
التمثيل عند الجاهليين

الفصل السابع :
دراسات تحليلية لبعض الأحاديث

الفصل الأول :
التراث البلاغي حول البيان النبوى

١ ـ أوصاف بلاغة النبوة .

٢ ـ دراسات حول البيان النبوى .

١ـ أوصاف بلاغة النبوة .

* وصف للجاحظ من البيان والتبيين .
* وصف للخطابي من غريب الحديث .
* بحث البلاغة النبوية للرافعي من كتابه
إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

الفصل الأول

التراث البلاغي حول البيان النبوي

يمده هذا الفصل مقدمة ندرس فيه البلاغة النبوية من جانبين:

الأول : يعني بتتبع كلام أهل العلم في البيان النبوي ، وتفهّم ما قالوه في بلاغته عليه السلام.

الثاني : الوقوف عند الدراسات التحليلية التي قدمها علماؤنا في الحديث الشريف .

كما عرجنا في هذا الفصل على كتب الأمثال النبوية التي عنيت بجمع التمثيل من كلامه عليه السلام.

أولا - وصف البيان النبوي :

هذا هو الجانب الأول ، وسنتناول فيه كلام كل من الجاحظ والخطابي من القدماء ، والرافعي من المحدثين .

وقبل أن نشرع في ذلك نحاول أن نتلمس بعض الأحكام السابقة للجاحظ ، والتي كالإشارة واللمح إلى هذا النمط المتفرد من الكلام في ذلك العصر أي العصر النبوي ، ممن سمع تلك البلاغة العالية .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع هذه الطبقة النادرة من الفصاحة " لقد طفتُ بالعرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ ،

فقال عليه السلام : أدّبني ربي فأحْسَنَ تأديبي .(١)

وأبوبكر الصديق كان من أعلم الناس بالشعر والأنساب والأخبار، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف أن فصاحته عليه السلام تتميز تميزاً ظاهراً حتى كأنها نمط متفرد وطبقة متفردة فسأله عن مصدر هذه الطبقة العالسية المتميزة فقال له : " فمن أدبك ؟ ".

وقال له علي بن أبي طالب -وهو يخاطب وفد بني نَهْد- " يا رسول الله نحن بنو أبٍ واحد ،ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ! ، فقال عليه السلام " أدّبني ربي فأحسن تأديبي ، ورُبّيت في بني سعد ".(٢)

فالرسول عليه السلام يُرْجع فصاحته إلى سببين ، الأول : إلهي اقتضته نبوته ، والثاني : يعود إلى نشأته في أصفى القبائل فصاحة وبياناً وهي قبيلة بني سعد .

ومن الإشارات التي دلت على بلاغته عليه السلام أيضاً قول عليٍّ رضي الله عنه : ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلّا وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعته يقول " مات حتفَ أنفه ".(٣)

وقد كان علي بن أبي طالب على علم بتفرده عليه السلام بأساليب لم يسمعها من العرب وبتفرده بغريب لهجات القبائل التي لم يجمعها عربي قط ... وهكذا نجد أن كلام أبي بكر الصديق وكلام عليّ

---

(١) الجامع الصغير ، السيوطي : ١/١٥٠ .
(٢) النهاية ، ابن الأثير : ٤٠ .
(٣) مأخوذ من دراسة الرافعي للبلاغة النبوية في كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

الأول يصف عموم كلامه صلى الله عليه وسلم ،وكلام عليّ الثاني يتجه إلى الكلمات الغريبة التي انفرد بها بيان النبي صلى الله عليه وسلم.

ولم تكن فصاحته تخفى على عامة العرب الذين لم يُديموا صحبته ويعاشروه كأبي بكر وعلي . فقد تنبه سائر العرب إلى تلك الطبقة المتفردة التي امتاز بها عليه السلام . فعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كان عند النبي صلى الله عليه وسلم في يوم دجن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كيف ترون بواسقها ؟ . قالوا : يارسول الله ما أحسنها وأشد تمكنها ، قال : فكيف ترون جونها ؟ . قالوا : يا رسول الله ما أحسنه وأشد سواده . قال : فكيف ترون بروقها ؟ أخفواً أو وميضاً أم يشقّ شقاه ؟ . قالوا : يا رسول الله بل يشقّ شقّاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحيا أي جاءكم الحيا ، فقال أعرابي : يا رسول الله ، ما رأيت الذي هو أفصح منك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وما يمنعني وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين ".(١)

والذي أثار إعجاب هذا الأعرابي الفطنة إلى دقائق أحوال السحاب والسؤال عنها ، وفصاحة النبي صلى الله عليه وسلم التي لم ير الأعرابي أفصح منها هي فصاحة العقل النافذ ، والذهن الثاقب، والخبرة الواعية بأحوال السحاب .

---

(١) امثال الحديث للرامهرمزي : ٢٤٧- ٢٤٨ . الجون : السواد . البواسق : فروعها المستطيلة الى وسط السماء والى الأفق الآخر. والخفو : الاعتراض من البرق في نواحي الغيم ، الوميض: يلمع قليلا ثم يسكن ، يشق شقا : استطالته في الجو في وسط السماء الحيا : المطر (غريب الحديث ، أبوعبيد : ٣/ ١٠٤-١٠٥) .

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في جوابه إلى أن القرآن من عوامل فصاحته وأن تأثره ببلاغته المعجزة مما كان له الأثر الحميد في بيانه عليه السلام.

وهناك بعض الأحاديث له عليه السلام تدل على فصاحته وحسن بيانه كقوله عليه السلام: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر" (١). هنا أرجع فصاحته إلى بيئته التي ولد ونشأ فيها، فقبيلة قريش هي أفصح القبائل العربية، وقبيلة بني سعد تجمع بين السليقة الخالصة والفصاحة. ويقول عليه السلام "أوتيت جوامع الكلم" (٢).

ومثل كلامه هذا، وكلام صحابته عليهم السلام قد أغرت كثيراً من الدارسين للبحث عن وجه بلاغته، وعن الأساليب التي تفرد بها، وعن جوامع كلمه، ودراستها والكشف عن أهم سماتها، والحديث عن بلاغة قريش وبني سعد وحظه عليه السلام منها.

أما وصف العلماء لبلاغته عليه السلام فهي كثيرة وسنتناول بعضها إن شاء الله.

وأول نص سنتناوله نص للجاحظ ذكره في كتابه البيان والتبيين في سياق الحديث عما لم يسبقه إليه عربي.

---

(١) الفائق، الزمخشري: ١١.
(٢) المصدر السابق: ١١.

وقبل أن يتحدث عنها ، يذكر طبائع العرب في الكلام ،وطرائقهم في التعبير تمهيداً لذكر البلاغة النبوية وأوصافها ، فيذكر أن خطب العرب ليست على مقدار واحد من الجودة فمنها الطويلة الخالية من الحسن ،ومنها القصيرة التي تحتوي على بعض النتف الجياد ، أو الكلمات التي تغني بلمحها ووحيها وإشاراتها عن الكثير منها فتؤدي عملها ، وكذلك تختلف طرق الشعراء في شعرهم فمنهم من لا يتكلف في شعره ،ولا يديم النظر اليه فيأتي سهلاً مرتجلاً ، ومنهم من كان يمكث بقصيدته حولاً يُهذبها ويُراجعها و يميثها في صدره ، فيخرجها محكمة البناء ،جيدة السبك ،فيصبح قائلها فحلاً خنذيذاً كما يقول الجاحظ أي أنّه يبلغ أعلى مراتب الشعر ،وهؤلاء هم أصحاب الحوليات أو المقلدات أو المحكمات ،أو أصحاب مدرسة زهير.

ثم نرى الجاحظ يغمز زهيراً في مذهبه هذا ثم يتبرأ من غميزته فيقول بعد أن يذكر رأيَ كلٍ من الحطيئة والأصمعي في هذا المذهب " وكان يقال لولا أنّ الشّعر قد كان استعبدَهم واستفرغ مجهودَهم حتى أدخلهم في باب التكلُّف وأصحاب الصنعة ، ومن يلتمسُ قَهْرَ الكلام واغتصابَ الألفاظ لذهبوا مذهبَ المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سَهْواً ورَهواً ،وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً "(١) وفي قول " يقال " بالبناء للمجهول صيغة تمريض كما يسميها العلماء. وفيه أن هذا الرأي ليس للجاحظ وإنما هو قول قيل ولكن في ذكره غميزة لمذهب زهير ، وتهيئة القارئ للميل إلى الكلام الذي هو سليقة وطبع كما هو حال كلامه صلى الله عليه وسلم.(٢)

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٣.

(٢) انظر المصدر السابق ٢/٧ ومابعدها.

ثم يبدأ الجاحظ في الحديث عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصفه بأوصاف تشمل كثيراً من الأصول البلاغية النافعة.

ويعتبر وصف الجاحظ لمنطق الرسول صلى الله عليه وسلم من أقدم وأبين وأشمل ما وصف به الكلام النبوي، وسنقف عنده محاولين توضيح ما يدل عليه من أصول بلاغية ولو جملة لضيق مقام هذه الدراسة.

وسنذكر بدءاً نص الجاحظ كاملا ثم نبدأ في تحليل كلامه على وفق دلالته. يقول الجاحظ:

((وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثُر عدد معانيه، وجَلّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد ((وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)) فكيف وقد عابَ التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهَجَرَ الغريبَ الوحشيّ، ورغب عن الهجين السُّوقي، فلم ينطِقْ إلاّ عن ميراثِ حكمةٍ، ولم يتكلّم إلاّ بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق. وهو الكلامُ الذي ألقى اللّه عليه المحبةَ، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبيْن حُسن الإفهام، وقلّة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته، وقِلّةِ حاجة السامع إلى معاوَدته، لم تسقط له كلمة، ولا زَلّت به قَدَم، ولا بارَتْ له حُجّة، ولم يَقُمْ له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخُطَبَ الطِّوال بالكلِم القِصار، ولا يَلتمِس إسكاتَ الخَصم إلاّ بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ إلاّ بالصِّدق، ولا يطلب الفلج إلاّ بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل الموارَبة،

ولا يهمز ولا يلمز ،ولا يُبْطِئُ ولا يَعْجل ، ولا يُسْهِبْ ولا يَحْصَر . ثم لم يَسْمع الناسُ بكلام قَطُّ أعمَّ نفعاً ، ولا أقصَدَ لفظاً ، ولا أعدل وزناً ،ولا أجملَ مذهباً ،ولا أكرمَ مطلباً ،ولا أحسنَ موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ،ولا أفصح معنًى ، ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً))(١).

وقد نقلنا نص الجاحظ على طوله لتتضح السمات العامة التي وُصف بها البيان النبوي.

وهذا النص الكريم النبيل يتضمن أصولاً بلاغية عالية في كلامه صلى الله عليه وسلم، وسوف أحاول تقسيمه على وفق ما يدل عليه من هذه الأصول . وسنشرع الآن في تحليل هذه الأوصاف .

يقول الجاحظ " هو الكلام الذي قل عددُ حروفه ،وكثُر عدد معانيه ،وجَلَّ عن الصَّنعة ،ونُزِّه عن التكلف ،وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد "وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ " فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التَّقعيب".هذه الفقرة تتضمن أصلين :

الأول : الإيجاز الذي هو قلة اللفظ وكثرة المعنى ، وقد عرَّف الناس الإيجاز بتعريفات كثيرة ذكر الجاحظ طرفاً منها ،من أقوال البلاغيين وأهل اللغة وبين أهميته كأصل من أصول البلاغة ، وتبعه غيره من البلاغيين كالرماني وغيره ، ولا يزال قلة اللفظ وكثرة المعنى هو جوهر هذا الباب ، وتدخل جوامع كلامه صلى الله عليه وسلم

----

(١) المصدر السابق : ٢/١٧-١٨.

في هذا الباب ،وقد اجتهد كثير من العلماء في جمع هذه الجوامع والوقوف على غزارة معانيها وإحاطتها بفيض غزير من أصول التشريع ، فالحافظ أبو بكر ابن السني له كتاب " الإيجاز وجوامع الكلم في السنن" وابن رجب الحنبلي له كتاب " جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ".

الثاني : البعد عن التكلف ، أي خلوص الكلام مما يكدره من سوء الصنعة ووحشة التكلف ، ولم يكن عليه السلام يتصنّع أو يتكلف في كلامه ، إنّما كان يجري على الطبع ومقامات أقواله تدل على ذلك ، ثم إن نبوته لا تقتضي الإعداد والتنقيح ،لأنّ كلامه وحي وإلهام من الله ،فكل كلامه من النمط العالي الذي تتردّى أمامه الصنعة والتكلف والمراودة وطول النظر وإن كانت تُستحسن في كلام العرب . ومعنى قوله تعالى قل يا محمد(وما أنا من المُتكلِّفين ﴾ أي المتصنعين لما ليس هو أهل له ،لأنّ كلام الأنبياء وحي لا يحتمل التكلف وإتهام العقل .

وانظر إلى قوله " جَلَّ ... ونَزَّه " ففيهما دلالة على أنه أمر معيب ترفع عنه ترفعاً عظيماً وابتعد عنه ابتعاداً كاملاً .

والجاحظ يزدري الصنعة في كلام الأنبياء ،ويستحسنها في كلام الشعراء لأنّ الشعر ضرب من المعاناة والصنعة .

وكما خلا كلامه عليه السلام من التكلف ، خلا أيضاً من معايب خاصة بطريقة نطق الكلام كالتشديق والتقعيب ،والتشدق هو من

يلوي شدقيه للتفصح ويتوسع في النطق من غير احتياط واحتراز كما قال ابن الأثير (١) ، وقد نفى الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الصفة عنه فقال " أياي والتشادق " لأنها أمارة التكلف ، كما يقول عليه السلام أيضاً " (ابغضكم إليّ الثرثارون المتشدقون المتفيهقون) (٢) ، فقد قرن الرسول صلى الله عليه وسلم التشديق بالثرثرة ، وجميعها يقتضي التكلف من غير انضباط أوقيود .

فالتكلف ممقوت في الأمر كله لأنه يجافي الفطرة ، ثم هو في اللغة يجافي فطرتها ، وهي لغة عذبة سلسلة رقراقة ،والتشديق يفقدها أفضل خصائصها . وهذا شيء واشباع الحروف وملء الأشداق بأصواتها وإخراجها من مخارجها من غير تحيف أو تزيّد شيء آخر وهو الذي كان يتصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وابتعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً عن معايب أخرى تتعلق بآلة النطق منها التقعيب والتقعير وهما واحد ،ويعنيان التحدث بأقصى الحلق ،ومعنى القعب في الأصل القدح الضخم .

* * *

يقول الجاحظ " استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر " . هذا ما يعرف بمراعاة مقتضى الحال في البلاغة ، فإذا كان المقام يقتضي الإطالة والإطناب ، فقد كان عليه السلام يطيل

---

(١) انظر النهاية : ٢/٤٥٣ .

(٢) المصدر السابق: ٢/٤٥٣ .

فيتحدث عن جوانب المعنى وخصوصياته بأسلوب مفصل ، كأن يكون في مقام وعظ أوخطبة أو تفصيل تشريعي "، أوكخطبة الوداع التي أطال الحديث فيها ،وهي تعد إيجازاً إذا ما قيست بأصول الموضوعات التي تحدث فيها ،لأنه لخص فيها تشريعات رسالته التي ظل ثلاثاً وعشرين سنة يبلغها للناس ،ومن يتأمل هذه الخطبة ، يجد تعدد الموضوعات فيها وتنوعها ، فكل موضوع يعد باباً من أبواب التشريع .

* * *

يقول الجاحظ " وهجر الغريب الوحشي ،ورغب عن الهجين السوقي " ، هذا تحديد لطبقة الألفاظ الدائرة في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها وسط بين طرفين مرذولين . فالغرابة تخل بالمعنى واللفظ ، فينفر منها السمع ، ولا يستدل على معناها إلا بالغوص في أمهات معاجم اللغة ، يقول التفتازاني معرفاً الغرابة " كون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال فمنه ما يحتاج في معرفته إلى أن ينقر ويبحث عنه في كتب اللغة المبسوطة "(١) فهي كلمات قديمة عفى عليها الزمن لقلة دورانها واستعمالها ولذلك سميت بالوحشية نسبة إلى الوحش الذي يسكن القفار والذي يصعب اقتناصه واستئناسه (٢) ، فهي ألفاظ شاردة نافرة عن الذوق لا تأنس النفس لها ،ولا تجرى سهلة على اللسان .

---

(١) المطول: ١٨ .

(٢) انظر المصدر السابق : ١٨

وهناك نوع من الغريب لا يدخل تحت هذا الشارد النافر، وهي الغرابة الحسنة التي تجدها في القرآن الكريم، وفي كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم - والتي أُلفت كتب غريب القرآن والحديث من أجلها، وفي الشعر الجاهلي، وفي نثر بعض الشعراء كالمعري، فهذا لا يُعاب استعماله بل إنَّه يمثل جزءاً أصيلاً في هذه اللغة.

والغريب الذي نزه الجاحظ عنه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النوع الأول المستهجن الذى يخل بالكلام وفصاحته، ويكاد يتوغل به في اللغات المهملة أي الألفاظ العربية التي تجاورتها اللغة في مسيرتها المتطورة نحو الأفضل والأخف والأعذب.

ويذكر الخفاجي أن الغرابة وُجدتْ في كلام أهل الطبع من الشعراء الفحول كامرئ القيس وعنترة، فكانت سبباً في الإخلال بفصاحتهم. يقول امرؤ القيس:

وسِنٍّ كسُنَّيقٍ سَناءً وسُنَّما ... ذَعرتُ بمِدلاجِ الهَجيرِ نَهوضِ (١)

ولم يعرف الأصمعي ولا أبو عمرو - وهما من علماء الشعر واللغة - معنى كلمة " سنيق " «وقال أبو عمرو هو بيت مسجدي يريد على أهل المسجد، وقال غيرهما سنيق: جبل، وسنم هي البقرة فأما السن فالثور» (٢).

---

(١) السن: الثور الوحشي، السنيق: الصخرة الصلبة، وقيل هو جبل شبه به الثور في صلابته وشدته وارتفاعه، السنا والسنم: الارتفاع، مدلاج الهجير: أى يسير في الهجير، شدة الحر. (الديوان: ١٢٨).

(٢) سر الفصاحة: ٧٠.

وكلام امرئ القيس هنا قد استغلق معناه وفقد فصاحته وبيانه بهذه الغرابة، وحرص كثير من الشعراء على حذف الغريب الوحشي من أشعارهم لتقريبه إلى الأفهام .

أما الهجين السوقي الذي رغب عنه رسول الله فهو الكلمات المبتذلة القبيحة التي ينبو عنها الذوق ، وينفر منها وقد وقع بعض فحولة الشعراء في هذه الألفاظ فكانت سبباً لاستهجان شعرهم قال زهير:

وأقسمتُ جهداً بالمنازل من منًى
وما سُحقت فيه المقادمُ والقمل

والقمل من الألفاظ المبتذلة التي ذهبت برونق الكلام (١) .

وقول امرئ القيس وزهير يدلان على أن اللغة، وهي في ذروة بيانها وزهائها كان في ألفاظها الجيد والردئ ، و مجال الاختيار متسع فيها ، وأن القرآن الكريم والسنة النبوية قد خلصا اللغة من شوائبها وسخائمها، وأبرزا أنصع ما في اللغة . وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم وسط بين هذين الطرفين المعيبين في الكلام لأن الارتفاع بالكلام حتى يصل إلى الغرابه أو انحطاطه حتى يصل إلى السخافة لا يؤدي الغرض الذي يجيء الكلام فيه من أجله .

* * *

---

(١) انظر المصدر السابق : ٧٥ .

يقول الجاحظ " فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة ،ولم يتكلم إلاّ بكلام قد حف بالعصمة ،وشيّد بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى اللّه عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام و قلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن اعادته و قلة حاجة السامع إلى معاودته // هذا هو عنصر الإلهام والتأييد العلوي لهذه البلاغة النبوية .

ولكن ما هو ميراث الحكمة الذي نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل هو ميراث النبوة الذي كان عليه الصلاة والسلام آخر الوارثين لهذا الميراث الشريف ؟ . .

أم أن الحكمة هي الصواب المحض الذي لا يختل عنصر من عناصره مع تعاقب الأحقاب وتوارد الأجيال والحضارات ؟

ثم إن الله تعالى قد عصمه من الخطأ والزلل ليس في سائر أفعاله فقط ،بل في كلامه ولغته ، فخرج كلامه سهلاً يسيراً من غير تكلف أو تعمّل ينفذ إلى القلوب فيبث النور في أرجائها ،ويعمل عمله فيها .

ولنتأمل قول الجاحظ " حُفّ ، شُيّدَ ،يُسّرَ " ففيهما دلالة على أنها لا تكون إلاّ من الله وبتأييد منه ،وأن له حاجزاً بينه وبين الخطأ ،وقوله (شُيّد) فيه قوة الحق وثباته ، وقوله (يُسّر) فيه معنى الشيوع والانعطاف نحوه ومن آثار المدد الإلهي والإلهام في كلامه صلى الله عليه وسلم تهيئة النفوس لتلقي كلامه و محبته ،

وتهيئة أسباب في الكلام مكنت النفوس من تعلقها وأنسها به .

هذه النعمة الإلهية ترجع إمّا إلى طابع النبوة أو إلى أثر اخلاص القائل وطيب معدنه، وصدق نفسه، ونبل ما يُبلغه، أو أنه يرجع إلى متلقي الكلام ، فحبهم له، وإيمانهم بنبوته جعلهم يتعلقون بكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال .

وقد ذكر الخطابي وهو يتحدث عن وجوه إعجاز القرآن أن النفوس تهش لسماع القرآن وتطرب له وتستعذبه وتجد فيه ما لا تجده عند سماع أي كلام ثم لا تدري سبب ذلك وعلته (١) ، فالنفس تجد من القرآن الكريم والسنة النبوية ما لا تجده في سواهما من الكلام .

ثم إن أسلوبه عليه السلام جمع بين المهابة والحلاوة ، وهو شيء لا يجتمع في أسلوب غيره من الناس . لأن المهابة تكون في المعاني ، والكلام المهيب هو الجليل المعنى الشريف الغرض، والحلاوة تكون في بناء الألفاظ وتكوين الجمل في الكلام ، والكلام الحلو عادة هو ما يُحدّث النفس في هواها ويناغيها بشجونها ورغائبها وهذا غير الباب الأول ، هكذا هو في الشعر كله ، أما كلامه صلى الله عليه وسلم فقد انعقدت القلوب على محبته أكثر مما انعقدت على ذكر الصاحبة وهواجس النسيب ثم استشعرت شرف كلامه عليه السلام وجلالة فملأها مهابة وغمرها بالحب والهوى . ونلاحظ أن شعر الحكمة والوعظ تقل فيه الناحية الإبداعية ، كشعر أمية بن أبي الصلت الذي اتجه شعره نحو الأغراض الدينية والمواعظ فخلا من قوة التعبير ، فإذا كانت معاني أمية شريفة

----

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٤ .

مهيبة فليس لفظه على درجة وافية من الحلاوة والعذوبة.

أما كلامه عليه السلام فقد جمع فيه بين حلاوة الألفاظ وحسن نظمها وجرسها وفصاحتها العالية وبين مهابة المعاني وجلالها.

وتأمل قول الجاحظ " جمع له بين المهابة والحلاوة " وهل من الممكن أن يذكر الجاحظ هذا الجمع وهو يحدثنا عن علو طبقة كلامه عليه السلام إلّا إذا كان الجمع في الكلام بين المهابة والحلاوة مما لا يتأتى إلّا لخاصة الخاصة ؟

كما جمع كلامه عليه السلام بين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، ويتحقق حسن الإفهام بتبسيط المعاني واستخدام أفضل الوسائل البيانية التي تحيط بأحوال المعنى فمنها ما هو راجع إلى المعنى، ومنها ما يتعلق بالألفاظ والصور البيانية ومنها ما يتعلق بالناحية الجرسية الصوتية في الكلام، وهذا يحتاج إلى حشد النفس، وتفصيل المعاني.

أما قلة عدد الكلام أي حسن اختيار الكلمات القليلة المعبرة عن المعنى في أقل عدد من الألفاظ، أي توظيف الوسائل اللغوية للإبانة عن الأغراض توظيفاً متميزاً، والجمع بينهما لا يتأتى إلّا لمن راض اللغة، وأحكم معرفة وسائلها، وفطن إلى مسالكها، فحسن الإفهام يحتاج إلى حشد نفس وتهيئة ألفاظ وجمل وعبارات، وإذا استطاع البليغ أن يحسن فهم متلقيه بأقل ألفاظ فقد بلغ الغاية ورام المراد، وهذا يقع في كلام خلق كثير ولكنه لا يطرد إلاّ في كلامه صلى الله عليه وسلم.
وهذا وصف آخر للإيجاز في كلامه صلى الله عليه وسلم.

وحين يخرج الكلام على هذه الهيئة من الوضوح وحسن التعبير فإنه يستغنى عن اعادته ،وتقل حاجة السامع إلى معاودته ،لأن جوانبه كلها قد أشرقت إشراقاً يملأ نفس متلقيه .

* * *

يقول الجاحظ دافعاً عنه عليه السلام معايب تلتصق بالخطباء والمتكلمين : " لم تسقط له كلمة ،ولا زلت به قدم ،ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ،ولا أفحمه خطيب ،بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار ،ولا يلتمس اسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ،ولا يحتج إلا بالصدق ،ولا يطلب الفلج الا بالحق ،ولا يستعين بالخلابة ،ولا يستعمل المواربة ،ولا يهمز ولا يلمز ".

يعد هذا النص كأنه نتيجة متوقعة لسداد لفته عليه السلام وسداد معانيه التي ذكرها الجاحظ سابقاً .

ويتجه هذا الكلام نحو بيان غلبة حجته صلى الله عليه وسلم ومذهب احتجاجه ، فكلامه هو الكلام البشري الوحيد الذي خلا خلواً تاماً من سقوط لفظة أي لفظه ، وسقوط معنى أي معنى ، ووهن حجة أي حجة ، وله من القوة فيها ما يسكت كل ذي لجاجة ،ولذلك لم يستطع أحد من خصومه أن يدفع حجته ،أو أن يقوم لها أو أن يبطلها ، لأن اعداءه لم يشكّوا أبداً في قوة كلامه ،ولو وجدوا فيه غميزة لنقضوا عليه أمره كله ،ولم يحاجه أحد في أمر الدعوة إلا أبطل دعوته .

يقول الزمخشري في هذا : " إن هذا البيان العربي كأن

الله عزت قدرته ألقى زبدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة وأوفر سلام، فما من خطيب يقاومه إلاّ نكص متفكك الرجل، وما من مصقع يناهره إلاّ رجع فارغ السّجْل، وما قُرن بمنطقه منطق إلاّ كان كالبرذون مع الحصان المطهم".(١)

وتحكي لنا كتب التاريخ عن غلبة حجته عليه السلام وذلك حين أرات أمية ابن أبي الصلت، وهو أحد أرباب الكلام، أن يغلبه بكلامه، تذكر الروايات أن أمية بن أبي الصلت قدم إلى الطائف. فقال لهم: ما يقول محمد بن عبدالله؟ قالوا: يزعم أنه نبي هو الذي كنت تتمنى. قال: فخرج حتى قدم مكة، فلقيه فقال: يابن عبدالمطلب ما هذا الذي تقول؟ قال أقول: إنّي رسول الله ولا إله الا هو. قال: أريد أن أكلمك فعدني غداً. قال: فموعدك غداً. قال: فتحب أن آتيك وحدي أوفي جماعة من أصحابي وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ذلك شئت فإنني آتيك في جماعة فأت في جماعة. قال: فلما كان الغد غدا أمية في جماعة من قريش، قال: وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه قد جلسوا في ظل الكعبة قال: فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر حتى إذا فرغ قال: اجبني يابن عبدالمطلب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم * يس والقرآن الحكيم * حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجرر رجليه قال: فتبعته قريش يقولون: ماتقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على حق فقالوا: هل تتبعه؟ قال: حتى أروّي في أمره..".(٢)

---

(١) الفائق: ١١.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ٢/٢٢٦.

وكأن الزمخشري يشير إلى هذه القصة في قوله السابق انظر إليه وهو يقول : " فما من خطيب يقاومه وإلا نكص متفكك الرجل وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السَّجْل ".

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم على شيء يخالف صريح الحق فلم يكن احتجاجه عليه السلام قاصداً إلى إسكات الخصم بأي وسيلة من وسائل الإسكات ، وإنَّما يقصد إلى تجلية الحق وإعلائه ، ولهذا بريء من العلل التي تلتبس بأساليب الاحتجاج كالاستعانة بالخلابة أي استخدام الألفاظ البراقة الرنانة التي تعلق بها الأسماع فتغطي على المعنى كسجع الجاهلية .

ويشرح الجاحظ قول الرسول عليه السلام : " لا خلابة " بقوله " القصد من ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي ، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ وشغلك في التخلص من غرائب المعاني "(١) . ثم إنه لا يوارب في الكلام ، ومعنى المواربة المكر والخداع والدهاء ، وهذه الخصال ليست من صفات المتكلمين فضلاً عن النبيين الذين بعثوا برسالة صادقة واضحة لا التواء في تعاليمها ولا اعوجاج في منهجها .

ولا يَهْمز ولا يلْمز : اللمز العيب في الغيبة ، واللمز العيب في الوجه وأصله الإشارة بالرأس أو العين أو الشفة مع كلام خفي كما قال صاحب اللسان (٢) ، والرسول عليه السلام بريء من هذه الخصائص.

وهكذا ، فإنّ هذه الأوصاف تبين طريقته الفذة في هذا الباب واعتماده على ما في الحق من القوة وما في الصدق من الغلبة .

* * *

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٥٥ . (٢) ابن منظور: ٥/ ٤٠٦- ٤٢٦ .

يقول الجاحظ " ولا يُبْطِئ ولا يَعْجَلَ ، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر ".

هذا القول وصف للمتكلم في أداء الكلام ، وحين يدخلها الجاحظ وغيره في باب بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم يكون بذلك مشيراً إلى باب من أبواب البلاغة التي تكلم فيها الأوائل كالجاحظ وسكت عنها المتأخرون فحسن الأداء باب من أبواب حسن الكلام.

فكان عليه السلام لا يسرع في كلامه ولا يبطئ ، إنما يتكلم بكلام بين فصل لوعده العاد لا حصاه كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها " لم يكن الرسول يسرد كسردكم وإنّما كان يتكلم بكلام فصل لوعده العاد لأحصاه ".

وطريقته عليه السلام في التحدث هي التي اغنت السامع عن معاودة كلامه ، ثم إنه عليه السلام لا يسهب ولا يحصر أي لا يطيل في الكلام فيمل السامع ولذلك لما تكلم عمار بن ياسر يوماً فأوجز قيل له : لو زدتنا. قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة وقصر الخطبة". وتدخل هذه الخصيصة تحت صفة الإيجاز في كلامه عليه السلام ثم إنه لا يحصر أي لا تؤاتيه حبسة في الكلام فلا يقدر على مواصلته وهي من عيوب الكلام. (١)

* * *

ثم ينتهي بنا الجاحظ إلى خلاصة يحدد فيها السمات العامة لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأنه وضع بلاغته بين بلاغات الناس فوجد في كلامه صفات ينأى عنها كلام الناس.

يقول : " ثم لم يَسْمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أقصد

---

(١) انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، الرافعي : ٣٠٢.

لفظاً ، ولا أعدل وزناً ،ولا أجمل مذهباً ،ولا أكرم مطلباً ،ولا أحسن موقعاً ،ولا أسهل مخرجاً ،ولا أفصح معنًى ،ولا أبين فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً ".

يتسم كلامه عليه السلام بعموم النفع ،فهو يحدد الطرق الواضحة والسبل البينة في شوؤن الناس ،ويرسم المنهج السديد للسير في هذه الحياة وهوفي كل ذلك يستمدمن وحي الله ،ولذلك فنفعه دائم لا يتغير بتغير الزمن .

وقوله " أقصد لفظاً " وصف لجوامع الكلم من جهة عموم نفع المعاني التي تفيض بها الجوامع ،وقد أهتم الجاحظ كثيراً ببيان صفة الإيجاز في كلامه صلى الله عليه وسلم وفي كل مرة يتحدث عنها من جهة فهو يقول أولاً " قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه " ثم يقول " جمع بين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام " " ثم يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار " وأخيراً " أعم نفعاً وأقصد لفظاً ".

وقوله " ولا أعدل وزناً صفة تتعلق بالناحية الصوتية فتبحث عما يخامر الكلام من عناصر صوتية متناغمة كاعتدال الوزن ،والتلاؤم في الفقر ،والسجع ، والرسول عليه السلام لتمكنه من اللغة ولإحساسه بنغمها كان ذا قدرة على استخدام أنغامها وتوظيفها لتأدية المعنى ،وخروجها مستوية .يقول عليه السلام في ذكر ما يحبه الله وما يكرهه " يكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ،وإضاعة المال ، فلنتأمل هذا التحدر النغمي من نهاية الفواصل ،أو قوله " المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمونَ من لِسانه ويَدِهِ

والمُهاجرُ من هَجَر ما نَهى اللّه عنه " انظر إلى الحديث من حيث تلاؤم الفقر ،وإحتواء كل فقرة على عدد من الكلمات تحتويها الفقرة الثانية ،ثم تلاحظ تحدر كلمات كل فقرة وأنها سهلة لينة المعاطف تسلم بعضها إلى بعض وبناء أول كل فقرة على وزن واحد . ثم تتابع حركة الكسر في كلمات الفقرة الأولى فلا تكاد تخلو منها كلمة واحدة .

ولا أجملُ مذهباً : المذهب هو نسق كلام المتكلم فلكل شاعر مذهب ولكل ذي لسان مذهب في بناء كلامه يعرف به فيقال هذا كلام فلان كما يقال هذا صوت فلان ، ويعرف ذلك أهل العلم معرفة لا تلتبس، وقد كان نقاد الشعر الأوائل يعرفون ذلك وتعينهم عليه فطـــرة قوية ، من ذلك قصة جرير مع ذي الرُّمة ،قال جرير لذي الرُّمـــة : انشدني ما قلت لهشام المرئي ، فأنشده قصيدته :

نَبَتْ عيْناكَ عنْ طَللٍ بِحُزْوَى مَحتْهُ الرِّيحُ وامتنح القطـارا

فقال : ألا أعينك ؟ قال : بلى بأبي وأمي ، قال : قل له :

يُعدُّ الناسبون إلى تميـم بُيوتَ المجدِ أربعةً كِبـارا

يعدُّون الرِّبَابَ وآلَ سعـدٍ وعمراً ثم حنظلةَ الخيـارا

ويَهلِكُ بينها المرئيُّ لغْواً كما أُلغيتَ في الدِّيةِ الحِـوارا

فلقيه الفرزدق فاستنشده فلما بلغ هـــذه قال : جيد ، اعده فأعاده ،فقال : كلا والله لقد عَلِكهن من هو أشد لَحْيين منك ،هذا شعر ابن المراغة .(١)

---

(١) العمدة ،ابن رشيق ٢/ ٢٨٦ .

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم نسق لا يلتبس مع غيره من كلام الآخرين .وأبرز ما يميز كلامه طابع النبوة الذي يدل على أنه كلام موصول بالله و معرفة طريقة بناء كلامه تحتاج إلى دراسة مستفيضة لكل كلامه عليه السلام ثم معرفة طريقة تأليفه للكلام .

وفي قوله " ولا أكرم مطلباً " بيان لغايات كلامه صلى الله عليه وسلم ، وأن مطالب بيانه مطالب كريمة ، فهو يدعو لمكارم الأخلاق ، ولما فيه الخير والسعادة للبشر ، ولذلك كان وثيق الصلة بالنفس التي تنشد السعادة .

وقوله " ولا أسهل مخرجاً " تضاف هذه الصفة إلى قوله أعدل وزناً لأنهما تتعلقان بالناحية الصوتيه . وسهولة المخرج تعني حسن مخارج الحروف وعدم تنافرها ،والجمع بين كلمات لا تتصادم ولا تتناشز، ثم تلاؤم الكلمة في الكلام وخروجه بسهولة وانسياب.

ويختم نصه بقوله " ولا أفصح معنًى ولا أبين فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً " وهو وصف عام للكلام فهو كلام ظاهر واضح ويخاطب كل مستويات البشر .

و نخلص من هذا إلى بيان السمات العامة التي ذكرها الجاحظ في نصه :

١ - كثرة المعنى وقلة اللفظ .
٢ - الخلو من التكلف والصنعة .
٣ - ألفاظه وسط ليست وحشية ولا مبتذلة .

٤ - مراعاة مقتضى الحال .

٥ - التأييد الإلهي لبيانه عليه السلام .

٦ - الجمع بين مهابة المعاني وحلاوة الألفاظ .

٧ - خلوه عليه السلام من معايب الخطباء والمتكلمين .

٨ - قوة حجته عليه السلام .

٩ - سمات أسلوبه عامة - عموم النفع - اعتدال الوزن وسهولة المخارج - حسن بناء كلامه - وسمو غاياته .

*

أوصاف الخطابي :

للخطابي نصوص يتحدث فيها عن البلاغة النبوية ،وضعها ضمن مقدمة كتابه " غريب الحديث " تحت عنوان " ذكر فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يؤثر من حسن بيانه " فيذكر أهم سمات أسلوبه ثم يذكر ضروباً من حسن بيانه ،وواضح أن كلامه هذا عطاء عقلية صافية عايشت كلام سيد البشر ووعته ،وأجالت النظر فيه ،فبصرت حسنه وبلاغته عن قرب ،ولا شك أنه جزء من صبابة القول التي كان فيها مُتَبَرِّضٌ على حد عبارته ،ولولا تعجل أهل العلم على تحصيل فائدة هذا الكتاب لرأينا ضروباً كثيرة لبيان رسول الله عليه السلام هي ثمرة الأناة ،وتلوم النظر ،واستيفاء الملاحظة كما يقول .(١)

وتتسم دراسته بالاهتمام بالناحية التطبيقية ،يذكر كل نوع فيتبعه بالشاهد والمثل .

---

(١) انظر مقدمة الخطابي لكتابه (غريب الحديث) ١/١ه .

يقول في أول كلامه عن بلاغة الرسول " إنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ لمَّا وَضَع رسولَه موضِعَ البلاغِ في وَحْيِهِ ،ونَصَبَه مَنصب البيان لدينه ، اختار له من اللغات أعربَها ،ومن الألسُن أفصحَها وأبينَها ليباشِرَ في لباسه مشاهِدَ التبليغ وينبِذَ القولَ بأوكد البيان والتعريف ".(١)

يؤكد الخطابي أن البيان ضرورة للأنبياء حتى يبلغوا وحي الله ويتمكنوا من الإقناع وإقامة الحجج والبراهين . وكأنه يستوحي كلام سيدنا موسى عليه السلام حين أمره الله بدعوة فرعون * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي *(٢) وذلك حين عيره فرعون بأنه لا يكاد يبين .

وقد أُرسل عليه السلام للعرب وهم في الذروة من البيان ،إذ لا يذعنون لعييّ ولا بكى ، ولم يسَوّدوا عليهم إلا ذا بيان وفصاحة وحكمة ، لأن حسن البيان كان مرتبطاً عندهم بقوة العقل وإحكام المنطق والشرف والسؤدد ، وقد فاقهم رسول الله مع ذلك فصاحة وبياناً ،فالله قداختاره أحسن لغة وانصع لغة ، لغة قريش التي تمخضت فيها محاسن الكلام حيث كانت قريش القطب الذي يلتقي عنده الفصحاء والخطباء والشعراء من القبائل ، فيتركون لها أنصع مافي بيانهم ،وأحسن ما في لهجاتهم ، لتصير جزءاً من هذه اللغة التي خفت على الألسن ،وعذبت في الأذواق وحسنت في الأسماع ،فبلغت أعلى مراتب الرقي اللغوي ،فعقدها الله على لسان نبيه ففاقهم بلاغةً وبياناً .

---

(١) غريب الحديث: ١/ ٦٤.
(٢) سورة طه : ٢٧.

ثم يتحدث الخطابي عما خص الله نبيه من هذه اللغة فيقول :

" ثم أمدّه بجوامع الكَلِم التي جعلها ردءاً لنبوّته وعَلَماً لرسالته ، لينتظم في القليل منها عِلْم الكثير ، فيسهُلَ على السّامعين حِفظُه ولا يؤودهم حَمْلُه ".(١)

يشير الخطابي إلى أن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم المتمثلة في جوامع الكلم هي إلهام ومدد من الله ،تقدم علماً غزيراً وكثيراً في ألفاظ يسيره .

ويعتبر الخطابي هذه الجوامع علما لرسالته عليه السلام في قوله : " ردءاً لنبوته وعلماً لرسالته". وعلم الرسالة يعني دلالة النبوة ،الذي لا بد أن يكون أمراً إلهياً يجريه الله على يد نبيه فيوء من عليه الناس كمعجزات الرسول الأخرى ، ونحن لا نكاد نعتبر جوامع الكلم من دلائل النبوة. وكأن الخطابي نظر في ذلك إلى قوله عليه السلام : " أدبني ربي فأحسن تأديبي " فقد أسند أدبه إلى الله ،وقال عليه السلام أيضا " أُوتيت جوامع الكلم " أي أنها عطاء من الله ،وهذا شيء وعلم الرسالة شيء آخر ،لأنني لم أعرف أحداً من علمائنا جعل حسن بيانه وجوامع كلمه من آيات نبوته .

ثم يقف الخطابي عند هذه الجوامع بعد أن عرّفها وبين قيمتها في أداء الرسالة فيقسمها يقول " ومن تتبع هذه الجوامع من كلامه لم يعدم بيانها ،وقد وصفت منها ضروباً وكتبت لك من أمثلتها حروفاً تدل على ما وراءها من نظائرها وأخواتها ".(٢)

---

(١) المصدر السابق ١/٦٤.
(٢) المصدر السابق ١/٦٤.

فإدراك الجوامع في كلامه مما لا يخفى على من نظر إليها في بيانه الشريف صلوات الله عليه ،لأنها كما قلنا تغلب على كلامه كله، وقد اعتبر الخطابي هذه الجوامع ضروباً كثيرة ، كل ضرب يدخل تحت غرض تشريعي خاص ، وكانت طريقته في التقسيم أنه يورد الغرض التشريعي ، ثم يتبعه بالشاهد والمثل ليدل على نظيره وشبيهه .

ويذكر الخطابي ضربين منها لتدل على ما وراءها من نظائرها وأخواتها كما يقول " الضرب الأول في القضايا و الأحكام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المؤمنون تكافأ دماؤهم ،ويسعى بذمتهم أدناهم ،وهم يد على من سواهم " . وقوله " المنيحة مردودة ، والعارية مؤداة ،والدين مقضى ،والزعيم غارم "(١) وهذان الحديثان يحملان عامة أحكام الأنفس والأموال ،وهذه الأحكام من أوسع أبواب التشريع الاسلامي التي تتعدد مناحيها وتتفرع أنواعها . تأمل كل جملة من هذه الجمل وانظر إلى ما وراءها من معان متسعة ،ثم تأمل إحكام بنائها وضبط مدلولها ، ثم تأمل تقسيمها وتناسقها فكل واحدة مساوية للأخرى أوتكاد .

ومنها ما هو جامع لأمر الدنيا والآخرة كقوله صلى الله عليه وسلم " سلوا الله اليقين والعافية " يقول الخطابي " فتأمَّل هذه الوصيَّة الجامعة تَجدها مُحيطةً بخير الدنيا والآخرة ، وذلك أنَّ مِلاك أمر الآخرة اليَقينُ ،ومِلاك أمر الدنيا العافيَة ، فكل طاعةٍ لا يقين معها هَدَر، وكُلّ نِعْمةٍ لم تَصْحَبْها العافية كَدَر" (٢) .

---

(١) المصدر السابق ١/ ٦٤- ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٦٥ .

فالخطابي ـ بنظره الثاقب ـ، فطن إلى قدرة الكلمات على حمل المعاني في التراكيب ، والوفاء بأدق دقائقها وخصوصياتها ،وكان ينبه قارئه إلى النظر ، وتدبر المعاني - انظر إليه وهو يقول : " فتأمل هذه الوصية الجامعة " والخطابي هنا يفتح باباً لدراسة الإيجاز في بيانه عليه السلام ، فنجمع فيه جوامع كلمه عليه السلام ، ونضعها تحت أبواب التشريع المختلفة ،وبذلك تتجمع لنا عدة تراكيب تحمل غرضاً واحداً ،وتعبر عنه بطرق شتى نلمح من خلالها طاقات هذه التراكيب في التعبير عن الغرض الواحد .

وكأن الخطابي وهو يتحدث عن كثرة الجوامع في كلامه عليه السلام يشير من جانب خفي إلى أن الإيجاز كان من طبع كلامه عليه السلام، وأن هذا الطبع كان يواتيه أبداً ،وإن اختلفت المقاصد والمرامي و على مقدار واحد من القوة والبيان ،وهذا على غير ما عليه أهل البيان فإنهم يحكّمون بيانهم في باب دون باب ،ولكل واحد منهم ميدان تقوى فيه ملكته ،ويتوفر حسه فيه ،فإذا انتقل إلى ميدان آخر تعثرت خطاه ، وجانبه الزلل . ثم يذكر الخطابي ضرباً آخر من ضروب فصاحته انفرد بها من بين العرب لا نجد مثلها في كلام السابقين ،وهي قدرته على الإشتقاق في اللغة .

يقول الخطابي " ومن فصاحته وحُسْنِ بيانه أنه قد تَكَلَّم بألفاظ اقتضبها لم تُسمع من العرب قبله ،ولم توجد في مُتَقدِّم كلامها كقوله " ماتَ حَتْفَ أنفِه " وقوله " حَمِيَ الوَطِيس " .(١)

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٦٥ .

وتشقيق مثل هذه التراكيب من اللغة منزلة لا يبلغها إلا من لانت له اللغة وكان من العرب الصرحاء ،وهذه قضية قديمة توقفت بنزول القرآن الكريم ،والسنة النبوية المطهرة ،وقد بهر العرب بهذه القدرة العجيبة وهم يرون رسول الله يضع ما يشاء من تراكيب ومفردات ، تفرد هو في وضعها .

ولم يقتصر وصفه عليه السلام للتراكيب بل اشتق مفردات لم تعرف من قبل كالمصطلحات الشرعية ،وظلت هذه التراكيب وحيدة نسجها منذ ذلك العهد تجري مجرى الأمثال .

ويظهر أن الخطابي تأثر بالجاحظ في قوله هذا ،لأن الجاحظ قال : " سنذكر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يسبقه إليه عربي ولا شاركه أعجمي ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً "(١) وهذا مضمون كلام الخطابي ،وهو في النهاية راجع إلى ملاحظة على كرّم الله وجهه . وهذه التراكيب تحتاج إلى جمع ودراسة بيانية تكشف عن قدرته على إبداع مثل هذه التراكيب ، وأثرها في اثراء معجم العربية .

ويذكر الخطابي أن من فصاحته وسعة بيانه وجود "الغَريبُ الوحشيّ الذي يَحَيا به قومه وأصحابه وعامتهم عرب صرحاء لسانهم لسانه ودارهُم داره "(٢) .

ويضرب أمثلة على ذلك ، منها أن رجلاً قال : يا رسول الله مَنْ أهلُ النار ؟ قال : كُلُّ قَعْبَرِيّ . قال يا رسول الله : وما القَعْبَرِي ؟ . قال : الشديدُ على الأهل الشَّديد على العشيرة الشديد على الصاحب .

---

(١) البيان والتبيين : ٢/ ١٦ .

(٢) غريب الحديث : ١/ ٦٦ .

وقول الخطابي " يوجد في كلامه الغريب الوحشي " قد يبدو متناقضاً مع قول الجاحظ " وهجر الغريب الوحشي " وليس كذلك ، لأن مقياس الغرابة ليس ثابتاً وليس مردوداً في كل حال ، لأن الغريب قد يطلق على الكلمات التي لا تظهر معناها إلا بالرجوع إلى أمهات كتب اللغة ، وقد يطلق على ما غرب من لهجات القبائل أو على الكلمات التي تبدو فصيحة في عصرها غريبة في العصور الأخرى كبعض ألفاظ الشعر الجاهلي ، ويطلق على الألفاظ التي يقل دورانها في بيئة فكرية كما في شعر المعري ونثره ، ويدخل تحت هذا النوع غريب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف . فالغرابة عند الجاحظ هي التي تخل بالفصاحة ، وحين تقع في كلام البلغاء تدل على التكلف وقساوة الطبع ، وهي الألفاظ التي أُهملت ، أما غريب الخطابي فهو ما يعيبه به قومه ولا يكون مخلاً بالفصاحة وإنما هو من أماراتها و قول الرسول السابق يدخل تحت علمه بلهجات القبائل ، وعلمه بأصول لغة قريش وحر كلامها ، كما يدل على قدرته على وضع مفردات في اللغة لا عهد لهم بها .

ثم يذكر الخطابي ضرباً أخيراً لحسن بيانه وهو ترتيب الكلام وتنزيله منازله من ذلك حديث البراء بن عارب قال : جاء أعرابيّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : علّمني عملاً يُدخلني الجنّة قال : اعتِق النّسَمَة وفُكّ الرّقبَة ، قال : أوَليْسَا واحداً ؟ قال : لا ، عِتْقُ النّسَمَة أن تفرّدَ بعتْقها ، وفكّ الرقبة أن تُعينَ في ثَمَنِها ".(١)

---

(١) المصدر السابق: ٦٧/١ .

وقد تحدث الخطابي عن هذا الوجه في كتابه " البيان في إعجاز القرآن " وهو يبحث عن وجوه إعجاز القرآن . وسماه عمود البلاغة عرفه بقوله " ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون منه سقوط البلاغة "(١) ثم ذكر هذا الحديث من بين ما ذكر. وهذا يقع في الالفاظ التي تبدو أن معانيها واحدة ، وعند التدقيق في أُصول المعنى يظهر أن لكل لفظ معنى خاصاً به ، وهو يلتبس على أكثر أهل اللغة كهذا الأعرابي القُحّ ففرق بين الحمد والشكر، وبين البخل والشح ، والعلم والمعرفة ، مع أن اللفظتين تشتركان في معنى عام إلّا أن لكل كلمة دقائقها ومعانيها الخاصة .فعتق الرقبة وفك النسمة تطلقان عامة على التحرير من الرق ، وهذا ما فهمه الأعرابي ، إلا أنهما يختلفان من حيث الدلالة الخاصة لكل منهما ، وهكذا تتمايز ألفاظ اللغة فالعون على تحرير الرقبة غير الإنفراد بفكها ، لكلٍ مرتبة وثواب بحسب اختلافهما (٢) ، يقول الخطابي بعد أن ذكر الحديث " فتأمل كيف رتب الكلامين واقتضى من كل واحد منهما أخص البيانين فيما وضع له من المعنى وضمنه من المراد "(٣) فالكلام قد رتب حسب معانيه مع اختلافها . وانظر إلى الخطابي وهو يقول " تأمل"

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٩ .

(٢) انظر الإعجاز البلاغي ، د . محمد أبوموسى : ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ .

(٣) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٣٣ - ٣٤ .

وكأن هذا الباب لا يتأتى ولا يفطن إليه إلاّ بالتأمل والنظر حتى تتضح الروءيا وتظهر الفروق فنضع اليد على عمود البلاغة .

والبحث في فروق ألفاظ اللغة من أجل البحوث اللغوية البلاغية .
والنوع الثاني من هذا الضرب الذي تحدث عنه الخطابي هو تنزيل الكلام منازله ، أي ترتيبه على وجه يحصل به دقة المعنى .من ذلك قوله عليه السلام : " نَضّر اللهُ عبداً سَمِع مقالتي فحفِظها ووعاها وأدّاها " فالرسول عليه السلام قد نسق المعاني وأنزل الكلمات والألفاظ منازلها ، عالماً بالفروق الدقيقة بين الكلمات في الحديث وأسرار ترتيبها على وجه يَحْسُن به المعنى .

يقول الخطابي " فتأمل كيف رتّب الوَعْيَ على الحِفْظ فاشترط الحفظ أولاً ثم تَلَقُّفَ ألفاظها وجَمْعَها في صدره ، ثم أمره بالوَعْي وهو مراقَبَتَهُ إياها بالتّذَكّر ، وتخوّلها بالرّعاية والاستصحاب لها إلى أن يُؤَدِّيَها فَيخرجَ من العُهدة فيها ".(١)

وفي قوله " وعاها " و " أداها " ترتيب فالحفظ أولاً ثم الوعي ثم الأداء . وفرق بين حفظ حقائق المعرفة وبين وعيها ،والحفظ يعني تحصيل الحقائق في الصدر، ثم تأتي مرحلة الوعي أي التأمل لهذه الحقائق واستبطان معانيها في النفس ، واستخراج خبائها ، ثم تأتي مرحلة الأداء أي تعليمها للناس بعد وعيها لتثمر وتوءتى خيراتها . فالحديث قد نزل منازله ونم نسقه فأدى المعنى .

---

(١) غريب الحديث: ١/٦٧ .

وهكذا نجد الخطابي يلفتنا إلى خصائص في البيان النبوي تفرد بها وخُصّت به عليه السلام. فيرى أنها كثيرة لا يحاط بها، وما ذكره كان بعضاً منها، فذكر أكثرها أهمية وبروزاً في كلامه عليه السلام ولو أنه توسع فيها لوجدنا خيراً كثيراً.

ونخلص من هذا إلى أن الخطابي تكلم في هذه النقاط :

١ - الإيجاز الذي تكلم فيه الجاحظ ولكنه لم يكتف بأنه إلهام من الله وإنما جعله علامة الرسالة، وزاد عما ذكره الجاحظ بيان ضرورة هذا الإيجاز في تبليغ الرسالة .. وذكر أنواعاً منه.

٢ - إختصاصه عليه السلام ببعض التراكيب والمفردات.

٣ - إحاطته بغريب اللغة الذي هو داخل تحت لهجات العرب أو الكلمات البعيدة التي هي من حر اللغة.

٤ - ترتيب الكلام وتنزيله منازله.

بحث البلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي :

اُهتم الرافعي بالحديث عن البلاغة النبوية ، حيث جمع أهم الأصول الخاصة بالبيان النبوي المبثوثة في كتب التراث ،وأقام عليها دراسة خصبة واسعة ،أفاد فيها من كتب السير والحديث وغريبه وكتب الأدب . وتظهر في الكتاب اجتهاداته وتصوراته من خلال البحث والمناقشة والتحري والتحليل ، وكان له نمط خاص في التأليف في هذا الباب يقوم على مزج خصائص كلامه صلى الله عليه وسلم بأحوال نفسه صلى الله عليه وسلم ،وكأن الرافعي أراد أن يقدم بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في ثوب جديد لا يشبه كلام الجاحظ ولا الخطابي ولا غيره ممن تحدثوا عن البلاغة ،وإنما حاول أنّ يُشْعِر نفس القارئ بهذه البلاغة فتحسها ،وتتأثر بها ،وتجد فيها ما يبهر العقل ويخلب القلب ويستولي على النفس .

وتدور دراسته حول محورين أساسيين :

الأول : الحديث عن القدرة اللغوية الفائقة في بيانه صلى الله عليه وسلم ،والكشف عن أسباب ذلك . ومقارنتها بقدرات العرب البيانية ، وربط صفاته الخُلُقية ببيانه .

الثاني : حول كلامه عليه السلام فيبين أهم سمات بلاغته ويقف عليها ثم يستخلص منها السمات العامة لأسلوبه عليه السلام .

ونعود إلى الأمرين بشيء من التفصيل .

ففي الشق الأول تحدث الرافعي عن فصاحته، ويبدو تأثره فيها بالجاحظ واضحاً، حيث ينقل نصه في البلاغة النبوية كاملاً - الذي ذكرناه سابقاً وحللناه - فيستخرج منه أهم خصائص أسلوبه، وهي خلوه التام من المراجعة والتنقيح، وخروجه على البديهة والارتجال، في وقت كان بلغاء قومه يهذبون الكلام ويبيتونه في صدورهم ويتبعونه بالنظر والتقصي، ومع ذلك فقد جاء أسلوبه عليه السلام على أتم وجه من البلاغة والفصاحة، لا يتكلف ولا يتزين، يظهر فيه إلهام النبوة ونتاج الحكمة وغاية العقل.. وهذه السمة اتفق عليها كل من تكلم في بلاغته صلى الله عليه وسلم.

ثم يستخلص الرافعي أسباباً يُرجع إليها هذا البيان النبوي، فيذكر أن منها ما هو توقيف ووحي من الله، ومنها ما هو توفيق يسر الله له سبيله.

الأول: علمه بلهجات القبائل العربية وهذه يتفرد بمعرفتها أصحابها فلا تكاد تجتمع في شخص واحد، لأن لكل لهجة أوضاعها الخاصة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع بين هذه اللهجات، فخاطب كل قوم بلغتهم، وهذا مما لم يتهيأ لغيره صلوات الله عليه إلا بالتعلم أو المخالطة في كل حي من أحياء العرب وذلك لم يكن منه عليه السلام فالعلم بهذه اللهجات توقيف من الله له دون غيره.

الثاني: قوة الفطرة اللغوية وتمكنه من لغة قريش تمكناً رفعه صلوات الله عليه إلى مرتبة الوضع اللغوي، وهذا غاية سداد الفطرة وقوة الملكة، وهو أمر لم تنطو عليه كثير من الفطر، ولذلك فوجودها نادر عند

العرب ولا تكون إلّا بالقدرة البارعة المبدعة على التغلغل في اللغة، وهي مرتبة عالية جداً لا يصل إليها إلّا القليل، ونجد بعض الشعراء يتحدثون عن هذه القضية، لأنهم أحسوا بهذه المواهب التي ذللت هذا اللسان، وفجرت ينابيع الكلام حتى قاربت اللغة من خلالهم مرتبة الكمال.

يقول ابن مَيّادةَ مفتخراً :

فَجَّرْنَا يَنَابِيعَ الكَلَامِ وبَحْرَهُ * فَأَصْبَحَ فيه ذُو الرِّوَايَةِ يَسْبَحُ
وَمَا الشِّعْرُ إِلّا شِعْرُ قَيْسٍ وَخِنْدِفٍ * وَشِعْرُ سِوَاهُمْ كُلْفَةٌ وتَمَلُّحُ

فيرد عليه عِقال بن هِشام القَيْنيّ فيقول :

أَلا أُبْلِغِ الرَّمَّاح نَقْضَ مَقالَةٍ * بِهَا خَطِلَ الرَّمَّاحُ أو كَانَ يَمْزَحُ
لَئِنْ كَانَ في قَيْسٍ وخِنْدِفَ أَلْسُنٌ * طِوَالٌ، وشِعْرٌ سائرٌ لَيْسَ يُقْدَحُ
لَقَدْ خَرَقَ الحَيُّ اليَمَانُونَ قَبْلَهُمْ * بُحُورَ الكَلَامِ تُسْتَقَى وهْيَ طُفَّحُ
وَهُمْ عَلَّمُوا مَنْ بَعْدَهُمْ فَتَعَلَّمُوا * وَهُمْ أَعْرَبُوا هذا الكَلَامَ وأَوْضَحُوا
فَلِلسَّابِقِينَ الفَضْلُ لا يَجْحَدُونَه * وَلَيْسَ لِمَسْبُوقٍ عَلَيْهِم تَبَجُّحُ (١)

يقول ابن مَيّاده : " فجرنا ينابيع الكلام " ما معنى هذا هل هو تشقيق ينابيع المعاني والقدرة على اقتناص الصور واختراع الروائع ؟.. وإذا كان كذلك دخل فيه بعض ما ذكره الرافعي من قدرته عليه السلام وقوة فطرته على إبداع الصور وابتداع التراكيب.

---

(١) دلائل الإعجاز : ٥١٤.

وكذلك يقول القَيْنيّ : " لقد خرق الحي اليمانون قبلهم بحور الكلام " فليس هناك معنى لخرق بحور الكلام إلّا تشقيق مسالكه وتمهيد طرقه ،وتذليل حزونه ، وترويض نافره . ويلاحظ أن القيني ذكر تعليمهم من بعدهم وأنهم أعربوا الكلام وأوضحوه ، وهذا يعني خرق بحور الكلام من اختراع الانيه ،وكأن أبواب المعاني والتراكيب كانت معجمة عياء ؟ فأعربها الحي اليمانون وأوضحوها .

وهذا التشقيق في اللغة وتصاريفها قليل عند العرب مطرد في كلامه عليه السلام .

الثالث : النشأة اللغوية ، فقد تقلب عليه السلام في أفصح قبائل العرب ولادة ثم نشأة ثم متزوجاً ثم مهاجرة وحسبنا قوله في ذلك " أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش ، ونشأت في بني سعد "(١) .

ثم يتحدث الرافعي عن صفات الرسول عليه أفضل السلام التي حصل من مجموعها هيئة الكلام ،فصار متفرداً في بلاغته وأسلوبه . وهو في هذه الدراسة يعول على ما دار في زمانه من ربط أحوال كلام المتكلم بأحوال نفسه وأن كلامه أثر من آثار طبائعه وصفاته . وقد بلغ عليه السلام الذروة فيها وصار مثلاً لكمال البيان البشري . ثم يتناول بعض صفاته الخَلْقية و يبين أثرها على لغته صلى الله عليه وسلم ،فالرسول عليه السلام كان ضليع الفم يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، واللغة بطبيعتها تحتاج إلى هذه المزية لأنها تعطي الكلمات حقها من حيث المخارج ،وحسن الأداء ،وجهارة الصوت واشباع الحروف .

---

(١) انظر البلاغة النبوية : ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ .

كما كان عليه السلام حسن الصوت ،والصوت تمام هذه اللغة وحليتها لأنها تعتمد على الموسيقى والنغم ،ولذلك فقد خرجت اللغة من فمه عليه السلام على أحسن أداء من حيث خفة الوزن وصحة الاعتدال وتمام التساوي .

ويبين الرافعي أن هذا المنطق وإن اشترك فيه معه غيره عليه السلام إلا أن مجيئه على هذا الحد من الكمال مما انفرد به عليه الصلاة والسلام.

أما المحور الثاني ، فهو يدور حول خصائص بيانه عليه السلام فيتحدث عن الإيجاز ،وعن تشقيقه اللغة ، وعن بيان نسق هذه التراكيب ثم يستخلص السمات العامة التي توضع تحتها هذه البلاغة.

ويسمى حديثه عن الإيجاز باجتماع كلامه وقلته عليه السلام ، ويقول إن الإيجاز في كلامه عليه السلام هو اجتماع الكلام ودمجه وقوة سبكه مع قلة ألفاظه ووفرة معانيه ،ثم خلوه من التكلف واستغراقه في الكشف عن جميع جوانب المعنى ، وهو يجري عادة في كل باب من الأبواب التي يروم القول فيها ،وهذا لم يتحقق إلا في كلام المصطفى عليه السلام ،فالإيجاز يأتي في كلام الناس كافة ولكن الإيجاز المبني على هذه الصفات خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم .

يقول الرافعي ، مبيناً ذلك : " إن اجتماع الكلام وقلة ألفاظه ، مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف ،ومع إبانة المعنى واستغراق أجزائه ،وأن يكون ذلك عادة وخلقاً يجرى عليه الكلام في

معنى معنى وفي باب باب شيء لم يعرف في هذه اللغة لغيره صلى الله عليه وسلم ،لأنّ في ظاهر المادة يستهلك الكلام ويستولي عليه بالكلف ، ولا يكون أكثر ما يكون إلاّ باستكراه وتعمل كما يشهد به العيان والأثر".(٦)

والرافعي هنا يقتبس من الجاحظ ولكنه يضيف إليه من فهمه ما يشكل به المسألة تشكيلاً يوشك أن يجعلها خالصة له ومنسوبه إليه.

اقرأ كلام الجاحظ وهو يقول : " هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونُزه عن التكلف".

ثم قول الرافعي : " اجتماع الكلام وقلة ألفاظه مع اتساع معناه وإحكام اسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف".

تجد أنهما سواء في رأس المسألة ،تأمل قول الرافعي " قلة ألفاظه مع اتساع معناه " هو قول الجاحظ " قل عدد حروفه ،وكثر عدد معانيه " وقوله " من غير تعقيد ولا تكلف " هو قول الجاحظ " وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف " ثم يقول الرافعي " وإن يكون ذلك عادة وخلقاً يجرى عليه الكلام في معنى معنى ... " وهذا هو استنتاجه وشخصه في الكلام.

ثم يتحدث الرافعي عن وضعه عليه السلام في اللغة وتأثره فيها فمنه ما يكون في التراكيب ومنه ما يكون في المفردات ،وهي كثيرة في بيانه من ذلك قوله في التراكيب "مات حتف أنفه " ،" الآن حَمِي الوطيس".

------------x-----

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٣٠٠.

وفي المفردات قوله عليه السلام لأبي تميمه الهُجَيْمي " إياك والمخيلةَ " قال : يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة ؟ قال عليه السلام : سَبلُ الإزار.

كما تدخل معها اسماء المصطلحات الشرعية التي لا توجد في القرآن الكريم . ويبدو تأثر الرافعي بالجاحظ والخطابي في هذه الدراسة واضحاً في الالفاظ والمعاني . يقول الرافعي " فلا جرم كان صلى الله عليه وسلم على حد الكفاية في قدرته على الوضع والتشقيق في الألفاظ وانتزاع المذاهب البيانية حتى اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تُسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها "(١).

ويقول الخطابي " ومن فصاحته وحسن بيانه أنه قد تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله ،ولم توجد في متقدم كلامها "(٢).

والشبه واضح بين الكلامين كما ترى.

و يقول الرافعي " وكلها قد صار مثلاً "(٣). ويقول الجاحظ " مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً "(٤). ويقول الخطابي " في ألفاظ ذات عدد من هذا الباب تجري مجرى الأمثال "(٥)

---

(١) المصدر السابق : ٣١٥.

(٢) غريب الحديث : ١/ ٦٥.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٣١٥.

(٤) البيان والتبيين : ٢/ ١٥.

(٥) غريب الحديث : ١/ ٦٦.

ويذكر الرافعي أن الاسماء الشرعية تعد من اشتقاقات المفرد عنده صلى الله عليه وسلم مقتبساً ذلك من الخطابي ،تأمل قول الرافعي " فهو كثير تعد منه الاسماء والمصطلحات الشرعية ما لم يرد في القرآن الكريم" . وقول الخطابي " وقد يدخل في هذا النوع إحداثه الأسماء الشرعية " وهكذا أفاد الرافعي كثيراً من الجاحظ والخطابي كما ترى واقتباسه من ألفاظهما واضح جدا.

ويدخل تحته معرفته عليه السلام بلهجات القبائل التي يعيابها قومه وقد حاول الرافعي جاهداً تحليل تلك الفطر السليمة القادرة على خلق البيان ، وتصريفه على وجوهه ، ومقارنته بفطرته عليه السلام وطريقته في الوضع ، الذي كثر وفاض في بيانه عليه السلام ، فهو قد بلغ باللغة الغاية والذروة .

ثم يعقد الرافعي فصلاً خاصاً لمعرفة النسق البلاغي لهذه الأساليب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ،محللاً بعض هذه التراكيب ذاكراً فيوضات معانيها ، ويذكر أوصافاً لهذه الأساليب تشبه ألفاظ الجاحظ ، إلا أن كلام الجاحظ أكثر وضوحاً وإبانة لأن أحكام الرافعي ممزوجة بانطباعاته النفسية حول هذه البلاغة العالية.

يصف هذه البلاغة من ثلاث جهات ، من جهة اللغة والبيان والحكمة أي من جهة بناء الجملة ،وجهة التصوير البياني فيها ، وجهة طابع النبوة والحكمة.

يقول في أوصاف لغتها " مسدد اللفظ ، محكم الوضع ، جزل

التركيب متناسب الأجزاء في تأليف الكلام ، فخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه ، واللفظ وضريبه في التأليف والنسق ،ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه ،ولا كلمة غيرها أتم منها إداءً للمعنى وتأتياً لسره في الاستعمال ".(١)

وسنحاول شرح بعض هذه الأوصاف على قدر استطاعتنا " فتسديد اللفظ " يعني اختيار الكلمات المناسبة للمعنى ،وسداد الكلمة هو إصابتها لمعناها .

"تناسب الأجزاء في تأليف الكلمات " هو تعديل الأجزاء ، ويعني تناسب الفقر في الطول والقصر و من حيث النغم وهو قريب من قول الجاحظ " ولا أعدل وزناً ".

" واضح الصلة بين اللفظ وضريبه في التأليف والنسق " : أي مناسبة الكلمة لجاراتها في التركيب ، فلا يقع التنافر والاستكراه ، حتى تتلاحم أجزاء الجملة الواحدة ،ومرجع ذلك إلى السداد ، أي وقوع اللفظ موقعه الأسد في الدلالة على المعنى ،فلا نجد لفظاً أدل على هذا المعنى من اللفظ الذي جاء في كلامه صلى الله عليه وسلم . أما أوصاف البيان في إسلوبه عليه السلام فيقول فيها " ورأيته في الثانية حسن المعرض بين الجملة ،واضح التفصيل ،ظاهر الحدود جيد الرصف ، متمكن المعنى ،واسع الحيلة في تعريفه ، بديع الإشارة غريب اللمحة ، ناصع البيان ،ثم لا ترى فيه احالة ولا استكراها ،ولا ترى اضطراباً ولا

---

(١) إعجاز القرآن : ٣٢٥ .

خطلاً ،ولا استعانة من عجز ،ولا توسعاً من ضيق ،ولا ضعفاً من وجه من الوجوه "(١).

" فحسن العرض " يعني مجيء المعنى في أحسن صورة ، فصور كلامه صلى الله عليه وسلم من تشبيهات و مجازات و كنايات ناصعة الدلالة بهيّة العرض يسفر بها المعنى أحسن سفارة.

" واضح التفصيل " أي واضح التفصيل لحقائق البيان ،تفيض تراكيبه البيانية بالمعاني الكثيرة ، والإيحاءات الخفية.

" واسع الحيلة " أي أنه عليه السلام يحيط بالمعاني من أقرب وجوهها وأيسر طرقها.

أما أوصاف البيان النبوي من جهة الحكمة فيقول الرافعي فيها " سمو المعنى وفصل الخطاب ،وحكمة القول ،ودنو المأخذ ".

فهذه الصفات لم يتصف بها إلا البيان النبوي ،وهي تتعلق بالمعاني في نفسها وأنها وحي من الله ،وحكمته تختلف عن حكمة الحكماء ،وخطابه يسمو عن خطاب البشر . ثم يبين الرافعي خصائص أهل البيان من الناس ،ومدى إصابتهم لهذه الصفات ،وهل توجد في كلامهم على حد وجودها في كلامه عليه السلام ؟ أم ... مهما أحكمها أصحابها تكون خالية من تلك الأسرار العميقة والخطرات العالية التي تكون في كلامه صلى الله عليه وسلم . يقول الرافعي : " ومن أجل ذلك تقرأ كلام البليغ من الناس ،فترى الصنعة المحكمة والطبع القوي والصقل البديع ، واللفظ المؤنق ،والحكمة الناصعة ،ولكنك تصيب أكثر ذلك أو عامته على وجهه كما هو ليس فيه سر من أسرار البيان ،ولا دقيقة من أوضاع اللغة "(٢).

---

(١) المصدر السابق : ٣٢٥. (٢) المصدر السابق : ٣٢٧.

انظر إلى الجملة الأخيرة من كلام الرافعي " سر من أسرار البيان ودقيقة من دقائق اللغة " تجد فيها تحديداً للأمر الذي يوجد في كلامه صلى الله عليه وسلم خاصة ويخلو منه كلام الحكماء .

ثم يقف الرافعي عند بعض التراكيب البيانية ويحللها ، ويجتهد في بيان أخفى معانيها مستعيناً في ذلك بكتب غريب الحديث التي تناولتها بالشرح فيتناول أربعة تراكيب منها ويشرحها ، ويستنبط وجوه بيانها .

فمن هذه التراكيب ، قوله صلى الله عليه وسلم " هدنة على دَخنٍ " . وقد ذكر الرافعي ثلاثة وجوه لشرحها يقول : « الهدنة الصلح والموادعة ، والدخن تغير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه ، هذه العبارة لا يعدلها كلام في معناها ، فإن فيها لوناً من التصوير البياني لو أذيبت له اللغة كلها ما وفت به ، وذلك أن الصلح إنّما يكون موادعة وليناً ، وانصرافاً عن الحرب ، وكفاً عن الأذى ، وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة فإذا بُني الصلح على فساد ، وكان لعلة من العلل ، غلب ذلك على القلوب فأفسدها ، حتى لا يسترح غيره من أفعالها ، كما يغلب الدخن على الطعام فلا يجد آكله إلاّ رائحة هذا الدخان ، والطعام من بعد ذلك مشوب مفسد . (١)

ثم يذكر الرافعي معنيين آخريين للحديث فهو يقلب كلمة " دخن " على وجوهها المختلفة ، حتى يظهر حسن هذا اللون البياني .

---

(١) المصدر السابق : ٣٢٨-٣٢٩ .

ويختم الرافعي دراسته ببيان الخصائص العامة لاسلوبه عليه السلام فيرجعها إلى ثلاث صفات :

١ - الخلوص : أي أن ينفذ إلى جوهر اللغة ، وأسرار اللفظ وضعاً وتركيباً .

٢ - القصد والإيجاز : أي يقصر الألفاظ على ما يحتمله المعنى دون زيادة .

٣ - الاستيفاء : أي الإحاطة بالمعاني وحذف فضول الكلام ، والقدرة على تركيب الألفاظ تركيباً يقتضيه المعنى ، ويتمثل ذلك في جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم .

وهكذا فإن هذه الدراسة وإن كانت تحمل جذور القدماء إلا أن لها طابعها الخاص في تناول الحقائق ، حيث ينفض عليها الرافعي - رحمه الله - شيئاً من نفسه وحسه ، وقد ركز على أهم خصائص بيانه فتحدث عن فصاحته وأسبابها وعن الإيجاز في كلامه عليه السلام ، وأثره في تشقيق اللغة إلى تراكيب ومفردات وما فيها من وجوه البلاغة والبيان فبين نسقها وحلل بعض شواهدها ثم توصل إلى سمات عامة في أسلوبه فأرجعها إلى ثلاث صفات .

وبهذا نرى حلقات متواصلة من الدراسة لأفضل كلام نطق به لسان ، بدأت بشذرات وإشارات غامضة وانتهت إلى مثل هذا التحليل .

ومع هذا فلا زالت الإحاطة ببيانه بحاجة إلى مزيد من الدراسة ، ترصد الخصائص الدقيقة لنسق هذه اللغة العالية ، وهو ما نرجو أن نوفق إلى بيان شيء منه .

٢- دِراسَات حَول البَيَان النبوى

* تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .
* أمالي السيد المرتضى .
* المجازات النبوية للسيد الرضي .
* الفائق للزمخشري .
* عمدة القاري في شرح صحيح البخاري .
* كتب أمثال الحديث .

ثانيا ـ دراسات بلاغية حول البيان النبوى :

سوف نتناول في هذه الدراسة أهم الدراسات التي تناولت الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ،والتي كان لها أثرفي دفع الدراسات البلاغية ونضوجها .

وقد تنوعت الكتب التي درست ذلك ،فمنها ما تخصصت في الدراسة البلاغية ،ومنها ما خلطت بينها وبين غيرها من الدراسات .

فمن النوع الأول : كتاب " المجازات النبوية " للشريف الرضي وسوف أتناوله بالدراسة ، وأقف عند بعض أحاديثه .

ومن النوع الثاني : كتاب ابن قتيبة " تأويل مختلف الحديث " ، و كتاب السيد المرتضى " غرر الفوائد ودرر القلائد " وقد انتقيت منها بعض التأويلات التي ركزت على الدراسة البلاغية .

كما تعرضت لكتاب " الفائق " من بين كتب غريب الحديث ، لأنه أكثر الكتب اهتماماً بالدراسة البلاغية ،وتناولت من كتب الشروح كتاب العيني " عمدة القاري في شرح صحيح البخاري " حيث تكثر فيه مثل هذه الدراسات ، وإن كان العيني زاخراً بهذه الدراسة ولن أوفيه حقه في هذه العجالة وكذلك الحال في غيره ، وإنما هذا تعريف إجمالي بهذا التراث ،ثم تعرضت لكتب أمثال الحديث ، لأنها تهتم بجمع الأمثال النبوية .

١ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة :

وضع الكتاب للرد على المذاهب المخالفة للسنة ،والتي طعنت في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواته ، وتكلفت في إقامة التناقض بين الأحاديث لإبطالها .

وقد انبرى لهم ابن قتيبة يفند آراءهم ،ويكشف عن جهلهم ، ويوفق بين الأحاديث ،فيخرج كل حديث على وجهه إما بالعودة إلى كتاب الله أو أقوال الرسول عليه السلام الأخرى ،أو أصول اللغة والعرف العربي فيستشهد بالقرآن أوالشعر أوكلام العرب.

وطريقته تقوم على ذكر الأحاديث التي زعموا التناقض فيها ،وذكر أقوالهم فيها ثم يفندها ،وقد اعتمد في دراسة بعض الأحاديث على أصول بلاغية ساعدت في هذه المرحلة المتقدمة على دفع الدراسة البلاغية ،كما أنها شرحت الحديث الشريف وبينت طرائقه اللغوية وجريانه على مذاهب القوم في أساليب لغتهم ،وعدم الفصل بين مصادر

التشريع ومنابع اللغة ، وهكذا فإن جل علمائنا الأوائل حفظة الكتاب والسنة فسروا القرآن بالشعر ومذاهب العرب ،وربطوا بين هذه الحلقات الثلاث لأنها جرت على طرائق هذا اللسان العربي المبين مع تفاوت المراتب .

وتناول ابن قتيبة أثناء دراسته هذه ـ كثيراً من الأحوال البلاغية التي أعانته على فهم الحديث النبوي ،وصارت بعد ذلك أبواباً مستقلة في الحقل البلاغي .

من ذلك حديثه فيما سمي بعد ذلك بالمجاز المرسل فذكر أنواعاً كثيرة له وهو يدرس وجوه التأويل في الحديث .

ذكر أن الإصبع حين يأتي في سياق الكلام لا يعني معنى واحداً ،إنّما يختلف معناه باختلاف سياقه ،يقول في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " إن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ".

" رويتم أن قلب المؤمن بين أُصبعين من أصابع الله عز وجل ، فإن كنتم أردتم بالأصابع ههنا النعم ،وكان الحديث صحيحاً فهو مذهب " . . . ثم يقول " وذهبوا في تأويل الأصابع إلى أنه النعم ، لقول العرب ما أحسن أصبع فلان على ماله يريدون أثره . وقال الراعي في وصف إبله :

ضَعِيفُ العَصَا بَادِي العُرُوقِ تَرَى له
عليهَا إذا ما أمحلَ النَّاسُ إصْبَعَا

أي ترى له عليها أثراً حسناً ".(١)

---

(١) تأويل مختلف الحديث : ١٨٩ .

ثم يرى ابن قتيبة أن الوجه وإن كان صحيحاً فانه يطلق على الأصبع في البيت إلا أن هناك وجهاً آخر يرجح على هذا المعنى لقرائن ودلائل في الحديث تدل عليه .

يقول : " ونحن نقول إن هذا الحديث صحيح ، وان الذى ذهبوا إليه في تأويل الإصبع لا يشبه الحديث ، لأنه عليه السلام قال في دعائه " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " فقالت له إحدى أزواجه : أوتخاف يا رسول الله على نفسك ؟ فقال : " إن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عز وجل " فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم الله تعالى فهو محفوظ بتينك النعمتين ، فلأي شيء دعا بالتثبيت ؟ ولم احتج على المرأة التي قالت له أتخاف على نفسك بما يؤكد قولها ؟ وكان ينبغي ألا يخاف إذا كان القلب محروساً بنعمتين ".(١)

وهذا رد قوي وتحليل دقيق للمعنى ، يستفيد ابن قتيبة فيه بما يحيط بالحديث من ملابسات تتعلق بمعناه ، ثم يبحث عن معنى الإصبع في الحديث فيقول : " فإن قال لنا : ما الأصبع عندك ههنا ؟ قلنا : هو مثل قوله في الحديث يحمل الأرض على أصبع وكذا على أصبعين ، ولا يجوز أن تكون الأصبع ههنا نعمة وكقوله تعالى " * وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه * ولم يجز ذلك ولا نقول : أصبع كأصابعنا ولا يد كأيدينا ، ولا قبضة كقبضاتنا لأن كل شيء منه عز وجل لا يشبه شيئاً منا ".(٢)

---

(١) المصدر السابق : ١٨٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٩٠ .

فابن قتيبة يفسر الأصبع في بيت الراعي بالأثر الحسن ، ولكنه لم يفسره في الحديث بالنعمة وإنّما قال إن له سبحانه يداً ليست كأيدينا واصبعا ليس كأصابعنا فسبحانه ليس كمثله شيء .

أما عبد القاهر فقد ذكر بيت الراعي هذا وقال فيه كما قال ابن قتيبة " إن له أصبعاً أي أثراً حسناً " ثم ذكر أن كثيراً من الناس يطلقون على اليمين في قوله تعالى ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ معنى القدرة والسيطرة وتصريف الأمور كما فعل المبرد ، وفي ذلك إهدار لكثير من دلالات السياق فلا نكاد نجد اليد تراد منها القدرة الا والكلام مثل صريح (١) .

وعلى هذا المعنى يؤول حديث ابن قتيبة عنده .

وهكذا نوجه الخلاف بين عبد القاهر وابن قتيبة في اليد ومعانيها دقيق جداً .

ومن علاقات المجاز المرسل التي ذكرها ابن قتيبة علاقة السببية يقول في قوله عليه السلام " الحياء شعبة من الإيمان ".

" قالوا : الإيمان اكتساب ، والحياء غريزة مركبة في المرء فكيف تكون الغريزة اكتساباً قال : ونحن نقول إن المستحي ينقطع بالحياء من المعاصي ، كما ينقطع بالإيمان عنها فكأنه شعبة منه ، والعرب تقيم الشيء مقام الشيء إذا كان مثله أو شبيهاً به أو كان سبباً له ألا تراهم سموا الركوع والسجود صلاة وأصل الصلاة الدعاء ، وسموا الدعاء صلاة كما قال تعالى ﴿ وصل عليهم ﴾ أي ادع لهم " (٢)

---

(١) انظر أسرار البلاغة : ٣١٠ .

(٢) تأويل مختلف الحديث : ٢١٣ .

فالحياء سبب في ترك المعاصي كما أن الإيمان سبب في ترك المعاصي وهذه هي الملابسة بينهما ، ويذكر ابن قتيبة أن العرب تطلق الشيء على الشيء إمّا للمشابهة أو لغيرها . والمشابهة تكون في الاستعارة وغير المشابهة تخص المجاز المرسل وعلاقاته ،وهذه إشارة مهمة أفادت العلماء من بعده ، لأنّ هذه التشقيقات القديمة هي ينابيع العلماء بعد ذلك .وهناك علاقة السببية أو تسمية الشيء باسم جزئه فالركوع والسجود أركان من الصلاة وتطلق عليها .

ومن العلاقات المجازية التي ذكرها، تسمية الشيء باسم محله يقول في حديث " إنّ الشمس تطلع مرتين من بين قرني شيطان فلا تصلوا لطلوعها " .

" لم يرد بالقرن ما تصوروا في أنفسهم من قرون البقر وقرون الشاء ، وإنّما القرن ههنا حرف الرأس ، وللرأس قرنان أي حرفان وجانبان ،ولا أرى القرن الذي يطلع في ذلك الموضع سمي قرناً إلاّ باسم موضعه ، كما تسمي العرب الشيء باسم ما كان له موضعاً أو سبباً فيقولون : رفع عقيرته يريدون صوته ، لأنّ رجلا قطعت رجله فرفعها واستغاث من أجلها فقيل لمن رفع صوته رفع عقيرته ،ومثل هذا كثير في كلام العرب " (١) .

ابن قتيبة هنا يضع أصول بحث المجاز في اللغة ،ويشير إلى تنوع صوره وتعدد علاقاته وسعة بابه ، فهو قد استقصى كلام العرب فوجد كثرة هذا النوع ،حتى إنه يصعب حصره والوقوف عليه ،كما أنه من خلال دراسته للأحاديث وضع أهم أصول باب الكناية (٢) مدعماً كلامه بكلام الله تعالى وبأقوال العرب وطرائقهم في اللغة ولولا ضيق مقام الدراسة لتناولناها .

---

(١) المصدر السابق : ١٢٦ . (٢) انظر المصدر السابق : ١٥٤ .

٢ - غرر الفوائد ودرر القلائد (الأمالي) للسيد المرتضى ت (٤٣٦هـ) :

اختلطت فيه الدراسات البلاغية للأحاديث النبوية بالدراسات الأخرى المتنوعة ، وكتابه هذا يعد موسوعة زاخرة بأشتات المعارف والموضوعات الدينية والأدبية ، يجمع فيه ما بين تأويلات بعض آيات القرآن الكريم المُختلف فيها ، وبعض الأحاديث النبوية وأخبار كثير من الناس من علماء وبلغاء وشعراء .

وينقسم الكتاب إلى مجالس يبدو أنه أملاها في أزمان متعاقبة ، والذي يهمنا من الكتاب تتبع تلك المقررات البلاغية التي جاءت في شروحه لبعض الأحاديث . ولم تكن تلك المقررات قد تحددت في ذلك العصر بصورتها التي جرى عليها الاصطلاح بعد عبد القاهر .

وقد بلغ عدد الأحاديث التي تناولها ما يقرب من الثلاثين حديثاً . وطريقته في الدراسة أنه يذكر ما يحتمله الحديث من معانٍ متعددة ثم يرجح بينها ، أو يذكر الحديث الذي تختلف الآراء حوله ثم يعتمد رأياً له بحسب ما يمليه عليه نظره ، ويدلل على صحته بمذاهب العرب وبالشعر واللغة وطريقة العربية في الإبانة عن المعاني .

وسنحاول الوقوف عند بعض الأصول البلاغية التي ذكرها ، وطريقته كانت بعيدة عن دائرة المصطلحات إلاّ ما كان كالوحي والإشارة . وسنحاول وضع كل دراسة تحت مسماها الاصطلاحي لتتضح لنا رؤية هذه الأصول . ونقرر سلفاً أن ما وراء محاولاته من نصرة مذهب أو مخالفته أمر لن نخوض فيه لأنه كان معتزلياً وشيعياً ، وسنعتني فقط بمحاوراته للنصوص من حيث لغتها وصورها وتراكيبها .

يفرق السيد المرتضى بين التشبيه البليغ والاستعارة فلا يلتبس عليه أمرهما كما التبس على غيره ،وليس ضابط التشبيه وجود الأداة وعدمها إنّما فِهْمُ الفرق على وجهه الذي اشتهر به في هذه المسألة. يقول في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " مَنْ تعلَّم القرآن ثم نسيه لقِيَ اللّهَ تعالى وهو أجْذَم ".

" أما معنى الخبر فهو ظاهر لمن له أدْنَى معرفة بمذاهب العرب في كلامها ،وإنّما أراد عليه السلام بقوله " يحشر أجْذَم " المبالغة في وصفه بالنقصان عن الكمال وفقد ما كان عليه بالقرآن من الزينة والجمال ، والتشبيه له بالأجْذَم من حسَن التشبيه وعجيبه ،لأنَّ اليدَ من الأعضاء الشريفةِ التي لا يتُّم كثير من التصُّرف ،ولا يُوصل إلى كثير من المنافع إلا بها ، ففاقدُها يفقد ما كان عليه من الكمال ،ويفوتُه المنافع والمرافق التي كان يجعلُ يدَه ذريعةً إلى تناولِها ، وهذه حالُ ناسِي القرآن ومضيِّعه بعد حفظه . . . وهذه عادة للعرب في كلامهم معروفة ، يقولون فيمن فَقَدَ ناصرَه ومُعينَه فلان بعد فلان أجْذَع وقد بَقِي بعده أجذم [١] .

المرتضي يبحث عن العلة في اختيار اليد في هذا التشبيه ، ويرجعها إلى أمرين فكما أن قطع اليد يذهب المنافع الحاصلة بها ، كذلك نسيان القرآن يضيع منافع كثيرة يحصلها المرء من بقراءة القرآن هذه واحده ، والثانية هي أن فاقد يده يلحق به النقصان كذلك ناسي القرآن يفقد البهاء والكمال بالقرآن يوم الحساب . والمرتضي يكشف

----

(١) الأمالي : ١ / ٦-٧ .

المعاني القائمة وراء التشبيه ويعدد وجوهها ببصرنافذ ،وتذوق بصير للغة ،ومعرفة ما ينطوى عليه هذا اللسان . استمع قوله وهو يرشد قارئ اللغة إلى أصول بيانها " وللعرب ملاحن في كلامها وإشارات إلى الأغراض وتلويحات بالمعاني ، من لم يفهمها ويسرع إلى الفطنة بها من تعاطى تفسير كلامهم ،وتأويل خطابهم كان ظالماً نفسه ، متعدياً طوره "(١).

انظر إلى قوله ملاحن ، وإشارات ،وتلويحات ، فكلام العرب لا يؤخذ على ظاهره ،إنّما له خبايا وإشارات وملاحن يبرز المعنى من خلالها ،وهي فطنة العربية ،وسمة تصرفها ،وهذا كلام نفيس تراه في كلام العلماء كعروق الذهب وهوما يجب الوقوف عنده لمعرفة ملاحن هذا اللسان وإشاراته وتلويحاته وهوأحق بجهودنا ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم جزء من هذا اللسان وما أحوجنا إلى معرفة طرائق العرب هذه .

وكان المرتضى يبحث أحياناً عن إمكان تعدد الغرض من التشبيه كما في قوله في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنَّ هذا القرآن مأدُبة الله فتعلَّمُوا مأدُبتَهَ ما استطعتم ، وإنَّ أصْفَرَ البيوت لَجَوْفٌ أصفرَ من كتاب الله تعالى ".

يقول "المأدبة في كلام العرب هي الطعام يضعه الرجل ويدعو الناس إليه فشبه النبي صلى الله عليه وسلم ما يكتسبه الإنسان من خيرِ القرآن و نفعه وعائدته عليه إذ قرأه وحفظِه بما يناله المدعوّ

---

(١) المصدر السابق: ١ / ٧٠

من طعام الداعي وانتفاعه به يقال " قد أَدَبَ الرجل يأدِب فهو آدب إذا دعا الناس إلى طعامه ".(١)

هذا الوجه الأول للمعنى انتزعه من معنى الكلمة عند العربي

والوجه الثاني " أن يكون وجه التشبيه للقرآن بالمأدبة وتسميته بها من حيث دعا الخلق إليه وأمرهم بالاجتماع عليه ، فسماه عليه السلام مأدبة لهذا الوجه ، لأنّ المأدبة هي التي يدعى الناس إليها ويجتمعون عليها وهذا الوجه يخالف الوجه الأول ".(٢)

فالتشبيه بالمأدبة صالح لأنّ يكون المراد هو النفع المتحصل من المأدبة من غذاء الأبدان المقابل لغذاء الأرواح والقلوب.

وأن يكون المراد هو الدعوة إلى أن يجتمعوا حوله يقومون عليه ويديرون حياتهم على مسلكه وسننه . .وهكذا فكلمة المأدبة في الحالتين ذات معنى واحد وهو المائدة التي يدعى الناس إليها .

ويسوى المرتضى بين المجاز الذي يقوم على قرائن وعلاقات وبين المشاكلة التي يذكر الشيء فيها في صحبة الشيء الآخر ، فالأسلوب صالح لأنّ يكون مجازاً ومشاكلة بحسب القرائن والعلاقات .

يقول في قوله عليه السلام : " إنَّ أحبَّ الأعمال إلى اللّه عزّ وجل أدْوَمُها وإن قلّ فعليكم من الأعمال بما تُطيقون فإنّ اللّهَ لا يَمَلُّ حتى تَملوا ".

----

(١) المصدر السابق ١/٣٥٤.

(٢) المصدر السابق ١/٣٥٨.

" المعنى أنه تعالى لا يقطع عنكم فضله وإحسانه حتى تملوا من سؤاله فِفعلُهم مَلَلٌ على الحقيقة ، وسمّى فِعْله تعالى مللاً ،وليس بملل على الحقيقة للازدواج ومشاكلة اللفظتين في الصورة وإن اختلفا في المعنى ،ومثل هذا قوله تعالى * فَمَنِ اعْتَدَى عليكم فاعتَدُوا عليه بِمثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيْكم * ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيّئةٌ مِثْلُها " (١) ففي هذا الحديث تشاكلت اللفظتان .

ثم نراه يذكر هذه الأمثلة -أمثلة المشاكلة -في المجاز الذى علاقته السببية يقول وهو يؤول آية * اللّهُ يَستهزئُ بهم * "العرب تسمي الجزاء على الفعل باسمه قال تعالى * وجَزاءُ سيّئةٍ سَيِّئَةٌ مثْلُهَا * ثم يذكر بقية الآيات وقول الشاعر:

ألا لا يَجْهَلنْ أحدٌ علينا فنَجْهَلَ فوق جَهْلِ الجاهِلِينا

ثم يقول " ومن شأن العرب أن تسمي الشيء باسم ما يقاربه ويصاحبه ، ويشتد اختصاصه ،وتعلقه به ،إذا انكشف المعنى وأُمن الإبهام ، وربما غلّبوا أيضاً اسم أحدِ الشيئين على الآخر لقوةِ التعلق بينهما وشدةِ الاختصاص فيهما " (٢) .

وقد كان هدفه الكشف عن مذاهب العرب في كلامهم وشرح ذلك وبيانه وأنهم كانوا يتصرفون في ألفاظهم ،والإبانة عن معانيهم تصرفات متنوعة .

وهذه الأساليب تدخل في باب المشاكلة وباب المجاز نظراً لاختلاف العلاقات والقرائن التي تلاحظ في الكلام.

----

(١) المصدر السابق : ١/٥٦-٥٧ .

(٢) المصدر السابق : ٢/١٤٧ .

ويذكر الرماني ذلك في باب التجانس و يبين أنه يبني إما على المزاوجة أو المناسبة ،ويذكر الخطيب القزويني هذه الشواهد التي ذكرها المرتضى في البابين .

*****

٣ - المجازات النبوية للشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) :

استقلت الدراسات البلاغية للحديث النبوي في هذا الكتاب ، ويقوم على تتبع المجاز في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيذكر ما يقرب من أربعمائة حديث ، توخى فيه الاختصار والدقة وقد علل ذلك بقوله " لئلا يطول الكتاب فيجفو على الناظر ،ويَشُقّ على الناقل ، فإن القلوب في هذا الزمان ضعيفة عن تحمل أعباء العلوم الثقيلة ،والإجراء في مسافات الفضائل الطويلة ".(١)

فعلم البلاغة التطبيقي من العلوم الثقيلة كما يقول لأنها تحتاج إلى صبر وطول نظر للتفتيش عن هذه النوعية الخاصة ،ولمح دقائق البيان وأسرار اللغة اللطيفة .

كما تمتاز دراسته بالنظر المتقصي لمفردات الحديث التي يقع فيها المجاز وربطها بطريقة العرب في كلامها ،فيحاول أن يتعرف على حركة هذه الكلمات ومعانيها في بحر اللغة الزاخر بذوق حسِّيّ ، كما أنه يقلب الحديث على وجوهه فيذكر معانيه المتعددة التي تجري في

---

(١) المجازات النبوية : ١٠ .

وادٍ واحد تلتقي فيه ، فكأنه ينظر إلى الحديث بأكثر من عين واحدة.
وقد حاول إخضاع الحديث للمصطلحات البلاغية فيقول هذا مجاز ... هذه استعارة ... هذه كناية إلاّ أنه لم يتمكن من ضبطها على وجه الدقة ، يُعد مسلكه هذا خطوة جيدة في تحديد هذه الأصول . ونستطيع القول بأن دراسته تتسم بالحيوية والخصوبة لأنها تركز على الجانب التصويري في الحديث وقد يكون هذا سبباً في عدم اهتمامه بتحديد مفاهيم المصطلحات .

وقد حاولت جاهدة أن أحدد مفهوم كل فن عنده ، لكن لم أستطع لأنه خلط بينها خلطاً بيناً ، فقد يطلق المجاز على التشبيه البليغ ، ويسمي التشبيه مجازاً ، والكناية مجازاً . وفي جملة الأمر فإن اهتمامه كان منصباً على صور البيان . وكان أحياناً يفرق بين التشبيه وما عداه وحيناً كان يجعل التشبيه مجازا أو استعارة يقول في حديث ذكر الخوارج " يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " في هذا القول مجاز ، لأنه شبّه دخولهم في الدِّين وخروجهم منه بسرعة من غير أن يتعلقوا بمُقْدته أو يَعبقوا بطينته ، بالسهم الذي أصاب الرمية "(١).

فالتشبيه ظاهر في الحديث ظهوراً بيناً ومع ذلك فقد أسماه مجازاً ويتكرر ذلك في أكثر من موضع.

ويفرق بين التشبيه والاستعارة في أحاديث أخرى يقول في حديث " كُلُّكم بنو آدم طِفُّ الصاعِ .. " ولو قال عليه السلام أنتم بنو آدم كطفِّ

---

(١) المصدر السابق : ٣٣ .

الصاع "،خرج الكلام عن أن يكون مستعاراً ،لأنّ دخول كاف التشبيه في الكلام يخرجه من باب المجاز ،مثل قوله عليه الصلاة والسلام في حديث " خرجت حين بزغ القمر كأنه فِلْقُ جِفْنَة "(١) فكأن أداة التشبيه عنده هي التي تفرق بين التشبيه وغيره ،وهو بذلك يُدْخل الأحاديث التي تبنى على التشبيه البليغ المحذوف الأداة تحت المجاز أو الاستعارة.(٢)

وكانت طريقته في اقامة التشبيه أنه يقف أمام عنصر المشبه به ويستخرج أحواله و معانيه ،ويبين وجه ملاءمته للمشبه انظر إليه وهو يقول في حديث " العِلْمُ رَائِدٌ ،والعَقْلُ سَائِقٌ ،والنَّفْسُ حَرُونٌ " وهذا الكلام مجاز وذلك أنه عليه السلام شبه علم الإنسان بالرائد الذي يتقدم أمام الحي فيدلهم على المنزل الوسيع ،والمرعى المَريع ، لأنّ العلم يأخذ بصاحبه إلى المناجي ،ويعدل به عن المغاوي ،وشبه العقل بالسائق يحُثّ الإنسان على سلوك النهج الأسلم ، ويحمله على الذهاب في الطريق الأقوم ، وشبه النفس بالدابة الحرون ،لأنها تتقاعس عن مراشدها ، وتُلذّع بسوط الأدب ، حتى تسلك طرق مصالحها ".(٣)

ويقول في حديث " فإنَّ هذا القُرآن حَبْلُ اللّهِ المَتِينُ ، فيه إقامةُ العَدْلِ وَيَنَابيعُ العِلمِ وَرَبيعُ القُلُوبِ ".

يقول : " جعل القرآن للقلوب الواعية بمنزلة الربيع للإبل الراعية ، لأنّ القلوب تنتفع بتدبر القرآن وتأمله ، كما تنتفع الإبل بتحمض الربيع وتنقله ، فهذا غذاء للأرواح ، كما أن ذلك غذاء للأجسام . وقد

---

(١) المصدر السابق : ٢٨٢ .

(٢) انظر التصوير البياني ،د . محمد أبو موسى ١٨٩- ١٩٠ .

(٣) المجازات النبوية : ٢٠٤- ٢٠٥

يجوز أن يكون المراد أن القلوب تنفرج بحكم القرآن وآدابه ،كما تنفرج العيون بأنوار الربيع وأعشابه . والرّبيع : اسم للغيث في الأصل ،ثم صار اسماً عندهم لما ينبت عن الغيث من أفانين النّوّر والعشب ، ألا ترى إلى قول الشاعر ، وهو يريد الغيث :

أنت رَبيعي والرَّبيعُ يُنْتَظَر وَخَيْرُ أنواءِ الرَّبيع ما بَكَـــرّ (١)

ويظل الشريف الرضي يتحدث عن الربيع ومعانيه عند العرب ويستدل بها على أحوال القرآن ،ويلائم بين طرفي الاستعارة ،فهو هنا يحسن تأمل كلمات اللغة وتذوقها ،ولا غرو في ذلك فهو شاعر خبير بمسالك الكلام وشعابه . ولنتأمل طريقته هذه وأثرها في توسيع المعنى ،ومعرفة دلالاته .

كما أنه كان يتتبع استخدام العنصر الواحد في سياقاته المختلفة كتتبعه لليد واستعمالاتها المتعددة عند العرب .

---

(١) المصدر السابق : ٢٢٤ - ٢٢٥ .

٤ ـ الفائق للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) :

إن الزمخشري أحد الأئمة في علم غريب الحديث ويعد تفسيره من مصادر الدراسة البلاغية . وكتابه الفائق هذا يتضمن كثيراً من المسائل البلاغية ،التي يمكن أن تُدرس وتُقارن بما في الكشاف . ومن الأحاديث التي ذكرها ،وتحتوي على مسائل بلاغية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " المُتَشَبِّع بِمَا لا يَمْلِكُ كلابسِ ثَوبَي زُورٍ" . يقول فيه " المتشبع على معنيين أحدهما : المتكلف إسرافاً في الأكل وزيادة على الشبع حتى يمتلئ ويتضلع.

والثاني : المتشبه بالشبعان وليس به ،وبهذا المعنى الثاني استعير للمتحلي بفضيلة لم تُرزق وليس من أهلها ،وشُبِّه بلابس ثوبي زور ، أي ذي زور ،وهو الذي يزوّر على الناس بأن يتزيا بزي أهل الزهد ويلبس لباس ذوي التقشف رياء ،وأضاف الثوبين إلى الزور لأنهما لما كانا ملبوسين لأجله فقد اختصابه ،اختصاص سوغ إضافتهما إليه "(١).

هذا النص تحليل للصورة البيانية من الحديث الشريف ، بدأ بالتفسير اللغوي للكلمات حتى يتحدد المشبه ،وينكشف المراد هل هو المتشبع الذي يتضلع بزيادة الأكل أم هو المتشبه بالشبعان ، ثم يقطع الزمخشري بأن المعنى الثاني هو المراد وبذلك استقام

---

(١) الفائق : ٢/٤١٦-٤١٧.

بيان الصورة وهي تشبيه المتكلف ما ليس في حوزته من أخلاق الزهد وفضائل النفس بلابس ثوبي الزور، ثم يقف عند هذه الإضافة " ثوبي زور " ويبين أن هذا الثوب لما كان ملبوساً لأجل الزور صحت إضافته إليه.

وكان الزمخشري حريصاً على أن يربط كلامه بمذاهب العرب في كلامها يقول في قول السيدة عائشة رضي الله عنها " دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم تبرق أكاليل وجهه يقول " جعلت لوجهه صلى الله عليه وآله وسلم أكاليل على سبيل الاستعارة كما جعل لبيد للشمال يداً في قوله :

* إذا أصبحت بيد الشمال زمامها *

وهو نوع من الاستعارة لطيف دقيق المسلك، وقيل : أرادت نواحي وجهه وما أحاط به من الثكل وهو الاحاطة والقول العربي الفحل ما ذهبت إليه "(١)

والرأي الأول ما عرف عند المتأخرين بالاستعارة المكنية. يحذف المستعار ثم يرمز إليه بشيء من لوازمه ولذلك فهو دقيق المسلك أو جعل الشيء ليس له لأنها جعلت للوجه أكاليل كما جعل لبيد للشيء يداً. وقد استحسنها الزمخشري لما فيها من تخييل وجمال تصوير، وهذا بخلاف ما لو جعلنا الأكاليل مستعارة للجوانب لأنها حينئذ تكون استعارة أصلية وليس فيها الإفتنان في جعل أكاليل للوجه.

---

(١) المصدر السابق ٣/٢٧٣- ٢٧٤.

ويقف الزمخشري أمام المفردات ليشرح أحوالها وما تنطوي عليه من دلالات وهذا بابه الذي برع فيه يقول عليه السلام " لا تماروا في القرآن فإنّ مراءً فيه كُفرٌ " والتنكير في قوله " فإنّ مراء " إيذان بأن شيئاً منه كفر فضلاً عما زاد عليه ".(١)

*****

٥ - عمدة القاري في شرح صحيح البخاري للعيني (ت ٨٥٥هـ):

العيني عالم جليل له مكانة من الفضل وسعة من العلم يقصر عنه من كان مثله ،واهتم في كتابه " عمدة القاري في شرح صحيح البخاري " بكثيرمن النواحي البلاغية ، تدل على تبحره في هذا العلم وتمكنه منه بعد أنّ اكتمل وتحددت علومه ،ولذلك فهو يحافظ في دراسته على المصطلحات العلمية المقررة محافظة العالم المتمكن ،فيشرح الحديث ثم يبين وجوهه البلاغية فيبدأ بما احتواه من علم المعاني وعلم البديع وسنتناول أحد الأحاديث لنتعرف على طريقته في حديث : "بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان " .

يقول " بيان المعاني والبيان " قوله " بُني " إنّما طوى ذكر الفاعل لشهرته وفيه الاستعارة بالكناية لأنه شبه الإسلام بمبنى له دعائم فذكر المشبه وطوى ذكر المشبه به ،وذكر ما هو من خواص المشبه به وهو البناء ويسمى هذا استعارة ترشيحيه ، ويجوز أن يكون استعارة تمثيلية

---

(١) المصدر السابق ٣/٣٥٦ .

بأن تمثل حالة الإسلام مع أركانه الخمسة بما له خباء اقيمت على خمسة أعمدة وقطبها الذي تدور عليه الأركان هي شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وبقية شعب الإيمان كالأوتاد للخباء ويجوز أن يكون استعارة تبعية "(١).

وهكذا نرى دراسته تحليلاً بيانياً دقيقاً لما جاء في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهذا اللون من الدراسة مفيد من حيث هو سبيل اصطناع هذه الوسائل البلاغية في تحليل الكلام وتفسيره والكشف عن دقائق معانيه. هذا فضلاً عن اجتهادات الإمام العيني الكثيرة والمبثوثة في هذا الكتاب .

وهو في مجال الدراسة البلاغية للحديث الشريف مثل الكشاف في مجال الدراسة البلاغية للقرآن الكريم .

---

(١) عمدة القاري: ١ / ١٢٠

٦ - كتب الأمثال النبوية :

كما اهتم العلماء قديماً بدراسة الأمثال في القرآن الكريم اُهتموا بالأمثال في البيان النبوي الشريف جمعاً ودراسة فالترمذي جمع في سننه الأمثال النبوية ووضعها تحت باب مستقل .

ولأبي عروبة الحسين بن محمد الحراني (ت ٣١٨هـ) كتاب في الأمثال يسمى "الأمثال السائرة عن رسول الله ".

وهناك كتاب "أمثال الحديث" لأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن ابن خلاد الرامهرمزى (ت ٣٦٠هـ) .

وآخر لأبي محمد عبدالله بن محمد بن حبان المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ) اسمه "الأمثال في الحديث النبوي" ولأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) كتاب في أمثال الحديث ذكره الميداني في مجمعه يقول " وأما الكلام النبوي من هذا الفن فقد صنف العسكري فيه كتاباً برأسه "(١) ويقصد بقوله " هذا الفن " أي الأمثال . وسنتناول بالدراسة كتابي الرامهرمزى والأصبهاني .

والكتابان مطبوعان و محققان بتحقيق استاذ واحد هو الدكتور عبدالعلي عبد الحميد من جامعة بايروكانو - نيجيريا .

وأمثال الرسول صلى الله عليه وسلم تنقسم إلى قسمين : قسم يسمى المثل السائر أي الأقوال التي اشتهرت ودارت .

---

(١) مجمع الأمثال ١/ ٢ .

والقسم الآخر هو ما جاء على سبيل التشبيه والتمثيل ، وهذا النوع هو موضوع بحثنا . وسنحاول الوقوف أمام كل كتاب لنتعرف على طريقة دراسته .

١ - أمثال الحديث للرامهرمزي (ت ٣٦٠هـ):

هذا الكتاب سبعة أجزاء صغيرة جُمعت في كتاب واحد ، كل جزء بسند راوٍ يختلف عن الآخر . وبلغت عدد الأمثال مائة وأربعين مثلاً ، خلط فيها بين الأمثال السائرة وتمثيل التشبيه .

وتتلخص طريقته في التناول أنه كان يذكر المثل ثم يقف ليشرح إما مفرداته أو وجه الشبه فيه ، أو أنه يتتبع بعض مفردات الحديث في القرآن الكريم وكلام العرب . وكثيراً ما كان يقف أمام عنصر التمثيل ليفصل القول فيه . وسنتناول حديثين يكشفان عن طريقته . يقول في قوله صلى الله عليه وسلم " إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الأنبياءِ مِنْ قَبْلي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنى بُنْياناً فأَحْسَنه وأَجْمَلَه وأكمله إلاّ موضع لَبِنَةٍ ، فَجَعَلَ الناس يطُوفون به ويَقولُونَ ما رأينا أحسن من هذا لولا موضع هذه اللبنة ".

" هذا مثل نبوته صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء وبه تتم حجة الله عز وجل على خلقه ، ومثل ذلك بالبنيان الذي يشد بعضه بعضاً وهو ناقص الكمال بنقصان بعضه فأكمل الله به دينه ، وختم به وحيه والعرب تمثل ما يبالغون فيه من الوثاقة والأصالة وعقده المكارم والمفاخر واشباه ذلك بالبنيان قال الله عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِين يُقاتِلونَ في سَبِيله صفاً كأَنَّهم بنيانٌ مرصوصٌ ﴾ يعني

---

(١) أمثال الحديث : ٧ - ٨ .

لا يزول ولا يتخلخل وأخبر أنه بنى السماء فرفع سمكها وهو بناء ا لقدرة لا أن ثم شيئاً من آله الصنعة ".

وهكذا يتأمل العنصر و يبين عن دلالاته في القرآن و عند العرب وأحياناً كان يكشف عن ملاءمة العنصر الذي دخل في بناء التشبيه للغرض الذي سيق له التشبيه يذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين فيخرج وله حصاص حتى إذا انبهر واعيا قالت الأرض يا ثعلب ، ديني ديني فيخرج وله حصاص حتى إذا عى وانبهر انقطعت عنقه ومات ".

ثم يقول " قوله تطلبه بمعنى تأخذه وإنما خصت الأرض بهذا المثل لأن أحداً لا مهرب له منها . وخص الثعلب بهذا التمثيل لروغانه واعتياصه على الصائد وشدة عدوه "(١).

ب - الأمثال لأبي الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ) :

ينقسم كتابه إلى قسمين : الأول خصصه للأمثال السائرة والثاني لأحاديث التمثيل ،وقد أدخل فيهما أمثال بعض العرب كعلي بن أبي طالب ، وأكثم بن صيفي ،وعدد أمثاله تقارب الثلاثمائة والسبعين حديثاً ، ولم يتعرض المؤلف لها بالشرح أو التحليل ،إنّما اكتفى بجمعها في كتاب واحد ، وهذا ما يخالف فيه كتاب الرامهرمزي .

---

(١) المصدر السابق : ١٦٦ .

من ذلك قوله " حدثنا ابراهيم بن محمد بن الحسن ثنا أبو الربيع ثنا ابن وهب حدثني أبي لهيعة عن ابن هبيرة عن أبي عبدالرحمن قال :

" مثل الذي يجتنب الكبائر ويقع في المحقرات كرجل لقي سبعاً فألقاه حتى نجى منه ثم فحل إبل فكذلك ثم فحل جمل فكذلك حتى نجا مما يتخوف فلدغته نملة فأوجعته ثم أخرى حتى اجتمعن عليه فصرعنه فكذلك الذى يجتنب الكبائر ويقع في المحقرات ".(١)

ونكتفي بهذا الذي درسناه لأن الغرض منها محاولة التعريف بأهم مصادر التراث البلاغي حول بيانه صلوات الله وسلامه عليه . وهي كثيرة جداً ومبثوثة في كتب الأدب واللغة والتفسير وشروح الحديث.

---

(١) الأمثال للأصفهاني : ٢٤٨.

الفصل الثانى :
المعـــانى التى جـاءت على طريقة التمثيل

١ - بيان ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ - صفات المؤمنين وغيرهم .

٣ - العبادات .

٤ - فضل المدينة .

٥ - أحوال اليوم الآخر .

٦ - موضوعات متفرقة .

المعاني التي جاءت على طريقة التمثيل

هذا الفصل بمثابة مدخل أوتمهيد لدراسة التمثيل في الحديث الشريف دراسة تحليلية ، وهووإن لم يدخل في صميم الدراسة البلاغية فهو ضروري للدخول في صميمها ،وذلك لأني فيه أحصيت المعاني والمقاصد التي عرّضها البيان النبوى بأسلوب التمثيل ، ولا بد أن تكون هذه المعاني والأغراض والمقاصد ذات خصوصية خاصة استدعت طريقة التمثيل واقتضتها ،لاننّا نوقن أن طرائق البيان لا تقع في البيان الرفيع على وجه التفنن أوالحلية الاسلوبية أو التكثر بأفانين البلاغة ، واستجلا بأً لعذوبة المنطق ،وإنما تأتي لأنّ المقام يقتضيها والمعنى يتطلبها ،ولأنّ في هذا المعنى خصوصية لا تتكشف إلا من خلال هذا الطريق أو هذا الاسلوب .

ولن أتعرض إلى شيء من ذلك في هذا الفصل ، وإنّما سأعرض الأغراض والمقاصد التي جرى فيها هذا الفن البلاغي " التشبيه التمثيلي " مرجئة البحث في الاسرار المعنوية التي اقتضت هذا الاسلوب للفصول الأخرى ،وحين أتحدث عن أسرار اختيار العناصر أو أسرار اختيار طريق من طرق الصياغة أى حين أواجه لغة التمثيل في كلامه صلى الله عليه وسلم بالتحليل والمناقشة والتقصي .

وأنا في كل ذلك أجتهد ولا آلو ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وقد حصرت هذه الأغراض والمقاصد في ستة أبواب وهي :

١ - بيان ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم.

٢ - صفات المؤمنين وغيرهم.

٣ - العبادات .

٤ - فضل المدينة .

٥ - أحوال اليوم الآخر .

٦ - موضوعات متفرقة .

وقد خلت أبواب كاملة في بيانه النبوي من أسلوب التمثيل في الصحيحين كباب الصيام .. وباب الحج .. وباب الجهاد .. وباب الحدود ..

وقد وقفت لأتبين طبيعة هذه المعاني التي خلت من التمثيل ، فوجدت أن تعليل ذلك مما لا يكون الكلام فيه هيناً مستقيماً على وجه يخلو من الاعتراض ، فرأيت أنه من الأجدر أن تنظر إلى ما جاء فيه التمثيل ، وأن نعرف لماذا جاء على هذه الطريقة ؟

١ - بيان ما بعثه الله بــه

جاء أسلوب التمثيل في الكشف عن فضائل الرسالة المحمدية ، ومعطياتها للبشر . بطريقة تتفق مع فطرتهم ، وتحقق لهم السعادة ، يحملها نبي كريم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، يحرص على أن يقذف في قلب كل واحد منهم قبساً من نور الله ، بل يكد نفسه في ذلك ، فلا بد أن يستجيبوا قبل فوت الفوت ، فلا وقت للعصيان والمكابرة . ورسالته هي الدرّة التي يكمل بها عقد النبوات ، ألقيت على أفضل الأمم وآخرها .

وقد بلغ عدد أحاديث هذا الغرض سبعة ، كل حديث يتناول جانباً يختلف عن الآخر ويدق .

فالحديث الأول يبين أثر وحي الله على القلوب بعد أن أجدبت وأظلمت ، إذ أخذت تتطلع إلى من يروي ظمأها ، ويبدد حيرتها فبعث الله هذا النبي بالهدى والعلم . " والهدى هو الدلالة الموصلة إلى المطلوب ، والعلم هو معرفة الأدلة الشرعية" كما قال ابن حجر (١) ، ففيهما منهج متكامل لحياة الناس كافة أبيضهم وأسودهم ، تلقى الناس هذا المنهج ، فاختلفت قلوبهم في استيعابه ، فمن القلوب حي يقظ وجامد ميت . الأول وجد النور والحياة في هذه الرسالة ، فأخذ ينهل من هذا العلم والهدى ، فاهتزت بها نفسه ، وتفجرت طاقات

---

(١) فتح الباري : ١/١٧٦ .

الخير في أعماقه من العلم النافع الذى مزجه بنفسه واستوعبه بقلبه ، فصار فقيهاً فيه يعلم الآخرين ، ويبث في نفوسهم حياةً تزهو كزهائها في قلبه . ولنستمع إلى هذا المعنى بلفظه الشريف صلوات الله وسلامه عليه .

جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مَثَلُ ما بعثني اللَّهُ به من الهُدَى والعِلم كمثَلِ الْغَيْثِ الكثير أَصَابَ أرضاً ، فكَانَ منها نَقِيَّة قَبِلَت الماءَ فأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ " وهؤلاء هم الذين قال عنهم عليه السلام " تَجِدُون النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ في الجاهِلِيَّة خيَارُهُمْ في الإِسْلَام إذا فَقِهُوا ".(١)

وهم الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان ، مصابيح الهدى ، وحملة علم النبوة والإيمان ،اهتدى بهم كثير من السراة فبثوا العلم والإيمان حياً مزهراً ، وصاروا رمزاً لنقاء النفس وصفاء السرائر. فهذه النفس لم تعط ما أخذته إنّما انتفعت به ،وصاغته صياغة جديدة وقدمته عطاء آخر ، هو من صميم علم النبوة ،كما أن الثمرة من الماء ، فالموقف لم يكن حفظاً فقط إنما استيعاب وتمثل .

أما النوع الثاني فهم الذين قال عنهم عليه السلام " وكَانَتْ مِنْهَا أَجادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ فَشَرِبُوا وسَقَوْا وَزَرَعُوا " فهذا الصنف أُدرك خير هذا الوحي فحفظه ونقله إلى غيره ، إلّا أنه لم ينتفع به في خاصة نفسه ، لأنه حفظ ولم يتشرّب ،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ٧٨/١٦ .

واحتمل ولم يذق ،ما يأخذه يُعْطيه ، ليس له قدرة على استنباط المعاني والأحكام تجعله كالصنف الأول يتعلم ويُعلم ،ويعمل ويثمر ، وقد يراد بهذا الصنف من يتعلم وحي الله وحكمة النبوة فلا يعمل بها .

وهناك صنف أخير - أعاذنا الله منه - ليس له قلب حافظ ولا فهم واع ، ولا قدرة على تلقي العلم ، فهو متبلد الحس والشعور ، ميت القلب ، ساقط من سماء الفطرة إلى وهاد الجهالة والظلمة ،لا يلتفت إلى هذا النور الذي بين يديه وهو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم في بقية الحديث النبوى " وأَصَابَتْ مِنْهَا طائفةً أُخْرَى إِنَّما هِيَ قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ في دينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مابعثني اللهُ بهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ،ومَثَلُ مَنْ لَمْ يرفعْ بذلك رأساً ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذى أُرسِلْتُ به ".(١)

يقول العيني في أصناف الأرض في الحديث "الأول إشارة إلى العلماء ،والثاني إلى النقلة ،والثالث إلى ما لا علم له ولا نقل "(٢) وفي قوله " فذلك مثل من فقه ..." تفصيل لتلك المقاصد، والفاء جاءت لتفصيل ما يقابل أنواع الأرض ،وهيئة المشبه قد تأخرت ففصّلت بعد أن أُجملت أول الحديث في قوله " مثل ما بعثني الله به " وتكثر هذه الطريقة في أسلوب التمثيل عنده صلى الله عليه وسلم على حدّ ما سنرى ووراء هذه الطريقة مغزى تربوي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

---

(١) صحيح البخاري : ١/ ٣٠ .

(٢) عمدة القاري : ٢/ ٧٩ .

ويجيء التمثيل لبيان عظم الأمر الذي بعث من أجله هذا النبي صلى الله عليه وسلم . حيث جاء لينذرهم ويبصّرهم بمغبة إعراضهم ويحذرهم من العصيان الذي يجرهم إلى عذاب الله ، يحمل رسالة صدق ويقين وبرهان ساطع بين يديه ، وهم لا يعرفونه إلا صادقاً أميناً ، وهو محب لهم مشفق عليهم لأنه يعلم ما لا يعلمون ، فمن تنبه إلى ما جاء به آمن واستقام على شرع الله وعمل بأسباب النجاة نجا من العذاب ، وفاز بالسعادة الأبدية ، ومن غفل وكذّب ، جرّ نفسه إلى مهلكة هالكة .

ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مَثَلِي وَمَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْماً فَقَالَ : رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ ، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا على مَهْلِهِم فَنَجَوْا وكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فاجْتَاحَهُم " (١) .

تأمل المثل وحاول أن تعرف الخواطر والمشاعر التي تجيش بها نفس هذا النذير الودود الرحيم وهو ينذر قومه ، . . وكيف أن كلامه ملىء بالمعاني من خوف واشفاق وحرص . . ، انظر إليه وهو يقول النّجاء النّجاء وارصد ما فيها من شدة الإنذار والتحذير فالأجل قريب ولا وقت للمعصية ، أو وهو يقول " رأيت الجيش بعينيّ " أو وهو يقول " إني أنا النذير العريان " ثم أحوال قومه في استجابتهم له . .

---

(١) صحيح البخاري : ٨/ ١٢٦ .

وهكذا فكل ما في هذه الصورة التمثيلية تحدثنا عما أراده صلى الله عليه وسلم من بلاغة عن ربه ﷻ مما لا يعبّر عنه إلاّ هذا الأسلوب. وتزداد حدة الخوف والإنذار والحرص على هداية أهله حين أمره الله بإنذار عشيرته الأقربين.

ففي صحيح مسلم عن قَبِيصَةَ بن المُخَارِق وزُهَيرِ بن عَمْرو قالا لما نَزَلَتْ ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ قال : انطلق نبيُّ اللَّه صلى الله عليه وسلم إلى رَضْمَةٍ من جبلٍ فعلا أعلاها حَجَراً ثم نادى : « يا بني عَبْدِ مَنَافَاهْ إني نَذِيرٌ ، إنّما مَثَلي ومَثَلُكم كَمَثَلِ رَجُلٍ رأى العدُوَّ فانطَلَقَ يَرْبأُ أَهْلَهُ فَخَشِيَ أن يسبقوه فجعل يَهْتِفُ ياصَبَاحَاهْ »(١).

فهو لأهله وهو أشد حبّاً لهم ، وخوفاً عليهم ﴿ قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ في القُرْبَى ﴾(٢) وفي كفرهم استعجال بوقوع العذاب ،وفيه خذلان له وهوان ، وفي إيمانهم نصر له ونجاة لهم.

وفي الحديث إشارة إلى تطلعه إلى أسباب الخير له ولأهله في بداية الدعوة ، وإلى حرصه على أن يقي نفسه وأهله من عذاب الله ، انظر إلى قوله "يَرْبأُ أهله" . وهذا التمثيل يشترك مع التمثيل السابق في بيان الغرض ،وفي أكثر ملامح الصورة ،ويختلف عنه من جهات معنوية سوف نشير إليها عند التحليل -إن شاء الله -

* * *

---

(١) صحيح مسلم : ٨١/٣.

(٢) سورة الشورى : ٢٣.

ومن المقاصد التي جاء فيها التمثيل بيان شدة حرصه عليه السلام على أمته وزجرها ،وردعها عن التقحم في المهالك التي تهوي بهم في النار ، فهو يرى عصاة أمته وشدة تهافتهم على المعاصي وحرصهم على استيفاء ملذاتهم وشهواتهم جهلاً وغفلة ، غافلين عن خداع العقل ،وتزيين هوى النفس ولا يزال عليه السلام يخولهم بالنصيحة والموعظة حتى يعقلوا ويتبصروا مواطن الهلاك .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " مَثَلي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ ناراً فَلما أَضاءَتْ ما حَوْلَهَا جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي في النَّارِ يَقَعْنَ فيها وجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ فَيَقتحمْنَ فيها ، قال : فَذَلِكُم مَثَلي ومثلكم أنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عن النار هَلُمَّ عن النارِ هَلُمَّ عن النَّار فتغلبونــي تَقَحَّمُونَ فيها ".(١)

وانظر إلى ندائه المتكرر وابحث عما فيه من إنذار وزجر وخوف وقد نبّه الشريف الرضي إلى ما في الحديث من اتساع في المعاني تدور حول اشفاقه عليه السلام على أمر هذه الأمة يقول " إني ممسك بحجزكم هلموا عن النار و تغلبوني تقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادي وأوشك أن أرسل حجزكم "وفي هذا الكلام مجاز وتوسع . وذلك أن المراد به أنه عليه الصلاة والسلام يبالغ في زجر أمته عن التقحم في المعاصي والارتكاس في المضال والمغاوي بشكائم المنع وخزائم الردع ".(٢) فقد

---

(١) صحيح مسلم : ١٥/٤٩ .

(٢) المجازات النبوية : ٨١ .

نبّه الرضي إلى الغفلة التي عليها هؤلاء القوم فعبّر عن ذلك بقوله "شكائم المنع وخزائم الردع" فهي تشبه البهائم التي تحتاج إلى شكائم وخزائم حتى تمتنع عن الإندفاع ،لأنها فقدت نور البصيرة التي تمكن من تمييز الأشياء ويذهب الشريف الرضي إلى أن معنى أوشك أن أرسل حجزكم أي يوشك أن يطرقني الموت فتفقدوا نهيّ لكم عن المعاصي فيكون ذلك بمثابة إرسال الحجز ، ولن أيأس من زجركم ما دمت حياً ، وهذه سمة الأنبياء (١) . والشريف في هذا يضع المثل الماثل في صورة التمثيل بين عينيه ويقرأ منها المعاني ،ويجد فيها توسعاً أي اتساعاً للمعنى وتوسعاً في العبارة .

وهكذا تتعدد الأحاديث التي تبين أنه جاء لإنذار هذه الأمة ، والتي يشتد أمر رسول الله فيها ،فهو الرجل الذي صاح بقومه النجاء النجاء ، وهو الذي حرص على سلامة أهله فجعل يهتف ياصباحاه ، وهو الذي أخذ يحجز قومه عن النار ، وفي كل صوره معانٍ كثيرة لا تبلغها اللغة المجردة .

وفي تعدد هذه الأحاديث دلالة على أن حاجة الناس إلى نذير أكثر من حاجتهم إلى بشير ،لأن في الإنذار تخويف وتحذير النفس ، ومن طبيعة النفس البشرية إتباع الأمر المخوف منه .

* * *

ويأتي التمثيل في سياق الإخبار عن خاتمية رسالته ،وأنها جاءت لإتمام مقاصد الشرائع السابقة التي تحقق السعادة للبشر مصداقاً لقوله

---

(١) انظر المصدر السابق : ٨٣ .

تعالى ﴿ إِنَّ الدينَ عندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ (١) وقد جمعت محاسن الرسالات الأخرى ، وأهلتها لكل زمان ومكان ، ومن يرفضها يرفض سائر الرسالات المنزلة ، وفيها ملاذ الإنسان ومتنفسه، لأنها ناسبت فطرته وحاجاته .

ففي الصحيحين " عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إِنَّ مثلِي وَمَثَلَ الأنبياءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بنى بَيْتاً فأحْسَنَهُ وأجملَهُ ،إلاَّ مَوضعَ لبنةٍ مِنْ زَاوِيةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يطوفونَ به ، ويَتَعَجَّبُونَ لَهُ ويقولونَ هَلَّا وُضِعَتْ هذِهِ اللبِنَةُ قال : فأنا اللَّبِنَةُ ، وأنا خاتمُ النبيينَ " . (٢)

* * *

وهناك حديثان تتشابه أغراضهما وعناصرهما إلا أنَّ لكل حديث معنى يتفرد به ، فكلا الحديثين يبينان أجل كل أمة من الأمم ، اليهودية والنصرانية والمحمدية ، فاليهودية وقعت في زمن أطول من النصرانية ،والنصرانية عاشت في زمن أطول من أمة محمد ،وأختصت أمة محمد بقصر أجلها ومضاعفة ثوابها .

ففي صحيح البخاري عن سالم بن عبدالله عن أبيه أنه أخبره أنه سَمِعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنَّما بَقَاؤُكُمْ فيما سلف قبلكم من الأمم كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ العَصْرِ إلى غُرُوبِ الشَّمْسِ،أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

(٢) صحيح البخاري : ٤/ ٢٢٦ .

التّوراة فَعَمِلُوا حتى إذا انتصفَ النّهارُ عَجَزُوا فأُعْطُوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أُوتِيَ أَهْلُ الإنْجيلِ الإنْجيلَ ، فعَمِلُوا إلى صَلَاةِ العَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا فأُعْطُوا قيراطاً قيراطاً ، ثُمَّ أُوتِينَا القُرْآنَ فَعَمِلْنَا إلى غُرُوبِ الشمس فأُعْطِينَا قيراطَيْنِ قيراطَيْنِ ، فقال أَهْلُ الكتابين ، أي رَبَّنَا أَعْطَيْتَ هؤلاءِ قيراطَيْنِ قيراطَيْنِ وأَعْطَيْتَنَا قيراطاً قيراطاً ونَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلاً ، قال : قال الله عزّ وجل : هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؟ قالُوا : لا . قالَ : فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ ".(١)

فعناصر المشبه تمتزج مع عناصر المشبه به ، فلا نجد صورة المثل مستقلة بعناصرها . وأجر أمة محمد في الحديث مضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها ، لأنها خاتم الرسالات ، ومصدقة لما بين يديها ، ومحافظة على نقاء التوحيد ،ومن آمن بالرسالات الأولى وحَسُنَ إيمانه ومات قبل نسخها فقد نال أجر إيمانه يقول العيني " فضلت أمة محمد بقوة يقينها ومراعاة أصل دينها وإن زلت فأكثر زللها في الفروع ".(٢)

وفي التشبيه باليوم دلالة على قصر أمد هذه الدنيا ،فهي كسحابة يوم ،ثم إن أمة محمد قد عاشت في أحسن أوقات ذلك اليوم.

والحديث الثاني يُركّز على موقف من عاش في مرحلة نسخ الرسالة فاليهود والنصارى قد فوّتوا أجرهم ،لأنهم لم يظلوا على الإيمان بعد أن نُسِخَتْ رسالاتهم.

---

(١) المصدر السابق : ١٤٦/١.

(٢) عمدة القاري : ٥٢/٥.

ففي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "مَثَلُ المُسْلِمِينَ وَاليَهُود وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ استَأْجَرَ قوماً يَعْمَلُونَ لَهُ عملاً إلى اللَّيْلِ فَعَمِلُوا إلى نِصْفِ النَّهارِ ، فَقَالُوا : لا حاجَةَ لنَا إلى أجْرِكَ ، فَاستأجَرَ آخَرِينَ فقال : أكْمِلُوا بَقِيةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمُ الَّذِي شَرَطْتُ فَعَمِلُوا حَتَّى إذا كانَ حينَ صَلاةِ العَصْر قالوا : لَكَ ما عَمِلْنَا ، فاستَأجَرَ قَوْماً فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غابَتِ الشَّمْسُ واستكمَلُوا أجْر الفَرِيقَيْنِ ".(١)

فالذين آمنوا برسالة موسى عملوا بالتوراة حتى إذا نزلت رسالة عيسى أبوا أن يؤمنوا بها ، وما زالوا على يهوديتهم ، وكانوا أكثر عناداً وأشد كبرياءً ، وكذلك النصارى ضلّوا عن الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهدموا إيمانهم السابق ، لأن الإيمان بالله يعني التصديق بكل ما يرسله الله للبشر ، وهو كلّ لا يتجزأ ، ثم إن جزاء العمل لا يكون إلا بخواتمه .

والحديث يحمل معنى حرية الإيمان بشرائع الله التي تقوم على الإقناع والاختيار ، فالعمال لم يُجْبَروا على العمل واستكمال بقية اليوم .

وقد استنبط علماء الحديث أحكاماً من هذا المثل فقالوا : إن من أدرك ركعة من الصلاة في وقتها له أجر الصلاة كلها ، كإدراك ركعة من صلاة العصر قبل زوال الشمس . ويرد عليهم إمام الحرمين فيقول : " إن الأحكام لا تؤخذ من الأحاديث التي تأتي لضرب الأمثال ".(٢)

---

(١) صحيح البخاري : ١٤٦/١ .

(٢) فتح الباري ، ابن حجر : ٣٩/٢ .

وإذا أجاز الفقهاء استنباط الأحكام البعيدة عن الحديث ، فمن باب أولى يجوز لدارس الأدب لمح الدلالات الكائنة في داخل تركيب النص وكلماته لتعميق المعنى وإضاءة جوانبه .

وفي قول إمام الحرمين إشارة إلى أن التمثيل لا يأتي في أحاديث تشريع الأحكام ، وإنزال الفرائض ، وإنما يأتي ليوضح ويؤكد جملة معانٍ مشروعة .

٢ - التمثيل في بيان صفات المؤمنين وغيرهم

يجيء التمثيل للكشف عن صفات المؤمنين والمنافقين والكافرين في زهاء عشرة أحاديث، تفرقت أغراضها، فمنها ما جاء لبيان أدق صفات المؤمنين في أحوالهم المختلفة، ومنها ما جاءت لبيان أحوال المنافقين وحدهم، ومنها ما قرنت بين صفات المؤمن والكافر. أما أحوال المؤمن فقد تعددت فمنها ما وصفت رسوخ الإيمان في أعماقه، ومنها ما وصفت حاله حين تنزل به المصائب، ومنها ما أبانت عنه وهو في كيان الجماعة المؤمنة حين تتراحم وتتعاطف، أو حين تتماسك لدفع خطر.

والحديث الأول يتحدث عن صفات المؤمن، فهو يحمل كل معاني الخير كما أنه مصدر نفع وعطاء مستمر أبداً، سواء في كلامه أو عمله أو مجالسته أو حتى بعد مماته حيث يبقى ذكره الحسن الطيب، وآثاره النافعة الطيبة، التي ترتوي منها النفوس، وتتفيء بظلالها القلوب. ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إِنَّ من الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وإنَّها مَثَلُ المُسْلِمِ، حَدِّثُونِي ماهِي؟ قال: فَوَقَعَ النَّاسُ في شَجَرِ البَوَادِي. قال عبدالله: فَوَقَعَ في نَفْسِي أَنَّها النَّخْلَةُ ثم قالُوا: حَدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هِيَ النَّخْلَةُ" (١). وقد أدرك العيني جملة معاني

---

(١) صحيح البخاري: ١/٢٤.

الخير التي في المسلم فقال " المؤمن خير كله من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه ومواظبته على صلاته وصيامه وذكره والصدقة وسائر الطاعات (١).
ولو أردنا أن نحصي طاعات المؤمن بأنواعها، ومكارم أخلاقه فلا يسعها وصف، وقد جمعها الرسول صلى الله عليه وسلم في أسلوب موجز مختصر فقال: إنّه كالنخلة.

* * *

ومن أغراض التمثيل بيان حالة المؤمن حين ينزل به أمر الله من أذى ومصاعب مهما قلّت أوجلّت من الشوكة فما فوقها، فإذا صبر واحتسب، فإنّ ذلك سيكون سبباً لغفران ذنوبه وحتّها مهما كانت كثيرة وثقيلة، حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة.

ففي الصحيحين عن الحارث بن سُوَيْد عن عبدالله قال: دخلت على رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَكُ فَقُلْتُ: يارَسُولَ اللَّه، إنك تُوعَكُ وَعْكاً شَديداً. قالَ: أَجَلْ إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ. قُلْتُ: ذلِكَ أنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ. قال: أَجَلْ ذلِكَ كَذلِكَ. ما مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُه أَذىً - شَوْكَةٌ فما فوقَها - إلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِها سَيِّئاتِه كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقَها (٢).

ويأتي هذا الحديث في صحيح البخاري أكثر من مرة برواية أخرى بغير أسلوب التمثيل، وهذا راجع إلى تعدد المقامات والمناسبات

---

(١) عمدة القاري: ٢/١٤.
(٢) صحيح البخاري: ٧/١٥٠.

التي قيلت فيه " فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إلاَّ كَفَّرَ اللّهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا "(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ ولا أذىٍ ولا غَمٍّ - حَتَّى الشَّوكة يُشَاكُها - إلا كَفَّرَ اللّهُ بها من خَطَايَاهُ "(٢)

وأسلوب التمثيل في رواية عبدالله جاء ليقرر المعنى ويؤكده وهو ماكان يقتضيه مقامه عليه السلام ،حين دخل عليه فضرب لذلك مثلاً .

* * *

ويأتي التمثيل في مَعْرِضِ الحديث عن معنى تحقيق مبدأ الأخوة والتعاون في كيان الجماعةالمسلمة التي لا تعرف النزعة الفردية ، فإذا ما أُصيب فرد من الجماعة قامت الجماعة كلها وتماسكت بصلابة وقوة ، ووحدة ونظام تجاه العدو.

ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " المُؤْمِنُ للمُؤْمِنِ كالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ "(٣) . تأمل المقصود من فعل الرسول في قول الراوي " وشبك بين أصابعه ".

---

(١) صحيح البخاري : ١٤٨/٧.

(٢) المصدر السابق : ١٤٩/٧.

(٣) المصدر السابق : ١٤/٨.

وهناك حديث آخر يتحدث عن مبدأ التعاون بين المسلمين والمشاركة بين الجماعة المؤمنة في جميع الأحوال ،لأنّ ثمة علاقات وصلات ووشائج من المحبة والألفة والتعاطف والتراحم تسري بين هذه القلوب فتلتحم وتتواصل وتستلهم منها الإيمان .

ففي الصحيحين عن النعمان بن بشير يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى عُضْواً تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحمى ".(١)

((والتراحم والتواد والتعاطف من باب التفاعل ،أي المشاركة من كل الأفراد ، فالتراحم : أن يرحم بعضهم بعضا بأخوة الإيمان ، والتواد هو التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي ،والتعاطف يعني إعانة بعضهم بعضاً كما يعطف الثوب عليه ليقويه))(٢) ، وكل هذه تمثل جريان أواصر المحبة بين هذه الفئة ،وإذا ما تقطعت إحدى هذه العلاقات تسرّب الضعف والخور إلى قلب الجماعة المسلمة وصارت نهباً للآخرين .

* * *

ومن أدق صفات المؤمنين التي يتناولها التمثيل ندرة الكرام وذوي الفضل من الناس ، المَرضِيّ في إيمانه وأخلاقه ،الخالص في معدنه خلوص الإبريز.

---

(١) المصدر السابق : ١٢/٨ .

(٢) فتح الباري ،ابن حجر : ٤٣٩/١٠ .

ففي الصحيحين عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً "(١) فأمر وجود هذه الراحلة صعب جداً ، وقد انحصرت آراء علماء الحديث حول قوله "لا تجد فيها راحلة " في رأيين :

الأول : إن الناس في أحكام الدين سواء لا فضل فيها لشريف على مشروف ولا لرفيع على وضيع كالإبل المائة التي لا يكون فيها راحلة.

والثاني : إن أكثر الناس أهل تقى أما أهل الفضل فعددهم قليل جداً ، فهم بمنزلة الراحلة في الإبل الحمولة قال تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾.(٢)

وقد قال الخطابي بالرأي الأول ورأى أن الناس في أحكام الشرع سواء(٣). فالرأي الأول ناظر إلى التساوي في تطبيق أحكام الشريعة بين الناس فهم كالإبل المائة التي تكون من نوع واحد ، والرأي الثاني ناظر إلى مقدار الإيمان في القلب ، وما يثمره من طباع نادرة المثال لا تزييف فيها ولا مسخ . وقد أدرك القرطبي هذا المعنى فقال : " الذي يناسب التمثيل أن الجواد الذي يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم ، ويكشف كربهم عزيز الوجود كالراحلة في الإبل الكثيرة ".(٤)

---

(١) صحيح البخاري : ٨/ ١٣٠.

(٢) عمدة القاري ، العيني : ٢٣/ ٨٥.

(٣) انظر غريب الحديث : ١/ ٥٦١.

(٤) عمدة القاري : ٢٣/ ٨٥.

وقد نقلنا قول القرطبي هذا من العيني في شرحه وأظن أن القرطبي استدلّ على هذا المعنى من معرفته بأن الإبل المائة عند العرب لا تخلو من وجود الراحلة بينها ، وهي القوية على الأسفار ،الخالصة الصفات.

* * *

ويأتي التمثيل مقرناً أوصاف المؤمنين بصفات الكافرين ،لتتضح الصورتان وتتميز صفات المؤمنين .

ففي الصحيحين عن عبدالله بن كعب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَثَلُ المؤْمِنِ كالخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ : تُفَيِّؤُهَا الرِّيحُ مَرَّةً ،وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً. وَمَثَلُ المُنَافِقِ كالأَرْزَةِ لا تَزَالُ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً ".(١)

فالحديث يوضح حال المؤمن حين تصيبه النكبات المتتابعات في نفسه وأهله وماله فيواجهها بقوة نفسٍ وصبر ويقين ، فلا تتهدم نفسه ،ولا يصيبه الخور والعجز في إيمانه ،لأن له روحاً تمتد لتتصل بالله ،ويعلم أن ما يصيبه هو خير مدّخر له ليوم القيامة ،وأن ما يصاب به كأنه عطاء من الله . أما الكافر الفاجر فهو قليل الإبتلاء ، وإن أُصيب بشيء لم يكّفر عنه سيئاته بل يزيده كفراً ،ومع ذلك فإن الله ميسر له في دنياه حتى إذا أخذه لم يفلته ،فتتهدم نفسه لفقده ما كان

---

(١) صحيح البخاري : ١٤٩/٧.

يرجوه من الدنيا التي هي أكبر همه ومبلغ علمه ،وعندئذ لا يجد سوى الهرب والانقسام على النفس . وهذا الإنتحار السائد في المجتمعات الكافرة هو الانجعاف في الأثر النبوى الشريف . وانظر إلى قوله عليه السلام " حتى يَقْصمها اللّه إذا شاء " وفي رواية " حتى تُسْتَحْصَد " فهي تعبير عن نهاية هؤلاء الضالين ،ثم انظر إلى القلع والنزع والعصف الذي يؤول إليه الكافر .

* * *

ومن المقاصد التي جاءت في كلامه صلى الله عليه وسلم في أسلوب التمثيل بيان أثر المجالسة في عدوى الطباع . ومعروف أن النفس الإنسانية تتأثر بمحيطها من أي نوع كان ، والجليس الصالح هو من ترتاح النفس له ،ويطمئن القلب إليه ،سواء كان صاحب علم أو ورع أو من أهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق ، فهذا لا يُعْدم نفعه ،أما في مسألة دينية أوانتفاع بعلمه ، وحكمته ونصحه ،أو سماع حديث يذهب ضيق النفس فكل ما يصدر عنه طيب .

ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "مَثَلُ جَلِيسِ الصَّالِحِ والسَّوْء كحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ ،فَحَامِلُ المِسْكِ ،إمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ ، وإمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وإمَّا أن تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً . وَنَافِخُ الكِير ، إمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وإمَّا أن تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً "(١) . والجليس السوء هو الذي يتأذى به

---

(١) المصدر السابق : ١٢٥/٧ .

الآخرون . وما أكثر أصناف هذا النوع ممن ينشرون أنواع السموم والأذى ، ويبثونها داخل الجماعات المؤمنة ، فتنبعث من صدورهم نار يحرقون بها من حولهم ، ويقضون على مواطن الخير والصلاح في النفس. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستشعر أهمية هذه المجالس في تكوين الفرد ومن ثَم المجتمع فيقول "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل" ويحث على مجالسة أهل العلم وذوي الرأى والسداد الذين تحيا بهم القلوب كما تحيا الأرض بوابل المطر . والحديث يحمل كثيراً من المعاني الجليلة من خلال هذا الأسلوب و هذه الصورة.

وتلتقي هذه الأحاديث لتحدد معالم الشخصية الإسلامية . فالمؤمن الخيّر في جميع عباداته وأخلاقه هو الذي يشتد عوده كلما نزل به أمر الله ، وهو الصابر المحتسب عند نزول القضاء ، وهو الجليس الصالح الذي ينشر عطره في المجالس ، وهو الذي يبلغ مكاناً من الفضل فيندر وجوده ، وكأنّها المرتبة العالية التي يصل إليها بعد كل الصفات السابقة . . . وهكذا فالتمثيل قد جاء في كلامه صلى الله عليه وسلم ليثبت جوانب الشخصية المؤمنة في أُطرها المتعددة.

* * *

ومن المعاني التي جاءت على طريقة التمثيل وصف أحوال المنافقين والكشف عن خبايا نفوسهم الخبيثة . من ذلك ما جاء في صفة قوم يخرجون من الإسلام ، ويتحللون منه بعد أن دخلوا فيه ، وأقاموا واجباته ، وأدوا فرائضه ، وأكثروا من نوافله ، فصاموا وصلوا وتصدقوا ، ثم حين خرجوا

منه لم يعلق بقلوبهم ولوقليل منه .جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه يقول " بَعَثَ عَلِيٌّ بن أبي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم من اليَمَن بِذُهَيْبَةٍ في أديمٍ مقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ من تُرَابِها ،قال : فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بين عيينة ابنِ بَدْرٍ ،وأقْرَعَ بن حابس،وزَيْدِ الخَيْلِ والرابعُ إمَّا عَلْقَمَةُ ،وإمَّا عامرُ بن الطُفيْل ، فَقَالَ رَجُلٌ من أصْحَابه كُنَّا نحنُ أحقَّ بهذا مِنْ هؤلاءِ .

فبلغ ذلكَ النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : ألاَ تأمَنُوني وَأنا أمينُ مَنْ في السماءِ ، يأتيني خبَرُ السَّماءِ صباحاً ومساءً ؟ قالَ : فقَامَ رَجُلٌ غائِرُ العَيْنَيْنِ ، مُشرِفُ الوَجنَتين ، ناشِزُ الجبْهَة ،كثُّ اللحْيَة ، مَحْلُوقُ الرأْسِ ،مُشَمَّرُ الإزار ، فقال : يا رسُولَ الله ، اتَّقِ اللَّهَ . قال : وَيْلَكَ أولَسْتُ أحَقَّ أهلِ الأرض أنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ ؟ قال : ثمّ ولّى الرَّجُلُ . قال خالدُ بن الوَليد : يا رَسُولَ اللّهِ ألا أضْرِبُ عُنقَهُ ؟ قال : لا لَعَلَّهُ أنْ يكُونَ يُصَلّي . فقال خالدٌ : وَكَمْ من مُصَلٍّ يقُولُ بلِسانِه ما ليس في قلبِهِ . قال رَسُول الله صلى الله عليه وسلم "إنِّي لمْ أُومَرْ أنْ أنقُبَ قُلوبَ الناس ولا أشُقَّ بُطُونَهُمْ . قال : ثم نَظَرَ إليه وهو مُقَفٍّ فقَالَ : " إنَّهُ يَخْرُجُ من ضِئْضِئِ هَـذا قومٌ يتْلُونَ كتابَ الله رَطْباً لا يُجاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّة . وأظُنُّهُ قال " لئن أدْرَكتُهُمْ لأقْتُلَنهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ ".(١)

فالتمثيل جاء ليكشف مبلغ تحلل هؤلاء القوم من الدين ،

---

(١) صحيح البخاري : ٥/٢٠٧ .

على الرغم من الصفات التي كانوا عليها . انظر إلى قوله عليه السلام وهو يصفهم " يتلون كتاب الله رطباً لا يتجاوز حناجرهم " ورطوبة اللسان تستدعي جريان الألفاظ سهلة رخوة ،وقد استعيرت للقراءة فدلت على مرونته وسهولته في النطق ،وذلك يعني أنهم مواظبون على قراءة القرآن ،ومعنى " لا يجاوز حناجرهم " أى لا يتمكن من قلوبهم لأنه لا يتجاوز النطق بالحروف ، يقول العيني في ذلك " معناه لا ترفع في الاعمال الصالحة ،ولا تقبل منهم التلاوة ،وقيل لم يتمكن من قلوبهم شيء كثير من اليقين ،وإنما يحفظونه بالألسن وهي مقاربة للحناجر فَنُسِبَ إليها "(١) وفي الحديث إشارة إلى عدم تحكيم الظاهر وأن أهم ما في هذا الدين هو القلب ،وجوهر الإنسان فالله لا ينظر إلى صوركم ولا أجسامكم إنما إلى قلوبكم . وقد أكد عليه السلام أمر تحللهم من الإيمان تحللاً كاملاً بهذا الأسلوب .

* * *

ويأتي التمثيل في بيان حالة التمزق النفسي والحيرة والاضطراب التي عليها المنافق فهو يبذل جهداً جهيداً في سبيل الكيد لهذا الدين ، ثم لا يعود عليه ذلك إلا بالذل والحقارة ،وقلة الشأن بالإضافة إلى أنه لا يحصل على أى منفعة . وفي ذلك دلالة على جهله وغفلته وغباوته وضآلة شأنه .

---

(١) عمدة القاري : ١٨/٩ .

ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إلى هذه مرةً وإلى هذه مَرَّةً ".(١)

ولنتأمل قوله " تعير إلى هذه مرة " وما فيه من أن المنافق ساقط ليس له مكان يذكر فيه بخير، ولا فئة ينسب إليها. وقد أبان القرآن الكريم عن أخفى ما في صدورهم من حقد وغلّ، وأبان عن خداعهم وحقارتهم في آيات كثيرة جاءت بأسلوب التمثيل وغيره.

---

(١) صحيح مسلم : ١٢٨/١٧.

٣ - التمثيل في باب العبادات

يكثر أسلوب التمثيل في باب العبادات ، فهي تطهر المؤمن ، وتزكي نفسه ، وتطفيء ذنوبه ، من صلاة دائمة ، أو صدقة يبتغي بها وجه الله ، أو مداومة قراءة القرآن وتلاوته ، أو دعاء وذكر لله تحيا به النفس وهي خمسة أحاديث .

الحديث الأول أتى لبيان أثر الصلوات الخمس على المؤمن .

فالصلاة تلو الصلاة - تلو الصلاة .. وهكذا خمس مرات في اليوم تزيل وتذهب ما يَعْلَقُ بقلب المؤمن من هفوات وصغائر وخطايا تصيبه وهو يعيش حياته .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْساً ماتقول ذلك يبقى منْ دَرَنِهِ ؟ قالُوا : لا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شيئاً . قال : فَذلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللّهُ بِهِ الخَطايا ".(١)

ويذكر ابن حجر أن الصلوات الخمس تكفّر مابينها في ذلك اليوم إذا اُجْتُنِبَتْ الكبائر فيه فهي كفارة لصغائر الذنوب و ليست كبائرها ،(٢) ثم يذكر قول ابن عربي ومفاده أن الصلوات تكفر كل الذنوب لا فرق بين صغائرها وكبائرها يقول " إن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة

---

(١) صحيح البخاري : ١/١٤١ .

(٢) انظر فتح الباري : ٢/١٢ .

في بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير كذلك الصلوات تطهر العبد من أقذار الذنوب حتى لا يبقي ذنباً الا أسقطته ".(١)

وإذا عمقنا النظر تجد أن الصلاة لا تكفر الذنوب فحسب ، بل تحيي القلب و تنقي الباطن من شهوات النفس ،وهذا ما يُنْتَزَعُ من قوله عليه السلام " نهر يغتسل منه ".

* * *

ويأتي التمثيل في بيان فضل قراءة القرآن الكريم وأثره على قلوب الناس ، فالمؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به نقي الباطن ، جميل الظاهر ، لأن القرآن يقتل الشهوات ،وشرور النفس ،ثم أن هذه النفس تتشرّب بمعاني القرآن ، و تتغذى بالشمائل الربانية ،فتصير نبعاً فياضاً من العطاء الإيماني ، وهذا الصنف تتآلفه القلوب والفطر السليمة ، والنفوس الصحيحة ،وتستمد منه غذاءها ، فلا تزال عيناً ثرة تمد الوجود بأعذب العطاء النافع .

جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مَثَلُ الذى يَقْرَأُ القرآن كالأُتْرُجَّةِ طَعْمُها طَيِّبٌ وَ رِيحُهَا طَيِّبٌ "..

فهذا هو الصنف الأول لقارئ القرآن . أما الصنف الثاني فهو

---

(١) المصدر السابق : ٢/ ١١-١٢ .

المؤمن الذي لا يتلو القرآن ولا يتزين به في ظاهره ، ولا يواظب على قراءته ، فهذا هو المؤمن الضعيف . يقول عليه السلام " والذي لا يَقْرأُ القرآن كالتَّمْرَةِ طَعْمُها طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا . . . " وفي تحديد أصناف المؤمنين إشارة إلى اختلاف أحوال القلوب في تلقي الإيمان ، فالصنف الأول هم العلماء الذين يزدادون بالعلم خشية لله ، فيزدادون إيماناً مع إيمانهم . والصنف الثاني هو مؤمن بالله لكنه لا يحرص على إكمال دينه . وكأنّ هذا الحديث يمت بصلة إلى قوله صلى الله عليه وسلم " كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء . .

وهذا التلاحم بين هذه الأصناف في هذه الأحاديث ، يجلي حقائق المؤمنين ويُبين درجاتهم في مراقي الإيمان . أما الصنف الثالث فهو المنافق الذي يُبْطن خلاف ما يُظْهر ، فهو يقرأ القرآن لكنه لا يتأثر به ، ولا يعمل بما فيه ، ولا يقرأ إلّا ليقال إنّه قارئ ، فهو يحمل مظهراً جميلاً يزينه القرآن لكن داخله أجوف خاوٍ من تعاليمه ونوره وقبساته ، ويتلاحم هذا الحديث مع قوله عليه السلام في حديث الخارجين من الإيمان " إنّ من ضئضئ هذا - أوفي عقب هذا - قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية " .

ثم هناك الكافر - الصنف الرابع - الذي لا يؤمن بالله ولذلك فهو لا يقرأ القرآن ولا يؤمن به ، وهذا له ظاهر خبيث وباطن أشد خبثاً .

قال عليه السلام " وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ القرآن كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ

رِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لا يَقْرأُ القرآن كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ ، وَلاَ رِيحَ لَهَا ". (١)

ونلاحظ أن وجه الشبه في الحديث منتزع من أمرين محسوسين طعم وريح .

* * *

ومن المعاني التي جاءت في البيان النبوي مُعَبِّرًا عنها بأسلوب التمثيل بقاء أثر القرآن في نفس المؤمن ، وذلك بالمداومة على حفظه وتعهده بالمدارسة ، والاستمرار على تلاوته ومراجعته حتى لا ينساه ، وحتى يبقى أثره حياً في القلوب ، لأنه أنفس ما يمتلكه في دنياه لدينه ، فمنه يستقي منهج حياته ، وفيه ملاذه حين يلتقي بربه .

جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كمثل صاحب الابل **المُعَقَّلَة** ، إِنْ عاهَدَ عَلَيْها أَمْسَكَهَا وإِنْ أَطْلَقَها ذَهَبَتْ " (٢)

* * *

ويتناول التمثيل نماء الصدقات وقبولها ، فالمؤمن حين يتصدق بصدقة - مهما قلت - فإن الله يتقبلها ويتعهدها ، ويضعها موضع

---

(١) صحيح البخاري : ٦/ ٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق : ٦/٢٣٧-٢٣٨ .

رعاية منه ،ولا يزال يضاعفها لصاحبها أضعافاً مضاعفة كنسبة ما بين التمرة إلى الجبل ،وهذه الصدقة القليلة التي اكتسبت نعت الكمال لا بد أن تكون من كسب طيب .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إلاّ الطَّيِّبَ - وإنَّ اللهَ يَتَقبلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبِهِ كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّىٰ تَكُونَ مثلَ الجَبَلِ ".(١)

انظر إلى قوله "يربي أحدكم فلوه" وما فيها.ويذكر النووي وجه المعنى في الحديث فيقول " إن المراد بذلك تعظيم أجرها وتضعيف ثوابها ، ويصح أنْ تكون على ظاهره ،وأن تعظم ذاتها ،ويبارك اللهُ فيها ويزيدها من فضله حتى تثقل في الميزان"(٢) فالمضاعفة عند النووي لها معنى ثانٍ . فهي مضاعفة حسية .

* * *

ويأتي أسلوب التمثيل في بيان عظم الآثار التي يُحَصِّلها المؤمن حين ينفق المال ويبذله برضاء نفس ،وسعة يد ،أما البخيل الكنود فلا يُحَصِّل شيئاً من المنافع ، كما تهدف صورة التمثيل إلى وصف دواخل كلٍ من المنفق والبخيل ،فتبين أن مال المنفق يزداد ويُضَاعَفُ بالصدقة ،

---

(١) المصدر السابق ٢/١٣٤ .

(٢) صحيح مسلم ٧/٩٩ .

فهي تستره في الدنيا ،وتقي عرضه مما يرمي به البخلاء ، كما أنه مغفور الذنوب محي الآثام ،ثم إنّه يتغلب بها على هوى نفسه فيعتاد البذل والإحسان والإنفاق في وجوه الخير.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " مَثَلُ البَخِيلِ والمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إلى تَرَاقِيهِمَا . فأَمَّا المُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ -أَوْ وَفَرَتْ - عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِي بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ . وأَمَّا البَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَتَّسِعُ ".(١)

وتتداخل صورة المشبه في المشبه به في هذا التمثيل ،وتمتزج فتصير وحدة متكاملة يفهم منها وجه الشبه المقصود .

والبخيل في الحديث لا يُثَابُ ثواب المتصدق ،ولا يُبارك له في ماله ،ثم هو مفضوح في الدنيا والآخرة عُرِفَ بالبخل والشح فلا يحمده أحد .

وقد تعددت آراء علماء الحديث حول المراد من وفور الجبة في الحديث يقول ابن بطال " يريد أن المنفق إذا أنفق كفّرت الصدقة ذنوبه ومحتها " . ويقول الطيبي " شبّه السخي إذا قصد التصدق يسهل عليه بمن عليه الجبة ويده تحتها ، فإذا أراد أن يخرجها منها يسهل عليه والبخيل على عكسه " وقال المهلب " المراد أن الله

---

(١) صحيح البخاري : ٢/ ١٤٣ ،انظر وحي القلم ،الرافعي : ٣/ ١٣-١٤ .

يسر المنفق في الدنيا وفي الآخرة بخلاف البخيل فإنّه يفضحه ، ومعنى تعفو أثره تمحو خطاياه " واعترض عليه القاضي عياض بأن الخبر جاء على التمثيل لا على الإخبار عن كائن ، وقيل هو تمثيل لنماء المال بالصدقة ، وقد ذكر العيني كل هذه الآراء (١) ، ونلاحظ أن كل رأي يُركّز على جهة من الجهات التي ذكرها ، فابن بطال يزيد بوفور الجبة محو الذنوب ، والطيبي يريد سعة اليد والعطاء ، والمهلّب الستر في الدنيا والآخرة ومحو الخطايا ، والآخر نماء المال . وبهذا تتعدد الآراء ويتسع المعنى في الحديث . والمنفق الذي أراده الرسول عليه السلام هو كل هؤلاء ، فما من منفق مفضوح في دنياه ، وما من منفق غلت يداه ، وما من منفق تكاثرت ذنوبه وعظمت .

ونقول قد يكون المراد باتساع الجبة اكتمال الإيمان في النفس بدليل حديث أبي سعيد الخدري يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بَيْنَا أنا نائمٌ رأيتُ النّاسَ يُعْرَضُونَ عليَّ وعليهم قُمُصٌ مِنْهَا ما يَبْلُغُ الثُّدِيَّ وَمِنْهَا ما دُونَ ذلك ، وَعُرِضَ عليَّ عمر بن الخطاب وعليه قَمِيصٌ يَجُرُّهُ ، قالُوا : فما أوَّلْتَ ذلِكَ يا رسول الله قال الدِّينَ " (٢)

* * *

---

(١) عمدة القاري : ٨/ ٣٠٩ .

(٢) صحيح البخاري : ١/ ١٢ .

ويأتي التمثيل في بيان بشاعة الرجوع في الصدقة بعد إخراجها ، فالمرء من حين يتصدق لا يبتغي من وراء ذلك سوى وجه الله وثواب الآخرة ولا بد أن يخرجها عن قناعة نفس وسخاء يد ،ولا يحاول استرجاعها حتى ولو كان ذلك شراءً ،لأن فيه طعناً في عرضه ومن ثَم مروءته ، ومن ثَم دينه ،فهو أمر مستقبح منفر ، ولذلك فقد نهى الرسول عليه السلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شراء الفرس التي وهبها لرجل ليجاهد بها في سبيل الله ، ولم يستطع أن يُحْسِن رعايتها والقيام عليها فأراد بيعها دون قيمتها ، ولما علم بذلك عمر أراد أن يشتريها ،ويقال إنها كانت في الأصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهداها إليه تميم الداري فأعطاها عليه السلام لعمر.(١)

جاء في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : "حملتُ على فرسٍ في سَبيلِ اللّه ،فأَضاعَهُ الّذي كانَ عِنْدَهُ ، فأَرَدْتُ أنْ أشْتريَهُ مِنْهُ ،وظَنَنْتُ أنّهُ بائِعُهُ برُخْصٍ فسألْتُ عن ذلِكَ النّبي صلى الله عليه وسلم فقال : " لا تَشْتَرِهِ - وإنْ أعطاكَهُ بدِرْهَمٍ واحِدٍ ، فإنَّ العائدَ في صَدَقَتِهِ كالكَلْبِ يعودُ في قيئِهِ ".(٢)

وفي الحديث حرص منه عليه السلام على أن يبقى موضع المدح والذم في الإنسان نقياً نظيفاً بمنأى عن الألسن التي تنقب الأعراض وعن الخسة واللؤم التي يوصف بها إن وهب ثم استرجع.

* * *

---

(١) انظر فتح الباري ،ابن حجر : ٣/٣٥٣.

(٢) صحيح البخاري : ٣/٢١٥.

ويأتي التمثيل في بيان أن ذكر الله فيه إحياء للقلوب ،وهداية للنفوس وطمأنينة ،قال تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾.(١)

فالمؤمن حين يداوم على الدعاء والذكر يظل قلبه حياً ،ونفسه يقظة فيؤدي دوره في المجتمع الإيماني على أكمل وجه ،وكأن دفقات الحياة تنبثق من قلبه لتشع على المكان الذي هو فيه ،وعلى الأشياء من حوله . والذي لايذكر الله يظلم ظاهره وباطنه ، وتعطل حواسه عن التفكير في مخلوقات الله ، فيخرب داخله ،وتتخطفه الهواجس ، والهموم ،ويتمكن الشيطان منه .

ففي البخاري عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكُرُ مثلُ الحيِّ والميِّتِ ".(٢)

وفي رواية مسلم " مَثَلُ البَيْتِ الذي يُذْكَرُ اللَّهُ فيه ،والبَيْتِ الذي لا يُذْكَرُ اللَّهُ فيه مثل الحَيِّ والميِّتِ ".(٣)

---

(١) سورة الرعد : ٢٨ .

(٢) صحيح البخاري : ٨/١٠٧ .

(٣) صحيح مسلم : ٦/٦٨ .

٤ - التمثيل في بيان فضل المدينة

هي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبَةُ الطِّيبة الطاهرة التي آوت ونصرت أهل الإيمان ، ومنها شع نور الهداية فملأ أرجاء الدنيا . نالت قدسيتها بعد أن هاجر إليها النبي المصطفى ، فحرمتها كحرمة مكة ، وكان عليه السلام يدعو لها بالبركة والنصرة دائماً ، فهي حرم رسول الله ومهبط الوحي ومنزل البركات .

وقد جاء تأكيد فضلها وحرمتها في أسلوب التمثيل في كثير من الأحاديث بلغت ستة أحاديث ، كثير منها تشابهت عناصرها واختلفت معانيها .

ومعنى نفي المدينة لشرار الناس جاء في ثلاثة أحاديث وفي مناسبات متعددة . الحديث الأول يهتم بفضل المدينة وأثرها في الفتح الإسلامي ، ونشر الإيمان في القرى والمدن ومع ذلك فهي تخرج من خبثت نفسه ولا تُبْقِي فيها إلا المؤمن ، لأنها منبع الاسلام ومنطلقه ، وتنقيتها من الفساد والكفر أمر لازم .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تأْكُلُ القُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبَ ، وهي المَدِينة ، تَنْفِي النَّاس كما يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيد " (١) .

---

(١) صحيح مسلم : ٩/١٥٤ .

تأمل قوله " تأكل القرى" ومافيهامن معنى ، وقد كره رسول الله عليه السلام أن يقال لها يثرب لأنه من التثريب وهو الفساد والملامة وذلك لأن يثرب بن هذيل بن أرم وقومه نزلوا المدينة فعمّروها ثم أقاموا فيها زماناً فأفسدوا فأهلكهم الله ،وفي حديث ذكره العيني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى هي طابه ".(١)

* * *

والحديث الثاني جاء في بيان أن المدينة تُنقّي الناس كلٌّ بحسب إيمانه فمن صبر على ابتلاء الله بقي فيها ،ومن لم يصبر خرج منها ، فهي أرض طاهرة طيبة لا تقبل شرار الناس.

ففي الصحيحين عن جابر بن عبدالله أَنَّ أَعْرَابِياً بَايعَ رَسُولَ اللّه صلى الله عليه وسلم على الإِسْلامَ فَأَصَابَ الأَعْرَابِيَّ وَعْكٌ بالمَدِينَةِ ،فَأَتى الأَعْرَابِيَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللّه أَقِلْنِي بَيْعَتِي ،فَأَبى رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ،ثم جَاءَهُ فقال : أَقِلْنِي بَيعَتِي فَأَبى ، ثُمَّ جاءَهُ فَقَالَ : أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبى ، فَخَرَجَ الأَعْرَابِيُّ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنَّما المَدِينَةُ كالكير تَنْفِي خَبثَهَا وَيَنْصَعُ طِيبُهَا ".(٢) وفي رواية للبخاري " وتنصع طِيِّبهَا ".

---

(١) انظر عمدة القاري : ١٠/٢٢٧.

(٢) صحيح البخاري : ٩/٩٨.

وما دامت المدينة تنفي شرار الناس أو خبث الناس ،فهي كذلك تبرز طيبها بأفعاله الحميدة وقوة الإيمان والتقوى .

والمراد بالخبث هم أولئك الناس الذين آمنوا وصدقوا الرسول وهاجروا معه ثم خبثت قلوبهم ،وساءت نواياهم كهذا الأعرابي الذي عصى الله ورسوله وأراد الخروج من المدينة في وقت كانت الهجرة فيه واجبة على المؤمنين .

* * *

والحديث الثالث في بيان إخراج المنافقين الذين لم يثبتوا عند الشدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ،لأن قلوبهم مليئة بالحقد والكذب والخداع على الإسلام والمسلمين . ففي هذا الموقف تجلت سرائرهم الخبيثة .

ففي الصحيحين عن زيد بن ثابت رضي الله عنه يقول " لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ نَقْتُلُهُمْ وَقَالَتْ فِرْقَةٌ لا نَقْتُلُهُمْ فَنَزَلَتْ ﴿ فَمَالَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم "إِنَّهَا تَنْفِي الرِّجَالَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الحديدِ "(١) وفي رواية " خَبَثَ الفِضَّةِ ".

وقد بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من صدق إيمانه ،

---

(١) المصدر السابق : ٣/٢٩ .

وباع نفسه لله ورسوله . وفي الحديث معنى أن هذه الفئة قد فُتِنَتْ وامْتُحِنت وابْتُلِيَتْ بلاءً حسناً شديداً ، ووقفت موقفاً لا يصمد أمامه إلا القوي حتى صارت أهلاً لأن تُقيم بين الجماعة المؤمنة ،فيظهر إيمانها ساطعاً ، انظر وتأمل قوله " كما تنفي النار خبث الفضة " وتأمل قوله " خبث الفضة " وإشارتها إلى أن الناس قسمين ، قسم هم المؤمنون الأبرار الأخيار وهم الناس ، وقسم هم خبث الناس من فسدت طباعهم ، وفي وصف المؤمنين بالفضة دلالة على نفاسة معادنهم ،وصفاء جوهرهم.

* * *

وكما يأتي التمثيل لبيان نفي شرار الناس ، يأتي أيضاً لبيان أنها تجذب خيار الناس من خَلُصَ إيمانه ،وصدق يقينه ،يجلبهم إلى المدينة حب الإسلام و حب رسول الله ،وكما أن الإيمان خرج من هذه المدينة ، فإن القلوب لا تزال تهوى وتشتاق إلى هذا المكان.

ففي البخارى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إنَّ الإيمانَ ليَأْرِزُ إلى المدِينَةِ كما تأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِها ".(١)

ويُفَصِّل النووي المعنى من كلام القاضي عياض يقول "إن الإيمان يتصف أولاً وآخراً بهذه الصفة لأنه في أول الإسلام كان كل من خلص إيمانه وصح إسلامه ، أتى المدينة إمَّا مهاجراً أومستوطناً ،أو متشوقاً

---

(١) المصدر السابق : ٣/٢٧.

إلى رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومتعلماً منه و متقرباً . . . فكان كل ثابت الإيمان منشرح الصدر يرحل إليها ، ثم بعد ذلك في كل وقت إلى زماننا لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم والتبرك بمشاهده وآثاره ، وآثار أصحابه الكرام فلا يأتيها إلّا مؤمن ، هذا كلام القاضي والله أعلم بالصواب ".(١)

وقد يُراد أن الإيمان كما خرج من المدينة وانتشر منها في أول الزمان ،فإنه بعد أن يضعف يضعف أهله سيلجأون إلى المدينة فراراً بدينهم فلا يبقى فيها إلّا المؤمنون الخائفون على دينهم.

* * *

ويأتي التمثيل في بيان أن من أراد المدينة وأهلها بسوء فإن الله سيهلكه ويفنيه فلا يُبْقِي منه باقية ،لأنّ الاعتداء عليها اعتداء على الدين ،وعلى حرمة الإسلام ،فالله تعالى مؤيدها وحافظها ،فمنها خرج الإسلام ، وفيها كثير من العلماء ممن وَقَرَ علمهم ،وصفت قرائحهم ، ومن أعلن فيها الحرب فقد أهلكه الله و محاه ،كما فعل بمسلم بن عقبة حين اعتدى على المدينة أهلك فور خروجه منها .

فعن أبي هريرة أنه قال : قال أبوالقاسم صلى الله عليه وسلم " من أراد أهل هذه البلد بسوء " يَعْني المدينة " أَذَابَهُ اللّه كما يَذُوبُ المِلْحُ في المَاءِ ".(٢)

* * *

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم: ٢/ ١٧٧.

(٢) صحيح مسلم : ٩/ ١٥٧.

ويلحق بأحاديث فضل المدينة حديث يبين فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرة الفتن التي سوف تحل بالمدينة بعد موته ، وأنها ستكثر وتسلك مواطن الخور في النفوس الضعيفة ،ولا تضعف النفس إلا إذا ضَعُفَ إيمانها .

ففي البخاري عن أسامة بن زيد قال أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أُطم منْ آطَام المدينة فقال " هَلْ تَرَوْنَ ما أَرَى ،إنِّي لأَرَى مَواقِعَ الفِتَنِ خِلَالَ بُيوتِكُمْ كمَوَاقِعِ القَطْرِ ".(١)

---

(١) صحيح البخاري ٣/٢٨ .

٥ - التمثيل في بيان أحوال اليوم الآخر

جاءت بعض أحوال اليوم الآخر بأسلوب التمثيل في كلامه صلى الله عليه وسلم، ولما كان أمرها لم يحدث بعد، فان أسلوب التمثيل يجليها ويوضحها لتدركها النفس وهي من باب قياس الغائب على الشاهد. ووصف الأحوال والإحاطة بها لا تدرك باللغة المجردة كما تدرك بلغة التمثيل، وقد جاءت في ثلاثة أحاديث.

ويأتي التمثيل هنا على طريقة الخطيب القزويني حيث تشبه هيئة مركبة محسوسة ستقع بهيئة مركبة، وهذا خلاف ما عليه الأغراض السابقة التي جاءت على طريقة عبد القاهر الجرجاني حيث تشبه معاني عقلية بصور حسية ، ووجه الشبه مؤولاً.

فالحديث الأول جاء في بيان جزاء المؤمنين الذين حَسُن إيمانهم وصدقوا المرسلين.

ففي البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " إِنَّ أَهْلَ الجنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كما يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ مِن المَشْرِقِ أوالمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ ما بَيْنَهُمْ ،قالوا : يا رَسولَ اللهِ ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ ، قال : بلَى والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ ".(١)

---

(١) صحيح البخاري : ٤/١٤٥.

والغرف أعلى مراتب الجنة يبلغها المؤمنون الذين تبوءوا الدار والإيمان ، فهم صفوة البشر ، والرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث يبين تفاوت مراتب أهل الجنة بحسب مكانهم من الفضل ، فأهل الإيمان يتبوءون الغرف العالية ، حتى إن عامة أهل الجنة ينظرون إليهم وإلى منازلهم العالية، فيرون تلألؤ غرفهم وفرط نورها وضيائها وحسنها ، ولما كانوا في الدنيا من صفوة الناس بما تنطوي عليه صدورهم من التقوى وخشية الله يتراءون في الآخرة كذلك صفوة الناس بما أعد لهم من رفعة وتكريم ونعيم مقيم .

قال القرطبي في تفسير معنى "بلى" (هذا الحرف " بلى " التي أصلها حرف جواب وتصديق وليس هذا موضعها لأنهم لم يستفهموا وإنما أخبروا أن تلك المنازل للأنبياء عليهم السلام لا لغيرهم ، فجواب هذا يقتضي أن تكون " بل " التي للإضراب عن الأول وإيجاب المعنى الثاني فكأنه تسومح فيها فوُضِعَتْ " بلى " موضع " بل ") (١) فهم ليسوا الأنبياء إنما هم رجال صدقوا المرسلين " وقد ذكر العيني قول القرطبي هذا .

* * *

ومن أحوال اليوم الآخر التي جاءت بأسلوب التمثيل دفع الرسول صلى الله عليه وسلم رجالاً عن حوضه يوم القيامة ومغالبتهم

---

(١) عمدة القاري : ١٥٩/١٥ .

حتى لا يشربوا منه حين يشتد العطش بالناس ، فيتهافتون على حوضه فلا يشرب منه إلاَّ مؤمن ،فلا يزال يدفعهم ويمنعهم ويُجْهِد نفسه في ذلك ، فيغالبون الرسول فيغلبهم ،وهم في ظمأ حارق ،وعطش شديد وأمامهم الماء العذب .

جاء في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُذُودَنَّ رِجالاً عَنْ حَوْضِي كما تُذَادُ الغَرِيبَةُ مِن الإِبِلِ عَنِ الحَوْضِ ".(١)

* * *

ويأتي التمثيل في تجلية صورة من صور عذاب يوم القيامة ،حين يجد من يأمر بالمعروف ولا يأتيه ، وينهى عن المنكر ويأتيه جزاءه يوم القيامة حيث يُفْتَضَح سره ،ويظهر باطنه المشوه المقيت على أبشع صورة وأحقر هيئة. فتنشق بطنه وتندلق أمعاؤه ،فيدور بها حول نفسه . وهذه صورة مخوفة لجزاء ذنب كان منه في الدنيا ، فهو قد حمل العلم الشريف لكنه غفل عنه ،وتبلدت حواسه عن إدراك نفعه ـ فأعاذنا الله من فساد الباطن ـ

ففي البخاري أنه قِيلَ لأُسامةَ لَوْأَتَيْتَ فُلَانًا فَكَلَّمتَه قال : إنَّكُمْ لَتَرَوْنَ أنِّي لا أُكَلِّمُهُ إلاَّ أُسْمِعُكُمْ إنِّي أُكَلِّمُهُ في السِّرِّ دُونَ أنْ أَفْتَحَ

---

(١) صحيح البخاري : ١٤٧/٢ .

بَاباً لَا أَكونُ أَولَ من فَتَحه ، وَلَا أَقولُ لِرجُلٍ أَنْ كانَ عليَّ أميراً إِنَّه خيرُ النَّاسِ بعدَ شيءٍ سمعتُه منْ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قالُوا : وَما سَمِعْتَه يقولُ؟ قالَ : سمعته يقولُ يجاءُ بالرَّجُلِ يومَ القيامةِ فيُلقَى في النَّارِ فتندلِقُ أقتابُه في النَّارِ ،فيدورُ كما يدُورُ الحمارُ برحاهُ فيجتمِعُ أهلُ النَّارِ عليهِ فيقولونَ أيْ فلانُ ما شأْنُكَ : أليسَ كُنتَ تأْمُرُنَا بالمعْرُوفِ وَتنهى عَنِ المُنكرِ، قال : كُنتُ آمُرُكُم بالمعرُوفِ ولا آتيه وأنهاكُمْ عن المُنكرِ وآتيه ".(١)

وقد أراد الصحابة رضوان الله عليهم من أسامة بن زيد أن يكلم عثمان بن عفان - وكان من خاصته وممن يخف عليه - بشأن الوليد ابن عقبة لأنه كان قد ظهر عليه ريح نبيذ وشهر أمره ،وكان أخا عثمان لأمه ، وكان يستعمله ،فقال أسامة : قد كلّمته سراً دون أن افتح باباً أى باب الإنكار على الأئمة علانية خشية أن تفترق الكلمة ثم عرفهم أنه لا يداهن أحداً ولو كان أميراً بل ينصح له في السر جهده .(٢)

---

(١) المصدرالسابق : ١٤٧/٤ .

(٢) انظرفتح الباري ، ابن حجر ٥٢/١٣ .

٦ - التمثيل في موضوعات مختلفة

ويأتي أسلوب التمثيل للإبانة عن موضوعات مختلفة لا تكاد تضبط تحت غرض واحد .

فمن أغراضه بيان خطر ممارسة الشبهات التي تكون سبباً في الوقوع في المعاصي والمحارم ، فلا بد أن يترك المؤمن حداً بينه وبين الحرام ، يأمن به على نفسه من الوقوع في المحارم ، لأنه قد يقارب محارم الله فعندئذٍ لا يملك القدرة على ردع نفسه ،وجذبها من الوقوع فيما نهي الله .

ففي الصحيحين عن النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " الحَلالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُها كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهاتِ اسْتَبرأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ كَراعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يُواقِعَهُ ،ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، ألا إنَّ حِمى اللهِ في أرْضِهِ مَحارِمُه ".(١)

ويصف ابن حجر المراحل التي يمر بها مرتكب الشبهة حتى يواقع الحرام " ولا يخفى أن المستكثر من المكروه تصير فيه جرأة على ارتكاب المنهي في الجملة أو يحمله اعتياده ارتكاب المنهي غير المحرم على ارتكاب المنهي المحرم ،إذا كان من جنسه أو يكون ذلك لشبهة فيه ،وهو أنَّ من تعاطى ما نُهي عنه يصير مظلم القلب لفقدان نور الورع ، فيقع في الحرام ،

---

(١) صحيح البخاري : ١/ ٢٠ .

ولو لم يختر الوقوع فيه "(١) وتتنوع صنوف الحرام التي يقع فيها من حيث لا يدري ، فقد يقع في مال أو عرض أو ما شاء مما حرّم ربه ، فلا بد أن يكون المؤمن ورعاً متنبهاً لمثل هذه السقطات .

* * *

ويأتي التمثيل في بيان موقف القائمين على أمر الله من عصاة المجتمع فالله تعالى قد خلق الناس طبقات ،وهذا التقسيم لا يقوم على أساس الغنى والوجاهة والسيادة ،انما على أساس من الإيمان والتقوى ،فأهل الإيمان هم في العلو والرفعة ،وهم القوة الحقيقية .

ففي الصحيحين عن النعمان بن بشير قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَثَلُ المُدْهِنِ في حُدُودِ اللهِ والوَاقِعِ فيهَا مَثَلُ قَوْمٍ استَهَمُوا سَفِينَةً فَصَارَ بَعْضُهُمْ في أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ في أَعْلاهَا ، فكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالمَاءِ عَلَى الَّذِينَ في أَعْلاهَا فَتَأَذَّوْا به ، فَأَخَذَ فَأْساً فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا : مَالَكَ ؟ قالَ : تَأَذَّيتُمْ بي ،وَلاَ بُدَّ لِي مِنَ الماءِ ، فإنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوا أَنْفُسَهُمْ ،وإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ ".(٢)

وكأنّ التمثيل الشريف يقول: على علماء هذه الأمة أن يحافظوا على دين الأمة وعقلها وفكرها بأن يظلوا يقظين لمن يريد الإخلال

---

(١) فتح الباري ١/١٢٧-١٢٨ .

(٢) صحيح البخاري ٣/٢٣٧- ٢٣٨ .

بالتوازن الإيماني ، فإذا أراد عصاة الأمة أن يستبيحوا محارم اللّه باسم حرية الرأي ،فعلى العلماء آنذاك أن يهبوا ليمنعوا الفساد ،ويضربوا على أيدي المفسدين ،وما داموا مؤمنين فهم القوة التي يتحقق بهم سلامة المجتمع ،وإن هم أهملوا حق القيام بالحراسة ،وتسامحوا في صغائر الأمور استشرى الفساد ،وتهدمت ضوابط النفس وأوشك أن يحيط عذاب الله بالكل . ومهما أَجْتَهَدْتُ في بيان مضمون هذا التمثيل الشريف فلن يكون بياني وافياً ، لأنك لا تُحَصِّل المعنى المقصود إلا إذا جعلت صورة القوم الذين استهموا على السفينة ،وأحكمت تصور قصتهم ، وأجتهدت في أن تُنْطِقَ هذه الصورة بما تحويه من قصة لأنَّ المعنى المقصود ماثل فيها .

* * *

ومن معاني التمثيل بيان موقف الناس من بركات الأرض وخيراتها حين تفتح عليهم .

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخُدْري يقول قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فَخَطَبَ الناس فقال "لا واللّهَ ما أَخْشَى عليكُمْ أيهُّا النَّاسُ إلاَّ مَا يُخْرِجُ اللّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيا . فقال رَجُلٌ : يا رَسُولَ الله أيأتي الخَيْرُ بالشَّر ؟ ، فَصَمَتَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم سَاعَةً ثم قَالَ : كَيفَ ـ قُلْتَ : قَالَ : قُلْتُ يا رسُولَ الله أيأتي الخيْرُ بالشّر . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ الخَيْرَ لاَ يَأْتِي الا بِخَيْرٍ أو خَيْرٌ هُوَ إنَّ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الربيعُ يقْتُلُ حَبطاً أو يُلِمُّ إلاَّ آكِلَةَ الخَضِر

أَكَلَتْ حتى إذا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ ثَلَطَتْ أَوْ بَالَتْ ثم اجترت فَعَادَتْ فَأَكَلَتْ . فَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فيه ، وَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ » (١) .

وبركات الأرض تشمل كل ما يشغل النفس عن كمال الإقبال على الآخرة ، فمن أقبل على معطيات هذه الدنيا وخيراتها فعَّب منها دون تعقل ، ونسي في حمأة إعجابه وانبهاره مواضع الضرر فيها ، فاندفع نحو المغريات بقوة الرغبة وعراقة الشهوة ، ولم يعلم أنه أساء التصرف أهلك نفسه وانتكس .

أما الصنف الثاني الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من اقتصد في التعامل مع هذه الخيرات ، وفطن إلى وجوه أخذ المال والإنتفاع به كما فطن إلى وجوه تصريف المال ثم اختار لنفسه منهجاً دقيقا ومسلكاً سهلاً ، ينفق من خلاله دون أن يتضرر به .

والرسول عليه السلام - في هذا الحديث - يحذر الصحابة من إساءة التصرف بنعم الدنيا ، ولما كان هذا التحذير مستغرباً فقد استخدم أسلوب التمثيل ليجلي الحقائق ويقررها ، ثم ينتقل عليه السلام ليتحدث عن موقف الإنسان من المال الذي بين يديه ، فيبين أن المؤمن الحق هو من اكتسب هذا المال من طرق مشروعة ، ثم ينفقه في وجوه الخير ، فيعطي اليتيم والمسكين وابن السبيل ، أما من يكتسبه من غير حله ،

---

(١) صحيح مسلم : ١٤١/٧ .

فإنه يظلّ متعطشاً له أبداً فينظر إلى طلب المزيد منه من أيدي الناس فلا يشبع ،وقد استنبط علماء الحديث كثيراً من المعاني من هذا الحديث، وتعددت وجهات النظر فأخذوا منه ما أخذوا وتركوا منه ما تركوا ، فمنهم من قال إنّ في الحديث ثلاثة تشبيهات و منهم من قال أربعة، ومنهم من استخرج منه ثمانية تشبيهات . . .وهكذا (١)

أما ابن حجر فيقول "يؤخذ من الحديث التمثيل لثلاثة أصناف، لأنّ الماشية إذا رعت الخضر للتغذية ، إمّا أن تقتصر منه على الكفاية، وإما أن تستكثر . الأول : الزهاد ، والثاني : إما أن يحتال على إخراج ما لو بقي لضر ، فإذا أخرجه زال الضر واستمر النفع ، وإمّا أنْ يهمل ذلك ، الأول : العاملون في جميع الدنيا بما يجب من إمساك وبذل ، والثاني : العاملون في ذلك بخلاف ذلك ".(٢)

* * *

ويأتي التمثيل في بيان نقاء الفطرة التي يولد عليها الإنسان ، مبرأ من كل انحراف ،مؤمناً بوحدانية الله ،ثم يقوم الأبوان بالحاقه بأحكامهما . فيهودانه أو ينصرانه أويمجسانه ، فالانحراف عن الفطرة والشذوذ عنها يكون من عمل الإنسان ، لأنّ الله لم يخلق أحداً لمعصيته والكفر به .

---

(١) انظر فتح الباري ،ابن حجر : ٢٤٨/١١.

(٢) المصدر السابق : ٢٤٨/١١.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتِجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ ".(١)

يقول ابن حجر في معنى الحديث ، نقلاً عن الطيبي " والمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة ،والتهيؤ لقبول الدين ، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها ،لأنّ حُسْنَ هذا الدين ثابت في النفوس ،وإنّما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد ".(٢) وهذا المعنى مستنبط من عناصر التمثيل وصوره . كما يذكر العيني رأياً يختلف عن المعنى الأول يقول "وقال قوم الفطرة هنا الخلقة التي يخلق عليها المولود من المعرفة بربه ،لأنّ الفطرة الخلقة من الفاطر الخالق ،وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة وإنكار وإنّما يولد المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعاً وبنية ليس فيها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ثم يعتقدون الإيمان أو غيره إذا ميزوا ".(٣) وهذا الرأي قد فُهِمَ من قوله " كما تُنْتِجُ البهيمة " فهي تلد البهيمة سليمة خالية من كل أثر وكذلك الطفل يولد يكون مبرءاً تماماً من أوصاف الانحراف ونوازع الضلال .

* * *

---

(١) صحيح البخاري : ٢/١٢٥ .

(٢) فتح الباري: ٣/٢٤٩ .

(٣) عمدة القاري: ٨/١٧٨ .

ويأتي التمثيل في بيان حرمة ولي الأمر.

ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك قال: قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَر رَجُلاً من العدو فأراد سلبه، فمنعه خالد بن الوليد، وكان والياً عليهم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عوف بن مالك فأخبره فقال لخالد: ما منعك أن تعطيه سلبه. قال: استكثرته يا رسول الله. قال: ادفعه إليه، فمر خالد بعوف فجر بردائه ثم قال: هل أنجزت لك ماذكرت لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم فاستغضب فقال: لا تعطه يا خالد.. لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنماً فرعاها ثم تحين سقيها فأوردها حوضاً فشرعت فيه، فشربت صفوه وتركت كدره، فصفوه لكم وكدره عليهم".(١)

وفي رواية أن عوفاً قال لخالد قبل أن يأتي رسول الله "لتردنه عليه أو لأعرفنكها عند رسول الله، فأبى أن يرد عليه" قال الفراء "العرب تقول للرجل إذا أساء إليه رجل لأعرفن لك عن هذا أي لأجازينك عليه".(٢)

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان من أمر تهديد عوف لخالد والتجرؤ عليه عدل عن حكمه، وبين أن هؤلاء الأمراء الذين

---

(١) صحيح مسلم: ١٢/٦٤-٦٥.

(٢) انظر معالم السنن للخطابي ٣: ٣٠٤/٤.

كُلفوا بأمر الولاية هم من خيار الناس ، وأحسنهم أمانة وديناً ، لم يسعوا إلى الإمارة ولم يطلبوها لأنهم على علم بعظم أمرها وشدة تكليفها ، ولنتأمل قول "استرعى" وقوله "تحين" وما فيها من حسن قيام الولاة على شؤون الرعية ، فيحرم نفسه من الراحة للقيام بشؤونهم ، ويختار لهم أحسن الأمور ، ويؤثرهم على نفسه ، ويقدم منفعتهم على منفعته ، ويبذل الجهد من أجل ذلك .

وهكذا كان ولاة رسول الله مصابيح الهدى اقتدوا بسنته ، وساروا على منهجه .

* * *

ومن مقاصد التمثيل رسم منهج التعامل مع سلطان المال ، فالمال حين يقوى سلطانه على صاحبه ، تتعلق نفسه به ، وتتعطل حواسه الأخرى ، فلا يهتم إلَّا بجمع المال ، فيبذل نفسه ، ويريق ماء وجهه ، ومع ذلك فإن بركة المال تمحق ، ولا يبلغ منه ما كان يرجوه ، والرسول عليه السلام استبشع أن يكون ذلك من مؤمن تقي ، ولذلك فقد بَصَّرَ حكيم بن حزام رضي الله عنه بسلطان المال .

جاء في الصحيحين أن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سَأَلْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ سَأَلْتُه فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ سَأَلْتُه فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ قالَ : "يا حَكِيمُ إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ،

كالذي يأكل ولا يشبع ،اليد العليا خير من اليد السفلى " قال حكيم: فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا ".(١)

ومعنى " فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه " أي بغير شره ولا إلحاح لان السخاوة في الاصل السعة والسهولة (٢) ،وتحتمل الجملة معنيين ،الاول : أخذ المال من المعطي من غير حرص أو طمع ، والثاني : معطي المال حين يكون منشرحاً طيب النفس وهو يعطي ، فقد رجح الرأي الاول الذاهب إلى أن سخاوة النفس عائدة الى الآخذ (٣)، وهذا ما يفهم من الحديث ، لان الذي كان يطلب هو حكيم ،وهذا النوع إذا أعطي رضي ،وإذا لم يعط رضي ،فالمال في يده وسيلة للعيش، ولذلك فإن الله يبارك له فيه .

ومعنى "ومن أخذه باشراف نفس" الاشراف على الشيء : الإطلاع عليه والتعرض له واصله من الشرف : وهو كل نشز من الارض أشرف على ما حوله كما قال ابن منظور (٤) ، فمن يتطلع إلى المال وينتظره هو بمثابة من يكون على مكان عالٍ ينظر منه إلى أيدي الناس ،ويشغل بطلبه .

* * *

---

(١) صحيح البخاري : ١٥٢/٢ .

(٢) انظر عمدة القاري ، العيني: ٥٢/٩ .

(٣) المصدر السابق: ٥٢/٩ .

(٤) لسان العرب : ١٧٠/٩ .

ويجيء التمثيل في الأمر بعدم الركون إلى الدنيا ، وبالابتعاد عن مغرياتها وألا يتعلق المرء بها ، وأن يُعمّق الاحساس بزوالها ، وبأنه غريب فيها ، واضعاً نصب عينيه زيفها وفناءها ، فعليه أن يُخلص فيها ويعمل بما أمره الله به حتى ينتهي أجله .

جاء في البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : أَخَذَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : كُنْ في الدُّنْيَا كأنَّكَ غَرِيبٌ أَوْعابِرُ سَبِيلٍ "(١) .

فحين يستشعر المرء من بغربته فإنه يغرس في نفسه الحصانة التي تحرره من أن يكون عبداً للشهوات .

* * *

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم قصر الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة فهي دار عمل لا دار بقاء .

ففي صحيح مسلم عن المستورد أخا بني فهر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " واللّه ما الدُّنْيَا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هذا - وأشار الراوي بالسبابة - في اليّم فلينظر بـم يَرْجِعُ "(٢) .

ولنتأمل قسمه عليه السلام " والله ما الدنيا في الآخرة " ولما أقسم .

* * *

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ١١٠ .
(٢) صحيح مسلم : ١٧/ ١٩٢

ويأتي التمثيل في مداراة النساء ،وحسن معاملتهن لضعفهن ، ومخالفة طباعهن لطبائع الرجل ،فلا بد من سياستهن والصبر على اعوجاجهن .

فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «المرأة كالضِّلع إنْ أقَمْتَها كَسَرْتَها وإنْ اسْتَمْتَعْتَ بها اسْتَمْتَعْتَ بها وفيها عوج»(١).

والعوج بالفتح يطلق على الشيء المرئي الحسي ، وبالكسر فيما ليس بحسي كالرأي والكلام(٢).

هذه هي الأغراض التي جاء فيها كلامه صلى الله عليه وسلم على طريقة التمثيل .

وكان تحديد هذه الأغراض هو المقصود من ذكرها ، وإذا كنا قد قدمنا لكل حديث بما يدل دلالة إجمالية على المقصود منه فإننا نعلم أن ما ينطوي عليه التمثيل الشريف من دقائق المعاني شيء غير الذي قدّمنا به .

خذ مثلاً قوله عليه السلام " كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه " وتأمل دقة المعنى المعبّر عنه في هذه الصورة ، وكيف يكون خطر الاقتراب من المحرمات ،وكيف نرى هذا الراعي لا يأمن وقد اقترب من الحمى أن تشرد منه شاة طائشة فتقع في الحمى ،وكيف

---

(١) صحيح البخاري: ٧/ ٣٣ - ٣٤ .

(٢) انظر عمدة القاري ، العيني: ٢٠/ ١٦٦ .

تكون صعوبة ضبطه لما يتفلت ويتشارد منها مادامت هي قريبة من الحمى ، ثم ننتقل من المشبه لترى المعاني التي تفيضها عليه صورة المشبه به ، ونرى كيف يجد من يقارب الحرمات ولا يلامسها ، ولكن هناك منطقة يجب أن يجعلها المؤمن بينه وبين الحرام ، يضمن بها الأمان ، لأنه إذا قارب الحرمات لا يضمن قدرته على السيطرة على نفسه وأهوائها وغرائزها فقد تنزو النفس وتعجز عن كبح الجماح فتقع في مال أو عرض أو ما شاءت من محارم ربها ، وهكذا نجد أنفسنا في حاجة إلى مزيد من الشرح والتحليل والإطالة حتى نقع على حاق المعنى الذي وقع عليه التمثيل في كلامه صلى الله عليه وسلم ، ولا تزال بيننا وبينه مسافة لا نستطيع الوصول إليها ، ويكون حالنا كراع يرعى حول الحمى يجب أن يواقعه ولكن يكفه العجز والضعف .

الفصل الثالث :
عناصر التمثيل فى البيان النبوى

١ - أ - مظاهر الكون وما فيه من زروع وحيوان وغيره .

ب - أحوال البيئة الفكرية والثقافية

جـ - أحوال البيئة المعاشــة .

٢ - المناسبة النفسية بين طرفي التشبيه .

عناصر التمثيل في البيان النبـــوى

يهدف هذا الفصل إلى دراسة العناصر التي استمد منها الرسول عليه السلام تمثيله أو مكونات هيئة المشبه به ، التي عبّر بها عــــن المعاني والأغراض في كلامه عليه السلام.

وتتناول الدراسة البحث عن الملاءمة أو المناسبة الدقيقة بيـــن المشبه به والمعنى المقصود .

وتتبع منهجاً يقوم على جمع كل نظير مع نظيره . وقد استمـــــد رسول الله صلى الله عليه وسلم تشبيهاته من عدة محاور :

أ ـ مظاهر الكون بما فيه من زرع ،وحيوان ،وأنهار ،وغيث وما شابه ذلك .

ب ـ موروثات البيئة الحضارية والفكرية .

جـ ـ أحوال البيئة المعاشة .

وكانت أكثر العناصر وروداً أنواع الزروع وأصناف الحيـــوان ، وهما يشاركان الإنسان في سريان حركة الحياة فيه ، وقد سخرهما الله تعالى له ليقيم بهما أود حياته، فهما أقرب الكائنات إليه ،كما أنهما يدلان على عظيم قدرة الله ونعمته .

ولا نكاد نجد في عناصر كلامه عليه السلام عناصر تتوغل في أحـــوال الهيئات الخاصة ، التي يفهمها قوم دون آخرين . ونلاحظ أن أكـــثر العناصر في التمثيل في كلامه عليه السلام قد ورد في القرآن الكريـــم ،

وذلك أكسبها تأصيلاً ، وأثراً في وجدان المسلم.

ومن الممكن أن يُعترض على تقسيمي السابق للعناصر لأنّ بعضها يمكن أن يدخل في بعض . وأقول إنني حاولت أن أجد لها محاور محددة لا يدخل بعضها في بعض ، فلم يمكن ذلك لأنّ جميعها من صور الحياة والطبيعة ، وقد جمعتُ ما يتشابه منها تحت موضوع واحد بقدر ما أمكن.

أ - ظاهر الكـــون

١ - الزرع :

القرآن الكريم يضرب المثل بالزروع في كثير من القضايا الإيمانية كما أنه يذكره في سياق قدرته وإنشائه ،ويأتي أيضاً في وصف نعيم الآخرة ،ونعيم الدنيا ، كما يأتي كثيراً في وصف الحياة الدنيا وبيان مثلها ،ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم استخدم الزرع في بيان أحوال المؤمن في كثير من الأحاديث ، فحديث يشبّهه بخامة الزرع في رسوخ إيمانه ،وحديث يشبّهه بالنخلة في عموم نفعه ،وحديث يشبّهه بالأترجة في حسن ظاهره وباطنه ،وآخر بالشجرة التي حتّت ورقها في صبره واحتسابه . . . وهكذا لا يزال يُشبّه بأطايب الزرع وأطايب الحيوان ناظراً إلى ما فيه من نفع وعطاء في كل الأحوال .

و يشبّه الكافر والمنافق ببعض الزروع الخبيثة ملاءمة لأحواله ، وسوف نعرض لكل عنصر بالتفصيل-إنْ شاء الله.

١ - الخامة من الزرع :

قال عليه السلام "مَثَلُ المُؤْمِنِ كَمَثَلِ الخَامَةِ من الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا ،فإذا اعتدلتْ تَكَفَّأُ بِالبَلاءِ."(١)

«والخامسة بالخاء المعجمة وتخفيف الميم هي الطاقة الطرية اللينة أو الغضة أو القضبة ، وقيل الخامة: الزرع أول ما ينبت على

---

(١) صحيح البخاري : ٧/١٤٩.

ساق واحدة (١) : فهي شجرة غضة رطبة ، وفي الخامة الليونة والطواعية فهي تميل مع الريح ثم تعتدل . تهب عليها مقادير الكون فتصمد ، وهكذا حال المؤمن ، فالنكبات المتتابعات لا تؤثر فيه ، يظل صامداً بالإيمان يملأ قلبه ونفسه ، راضياً مرضياً بأمر الله ، ثم إنها تنفث في فؤاده من الصبر والرضى ما يعينه على التحمل حتى يبرز معدنه ، وينصع إيمانه .

وفي خامة الزرع الخضرة والماء والرواء والنضارة ، وهذا أشبه بالمؤمن الحي المُندّى بالإيمان ، فالريح لا تجفف ماء الخامة ولا تنال منه ، وليونتها هي خُلُقُ المؤمن ، ووطاءة الأكناف ، والخلو من القسوة والغلظة ، فهو هين لين في كل معاملاته ، فالمؤمنون هينون لينون .

والقرآن الكريم يشبه قوة الإيمان باستواء الزرع وانتماشه قال تعالى ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ (٢) ، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الزرع ، والشطء أصحابه ، وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة رضوان الله عنهم قلوا في بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً فيوم بحيث أعجب الناس (٣) .

----

(١) فتح الباري ، ابن حجر: ١٠/ ١٠٦ .

(٢) سورة الفتح : ٢٩ .

(٣) انظر روح المعاني ، الألوسي : ٢٦/ ١٢٧ .

كما جاء الزرع في سياقات متعددة في زهرة الدنيا وفنائها ، وفي مضاعفة الثواب وغير ذلك من المعاني .

٢ - النَّخْلَة :

يشبّه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن بالنخلة في جميع أفعاله وخصاله في حديث ابن عمر رضي الله عنه قال " كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو يأكُلُ جُمَّاراً فقال : مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَة كالرجل المُؤْمِن فأَرَدتُ أنْ أقولَ هي النَّخْلَةُ فإذا أنا أحْدَثُهم ، قال : هي النَّخْلةُ "(١) .

والنخلة شجرة ثابتة في الأرض ، فارعة في السماء ، ضاربة بجذورها في أعماق الأرض ، وكذلك المؤمن إيمانه ثابت في أعماقه متغلغل في كل كيانه يرتفع عمله إلى السماء فلا يكون إلّا للّه تعالى .
وعطاء النخلة ونفعها مستمر ، من حين يطلع ثمرها إلى أن تجف ، ولا يزال ثمرها يؤكل بكل أحواله رطباً وجافاً ، وفيه كثير من المنافع .

وفي النخلة حنوقديم لجأت إليها مريم فانعطفت عليها ، وتساقط منها الرطب بوحي من الله ، ولذلك فإن لها دلالة قرآنية عظيمة قال تعالى ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾(٢) .

ولا يزال المؤمن مصدر عطاء في حياته وبعد مماته ، أما في حياته فذلك ظاهر وأما بعد موته فبصالح أعماله " إذا مات ابن آدم

---

(١) صحيح البخاري : ٢/١٠٣ .
(٢) سورة مريم : ٢٥ .

انقطع عمله إلا من ثلاث . صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له " .

وقد وقف القرطبي عند النخلة واستخرج غوامض دلالاتها ، ودقائق معانيها المنعكسة على أحوال المؤمن يقول : " فوقع التشبيه بينهما من جهة أن أصل دين المسلم ثابت ، وأن ما يصدر عنه من العلوم والخير قوت للأرواح مستطاب ، وأنه لا يزال مستوراً بدينه ، وأنه ينتفع بكل ما يصدر عنه حياً وميتاً " وقد ذكر مقالته هذه ابن حجر (١) ولننظر إلى طريقة القرطبي في انتزاع هذه المعاني ومقابلتها بصفات المؤمن . وقد انتزع من النخلة صفات ثلاثة ثباتها (دين المؤمن ثابت) وعموم نفعها (ما يصدر عنه من العلوم والخير) وبقاء ما يسترها (لا يزال مستوراً بدينه) .

والنخلة لا يسقط ورقها ولا يجف بالإضافة إلى تفردها بهيئة لا يشبهها فيها أي نوع من الأشجار . والمؤمن له شمائل أخلاقية يتميز بها بين الناس ، وكأن الله ألقى مخافته ومهابته عليه .

وقد أحاط ابن حجر بفوائد النخلة وما فيها من إيحاء بخصال المؤمن يقول ابن حجر " وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها ، مستمرة في جميع أحوالها ، فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعاً ، ثم بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها ، حتى النوى في علف الدواب

---

(١) فتح الباري: ١/ ١٤٧ .

والليف في الحبال ، وغير ذلك مما لا يخفى ،وكذلك بركة المسلم عامة في جميع الأحوال ونفعه مستمر له ولغيره حتى بعد موته "(١) .

وواضح أن وجه الشبه لم يكن شيئاً محدداً ،إنما هو كل ما يمكن استخراجه مما يشترك فيه الطرفان ،وبمقدار تنوعه وتعدده يكون ثراء التشبيه ،وتكون جودته .

وقيل إن النخلة خلقت من بقية طينة آدم ولذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اكرِمُوا عمّتكم النَّخْلة فإنها خُلِقَتْ من الطين الذي خُلِقَ منه آدم وليس من الشجر شيء يُلقّح غيرها ، فاطعموا نساءكم الولّد الرطب ، فإن لم يكن الرطب فالتمر ،وليس شيء من الشجر أكرم على الله تعالى من شجرة نزلت عندها مريم بنت عمران "(٢) .

ويقول عليه السلام " نِعْمَتْ العَمّة لكم النّخلة ،تُغْرَسُ في أرض خوارّة ،وتَشْرَبُ من عين خَرّارة "(٣) فالنخلة طيبة المعدن ، لا تنبت إلا في أرض طيبة لينة ، يرويها ماء عذب صاف ، فهي من صفوة الشجر . ويقول الرامهرمزي "إن اسمها مشتق من الانتخال وهو التصفية والاختيار "(٤) .

----

(١) المصدر السابق : ١/ ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) أمثال الحديث ، الرامهرمزي : ١١١ - ١١٢ .

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ : ٢/ ٢٠ ، خوارة : أي سهلة خرارة : جارية ولمائها خرير .

(٤) أمثال الحديث : ١٠٧ .

وكل هذا منعكس على المشبه (المؤمن) وكانت العرب تعظمها ويكثر ذكرها في أشعارهم ، فتوصف بها المرأة . وهذا القول وغيره جعل بعض الكتاب يذهبون إلى أن تشبيه العرب المرأة بالنخلة راجع إلى عقائد قديمة منها عبادة الخصوبة ولذلك فقد كانوا يعبدون النخلة ، وهناك صلة قوية بين هذه الخصوبة وتشبيهات العرب بها ، ثم يقولون ومما ينبئ أن النخلة ذات بركة وكرامة وخصوبة تشبيه المؤمن بها في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . ونقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحرص في سائر أقواله وأفعاله على المباعدة بين الوجدان الإنساني ومخارق جاهليته ووثنيته ،نعم النخلة توحي بالوفرة والعطاء وتوحي بالخصوبة والخير الكثير ،ولكن ليس ذلك عن طريق الصلة الرمزية التي تربطها بالآلهة المعبودة على حدّ قولهم ، ونؤكد أن تشبيه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن بالنخلة حجة على رفض ربط الأشياء برموز الآلهة وعقائد الوثنية القديمة ،لأنّ في ذلك إحياء للوثنية التي كان الرسول عليه السلام يدفعها بشتى الوسائل والطرق .

والقرآن الكريم يذكر النخلة في سياق النعمة والرحمة والعطاء الحسن حيث تُشبّه كلمة التوحيد بها ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٢) .

---

(١) انظر المرشد ، عبدالله الطيب : ٣ / ٨٨٣ومابعدها .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٤ .

ويقرنها سبحانه وتعالى بالزرع في سياق الدلالة على قدرته قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ (١).

ويدرك العيني الحكمة من هذا التشبيه فيقول " فما الحكمة بالتمثيل بالشجرة؟ قلت لأن الشجرة لا تكون إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال ، فكذلك الإيمان لا يقوم ولا يثمر إلا بثلاثة أشياء ،تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان " (٢).

وهذه اللمحات الدقيقة مما يجب أن يفيد منها درس التشبيه الذي يجب أن ينفل في أعماق اللغة والصور والأحوال .

٣ - الشجرة :

يشبّه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن حين يصيبه البلاء فيصبر فتتساقط ذنوبه بحالة من حالات الشجرة وهي سقوط ورقها . قال عليه السلام " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا " (٣). وفي رواية "كما تَحُتُّ الشجرة ورقها " والحت في الأصل -كما قال ابن منظور- حك الشيء اليابس من الثوب ،والإنحتات سقوط الورق اليابس من الغصن،والحت أيضاً داء يصيب الشجر يسقط منه الورق (٤).

---

(١) سورة الأنعام : ١٤١.

(٢) عمدة القاري : ١٩/٥.

(٣) صحيح مسلم : ١٦/١٢٧.

(٤) لسان العرب : ٢/٢٢.

فالشجرة قد تعتريها عوامل وأحوال تحت ورقها الجاف ، ولا تزال ثابتة أمام هذه التغيرات ،وكذلك المؤمن إذا أصيب وصبر كفرت ذنوبه حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة أو ذنب.

ثم إن خضوع الشجرة لعوامل البيئة فيه تجدد حياة الشجرة ونضارتها وخصوبتها .

وكذلك المؤمن فإن صبره يكون سبباً لصقل جوهره فكأنه يبدأ حياة جديدة فيها نضارة الإيمان ،ونضارة الرضى وصالح الأعمال بعد أن سقطت الذنوب التي كانت تشوه جمال نفسه وحياة قلبه . والحط في الأصل : وضع الأحمال عن الدواب (١) ، وفيه إشارة إلى أن هذه الذنوب التي سقطت ذنوب ثقيلة كثيرة ،لا يحس بها إلاّ المؤمن ، وما أن تداركه رحمة من الله حتى تنزل وتتناثر وتخف خفة ورق الشجر ، فأمر الله يجعلها خفيفة متطايرة . ويقول العيني إن (حاتّ) «من باب المفاعلة» (٢) وهذا يعني أن في الكلام إيماءة خفية إلى أن حت الذنوب تكون بمشاركة من العبد وذلك بالطاعة والصبر والرضا بما يجري به القضاء .

---

(١) المصدر السابق : ٧/٢٧٢.

(٢) عمدة القاري : ٢١/٢١٢.

٤ - الأُتْرُجَّـة :

نوع من الفاكهة يكاد يكون نادراً ، يجمع بين طيب الرائحة وطيب الطعم وكثرة المنافع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مشبهاً المؤمن قارئ القرآن " مَثَلُ المؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القرآن كمثلِ الأُتْرُجَّة طَعْمُها طَيِّبٌ وَرِيحُها طَيِّبٌ ".

وكان العرب يشبهون المرأة بها في طيب الرائحة يقول علقمة ابن عبدة :

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْخُ العَبِيرِ بها كأَنَّ تَطْيَابَها في الأَنْفِ مَشْمُومُ (١)

ويزداد العنصر فيضاً وايحاءً حين يشبه به قارئ القرآن فظاهره جميل وباطنه أجمل كهذه الأُترجة ، لأنْ أثر كلام الله قوي في النفوس الحية ، ولكن لماذا شَبَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأُترجة ؟ .. هل لأنها نوع له طيب الظاهر والباطن كسائر الفاكهة ؟ أم لأنْ لها صفات خاصة بها ، يقول ابن حجر " الحكمة في تخصيص الأُترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة ، لأنه يتداوى بقشرها وهو مفرح بالخاصية ، ويستخرج من حبها دهن له منافع ، وقيل إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأُترج فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين ، وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن ، وفيها أيضاً من المزايا كبر جرمها وحسن منظرها ، وتفريح لونها ، ولين ملمسها وفي أكلها مع الالتذاذ طيب نكهة ودباغ معدة وجودة هضم "(٢).

---

(١) المفضليات : ٣٩٧ .

(٢) فتح الباري : ٩/٦٦-٦٧ .

انظر إلى ابن حجر وهو يستخرج الدلالات الخفية للمشبه به ، ويوجد الملاءمة بينها وبين المشبه في قوله "إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترجة" ومناسبتها للقرآن وبياض حبها ومناسبتها لقلب المؤمن ، ثم انظر إليه وهو ينتزع من الأترجة جملة صفات في المؤمن شبه منها ... حسن منظرها وتفريح لونها ولين ملمسها هي صفات المؤمن المتفردة ، والإلتذاذ بأكلها وطيب نكهتها ، وبقية منافعها تلائم نفس قارئ القرآن التي تتشرب بالمعاني القرآنية ، وتتغذى بالأحوال الربانية ، وتكتسب حلاوة القرآن تلك الحلاوة التي يجدها القارئ وهو يقرأ ، وهذا تقبل عليه القلوب الصحيحة ، وتتآلفه ، وتتقاربه لتستمد منه غذاءها فهذا هو الجليس الصالح وبائع المسك .

ويذكر ابن حجر أن الرسول صلى الله عليه وسلم خصّ صفة الإيمان بالطعم وصفة التلاوة بالريح لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة (١) .

وتلاحظ أن أكثر الحواس تشترك في الاستفادة من الأترجه فالعين تُسر برؤيتها ، والذوق يَسْتلذّ طعمها ، والأنف يستطيب رائحتها وكذلك المؤمن إذا نظرت إليه سرك ، وإنْ جالسته نفعك ، وإن استمعت إلى تلاوته وجدت خيراً كثيراً .

---

(١) المصدر السابق : ٩/٦٦ .

٥ - التمـــرة :

يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن الذي لا يقـــرأ القرآن بالتمرة ،وللتمرة منافع ومزايا جليلة ، فهي حلوة المذاق ،طيبة الطعم ،ولكن ليس لها شكل حسن ولا ريح حسن وكذا المؤمن الـذي يغفل عن قراءة القرآن ، فيهجره ولا يتلوه ويعمل به ولا يحسن صوته به ، باطنه نقي تقي لكنه لا يُظهر إيمانه .

وقد فطن العيني إلى الحكمة من تشبيه المؤمنين بالتمر في هـــذا الحديث يقول "وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل بما تنبته ، ويخرجه الشجر للمشابهة التي بينها وبين الأعمال فإنها من ثمرات النفوس، فخص ما يخرجه الشجر من الأترجه والتمر بالمؤمن "(١) وفيه إشـــارة إلى علو شـــأن المؤمن ،وحسن ظاهره وباطنه ،وأن سلوكه وتصرفـــه في حياته صادر من نفسه المؤمنة مصبوغة بيقينه المشرق .

٦ - الريحانـــة :

الريحان نوع من شجر الأرض له رائحة زكية عطرة ،ولون أخضـــر جميل لكن له مذاق مرّ. والرسول صلى الله عليه وسلم يشبه المنافق الذي يقرأ القرآن بها " مَثَلُ المُنَافِق الذِي يَقْرأُ القرآن كَمَثَلِ الرَيحَانَة رِيحُهَا طَيِّبٌ وطَعْمُهَا مُرٌّ" فالمنافق يقرأ القرآن ليزين ظاهـره ، فيخْفِي باطنه

---

(١) عمدة القاري : ٣٨/٢٠ .

السوء الخبيث ،وهذا الباطن هو مرارة الريحانة ،فالقرآن لا يجاوز حنجرته ،لأنه لا يعمل به ،ولا يؤمن به ،ولا يتغلغل أثره في قلبه ، فهو يقرأ ليقال إنه يقرأ وإذا خُبِر وسُبِرتْ أغواره رشح بما لا يطاق من فاسد الإعتقاد وسيء الأخلاق .

٧ - الحنظلة :

يُشبّه عليه السلام الكافر الفاجر الذى لا يقرأ القرآن بالحنظلة في خبث الظاهر والباطن " مَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِى لا يَقْرأُ القرآن كَمَثَلِ الحَنْظَلة ليس لها رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ " وناهيك عنها وعن مرارتها وكراهة ريحها .

والكافر فاسد في ظاهره وباطنه ولا يُرْجى نفعه أبداً ، ويطيل العيني التأمل في عنصرِي الريحانة والحنظلة حتى يُوْجِد وجهاً مشتركاً بينهما فالمنافق والكافر سواء في الخبث وعدم الإيمان .

وقد شَبّه الرسول صلى الله عليه وسلم المنافق والفاجر بما يخرج من الأرض من ذوي الشجر الصغير كالريحانة والحنظلة (١) . فهما قريبتان من وسخ الأرض ،لا تمتد جذورها إلى آماد بعيدة ،وكذلك المنافق والفاجر صغيران حقيران في أفعالهما ،ولا يخوضان إلاّ في صغائر الأمور التي لا تُجْدِى وإن عملا صالحاً فلا يجزيان عليه .

---

(١) انظر المصدر السابق ; ٢٠/٣٨ .

٨ - الأرزة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَثَلُ الكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إذا شَاءَ ".

اختلف العلماء في ماهية هذه الشجرة فقيل إن الأرزة بفتح الهمزة وقيل كسرها وسكون الراء ليس من نبات أرض العرب ، ولا تنبت في السباخ بل يطول طولاً شديداً ويغلظ ،وقيل إنه لا يحمل شيئاً وإنَّما يستخرج من أعجازه وعروقه الزفت ، وقيل : هو شجر معتدل صلب لا يحركه هبوب الريح ،وقيل شجرة بالشام يقال لثمره الصنوبر.(١)

وتتفق هذه الأقوال فتبين أنها شجرة صلبة غليظة لا يحركها هبوب الريح ، وحين يشتد عليها يكسرها ويقصمها ،وهذه الصلابة والغلظة التي فيها هي الغلظة والقسوة والتبلد التي في قلب الكافر ، لا يفرق بها بين خبيث وطيب .

وهذا التضخم في الأرزة هو نفس المنافق التي تظل بمنأى عن الأحداث ، ثم إن هذا الزفت الذي يسري في داخل الأرزة هو باطن الكافر الخبيث . وتظل هذه الأرزة صامدة حتى تعجفها الريح وتقصمها وهذا يمثل نهاية الكافر ، فإن اللّه يمهله حتى إذا أخذه لم يفلته وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، قال تعالى ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.(٢)

---

(١) انظر فتح الباري ،ابن حجر: ١٠/١٠٧.

(٢) سورة الحج : ٤٤.

وهكذا فكل شجرة صالحةطيبة مغروسة في هذا الوجود فيهـــا إشارةإلى النفس المؤمنة ذات العطاء النافع ،وكل غرسة خبيثة تؤذي حس الإنسان تشير إلى خبائث الكفر وأهله .

* * *

٢ - الحيـــوان :

يكثر استخدام عنصر الحيوان في تمثيله صلى الله عليه وســـلم ، فهو مخلوق يشترك مع الإنسان في كثير من الصفات ، سخره اللّٰه فـــي الكون لتحقيق غايات كثيرة لا نكاد نحيط بها ، منها خدمة الإنسان في حياته المعيشية ،والاستدلال به على عظمة الخالق .

ولا يكاد يخلو تراث أمة من الإهتمام به ،وتتبع غرائب طباعه ، وفرائد صفاته ،ويكثر ذكر الحيوان في الشعر العربي فما من قصيـــدة إلا وللحيوان شأن فيها ، وكان العرب أكثر خبرة ووعياً به فكثـــر تأليف العرب فيها . ويعتبر كتاب الحيوان للجاحظ أوسع دراســـة عن الحيوان ويذكر محقق الكتاب الأستاذ عبد السلام هارون أن الجاحظ حين تحدث عن الحيوان أراد أن يقول " إن البحث في شأن الحيـــوان ضرب من ضروب التعبد ، ولون من ألوان البحوث الدينية التي تنتهـــي بصاحبها إلى معرفة عظمة الله وعظم ما أبدع وبرأ ".(١)

---

(١) مقدمة الحيوان ١/٢٣ .

ومن يتأمل هذا المخلوق يشعر بعظمة الخالق ،وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر احساساً وشعوراً بآيات الله في كونه ومنها خلق الأنعام وتسخيرها ،وسيبرز ذلك من خلال عرضنا لجملة أنواع الحيوان التي شبه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن أصناف الحيوان التي شبه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الإبل في أحوالها المختلفة :

١ - الإبل المُعَقَّلة :

يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم من يتعهد القرآن بالمدارسة والتلاوة حتى لا ينساه بالإبل المُعَقَّلة .

"والمُعَقَّلة بضم الميم و فتح العين وتشديد القاف أي المشدودة بالعقال ،وهوالحبل الذي يُشَد به ركبة البعير" (١) . وهي أنفس ما يمتلكه العربي من النعم ، وذات صلة وثيقة بحياته ومعاشه ،فمنها يأكل ،وعليها يضرب عرض الصحراء ،وبها يتغنى في شعره ،ووصف العربي لناقته أكثر من وصفه للصاحبة أو لأي شيء آخر.

وقد خصّ المعقلة لأنها " أشد الحيوان الآنس نفوراً ،وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبة" (٢) ، والقرآن الكريم يعطي صاحبه ما به تقوم حياته في جانبها الروحي ،فهو كنزه الذي يحفظ في الصدر ،فيحييه، و يغنيه عن كل ملذات الحياة.

---

(١) عمدة القاري ، العيني: ٤٧/٢٠ .

(٢) المصدر السابق: ٤٧/٢٠ .

والقيام على أمر هذه الإبل يشبه مداومة صاحب القرآن على التلاوة وعلى البحث في وجوه معانيه وأحكامه ، ومعرفة أسراره وإغفال قراءة القرآن كالغفلة عن هذه الإبل المعقلة يتبعها شرود هذه الإبل وخلالها ، وهم يقولون أشرد من بعير لأن البعير إذا شرد أبعد ولا يستطاع رده إلاّ بمكابدة ، وكما أن الإبل حين يُهمل أمرها تشرد ، كذلك قارئ القرآن متى أهمله وتركه فإنه يتفلت من صدره ، ويتشارد عليه أمره .

وقال عليه السلام " الإبل المُعَقَّلة " بالتشديد للدلالة على كثرة العقل المربوطة بها خوفاً من شرودها .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث آخر مؤكداً أمر تفلت القرآن " تَعَاهَدُوا القُرْآنَ فَوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّياً مِنَ الإِبِلِ في عُقُلِهَا " (١) . ولنتأمل قوله " فوالذي نفسي بيده " وكيف أفاد هذا القسم تأكيد التفلت وحصوله ما لم يُواظب على تعقيل الإبل ، وكذلك اللام في " لهو " تفيد التوكيد ، وفي الحديث الحث على ضرورة تعهد القرآن والعناية به كما أن فيه إظهاراً لمكانته السامقة وأنه لا يتأتى إلاّ لمن صدق في حمله .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يلجأون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . يشكون إليه سرعة تفلت القرآن ، فيرشدهم إلى المواظبة

---

(١) صحيح البخاري : ٦/٢٣٨ .

على حفظه وترديده ،وهكذا يظلّ المشبه به موحياً بمعانٍ تساعد على توضيح المشبه وإضاءة جوانبه .

٢ - الراحلة :

شبه الرسول صلى الله عليه وسلم ندرة الكرام الأخيار بندرة الراحلة في الإبل المائة قال عليه السلام " إنّما النّاسُ كالإبلِ المائةُ لاَ تكادُ تَجِدُ فيها رَاحِلَةً" .

الراحلة كما في فتح الباري "التجيبة من الإبل والمختارة منهم ، وإن كانت فيهم عُرِفَتْ" (١) وهذه لها قدرة على الأحمال الشاقة ، والأسفار الطويلة ولا تكون كذلك إلا بعد ترويض وطول تجربة وممارسة ، وهي تمثل الصفوة من الإبل ، وكذلك الكريم من الناس ، قليل وجوده ،وهي مرتبة لا يبلغها صاحبها إلا بعد اختبار وابتلاء وشدة أبانت عن معدنه وكشفت منه هذا الجوهر الإنساني النفيس ، فالمتصف بمثل هذه الصفات لا يصادفنا وجوده إلاّ مرة أو مرات معدودة بين الناس.

ولا يعرف الراحلة من الإبل إلاّ من طالت خبرته بها ،كذلك هذا النوع من الناس لا يُعْرَفُ إلاّ بعد طول تجربة تكشف عن معدنه .

وحين يرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا النوع كأنه يغري بهذه المراتب ،ويأخذ بيد الأمة نحو الارتقاء إلى هذه المنازل أوما يقاربها .

---

(١) ابن حجر : ١١/٣٣٥ .

٣ - وقد يجتمع في الحديث الواحد صورتان من جنس واحد ولكل عناصره :

أ - أكلة ما أنبت الربيع وقصتها .

ب - أكلة الخضرة وقصتها .

يقول عليه السلام " وإنَّ كُلَّ ما أنْبَتَ الرَّبيعُ يَقْتُلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ إلا آكِلَةَ الخَضِرَةِ أكَلَتْ حتَّى إذا امْتَدَّتْ خاصِرَتاها استقبلتْ الشَّمْسَ فاجْتَرَتْ وثَلَطَتْ وبالَتْ ، ثم عادَتْ فأكلتْ ".(١)

هذا الحديث مثل للمفرط والمقتصد في طلب الدنيا وقوله "إنَّ كُلَّ ما أنبت الربيع يَقْتل حبطاً أو يُلم .. مثل للمفرط في جمع الدنيا ،والمثل يحكي قصة البهيمة الغافلة التي أكثرت من أكل ما ينبته الربيع ، ذلك أن الأرض في الربيع تكتسي بأصناف العشب ، فتكثر المراعي والمنابت الخضراء ،ثم تأتي هذه البهيمة الغافلة عن مواضع الضرر ،فتنتشي عندما ترى زهو الخضرة فتأكل بشراهة بل وتمعن في الأكل حتى تمتلئ بطنها ، ولا تعد قادرة على الحركة فيصيبها الحبط وهو انتفاخ البطن من كثرة الأكل . يقول العيني هو "داء يصيب الإبل وهو وجع يأخذ البعير في بطنه من كلأ يستوبله ".(٢) وهكذا تنشق أمعاؤها وتهلك ، فتكون هذه الطريقة في الأكل سبباً لموتها

---

(١) صحيح البخاري : ١١٣/٨ .

(٢) عمدة القاري : ٤٠/٩ .

وهذا الربيع هو زهرة الدنيا التي قال عنها رسول الله ، وهي الخيرات التي فتحها الله من مال وغيره ،وفي تشبيه الخيرات بالربيع خاصة دلالة على زوالها وأنها لن تبقى أبداً ، وكما أن هذا الربيع يأتي بعد فصل لا ينبت فيه نبات كذلك هذه الخيرات ستأتي بعد استغلاق وحاجة ولذلك كان إقبال البهيمة عليه أشد ،وكما أن في الربيع نافع وضار فإن في نعم الدنيا ما هو حلال وما هو حرام.

والمفرط في جمع الدنيا يغفل كما تغفل هذه البهيمة ويركن إلى غضارتها ويقبل على ملذاتها فيعبُّ منها ما استطاع دون تمييز بين حلال أو حرام ،ودون استخدام منهج لضبط تصرفه ، فيشبع غرائزه ،ويمتع نفسه ،فيكون هذا التصرف سبباً لهلاكه وموته.

ب ـ أما المقتصد في طلبها فيشبه بأكلة الخضرة ، والخَضِرة بفتح الخاء وكسر الضاد من الكلأ يعجب الماشية ،" وهو ليس من أحرار البقول التي تستكثر منها الماشية فتهلكه أكلاً ولكنه من الجنبة التي ترعى الماشية منها بعد هيج العشب ويبسه ".(١)

فهذه البهيمة لم تنبهر بالمراعي الخصبة ، ولم تحاول أن تأكل منها ، إنّما تنحت لتأكل ما اعتادته من الخضرة ،حتى إذا شبعت ركنت إلى جانب مشمس لتدفئ بطنها وتسترجع ما أكلته ،فتعيد مضغه ساكنة هادئة ،ثم تلقي ما في بطنها رقيقاً حتى تتخلص من

---

(١) المصدر السابق: ٩ / ٢٤٠.

الحبط ،فهذه البهيمة قد فطنت إلى كيفية الانتفاع بالنعمة ،وعرفت كيف تُبْقي على حياتها ورفاهيتها ، وكذلك من اختار لنفسه منهجاً معتدلاً في الانتفاع بما أنعم الله به عليه وهذا النوع له من العقل ما جعله قادراً على إيجاد ضوابط تحول بينه وبين الهلاك ، فهو يأكل ويشبع ويلبي حاجاته ،ولكن تحت قيود مباحة.

وهذه الخضرة التي تأكل منها البهيمة هي المال المباح الذي يطلبه وينفق منه .

ولكن لماذا شبه الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المعاني بالبهيمة وأحوالها هل لأنّ الانتفاع بالمال وزهرة الدنيا أكثر ما يكون انتفاعاً به في الجانب المادي من حياة الإنسان فلاءم ذكر البهيمة ؟ أو حتى يتم تكوين الصورة من باب واحد فذكر الربيع والخضرة يستدعي ذكر البهيمة ؟ أم أراد التهوين من شأن الانتفاع المادي في الدنيا ، فهو في أحسن أحواله بول وثلط ؟ لعل كل ذلك مراداً .

٤ ـ الإبل الغريبة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا ُذودَنَّ رِجالاً عن حَوْضِي كما تُذَادُ الغَرِيبَةُ من الإبِلِ عن الحوضِ " .

شبه الرسول صلى الله عليه وسلم ذوده المنافقين عن حوضه في اليوم الآخر بحال الراعي الذي يطرد الناقة الغريبة عن الحوض الذي تشرب منه إبله ضناً بماء الإبل المخصص لها ولعدم أحقية الغريبة في الشرب منه.

يقول ابن الأثير " إن الإبل إذا وردت الماء فدخل فيها غريبة من غيرها ضربت وطردت حتى تخرج منها ".(١)

وهذه الصورة الصحراوية بكل شياتها انتقلت إلى اليوم الآخر وصارت شاهداً يقاس بها الغائب. فهناك الظمأ الحارق ، والشمس المتقدة والصحاري الممتدة ، ثم حوض الماء النقي الصافي الذي يحاط ماؤه ويحفظ ، وشرب إبل ومغالبة أخرى ، ويوم القيامة الظمأ الحارق الذي يلهب حلوق الناس في ذلك اليوم العصيب ، ثم التهافت عليه حين رؤيته ، ورسول الله يقف أمام حوضه العذب فيترك أناساً يشربون ، ويذود ويدفع ويجاهد في طرد أناس آخرين ، هؤلاء هم منافقو الأمة ومبتدعوها ، يُحْدِثون في الإسلام ، ويحاربونه بشتى الوسائل وهم يوم القيامة مبعدون عن انتسابهم لهذه الأمة كغرائب الإبل .

٥ - الفَلُوّ :

الفلو بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو هو المهر الصغير سمي بذلك " لأنه يعلى أي يعظم "(٢) ، جعله الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً لإرباء الصدقات وزيادتها وتقبلها والحفاوة بها قال عليه السلام " مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ -

----

(١) النهاية : ٣٤٩/٢ .

(٢) عمدة القاري ، العيني : ٢٧٠/٨ .

وإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ، ثم يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبلِ " وفي رواية لمسلم " كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّهُ أو فَصِيلَهُ " وفي رواية أخرى " فَلُوَّهُ أوقَلُوصَهُ ".(١)

" والفصيل ولد الناقة إذا فصل من إرضاع أمه ، " والقلوص بفتح القاف وضم اللام هي الناقة الفتية ".(٢) وكل هذه الأنعام تحتاج إلى رعاية وعناية لصغر سنها ، والرواية المشهورة في كتب الحديث " كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّهُ " وتربية الفلو بحاجة إلى حسن عناية ، ومزيد رعاية ، حتى ينمو ويعظم ويقوى ، ويظل صاحبه مشغولاً به قائماً عليه بعد أن فُطم من أمه وانتقلت رعايته إليه .

ولا يزال سبحانه وتعالى يتعهد صدقة المؤمن التي تنتقل من يده إلى يد الرحمن ، فيضعها موضع رعاية حتى تنمو لصاحبها نمواً يُصَيِّرُهَا مثل الجبل ، وقد ضرب الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه المثل بالفلو لأن الإهتمام به يفوق الإهتمام بغيره من الأنعام ، ولأنه يزيد زيادة بيّنة .

ويلائم العيني بين الصدقة والفلو فيقول " ضُرب به المثل لأنه يزيد زيادة بينة فكذلك الصدقة نتاج العمل فإذا كانت من حلال لا يزال نظر الله إليها حتى تنتهي بالتضعيف إلى أن تصير التمرة كالجبل ".(٣)

---

(١) صحيح مسلم : ٧/ ٩٩ .

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم : ٧/ ٩٩ .

(٣) عمدة القاري : ٨/ ٢٧٠ .

والفلو موضع عناية ورعاية وصون لذلك يدخره صاحبه لوقت حاجته ليوم نزال أوجهاد أودفاع عن حرمات ،وكذلك الصدقة مدخرة إلى يوم تشتد فيه حاجة صاحبها إليها .

ثم إن الفلو تتفقده الأنظار ، لأن طفولته أجمل طفولة لحيوان ، وللنفس هوى وانعطاف نحوه ،وكذلك الصدقة من أحب القربات لله . وفي اختصاص الفلو بالتربية دون غيره من الحيوانات ملاءمة لهذا النوع من الصدقة حيث إنها أنفس أموال العرب وأكرمها ، والخيل معقود بنواصيها الخير ،وهكذا الصدقة الطيبة الخالصة معقود بها القبول والمغفرة والجنة -إن شاء الله.

ونلاحظ أن الرسول عليه السلام لم يشبه مثلاً صوم التطوع بالفلو ولا صلاة التطوع مع أنها من البر كالصدقة ، وذلك لأن الصدقة إخراج جزء من المال يربو عند الله مقابلة بهذا الفلو الذي يتعهده من يحسن تربيته ،ويقوم عليه من يحسن القيام ، وكأن هنا مقابضة واستثماراً، فالصدقة التي هي جزء من المال صارت فلواً والخيل أنفس أموال العرب كما قلنا وفي ذلك ملاءمة حسنة.

٦ - نتاج البهيمة :

قال الرسول الكريم مشبهاً الولادة على الفطرة ثم الخروج عنها "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ فأبَوَاهُ يُهوِّدانِهِ أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه كَمَثَلِ البَهيمةِ تُنْتَجُ البَهيمةَ هَلْ تَرَى فيها جَدْعاءَ ".

" والنتاج يكون في الناقة والفرس ، وقيل إنه في جميع الدواب والولادة في الغنم "(١) ، والبهيمة حين تنتج البهيمة تكون في حالة اكتمال وتمام خلقي ، ولا يكون فيه نقص جسدي حتى يمضي على ذلك زمن ،ثم تتداخل عوامل أخرى فتحدث نقصاً في بعض أعضائه كالجدع مثلاً ،هذه الحالة استخرج منها البيان الشريف حالة مشابهة ولكنها في نطاق الأحوال العقلية والقلبية من حيث إن الإنسان مهيأ بفطرته إلى الإقرار بالله رب العالمين ،ومهيأ بفطرته إلى عبودية خالصة له جلّ جلاله هكذا هو في تكوينه الداخلي وجهازه الإعتقادي القلبي العقلي ، ثم تتداخل عوامل خارجية فتُدْخل نقصاً على هذه الفطرة المهيأة وتُحْدث فيها جدعاً وتشويهاً واختلالاً ، وذلك بترويض هذه الجوارح المعدة للإيمان بالله رب العالمين على نظام آخر ،مما عليه أبواه فيتهوّد أو يتنصّر أو يتمجّس ،ويحدث الجدع والخلل والنقص في الفطرة .

التمثيل هنا ينقل حالة عقلية وروحية في مرحلتيها ،مرحلة الاكتمال والتهيوء للإقرار بالوحدانية ،ومرحلة الإختلال والفساد العقائدي إلى حالة حسية بارزة هي هذا النتاج المكتمل التام الخلق ثم صيرورته إلى النقص والجدع.

---

(١) اللسان : ٢/٣٧٣ .

٧ - الشاة العائرة :

ضربها رسول الله الكريم مثلاً للمنافق فهو كالشاة العائرة أي "الساقطة التي لا يُعرف لها مالك "(١) يقول عليه السلام "مَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العَائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَين تكرُّ في هذه مرَّةً و في هذه مرَّةً ".

وقد جاءت الشاة في تمثيله عليه السلام في الصحيحين مرة واحدة ووردت في القرآن الكريم كناية عن المرأة كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾(٢). وتَرِدُ كثيرا في الشعر الجاهلي .

وفي الحديث النبوى يشبه المنافق بالشاة العائرة التي تظل ذليلة منبوذة لا تألفها الغنم تتردد بين القطيعين فتنزو إلى هذا مرة وإلى ذاك مرة ،حائرة تائهة ساقطة من كلا الفريقين .

ونتأمل جهد هذه الشاة وهي تكر من هنا إلى هناك ،وهي تأمل أن تجد الألفة والراحة ولكن أنّى لها ذلك .

والمنافق كهذه البهيمة مذموم أبداً ،محتقر دوماً ، هدفه خبيث وجهده ضائع لأنه يبذله في بثّ الشر وهدم الخير ، ويظل هذا المنافق حيران ممزق النفس مذبذب بين الكفر والإيمان ،والخير والشر ولذلك فهو مهين الكرامة ،ذليل النفس عمله صادر من حمق وجهالة وحقد وغل .

---

(١) غريب الحديث ،الخطابي: ١/ ٤٨٠ .

(٢) سورة "ص" ؛ ٢٣ .

٨ - الكلب :

يشبه الرسول صلوات الله وسلامه عليه العائد في هبته بالكلب في أسوأ حالة من حالاته حين يقيء ويخرج ما في أمعائه ثم يعود فيأكل قيئه. يقول عمر بن الخطاب : حَمَلْتُ على فَرَسٍ في سبيل اللَّهِ فأَبَتَاعَهُ أو فأضاعه الَّذي كان عنده فأردت أن اشتريه وظننت أنّه بَائِعُهُ برخص فسألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " لا تَشْتَره وإنْ بِدِرْهَمٍ فإنَّ العَائِدَ في هِبَتِهِ كالكَلْبِ يَعُودُ في قَيْئِهِ " (١).

وصورة الكلب هذه صورة كريهة مقيتة ، تتحاشاها النفوس وتنفر منها ، والكلب مثل في لؤم الأصل وخبث الطبع ، وسقوط القدر ، والخسة ومهانة النفس (٢) . ويشبه القرآن الكريم المنسلخ من آيات الله بعد أن أنعم الله بها عليه بالكلب في حالة من أحواله وهي لهثه في كل وقت قائماً وقاعداً وماشياً وواقفاً ، وفي حالة الصحة وحالة المرض . ولم يرد ذكر الكلب في تمثيله عليه السلام في الصحيحين إلّا مرة واحدة.

وقد أراد عليه السلام في الحديث استبشاع أمر العودة في الهبة فشبهه بالكلب ، وفي عودة الكلب في قيئه تصوير لحالة من أعطى الإحسان وأخرجه من يده ثم تدنى واسترجع ما أخرجه وأعطاه ، وهو عند إخراجه المال أو الهبة كان سامياً نبيلاً ، وفي حاله استعادته نجده وقد غلبه الشح ، وطمع النفس ، فسقطت مروءته وتدنت فصار كالكلب.

---

(١) صحيح البخاري : ٤/ ٧١.

(٢) انظر الحيوان ، الجاحظ : ١/ ١٠٢.

وهذه الحالة حين تسيطر على النفس ،ويستجيب الإنسان لخسائسها فإنّه يصير في حالة أشبه بحالة هذا الحيوان المقيت.

وقد خشي الرسول صلى الله عليه وسلم على عمر أنْ يوصف باللؤم والخسة وهو بعيد عنها ، لأنّ في ذلك تعريض مروءته للذم.

وانظر إلى قوله "وظننت أنه بايعه برخص " فمجيء بايعه باسم الفاعل الذي يدل على الاستمرار والثبوت دلالة على أن عمراً كان واثقاً من أنه بايعه ، وأن الظن قد استحكم في نفسه فتأكد من البيع وكأن الرسول عليه السلام قد استشعر أنْ عمراً كان يتحسس أمر هذا الفرس حتى تأكد من إرادة بيعه فنهاه.

٩ - الحمـار :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَوْمَ القِيامَةِ فيلقَى في النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النَّارِ فَيَدُورُ كما يَدُورُ الحِمارُ بِرحَاهُ فيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ : أَيْ فُلانُ ما شَأْنُكَ أَليسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بالمَعْرُوفِ وتَنْهانَا عن المُنْكَرِ. قال : كُنْتُ آمُرُكُمْ بالمعروف ولا آتِيهِ وأَنْهَاكُمْ عن المُنْكَرِ وآتِيهِ ".

صورة المشبه به هي الحمار وهو مثل في البلادة والغفلة والجهل والغباوة ، ثم دورانه برحاه وهو حجر الرحى الكبير.

والصورة تشبه دوران فاسد الباطن ،وقد جر أقتابه وراءه بعد

أن اندلقت منه "والأقتاب : جمع قتب بالكسر وهي الأمعاء"(١)
وهذا الرجل كالحمار يحمل العلم فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر
لكنه يغفل عن تطبيق أحكام الله فهو جاهل غافل عنها. وفي الحمار
معنى التسخير والكد والإهانة.

وتعمد هذه الصورة إلى إهانة هذا الصنف، وافتضاح أمره، وكشف
سره، وإظهار هذا الخبيء الكريه الفاسد المتمثل في الأقتاب، ثم
إظهار أهوال العذاب حيث يدور في النار، ويدور حول هذا الباطن
الفاسد.

وفي قوله " يُجاء " بالبناء للمجهول دلالة على الإكراه والقسر،
وفي قوله " فتندلق " معنى الإنصباب والخروج بسرعة وأنه لا سبيل
إلى ستر. هذا الفساد الذي عاش حياته يستره.

وقد شبه القرآن الكريم بالحمار الذي يحمل أسفاراً مثلاً لليهود
حملة التوراة حفظوها ولم يعملوا بها.

وهناك مشابهة بين المثل في القرآن والمثل في الحديث، وهذه
المشابهة في أن الحمار عنصر فيهما، وكذلك مخالفة القول للعمل،
وهذا ظاهر في الحديث قائم في الآية، ولكن الآية عمدت إلى بيان أنهم
حرموا أنفسهم من علم نافع مع أنه محمول على ظهورهم فهم كالدواب.

---

(١) عمدة القاري ﻟ العيني : ١٥/١٦٦.

والحديث عمد إلى بيان أنهم في سلوكهم لم ينتفعوا بما علموا وقد أمروا غيرهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، وليس هذا في الآية وإنّما في الآية جهل بأنفع نافع مع حمله والكد فيه، وليس هنا إشارة إلى جهلهم بالعلم وإنّما هنا بيان عدم سلوكهم على ما يوجبه العلم .

١٠ - الحيــــة :

شبه الرسول عليه السلام عودة الإيمانَ إلى المدينة بعودة الحيــة إلى جحرها ، قال عليه السلام " إنَّ الإيمانَ ليأْرِزُ إلى المَدِينَةِ كمـــا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِها ".

وأرزُ الحية معناه أنها تدخل جحرها من ذنبها فآخر ما يبقى منها رأسها فيدخل بعدُ ، وتأرز الحية على هذه الصفة إذا كانـــت خائفة ، أما إذا كانت آمنة فهي تبدأ برأسها فتدخله ، وهذا هــــو الانجحار "(١) ، ثم " إنها تنتشر من جحرها في طلب ما تعيـــش به فإذا راعها شيء رجعت إلى جحرها "(٢) فلا تضله أبداً .

وكذلك هو الإيمان خرج من المدينة وانتشر منها إلى أرجـــاء الدنيا في أقل من ربع قرن ، وإن أهل الإيمان ليرجعون إلى المدينـة كما خرجوا منها يرجعهم إيمانهم إليها وخوفهم من الفساد وأهله .

---

(١) اللسان : ٥/٣٠٥-٣٠٦ .

(٢) فتح الباري ، ابن حجر : ٤/٩٣ .

يقول العيني مبيناً المعنى المقصود من الحديث من هيئة المشبه به "إن المدينة لا يأتيها إلا مؤمن وإنما يسوقه إليها إيمانه ومحبته في النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأن الإيمان يرجع إليها كما خرج منها أولاً ومنها ينتشر كانتشار الحية من جحرها ثم إذا راعها شيء رجعت إلى جحرها".(١)

والنظر إلى المعنى الدقيق لكلمة "يأرز" وملاحظته يكشف لنا عن دقائق التشبيه ما لا يكشفه اعتبار معناها العام كما ذكر أكثر الشراح حيث يفسرون يأرز بمعنى ينضم ويجتمع . قال ابن حجر : "إن معنى يأرز بفتح أوله وسكون الهمزة وكسر الراء ينضم ويجتمع"(٢) ، وقال العيني "يأرز بالياء آخر الحروف وبالهمزة الساكنة بعد الألف ثم الراء المكسورة ثم بالزاي أي ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض"(٣) .

والأبين أن يفسر الأرز بالرجوع على هيئة فيها الذعر والخوف لأن أرز الحية معناه دخولها من جهة ذنبها حين تكون خائفة ، وهذا يشير إلى أن العائدين إلى المدينة يعودون فراراً بدينهم خوفاً من الفساد المنتشر ، ولم يأت هذا الزمن بعد لأن لله جنوداً خارج المدينة يحمون هذا الدين ويذودون الفساد عنه .

---

(١) عمدة القاري : ١٠/ ٢٤٠ .
(٢) فتح الباري : ٤/ ٩٣ .
(٣) عمدة القاري : ١٠/ ٢٤٠ .

٣ - المظاهر الكونية الأخرى :

هي تلك المظاهر الطبيعية الثابتة في الكون والتي يراها الإنسان دائماً ،ويحقق من خلالها منافعه ،وهي باقية ببقائه على الأرض لا تتغير ولا تتبدل .

وقد استمد الرسول صلى الله عليه وسلم من كثير منها تشبيهاته فيشبه بالغيث وبالنهر وباليم وبالنار وبالكوكب . وهذه هي العناصر الكونية الواردة في بيانه صلى الله عليه وسلم في هذا الباب :

١ - النهر :

يضرب به الرسول صلوات الله وسلامه عليه مثلاً للصلوات الخمس يقول عليه السلام " مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمس كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ على باب أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ "(١).

والنهر سمي نهراً لاتساعه ، وهذا النهر جارٍ غمرٍ ،وفي جارٍ دلالة على أن ماءه يتجدد وأنه لا يسكن ،وغمر أي أن ماءه كثير متدفق، وهذا النهر قريب من مواطن الاستعمال يغتسل صاحب الدار منه فيبعث الحيوية والقوة في بدنه ونفسه . ويتكرر هذا الاغتسال خمس مرات في اليوم والليلة ،وهذا كله حرى ألَّا يبقي من الوسخ شيئاً،وهكذا تتجمع عناصر كثيرة لتكوّن صورة المشبه به . فالنهر هو العنصر الأساسي ثم موقعه ثم الاغتسال والأثر الذي يبقيه ،وعدد المرات .

---

(١) صحيح مسلم ؛ ٥/ ١٧٠ .

ولكل هذه العناصر دلالات ومناسبات تلائم المعنى المقصود .
فالنهر الغمر الجاري هو الصلاة ، وما فيها من عظم المثوبة ، وعظم الفائدة التي يحصلها المؤمن فهي تقربه من الله ، وتحثه على العمل الصالح ، وتنقي باطنه .

وكما أن الاغتسال يعمل في الجسد عمله كذلك الصلاة تحيي قلب المؤمن ، وتبعث في نفسه النشاط لأداء سائر العبادات الأخرى .

وكما أن الاغتسال خمساً كذلك الصلوات تؤدى خمس مرات .
وكما أن النهر لا يُبْقي شيئاً كذلك الصلوات يمحو الله بها الخطايا
ويقول ابن حجر نقلاً عن ابن عربي "وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير ، فكذلك الصلوات تطهر العبد من أقذار الذنوب حتى لا يبقى له ذنباً إلاّ اسقطته " (١) . فهذا يطهر البدن ، وتلك تطهر النفس .

وقصة النهر تجري كثيراً في القرآن الكريم ، كأن تأتي في معرض الحديث عن الجنة ، وهذا رباط حقي بين هذا النهر الجارى بباب أحدكم وبين ما أعد الله للمتقين في الجنة . قال تعالى ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ التِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِن خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِ الثَّمَرَاتِ .. ﴾ (٢)

---

(١) فتح الباري : ٢/١١-١٢ .
(٢) سورة محمد : ١٥ .

انظر إلى هذه الأنهار المتتابعات وما تفيض به من رحمة الله ورضوانه ..

والنهر من مظاهر الكون التي تبعث في النفس الراحة ، وتذكر بعظمة الخالق قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ (١) .

والأنهار من أجلّ النعم على وجه البسيطة ، لأنها مصدر حياة الإنسان قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢) .

وبهذه المعاني وغيرها تتضاعف قيمة النهر في الحديث فما أعظمه وما أكثر فوائده .

٢ - الغيث والأرض :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به من الهدى والعِلم كمثَلِ الْغَيْثِ الكَثِير أصَابَ أرضاً فكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قبلتِ الماءَ فأنْبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ ، وكَانَتْ مِنْهَا أجَادِبُ أمْسَكَتِ الماءَ فنفعَ اللَّهُ بها النَّاسَ فشَرِبُوا وسَقَوْا وزرعوا ، وأصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إنَّمَا هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً . . . "

العناصر الرئيسية في المثل المطر الكثير الذي نزل على أرض واسعة ، تتنوع تربتها ، إلاَّ أن مظهرها الخارجي واحد

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٢ .

(٢) سورة الأنبياء : ٣٠ .

فهي أرض وتربة ، لما نزل الغيث بانت معادنها ،وتكشفت حقائقها ، فهناك الأرض النقية . والنقية بفتح النون وكسر القاف القطعة الطيبة من الأرض فهذه قد استبشرت بهذا الغيث وقبلته وا هتزت له ثم اينعت وتحولت إلى روابي معطاءة ،أنبتت الزرع الأخضر بأنواعه ، فالغيث قد أحياها ،وحرك مواطن الخير في أعماقها ،وهكذا هو الخير إذا صادف خيراً ، قال تعالى ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (١).

و في إنزال المطر تتجلى قدرة الله على الإحياء ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. ﴾ (٢).

وبعد أن تزهو هذه الأرض وتربو بأصناف النبات ينتفع بها الناس فيأكلون ويزرعون وترعى مواشيهم فيها .. وهكذا

فالخير يولد خيراً يعم ويُنتفَعُ به ،والغيث الذي نزل على هذه الأرض هو أحسن المطر ،ويطلق الغيث -كما يقول ابن منظور- على المطر والكلأ ،لأنه يأتي بالخير والنعمة ،ولأنه يغوث الناس بعد انقطاع الأخضر ،والعرب تسمي النبات غيثاً لأنه ينبت منه (٣).

كذلك رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي خير الرسالات جاءت تحمل معها الخير الكثير بعد أن كانت الإنسانية في أشد الحاجة

---

(١) سورة الحج : ٥.
(٢) سورة فصلت : ٣٩.
(٣) اللسان : ٢/١٧٥.

إليها . وهذا الصنف من الأرض هو من أحييت الرسالة قلبه ، فقبل العلم وتعلم ، ثم أثمر علمه ثمراً نافعاً أُكُلَه كل حين فانتفع الناس بعلمه على اختلاف طبقاتهم. وكانت المعرفة عند أهلها ولا تزال كالغيث ينزل بالأرض الخصبة فتربو في العقول وتثمر ، فإذا ما انتقلت إلى عقل آخر زكت فيه و ربت . .وهكذا تزكو وتربو مرة بعد مرة حتى تصير المسألة باباً من أبواب العلم يتسع ويزخر.

ومن الأرض التي تنزل عليها الغيث أرض أجادب " جمع جدب وهي الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء "(١) فهي تمسك الماء لا تتشربه ولا يتسرب منها ،وبما أن هذا الماء يمثل عصب الحياة ، فقد انتفع الناس منه فشربوا وارتوت نفوسهم ،وسقوا به زروعهم ، فأنبت الأخضر ،وارتعت المواشي ، وكذلك من تلقى العلم وحفظه في صدره ، أو من تلقى دين الله فحفظه ،وَعلِمَ شرائعه ،ولم يتأثر به ،وهذا الصنف أخذ منه كثير من الناس فمنهم من كان قادراً على أن يصير كالصنف الأول . والماء الذي هو في الأرض هو العلم الذي في الصدور.

وصنف ثالث من الأرض قيعان ،والقيعان هي الأرض الصماء الملساء المستويه التي يمر عليها الماء فلا تنتفع به (٢) فلا خصب فيها ولا نماء ،يمر عليها الماء مروراً سريعاً دون أن تتمسك به أو تستفيد منه ،ثم تبقى هكذا جرداء ،وكذلك هو الصنف من الناس ممن لم يتأثر بنور هدى الله ولم يرفع بذلك رأساً .

---

(١) فتح الباري ،ابن حجر : ١/ ١٧٦ .

(٢) انظر المصدر السابق : ١/ ١٧٧ .

وهذه الأرض هي قلوب الناس على اختلافها ،والغيث هو الوسيلة الصحيحة لمعرفة معادن الناس ،وكلاهما نازل من السماء وكلاهما فيه إحياء ونماء ، فالغيث يوحي بمعاني الخير والعطاء . والقرآن الكريم يحفل بذكر الغيث في مواطن الحاجة والشدة . قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.(١)

وهكذا أنزل الله القرآن ونشر به رحمته .

وقال تعالى ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. ﴾.(٢)

٣ - اليـــم :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مشبهاً قصر الدنيا : ﴿ مامَثَلُ الدُّنْيَا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ في اليَمِّ فلينْظُر بم يَرْجِعُ " . اليم هو البحر الذي لا يدرك قعره ولا شطآه ويطلق على النهر الكبير العذب (٣) وإذا ما أدخل أحد إصبعيه في هذا اليم الكبير الكثير الماء البعيد الغور ، فإنه لا يحصل منه إلا مقدار بلة الإصبع وهي قليلة جداً إذا ما قيست بغزارة الماء وكثرته .

---

(١) الشورى : ٢٨ .

(٢) الحديد : ٢٠ .

(٣) اللسان : ١٢/٦٤٧ .

والرسول عليه السلام أراد أن يبين قصر أجل الدنيا بهذه القطرة من الماء ، فهي قصيرة قصيرة ،والآخرة أطول وأبقى ككثرة ماء اليم بالنسبة لندى الأصبع الذي مسته .

٤ - مواقع القطر :

هي أماكن سقوط المطر ،والمطر لا يستقر إلا في مواطن الخلل من الأرض ، ويهوي إلى مهابطها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إِنِّي لأَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلَالَ بُيوتِكُمْ كمواقِعِ القَطْرِ ".

والقطر قد يكون رحمة من الله وقد يكون عذاباً منه . قال تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

والفتن التي أخبر عنها رسول الله ستكثر كثرة مواقع القطر . وكما أنها أصابت مواضع الخلل من الأرض ، فإن الفتن ستنفذ إلى مواطن ضعف النفس .

٥ - الكوكب الدري :

يقول عليه السلام مشبهاً أهل الجنة " إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَيُونَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كما يَتَرَاءَيُونَ الكَوْكَبَ الدُّرِيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ ... "

---

(١) سورة الأحقاف : ٢٤ .

والكوكب الدري هو النجم الشديد الإضاءة ، الشديد البياض، البراق العظيم القدر ، منسوب إلى الدر لبياضه وضيائه (١) ، وكما أن الدر من أنفس الجواهر كذلك هذه الكواكب من أحسن النجوم . وكذلك هم المؤمنون يلقي الله عليهم نوره فيبدون في هذه الغرف المضيئة أشد بهاءً ونضرة ونورا .

وفي الكوكب دوام الضياء وشدة البياض فنوره لا يقل ولا يضعف ثم أن هذا الكوكب الدري غابر ، وأصل معناه الداخل في الغروب ، وغابر من الأضداد ، فغبر بمعنى ذهب وبمعنى بقي كما قال العيني (٢) ، وهذا يعني أنه عالٍ ومرتفع وبعيد .

وقيل إن الغابر بالعين المهملة والزاي معناه البعيد ، ولا نقول إن الغابر من الغروب لأن قولنا بعد ذلك في المشرق أو المغرب ينقض المعنى (٣) . وقول الرسول في المشرق أو المغرب إثبات للبعد .

يقول العيني نقلا عن الطيبي : " شبه الرائي في الجنة صاحب الغرفة برؤية الرائي الكوكب المستضيء الباقي في جانب الشرق أو الغرب في الاستضاءة مع البعد " (٤) وقال العيني نقلاً عن الطيبي أيضاً : " فإن قلت ما فائدة تقييد الكوكب بالدري ثم بالغابر في الأفق

---

(١) انظر عمدة القارئ، العيني : ١٥/١٥٨ .

(٢) و (٣) انظر المصدر السابق : ١٥/١٥٩ .

(٤) المصدر السابق : ١٥/١٥٩ .

قلت للإيذان بأنه من باب التمثيل الذي وجهه منتزع من عدة أمور متوهمة في المشبه ".(١)

ففي ذكر أوصاف النجم "الدري والغابر" يكون الكلام تمثيلاً وفي هاتين الصفتين معنى في المشبه به ونظير هذا المعنى في المشبه متوهم يعني أن صفة الدرية والغبران ليستا قائمتين في المشبه " غرف أهل الجنة " إلاَّ على سبيل التوهم ،فليست الغرف درية على سبيل الحقيقة ،وليست غابرة على سبيل الحقيقة .

٦ - النار وتوابعها :

جاءت النار عنصراً من عناصر التمثيل في بيانه عليه السلام، وقد لحقت بها جملة عناصر هي من روادفها مثل الاستيقاد ،الفراش، الإضاءة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً فَجَعَلَتْ الدَّوَابُّ وَالفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ ،وأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فيه ".(٢)

وتجتمع العناصر لتكون قصة المثل فهذا الرجل كدَّ ليوقد النار حتى يستضيء بها ، فلما أُوقدت وأضاءت أرجاء المكان ،أخذت الفراش تلقي نفسها في النار ، بدلاً من أن تستضيء وتستدفيء ،فأخذ الرجل يدفعها عن النَّار مشفقاً عليها ، إلا أنها أصرت على إلقاء نفسها في النار وهو لايزال قائماً عليها يدفعها .

---

(١) المصدر السابق: ١٥٩/١٥ .

(٢) صحيح مسلم : ٤٩/١٥ .

وللنار في بيان العربية ايحاءات متنوعة ،وأظهر مواقعهـا الكناية عن الكرم فهي ترتبط به يقول الأعشى :

لَعَمْرِي ، لَقَدْ لاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ إلى ضَوْءِ نارٍ في يَفاعٍ تَحَـرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِهَـا وَبَاتَ على النَّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ (١)

وقال السموأل :

وما أُخْمِدَتْ نارٌ لنا دونَ طَارِقٍ ولا ذَمَّنَا في النَّازِلِينَ نَزِيـلُ (٢)

وقال الحطيئة :

متَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عِنْدَها خَيْرُ مُوقِـدِ (٣)

وكما أنهم يمدحون بها الكريم فإنهم يذمون بها البخيل يقول الشاعـر :

وَتَكْـتُمُ كلبَ الحيِّ مِنْ خَشْيَةِ القِرى ونارُكَ كالعَذْراءِ مِنْ دُونِها سِتْـرُ (٤)

ويقول حاتم الطائي :

إذا ما البخيلُ الخَبُّ أخْمَدَ نارَهُ أقولُ لِمَنْ يَصْلَى بناريَ أوقِـدوا (٥)

والنار التي جاءت في الحديث جاءت في سياق الهدى ،وكذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نارًا ... ﴾.

---

(١) الديوان : ١٣٠.
(٢) الديوان : ٩٧.
(٣) الديوان : ٥١.
(٤) اللسـان : ١٢/٥٢٢.
(٥) الديوان : ٣٥.

وللفراشة دلالات في كلام العرب فهم يتمثلون بها في الحمق والخفة فيقولون " أخف من فراشة " و" أطيش من فراشة " و" أخطأ من فراشه " لأنها تطرح نفسها في النار (١).

قال الشاعر :

كأَنَّ بَني ذؤيبة رهطَ سلمى فَرَاشٌ حَوْلَ نارٍ يَصْطَلينا
يَطُفْنَ بِحَرِّها ويقعْنَ فيها ولا يَدْرين ماذا يَتَّقينا (٢)

وقال جرير :

أَوْدَى بِحِلْمِهِمُ القِيَاشُ فَحِلْمُهم حِلْمُ الفراشِ غَشِينَ نارَ المُصْطَلِى

و يطلق الفراش على الخفيف الطياشة من الرجال (٣).

وفي سبب إلقاء نفسها في النار أقوال ، قيل لأنها ضعيفة البصر ولذلك فهي حين ترى الضوء تعتقد أنه كوة يظهر منها النور فتقصده لأجل ذلك فتحترق ، وقيل : إنها تتضرر من شدة الضوء فتقصد اطفاءه ولشدة جهلها تورط نفسها فيه (٤).

والنور الذي أضاء هو نور النبوة الذي أضاء كل مظلم ، ودخل على ما دخل عليه الليل ، وسمى الله النبوة سراجاً منيراً ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ (٥) ، والفراشة الحمقاء هي كل متنكب عن

---

(١) مجمع الأمثال ، الميداني : ١/٢٦١- ٤٣٨ .
(٢) الحيوان ، الجاحظ : ٣ / ٣٠٥ .
(٣) اللسان : ٦/ ٣٣٠ .
(٤) فتح الباري ، ابن حجر : ٦/ ٤٦٤ .
(٥) الأحزاب : ٤٦ .

جادة السبيل ، وهو ذلك الفريق من الناس الذي عمي وضل وطاش فألقى نفسه في النار كهذه الفراشة التي أهلكت نفسها بخفتها وعماها ، وكل ما توحي به الفراشة قائم فيمن غلبته شهوته ، وغطت على عقله فذهب أنور ما فيه ، وأعز ما يملك ، ذهبت شعلة الهدى ، ونور البصيرة .

وذبّ الرجل الفراش عن النار والمبالغة في ذلك ليس إلاّ زجر الرسول عليه السلام أمته من الارتكاس في مهاوي الضلال واشفاقه عليهم . وذب الرسول صلى الله عليه وسلم قائم حتى الآن ما دام القرآن الكريم والسنة المطهرة بين أيدينا .

وفي الحديث تحذير الأمة من خداع العقل ، وفقدان القدرة على التمييز البصير كهذا الفراش الذي يحسب النار ضوءاً ، وراح يرمي نفسه فيه . . . وهكذا الأمة حين تفقد الرؤية الصحيحة ، فتبحث عن الهدى في طريق الضلال وتترك نور النبوة ، فتتخذ وسائل الآخرين ، وتهتدي بأضوائهم ، وتترك أساليب تفكيرها وتراثها وحضارتها الإسلامية لتسير خلف سراب لا يُطْفِيء ظمأها .

ب - الموروثات الفكرية والثقافيـــــة

يظل التراث الفكري والأدبي منصهراً في وجدان أفراد الأمة فيستلهمون منه ويستمدون كلما اقتضى الحال ، وحين يستلهم الأديب هذا التراث ينفض عنه غبار الماضي، وينفث فيه الحياة ،ويفرغ عليهـــا معاني ودلالات جديدة تبعث تأثيرها القديم ،وترتبط بمعان أكثـــر وأثرى مما كانت تحمله ،ولا زالت تشبيهات الجاهلية تشع بالحسن والغرابة ، وتشجي النفس وتخلبها وإن كنا لم نر بعض عناصرها ولكننا نتذوقهـا ونشعربها (١) .

وكان عليه السلام على علم بأحوال البيئة العربية من عادات ،وعلوم ومعتقدات ،وأخبار . كيف لا وهو من أعرق بطون العرب وأعربهم ولـــد بينهم وتربى في أفصح قبائلهم وتأدب بأدب الله تعالى .

وكان المجتمع العربي قبل نزول الوحي على درجة عالية من المعرفة وجاهليتها كانت في الدين فقط . وقد استمد الرسول عليه السلام بعض تمثيلاتـه من الأحـوال العربيـة الفكريـة .

١ - النذير العريان :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مشبهاً بهذا العنصر " مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْماً فَقَالَ : رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ وإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ فَالنَّجَا النَّجَاءَ ، فأطاعته طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا على مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا ،وكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ " .

---

(١) انظر التصوير البياني ، د . محمد أبو موسى : ١٥٨ ومابعدها .

وللنذير العريان قصة ذكرها الرواة واختلفوا في أصلها .

ذكر الميداني قصة طويلة لهذا المثل ملخصها أن أبا داود الشاعر كان جاراً للمنذر بن ماء السماء ،نازع رجلاً بالحيرة يقال له رقبة بن عامر ،ثم إن أبا داود أخرج ثلاثة بنين له في تجارة للشام ، فعلم بذلك رقبة ، فأمر بقتلهم ،وأرسلت إليه رؤوسهم ،فلما أتته صنع طعاماً ، ثم دعا المنذر إليه ليتغذى معه ، فأتاه المنذر ومعه أبو داود . فبينا الجفان ترفع وتوضع إذ جاءت جفنة عليها أحد رؤوس بني أبي داود ،فقال أبو داود للمنذر : " أبيت اللعن إني جارك ، وقد ترى ما صنع بي ،فأمر المنذر بحبس رقبة ، فقال المنذر لأبي داود ما يرضيك ؟ قال : أن تبعث بكتيبتك الشهباء إليهم ففعل ،فلما علم رقبة بذلك بعث بامرأته حتى تنذرهم ،ثم خرجت حتى أتت قومها ، فقالت : أنا النذير العريان ، فعرف القوم ما تريد فصعدوا إلى علياء الشام فنجوا (١) .

ويقال إن أصل هذه القصة أن النذير العريان " رجل من جثعم حمل عليه رجل يوم ذي الخَلَصة فقطع يده ويد امرأته ،فذهب إلى قومهم يحذرهم منه ".

ويقال " أول من قال أنا النذير العريان أبرهة الحبشي حين أصابته الرمية بتهامة فرجع إلى أهله يعلمهم ، وقد سقط لحمه " (٢) .

---

(١) انظر مجمع الأمثال : ١/٤٨ .

(٢) فتح الباري لـ العيني : ١١/٣١٦-٣١٧ .

وهذه الرواية تبعد عن الأصل لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن تمثل بقول أحد فإنه لا يتمثل بقول أبرهة عدو الله . ثم إن ابرهة لم يكن يتكلم العربية . وهذه الكلمة لا يقولها إلا من رضع من هذه اللغة .

قال ابن منظور إن النذير العريان هو " الزبير بن عمرو الخثعمي ، كان ناكحاً في بني زُبَيْد فأرادت بنو زبيد أن يُغيروا على خثعم ، فخافوا أن ينذر قومه فحبسوه ، وألقوا عليه براذع واهداماً ، فهرب وأتى قومه فقال :

أنا المُنْذِرُ العُرْيان يَنْبِذُ ثَوبَه إذا الصَّدْقُ لا يَنْبِذْلَكَ الثوبَ كاذِبُ (١)

وقيل الأصل إن رجلاً لقي جيشاً فسلبوه وأسروه فانفلت إلى قومه عرياناً فقال : رأيت الجيش بعينيّ وصدقوه لأنهم كانوا لا يتهمونه في النصيحة .(٢)

والعناصر المشتركة بين هذه الروايات تدل على فحوى المثل وهو الإنذار بأمر عظيم مع الخوف والهلع والحرص على نجاة قومه خاصة ، ويحمل معه دليل صدقه ، أما قطع يده أو الإشارة بثوبه ، أو التعري من ثيابه ، وهكذا صارت هذه العبارة " النذير العريان " مثلاً لكل أمر يُخاف مفاجأته .

وهذا الاختلاف والتنوع في قصة النذير تدل على أنها قصة قديمة موغلة في القدم ولذلك فقد تاهت من أيدي الرواة ، وأهم ما في الأمر معرفة دلالة هذا المثل المستوعبة لجميع هذه الروايات .

---

(١) لسان العرب: ٥/ ٢٠٢ .

(٢) أنظر فتح الباري ٦ العيني : ١١/ ٣١٧ .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين شبه بها بث فيها الحياة وألبسها معاني إسلامية جديدة اقترنت بها ،وصهرت بذلك كل رواياتها القديمة . فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المثل حريصاً على أن يركز على جملة معانٍ منها الخوف على قومه ، والحرص على نجاتهم ، وإثبات صدقه وهو أهم ما قصد إليه .

يقول ابن حجر في مغزى التشبيه " ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه ولما جاء به مثلاً بذلك لما أبداه من الخوارق والمعجزات الدالة على القطع بصدقه تقريباً لأفهام المخاطبين بما يألفونه ويعرفونه "(١) فقد كان العرب على معرفة بالقصة ودلالاتها ، ولذلك شبه بها . فإثبات صدقه عليه السلام كان رأس الأمر ، فإن صدقوه فالنجاة حاصلة وإلا فالعذاب لاحق بهم.

ثم لنتأمل منطق النذير وهو يتحدث ، إنه ملئ بالصدق ،صدق القلب واللسان يظهر ذلك من المؤكدات في كلامه ،كذلك رسول الله أخذ يلح على قومه ويثبت لهم صدقه بشتى الوسائل .

ولنتأمل موقف قومه ، منهم من استمع لنصيحته وتأهب للرحيل فأدلج من أول الليل فنجا ، و منهم من تهاون وتقاعس وكذب النذير فداهمهم العدو في الصباح فأهلكهم.

وحين ذكر الرسول عليه السلام جزاء كل فئة في المشبه به أراد أن يتأمل الإنسان ويرى صورة الإيمان والكفر ، والطاعة والعصيان والتكبر على الله ماثلتين تنطق بالهلاك والدمار على من كذب و عصى.

---

(١) فتح الباري ٣١٧/١١ .

وتُبصّر الناس بمواطن الخطر بعد أن رأوه صورة ماثلة في القصة . وهذا الإدلاج من مكان الخطر هو الانتقال من الكفر إلى الإيمان والجيش المغير الذي اجتاح العصاة هو العذاب من الله لمن عصى . ويلحق بهذه الصورة ، صورة الرجل الذي يربأ قومه في قوله عليه السلام " إنَّما مَثَلي وَمَثَلُكُمْ كَرَجُلٍ رَأَى العدو فانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ فَخَشِيَ أن يَسْبِقُوه فَجَعَلَ يَهْتِفُ يَا صباحاه " .

والربيئة تُطْلَق على العين و يربأ أي اطلع لهم على شرف ليحفظهم ويحرسهم من عدوهم (١) ، فالعدو قد أقبل فخاف هذا الرجل على قومه فأخذ يصرخ ويقول يا صباحاه . وهي كلمة تقولها العرب إذا صاحوا للغارة (٢) . ورسول الله عليه السلام هو هذا الرجل الهلع الخائف على قومه من الغارة ، وقوم الرجل هم قومه عليه السلام لا زال يدعوهم إلى الإيمان وينصح لهم ويحذرهم من الغارة و هي عذاب الله الشديد لأنه إذا نزل بهم لا يبقى منهم باقية .

---

(١) لسان العرب: ١/ ٨٢ .

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٥٠٥ .

جـ - من أحوال الهيئة المماشة

أردت بأحوال الهيئة المماشة تقلب الناس في معاشهم وقد رأينا التمثيل الشريف ينتزع من هذه الحياة المماشة صوراً كأحوال الرعي وأحوال الثياب وغير ذلك.

١ - الرعي حول الحمى :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مشبهاً الوقوع في الشبهات "... وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فيه ".

والمشبه به يحكي قصة الراعي الذى تجرأ وأخذ يرعى ماشيته عند حمى السلطان. وقد كانت ملوك العرب تحمي مواقع السحاب، ومنابت الأعشاب، فلا ينزل بالمكان إلا حيَّه ولا ترعى فيه إلا إبله، وكان يفعل ذلك كما يقول الشريف الرضي " الأعز فالأعز، والأبر فالأبر " حتى ضرب العرب المثل بحمى كليب بن ربيعة، وهو كليب وائل، في أنه رجل حرام وممنوع لا يُرام فقالوا : "أعز من حمى كليب".(١)

وذكر ابن الأثير (مجد الدين) أن الشريف في الجاهلية اذا نزل في أرض من حيه استعوى كلباً فحمى مدى عواء الكلب، فلا يشاركه فيه غيره، وهو يشارك الناس في سائر مراعيهم، وذلك لمكانته وعزته.(٢)

---

(١) المجازات النبوية : ١٢٩.

(٢) انظر النهاية : ١/٤٤٧.

وليس للحمى ذكر في القرآن الكريم ،وجاء في كلامه عليه السلام " لا حمى إلا لله ورسوله "(١) فلله حمى في الأرض هي محارمه والراعي في الحديث قائم على تلك البهائم ،مانع لها من الارتكاس في الحمى ، وكذلك المكلف من البشر لا يزال يمنع نفسه ويراقبها ويغريها بمعاني الخير حتى لا تقع في الحرام ،وما حول الحمى هو متشابه الأمور التي إنْ أكثر الحوم حولها أوقعته في الحمى .

وكما أن للحمى حرمته فهو مصون مدفوع عنه ، كذلك لمحارم الله حرمتها . والرعي حول الحمى يؤدي إلى الوقوع فيه من حيث لا يدري الراعي ، فهو لا يأمن أن تنفلت بهيمة فتقع بغير اختياره ، وكذلك الشبهات من خاض فيها وأكثر منها وقع في المحرمات وهو لا يدري ،وهذا الراعي الذي يرعى متهاون لا يدرك عواقب الأمور ، فهو يعلم خطرها ويرتادها . والشبهات المكروهة لا يمارسها إلاّ مستهتر بدينه ممن فقد ورعه .

ويذكر ابن حجر المغزى من التمثيل بهذه الصورة " وفي اختصاص التمثيل بذلك نكتة وهي أن ملوك العرب كانوا يحمون لمراعي مواشيهم أماكن مختصة يتوعدون من يرعى فيها بغير إذنهم بالعقوبة الشديدة فمثل لهم النبي صلى الله عليه وسلم بما هو مشهور عندهم"(٢).

وإذا هاب الناس حمى ملوكهم فأولى بهم أن يهابوا حمى ملك ملوكهم .

---

(١) المصدر السابق: ١/٤٤٧ .

(٢) فتح الباري: ١/١٢٨ .

٢ - القيام على الرعي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد لما علم من شأنه مع عوف بن مالك حين جره بردائه " لا تُعْطِه يا خالدُ .. لا تُعطِه يا خالدُ هلْ أنتم تاركون لي أُمرَائي . إنما مَثَلُكمْ ومثلهم كمَثَل رَجُلٍ اسْتَرعَى إبلاً أو غنماً فرعَاهَا ثم تَحَيَّنَ سقيها فأوردها حَوْضاً فشرعتْ فيه ، فشربتْ صَفْوَه وتركتْ كَدْرَه فصفوه لكم وكدره عليهم ".

والرعي من الحرف الرئيسية التي تمثل البيئة العربية الخالصة بطبيعتها الصحراوية ،فالعرب كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للماء والمرعى الحسن .

ويخبر الرسول عليه السلام أنه كان راعياً في صغره يقوم على أمر شويهات لعمه أبي طالب .

وقد سمى عليه السلام كل مسئول أياً كان راعياً .يقول عليه السلام " كلكمْ راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رَعيَّته "(١) فالرعية كل من شمله رعاية الراعي وحفظه ونظره قال عليه السلام " نساءُ قُريشٍ خَيْرُ نِساءٍ ، أَحْناهُ على طِفْلٍ في صِغَره ،وأرْعاه على زَوجٍ في ذَاتِ يَدِه "(٢).

والرعي من الرعاية وهي الملاحظة والمتابعة والعناية ،وراعي الماشية حافظها وقائم عليها .

---

(١) ، (٢) النهاية ،ابن الاثير : ٢/ ٢٣٦ .

وعناصر الحديث : الراعي الذي استُرعي ،وما يتصل به من ذكر المُرْعَى إبلا أو غنماً ، وتحينه السقي ،وإيرادها الحوض ، وشربها الماء الصافي و تركها الكدر.

وقد استخرج البيان الشريف من حالة هذا الراعي وصفاً رائعاً للوالى الذي يلي أمر المسلمين ،وأنه يقوم دائماً على مصلحتهم وحاجاتهم وأنه يكد في ذلك كهذا الراعي الذي يتحين وقت سقيها ويجتهد في أن يوردها حوضاً صافياً ،وأنه يكف في ذلك حاجاته ، و يمنع نفسه رغائبها ،فإذا كانت له حاجة إلى الماء لا يشرب معها ،وإنما يدعها تشرب الصفو والخالص ،ثم يشرب هو ما تبقى منها وما كدرته وعافته ، أي يأخذ حقه بعد أخذ حقوقهم ،ويدع لهم الأفضل ويأخذ ما تبقى ،والأمر بالعكس تماماً في ولاة السوء الذين رمى الله المسلمين بهم ،والذين يردون هم أولاً ويوشكون أن يهدموا المنابع بعد ورودهم حتى لا يجد المسلمون الماء.

وفي قوله " استُرعِي " أي أنه كلف بأمر الرعي ،وكذلك خالد بن الوليد لم يُؤمّر نفسه إنما ولاه رسول الله وكلفه بأمر المسلمين لعلمه بصدقه وأمانته وقدرته على إدارة شؤون المسلمين.

والإبل والغنم هم الرعية الذين يختلفون في الأهواء والمشارب والطبائع . وفي تنكيرها " إبلاً أو غنماً " إفادة معنى التنوع وفي ذلك تعظيم أمر المسلمين وأنهم مما يهتم بشؤونهم.

وهذا المثل يحكي قصة قيام الوالي وحرصه على رعيته ،في قوله

" ثم تحين سقيها " معنى الانتظار في التحين ،وفي قوله " ثم أوردها " دلالة على طول الانتظار ،وأن الورد والسقي جاء بعد التحين والترقب . وهذا كله يعكس مزيد عنايته واهتمامه بأمر الرعية وجلب الخير لهم و دفع الضر عنهم وصفو الماء الذي شربته الماشية هي محاسن الأشياء التي يقدمها الوالي لرعيته وإيثارهم عليه .

٣ - الجُبّة أو الجُنّة :

ينتزع رسول الله صلى الله عليه وسلم للبخيل والمنفق شبهاً من صورة رجلين ، أراد كل واحد منهما لبس جبة أو جنة من حديد تقيه من عدو ، فصبها على رأسه ليلبسها ،وهي أول ما تقع على الصدر والثديين ، ثم يدخل يديه في كميها .

فأما الأول فإن الجبة تسبغ على يديه وتسترسل ،حتى تغطي جميع بدنه بسهولة وخفة بل إنها تطول طولاً يخفي بنانه ، ويغطي أثره ، فتحتويه كله . أما الآخر فكلما أراد إخراج يديه ، غلت الجبة إلى عنقه فلزقت، ثم إنه أخذ يجاذبها حتى تتسع لكنها لا تزيد إلا ضيقاً ، وصورة الحديث بدأت بمشهد وقوع هذه الجبة على أول الجسم وقبل إدخال اليدين فيها فقال " كمثل رَجُلين عليهما جُبّتانِ من حَديد من ثُدييهما إلى تَراقيهما " وقد يكون هذا هو المال الذي أعطاه اللّٰه لهما بقدر .

وهذه الصورة غريبة في شياتها لا نجد لها مثيلاً في القرآن الكريم إلا ما كان في قوله تعالى ﴿ سَرَابِيلُهُم مِن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ

النار »(١) يقول الراغب الأصفهاني في السربال « القميص من أي جنس كان »(٢) فهذه الآية تشبه حلة الممسك في ضيقها .

والحديث يصور حالة من أهم وأخفى حالات النفس عند الانفاق والإمساك . ففي كون وقوع الجبة من الثدي إلى الترقوة إشارة إلى أنها تقع مسلك القلب وهو الذي يأمر المرء وينهاه (٣) والترقوة هي العظم الكبير الذي بين النحر والعاتق .

وفي الجبة معنى الإفاضة والسيولة والسهولة يقول امرؤ القيس في وصفها :

تفيض على المرء أردانها كفيض الأتي على الجدجد (٤)

والنماء فيها يناسب نماء المال المعطى منه ، ويناسب الستر من المعاصي ، ويناسب وقاء النفس والعرض ، وفي إعفائها الأثر مناسبة لستر خطأ المؤمن ومحوه ، فالصدقة تطفيء الخطيئة وتزيلها .

وما سهولة خروج يد المنفق إلا تلك الأريحية التي يجدها في نفسه عند البذل . أما الانكماش والالتصاق في الجنة فهو افتضاح البخيل وكثرة ذنوبه ، وضيق الجبة ومجاذبته لها يلائم حالة الكزازة والضيق والحصر التي يجدها البخيل في نفسه .

---

(١) سورة إبراهيم : ٥٠ .

(٢) مفردات القرآن : ٢٢٩ .

(٣) انظر عمدة القاري ، العيني : ١٤ / ١٩٤ .

(٤) الديوان : ٨٦ .

وفي اضطرار أيديهما إلى تراقيهما في رواية البخاري " كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما " إشارة إلى الحالة النفسية في أعماق كليهما ،وذلك عندما تتكشف دواعي البذل والانفاق ،وكيف أن المنفق تغالبه نفسه فيغلبها ،وعكسه البخيل ، فنفسه السيئة تحول دون بذله ، وكيف أن هذا الطبع السيء يغلب على نفسه ، فتضيق الجبة على عنقه وتوشك أن تودي به .

ثم نتأمل قوله "جبة من حديد" ونتساءل كيف يتمدد الحديد ويطول ؟ .. ولماذا قيد الجبة وقال إنها من حديد ؟ .. ،وما المغزى من هذا القيد الذي إن حذف لا تنتقص الصورة ؟ ..

وقد وقف أئمة الحديث أمام هذا القيد وقالوا إن فيه إعلاماً " بأن القبض والشدة من جبلة الإنسان "(١) ، وفي هذا القيد إشارة إلى أن الصدقة حصن منيع قد يقي المسلم وقد يضيق عليه ، فوسعه فرج وضيقه كرب ، وأن الصدقة من العبادات التي تثقل بها الموازين وتخف .

وهكذا لا تزال هذه الصورة الرائعة العجيبة توحي وتومئ بأثرى المعاني والدلالات الغنية التي لا نكاد نحيط بها .

٤ - السفينة :

استخرج البيان النبوي من السفينة وأحوال راكبيها مثلاً للقائم على حدود الله والواقع فيها . قال عليه السلام " مَثَلُ القائمِ علَى حُدُودِ الله

----

(١) عمدة القاري ، العيني : ٨/ ٣٠٩ .

والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً "(١).

والعناصر التي كونت الصورة هي السفينة و هذه القصة الواقعة فيها من استهام ،واصابة كل فريق في مكانه ،واجتلاب من هم في أسفل السفينة للماء ، ثم محاولتهم خرق السفينة ،ومنع الذين في أعلاها لهم . وهكذا تتضام هذه العناصر والأحداث لتكون صورة حية في التمثيل . .

ولكن . . لماذا اختار عليه السلام السفينة المحاطة بالخطر من كل مكان ؟ . . لأن القيام على حدود الله يحتاج من المرء من إلى مزيد من التنبيه وإلى مزيد من التكافل والتضامن في درء الخطر الذي يُصيب المجموع وإن قل هذا الخطر لأن المجتمع قد يغرق كله بسبب تصرف طائش من أحمق واحد ، وعلى المجتمع إذن أن يكون متنبهاً حذراً آخذاً على أيدي المفسدين ،وكل شيء في حياة الجماعة يهم كل فرد فيها لأنه متصل بحياته وإن كان اتصالاً غير مباشر ، وهكذا نجد في هذا التمثيل إشارة إلى أن المسؤولية واحدة على أفراد المجتمع جميعاً وأن الفساد في أي قطاع وفي أي ميدان ما يجب أن يقف الكل في وجهه لأنهم جميعاً في سفينة واحدة وهكذا . .

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٨٢ .

وفي السفينة إشارة إلى عدم ركون الإنسان إلى هذه الحياة ، فهي دار معارة ، وفي إحاطة السفينة بالأخطار إشارة إلى مزيد الحذر الواجب في حياة الجماعة . والقرآن الكريم يذكر السفينة في بعض المواضع وما تحيط بها من أهوال وخوف قال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾(١).

وفي آية أخرى تشير السفينة إلى الحياة أو تخليص الحياة من الموت والغرق قال تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾(٢).

فهي تمثل الحياة بعد أن أنقطعت أسبابها على الأرض حين أنزل الله عذابه بقوم نوح ومن فيها ، فكانت رمزاً لبدء حياة جديدة خالية من الشرك على أرض جديدة .

وأهل السفينة هم المجتمعات البشرية التي تمخر سفينة الحياة ، وانقسام أهل السفينة بالاقتراع إلى قسمين هو جريان الأقدار بوضع كل إنسان في المكان الملائم في الدنيا . والذين في أعلى السفينة هم القائمون بأمر الله حيث الهواء والنور ، والقدرة على إدراك ما يحيط بهم ، وفي أسفل السفينة الواقعون في حدود الله حيث ظلام الجهل ، وانطماس الفطرة ، ومرورهم على من فوقهم يمثل المضايقة التي يحدثها هؤلاء العصاة لدعاة الأمة بدعوى التنفيس عن النفس . وحفرهم في السفينة هو بداية ارتكاب العصاة للمعاصي المهلكة للمجتمع.

---

(١) سورة العنكبوت : ٦٥.

(٢) سورة يس : ٤١.

وتتوقف صورة التمثيل عند مشهد عزمهم على خرق السفينة ، وترك الأمر على وجه الخيار لينظر المسلم ويتأمل " فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على إيديهم نجواو نجوا جميعاً ".

فتركهم ينقبون في السفينة هو سكوت حراس الأمة على الفساد وهو يستشري في المجتمع ، وهذا يهدد بهلاك الأمة. والأخذ على أيدي ركاب السفينة هو الضرب على أيدي العصاة و مجاهدتهم.

٥ - حامل المسك :

انتزع البيان النبوي الكريم من حامل المسك مثل الجليس الصالح من حيث إن حامل المسك تجد منه خيراً أبداً ، و نافخ الكير تجد منه شراً أبداً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَثَلُ الجَلِيسِ الصَالِحِ والجَلِيسِ السُّوء كحامل المسك وكير الحداد"(١).

والمسك من أنواع الطيب ، لكنه يختلف عنها ،لأنه يستخرج من " دم غزال كالظبي لونه أسود له نابان أبيضان ، يجتمع الدم في سرته في وقت معلوم من السنة ، فإذا اجتمع ورم الموضع ،فمرض الغزال إلى أن يسقط منه ، ويجعل تحته أوتاداً تحتك به ،وقيل إنها تلقيها من جوفها كما تلقي الدجاجة البيضة "(٢).

وقد قال عليه السلام " المسك أطيب الطيب "(٣) وصاحب المسك

---

(١) صحيح البخاري: ٣ / ٨٢ .

(٢) فتح الباري ، ابن حجر: ٩ / ٦٦٠ .

(٣) صحيح مسلم: ١٥ / ٩ .

تنبعث منه رائحة حسنة لملازمته له ،وتجد النفس راحتها حين تلقاه ، وكذلك الجليس الصالح في أخلاقه وصفاته يمنح الأريحية لمن حوله ، فهو كريم ، بشوش الوجه ، طيب الخلق ، حسن المعشرة . ومن يصاحب حامل المسك هذا لا يعدم نفعه ، فقد يشتري منه أو يكرم عليه ببعض طيبه أو يكتفي بشم رائحة الطيب وكذلك الجليس الصالح لا يعدم جالسيه نفعه أياً كان نوعه .

ويأتي المسك في بيان الرسول صلى الله عليه وسلم في سياق التكريم والتعظيم قدم المجاهد يكون مسكاً يوم القيامة قال عليه السلام :
" ما من مَكلوم يُكلَمُ في سبيل الله إلاّ جاء يومَ القيامة ،وكَلْمُهُ يَدمَى اللونُ لونُ دَمٍ والرِّيح ريحُ مِسك " (١) .

و يشبه البيان النبوي القرآن بالمسك . قال عليه السلام :
" مثَلُ القرآن ومن تعلّمه فقامَ به كمثَل جرابٍ محشو مسكاً يفوح ريحه كل مكان ، ومثَلُ من تعلّمه فرقَدَ وهو في جَوْفه كمثَل جرابٍ أُوكِئ على مسك " (٢) .

٦ - الكير :

استخرج البيان الكريم من الكير شبهاً لمعنيين مختلفين :

أ - الجليس السوء . ب - نفي المدينة للخبث .

والكير هو البناء الذي يركب عليه الزق ،" والزق هو الذي ينفخ فيه

---

(١) صحيح البخاري:٧/ ١٢٥ .

(٢) صحيح ابن ماجه : ١/ ٧٨ .

فأطلق اسم الكير على الزق مجازاً للمجاورة ،وقيل الكير هو الـزق نفسه ، وأما البناء فاسمه الكور "(١) .

١ - يشبه الرسول عليه السلام جليس السوء بصاحب الكير وصاحب الكير يعمل بالنار ،وتنبعث منه الرائحة الكريهة ،فعمله مكروه وريح مكانه خبيثة ،لذلك يتجنب الناس الجلوس إليه ،لأن فيه أذى لهم ،ومجاورته إما أن تحرق الثياب أو تنشر الرائحة الكريهة ، ولا يجد المرء في قربه إلا النار والحرارة وكذلك جليس السوء ، تنفث صدره النار التي تحرق معاني الخير في الأفئدة فتصير رماداً ،وصدره يغلي بالأحقاد والرذائل ويكون كما قال الشاعر :

* تَغلي عَداوةُ صَدْرِه في مِرْجَلِ *

وجليس السوء لا يخوض إلاّ في خسائس الأقوال والأفعال ولذلك فعدواه سريعة الانتقال ، شديدة الافتعال .

٢ - ويشبه الرسول عليه السلام المدينة بالكير من جهة تميزه لجيد المعدن من رديئه . يقول عليه السلام "المدينةُ كالكيرِ تَنْفِي خَبَثَها وتَنْصَعُ طيِّبُها " ، وفي حديث " إِنَّها تنفي الرجالَ كما تَنفي النارُ خبثَ الحديدِ " ، وفي رواية "تَنْفِي الخَبيثَ كما تَنفي النّارُ خَبَثَ الفِضَةِ ".

وتشتعل النار على المعدن ولا تزال به حتى تنقيه من الشوائب العالقة به ، فيخرج نقياً صافياً ، والمدينة تنفي وتخرج شرار الناس

---

(١) فتح الباري: ٣٢٤/٤ .

وتميزهم ، فهي كالكير الذى ينفي ،والمؤمن هو الحديد والفضة معدنه أصيل قوي ، ولا يكون النفي إلاّ بعد اشتمال نار الفتن والشدة فيتحن معدن المؤمن ، فمن صمد واعتصم بالله وصبر ، نقي إيمانه وثبت . ومن أصابه الخور والضعف خرج من المدينة و معدنه زائف ، وإيمانه ضعيف .

وذكر الحديد والنار تلائم حالة الابتلاء التي يقع فيها المؤمن . وفي حديث آخر يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن بالقطعة الجيدة من الذهب ، التي إن أدخلت في النار ازدادت نقاءً وصفاءً يقول عليه السلام : " إِنَّ مَثَلَ المُؤْمِنِ مَثَلُ القطعة الجيدة من الذهب أُدْخِلَتْ النَّارَ فَنُفِخَ عليها فَخَرَجَتْ جيدة ".(١)

وهكذا نجد للكير معاني مختلفة في تمثيله عليه السلام فيتناول كل معنى حالة من أحواله .

٧ - البناء :

استخرج البيان الكريم من البناء شبهاً لمعنيين مختلفين :

أ - تماسك المؤمنين وتساندهم .

ب - إتمام الرسالة به عليه السلام .

فالأول يشبه تماسك المؤمنين ومساعدة بعضهم بعضاً ،ووقوفهم صفاً واحداً في الدفاع عن دينهم وحرماتهم وأرضهم ، وأنهم في هذا

---

(١) أمثال الحديث ،الرامهرمزى : ١٠٠

التساند والتماسك كالشيء المتلاحم الذي لا ينفصل بعضه عن بعض قال عليه السلام "المُؤْمِنُ للمُؤْمِنِ كالبُنيان يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضا". والبنيان هو الحائط الشديد التماسك ،إن سقطت لبنة منه تصدع وكاد أن يقع ، فهو حائط شديد القوة والتضام وله نظام دقيق ، متسق في البناء ،ترتكز كل لبنة فيه على التي تليها ، وبين كل لبنة والتي تليها قدر من التماسك والتساند والتضام،وهذا هو المقصود في الحديث الشريف ،وهو المنظور إليه في حال هذا البناء ، وكذلك المؤمن حين يتحد مع أخيه المؤمن يكون كهذا البناء في القوة والمتانة.

والمعنى الثاني هو تشبيه اكتمال الرسل به عليه السلام بصورة بناء شيد على أحسن صورة ،وأكمل هيئة ، ولكن يقلل من حسنه وفخامة بنائه نقصان لبنة في زاوية من زواياه ، وقد تنبه الناس إليها وهم يطوفون به معجبين . يقول عليه السلام "مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَاراً فأَكْمَلَها وأَحْسَنَها إلاّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا، ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللَّبِنَة"(١) . و "اللبنة هي القطعة من الطين تُعجن وتجبل وتعد للبناء"(٢) . وجميع الرسالات حصن حصين كهذا البناء من يدخله يجد الأمان والاطمئنان ، ويحمي نفسه من أوضار الجهالات المتصلة بغير الله ، التي لا قرار فيها ولا أمان ، ويطلق البنيان في القرآن على ما فيه مزيد من العناية والاهتمام ، قال تعالى ﴿ والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بأَيْدٍ وإنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾(٣) ، ﴿ والسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾(٤).

---

(١) صحيح البخاري :٤/٢٢٦.
(٢) فتح الباري ، ابن حجر :٦/٥٥٩.
(٣) سورة الذاريات : ٤٧.
(٤) سورة الشمس : ٥.

وهذه اللبنة التي تكمل البناء هي الرسالة المحمدية فبها ختمت الرسالات، وتمت مقاصدها التشريعية، فاستوعبت جميع الشرائع.

وفي تشبيه الرسول باللبنة رجوع إلى أصل خلق الإنسان، فهو قد خُلِق من طين، ولذلك فإن إتمام الرسالات جاء مع ما يلتئم مع هذه الفطرة، وفي قوله "داراً" بالنكرة دلالة على التعظيم فهي دار عظيمة.

٨ - مروق السهم من الرمية :

يشبه الرسول معنى الخروج من الإسلام وعدم التأثر به بمروق السهم من الرمية. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ وَيَقْرَؤُونَ القُرآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِن الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِن الرَّمِيةِ، يَنْظُرُ في النَّصْلِ فَلاَ يَرَى شَيْئاً، وَيَنْظُر في القِدْحِ فَلاَ يَرَى شَيْئاً، وينْظُرُ في الرِّيشِ فَلاَ يَرَى شَيْئاً، وَيَتَمَارَى في الفُوقِ"(١).

والسهم يصيب "عادة" شيئاً ما في أحشاء الرمية، إلا أن هذا السهم سهم غريب نفذ ولم يحمل شيئاً ما أصابه، ثم تأمل بقية الصورة حيث يندهش الرامي وهو لا يرى أثراً لطريدته على السهم إنه ينظر إلى نصله، ويتأمله فلا يرى شيئاً، وينْظر في القدح فلا يرى شيئاً، وينظر إلى الريش فلا يرى شيئاً ثم إنه يتحقق ويتفرس في الفُوقِ

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٤٤.

فلا يرى أثراً لدم أو فرث أو غيره والفوق والنصل والقدح والريش أجزاء السهم ، انظر إليه وهو يتمارى في أجزاء السهم لعله يجد شيئاً .

ويبين الشريف الرضي السبب في عدم تعلق السهم بدم الطريدة فيقول " شبه دخولهم في الدين وخروجهم منه بسرعة من غير أن يتعلقوا بعقدته أو يعبقوا بطينته بالسهم الذي أصاب الرمية وهي الطريدة المرمية ، ثم خرج مسرعاً من جسمها ،ولم يعلق بشيء من فرثها ودمها ، وذلك من صفات السهم الصائب ،لأنه لا يكون شديد السرعة إلا بعد أن يكون قوي النزعة "(١).

وكذلك هؤلاء الذين مرقوا من الدين وخرجوا منه بسرعة ، لم يتعلق شيء منه بقلوبهم ،ولم يتأثروا بنور النبوة ، فهم قد عطلوا بكل شرائعه وشعائره فصاموا وصلوا وأدوا كل العبادات ،ولم يعلق شيء منه بنفوسهم ، وقد جاءت صورة الرامي الذي يتفرس في أجزاء السهم لبيان غرابة هذا السهم ، فهو من متممات التشبيه وتفصيل له .

وفيها إيماء بنفاذ كلمة الله في القلب الحي فالسهم النافذ يقتل رميه ، ويأخذ من أحشائها ، وهنا لم يحصل شيء من هذا .

٩ - إماعة الملح :

استخرج النبي الكريم من هذا العنصر معنى الضياع وذهاب الأثر ،والمقصود ضياع وذهاب من قصد أن يضيع غيره وأن يذهبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء "(٢).

---

(١) المجازات النبوية : ٣٣ .
(٢) صحيح البخاري : ٣/ ٢٧ .

والميع في اللسان مصدر ماع السمن أي ذاب ، فالميع يكون في الأشياء القابلة للذوبان كالسمن والفضة (١) ، وقد جاءت في الحديث على وجه المجاز لتبين أن من أراد بمدينة رسول الله سوءاً فإنّ الله سيهلكه ويمحو أثره فلا تبقى منه باقية كالملح الذي يذوب في الماء .

وقد جاء قوله (في الماء) قيد ضروري لتحقيق الشبه وقد يقال إنه من الممكن الاستغناء عن هذا القيد ،لأنّ انمياع الملح لا يكون إلّا في الماء ،ويعلل العيني فائدة هذاالقيد فيقول : " وجه هذا التشبيه أنه شبه أهل المدينة مع وفور علمهم وصفاء قرائحهم بالماء ، وشبه من يريد الكيد بهم بالملح لأنّ نكاية كيدهم لما كانت راجعة إليهم شبهوا بالملح الذي يريد افساد الماء فيذوب هو بنفسه "(٢) فأهل المدينة هم الماء الصافي . وهنا يقف التشبيه لأنه لا يلزم في وجه الشبه أن يشمل كل أوصاف المشبه به .

١٠ - عناصر منتزعة من سلوك الناس في باب العمل بأجر :

انتزع الرسول صلى الله عليه وسلم من قصة الرجل الذي استأجر عمالاً معينين :

أ - لبيان أجل كل أمة من الأمم ،ومقدار جزائها .

ب - لبيان فوت أجر الأمم التي لم تصدق بما جاء بعدها من الرسل .

---

(١) لسان العرب : ٣٤٤/٨ .

(٢) عمدة القاري : ٢٤١/١٠ .

١ - يبين المعنى الأول زمن كل من أمة اليهود والنصارى والمسلمين قال عليه السلام " إنما مَثَلُكُمْ واليَهُودِ والنَّصَارَى كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالاً ، فقال: مَنْ يَعْمَلُ لي إلى نِصْفِ النَّهار على قيراط قيراط ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ على قيراط قيراط ، ثُمَّ عَمِلَتِ النَّصَارَى على قيراط قيراط ، ثم أنتمُ الَّذِين تَعْمَلُونَ مِنْ صَلَاةِ العَصْرِ إلى مَغَارِبِ الشَّمْسِ على قيراطَيْنِ قيراطَيْنِ . فَغَضِبَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى وقالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلاً وأَقَلُّ عَطَاءً ، قالَ : هَلْ ظَلَمْتُكُم من حَقِّكُمْ شَيْئاً ؟ قالُوا : لَا . فَقَالَ : فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ "(١)

هذه القصة تتكون من عناصر كثيرة ، المستأجر ، العمال ، اليوم القراريط العمل .

فالفئة الأولى من العمال الذين عملوا إلى منتصف النهار هم اليهود وهم أطول زمناً . والفئة الثانية من العمال الذين عملوا من منتصف النهار حتى صلاة العصر هم النصارى وزمنهم أقصر من زمن اليهود . والفئة الثالثة التي عملت من صلاة العصر حتى غروب الشمس ونالت الأجر مضاعفاً هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

والقراريط هو الثواب الذي يعطيه الله لكل أمة ، وقد تساوى أجر كل من اليهود والنصارى ، واختصت أمة محمد بمضاعفة الثواب . وفي تشبيه الدنيا باليوم دلالة على قصر أمد الدنيا وأنها كسحابة يوم .

---

(١) صحيح البخاري: ١١٨/٣ .

٢ - والمعنى الثاني جاء ليحمل العناصر نفسها مع بعض الاختلاف في أحداث القصة وهي مثل لفوت أجر اليهود والنصارى لعدم بقائهم على الإيمان بما أنزل الله بعد نسخ رسالاتهم.

قال عليه السلام " مَثَلُ المُسْلِمِينَ واليَهُودِ والنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْماً يَعْمَلُونَ له عَمَلاً إلى الليل ،فَعَمِلوا إلى نِصْفِ النَّهار ، فَقَالوا : لاَ حَاجَةَ لنَا إلى أجْرِك ، فاسْتأجَرَ آخرِينَ فقال : أكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ ولكُمْ الَّذِي شَرَطْتُ ، فَعَمِلوا حتَّى إذَا كَانَ حِينَ صَلاَةِ العَصْرِ ، قَالُوا : لَكَ ما عَمِلْنَا فاسْتأجَرَ قَوْماً فَعَمِلوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِم حتَّى غَابَتْ الشمسُ ، واسْتَكْمَلوا أجْرَ الفَرِيقين ".

فالعمال هنا قد رفضوا العمل وتركوه ،أما في القصة السابقة فإن المستأجر هو الذي استغنى عن عملهم واستأجر آخرين.

وقد أُعطى العمال في الحديث الأول أجر عملهم ثم ضوعف للآخرين أما هنا فقد حرموا من أجرهم لرفضهم العمل ، ونال الآخرون أجر الفريقين.

والعمال في الحديث هم اليهود والنصارى والمسلمون . ورفضهم العمل يمثل رفضهم للإيمان بما جاء بعدهم من الرسل ورفضهم إشارة إلى كفرهم وتوليهم ، وفقدان أجر ما سبق من الأعمال الحسنة ،واستكمال الفئة الثالثة لأجر الفريقين هو الثواب المضاعف لعمل هذه الأمة لإيمانهم بما سبق من الرسالات.

١١ - عناصر تختص بالإنسان وسلوكه :

١ - الغريب أو عابر السبيل :

قال عليه السلام لعبدالله بن عمر " كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عابِرُ سَبِيلٍ " .

جاء هذا العنصر مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في الحياة ،والغريب عن بلده وأهله قليل الطمع في أن يكون له دار أو مزرعة أو بستان أو متاع ، فهو حذر في سائر معاملاته مع الناس، يبعده الشعور بالغربة عن الصفات التي يقع فيها الناس من حسد أو حقد أو نزاع ،ثم إنه لا يدخل في معاطب الحياة ولا يتلمس مغرياتها ، ويظل نائياً عنها ينظر إليها من بعيد وهو دائماً في حالة تأهب وسفر فلا يركن إلى المكان الذي هو فيه ، يعمل في بلاد الغربة لما جاء به من أجله ، آملاً في حياة أفضل يعيشها إن عاد إلى وطنه .

أما عابر السبيل فتعلقاته أقل من الغريب ، وهذا يظلّ بعيداً عن كل شؤون الحياة ،لا هم له إلاّ رحلته التي ستوصله إلى أهله وبلده . وكذلك المؤمن لا بد أن يبتعد عن ملذات الحياة وشؤونها التي تميت الإحساس بوجود حياة أخرى هي الأصل وهي الحياة الحقيقية فالدنيا مرحلة تهيء لهذه الحياة ، وهي دار غربة . وهذا المعنى يعطي حصانة للمؤمن بألا يكون عبداً للملذات وأن يضع جُل همه للعمل لما بعد الموت حيث تزول الغربة .

وانشغال الغريب بملذات الحياة هي انشغال المؤمن بالدنيا

ومفرياتها ومطامعها الفاتنة. وفي تشبيهه بالغريب مزيد من الإحساس بالغربة ومبالغة في الابتعاد عنها ، [illegible]
وفي حديث آخر يشبه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في الدنيا بالراكب الذى أراد أن يستروح فاستظل بشجرة ثم تركها قال عليه السلام " إِنَّمَا أنا والدنيا كراكب اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثم رَاحَ وَتَرَكَهَا (١)

وعابر السبيل قريب من الراكب الذي استظل تحت شجرة ،ويشترك الغريب معهما في تصوير الغربة والتأهب والرحلة ،والدنيا شجرة مفروسة ،وعلى المؤمن أن يشارك في غرسها و يستظل إليها ،ويستروح بها ، وينعم بظلالها الوارفة ،وعند الرحيل يتركها ويذهب .

هذا الحديث يركز على قصر أمد الدنيا ،وقلة التعلق بها . و في قوله " راح و تركها " تصوير لما في الحياة من كد وعناء ،و قصر عمره.

٢ - الجســـد :

يستخرج البيان الكريم من أوصاف الجسد وصفاً للمؤمنيـــن ، وذلك لأن الجسد الواحد موصول بعضه ببعض وصل الجزء بالجــزء فهو شيء واحد ، واحد في عافيته ومرضه ، وواحد في احساسه وقوته وضعفه ، ولا يجوز في العقل أن ينفصل جزء عن جزء ،وأن تقوم بين الأجزاء معاني الأنانية والقوقعة داخل الذات ،وأن تقول الشمال لليمين لا شأن لي بك وعالجي أنت ما تعالجين من ضعف ووصب . قال عليه السلام " تَرَى المُؤْمِنِين في تَرَاحُمِهِم وَتَوَادِهِمْ وتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشْتَكى عُضْواً تَدَاعى له سَائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى .

---

(١) سنن الترمذي:١٧/٤ .

والجسد يتكون من أعضاء أساسية وما يحتويه واليدان والرجلان والقلب ، ولهذا التكوين أسرار عجيبة ودقائق غريبة . وإذا تسرب إلى عضو منها المرض شاركته جميع الأعضاء بالتعب والحمى ، وتداعت بالألم أي دعا بعضها بعضاً للمشاركة ، فأسهرت ليله ، وأراقت نومه ، فهذا الجسم تجمعه وشائج من التعاطف والألفة والتآزر ، والجماعة المؤمنة كهذا الجسم تجمعه علاقات ووشائج تربط بعضه ببعض برباط المحبة والألفة والتراحم والتعاطف .

وواضح أن نوازع الأنانية والأثرة وغير ذلك مما يجري في حياة الأمة ليس من آداب نبيها صلى الله عليه وسلم .

٢ - الضلع الأعوج :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "المرأةُ كالضِّلَعِ إنْ أقمتَهَا كسرتَهَا وإنْ استمتعتَ بها استمتعتَ بها وفيها عِوَجٌ" .

والضلع محنية الجنب التي يكون استقامتها في كسرها يقول ابن مفرغ :

وَرَمَقْتُهَا فَوَجَدْتُهَا كالضِّلَعِ ، ليس لها استقامة (١)

فهو لا يزال أعوج ، وقوله " إن أقمتها .. " بيان لقوله كالضلع ، وهذه فطرة النساء التي خلقهن الله عليها ، وفي خلقهن اعوجاج كاعوجاج الضلع فينبغي الإحسان إليهن ومداراتهن والصبر على مخالفتهن لطبائع الرجال ، ولذلك قالوا في أخلاقها اعوجاج ، فالاعوجاج ليس خروجاً عن الفطرة الآدمية إنما تخالف في الطباع . وفي حديث

---

(١) لسان العرب : ٨/٢٦٦ .

"إنّ حواء خُلِقَتْ من ضِلَع آدم عليه السلام وهو نائم"، وهذا حديث ذكره العيني عن ابن عباس (١) ولذلك ناسب تشبيهها بالضلع ، وقيل إنَّ إقامة المرأة المقابلة لإقامة الضلع طلاقها (٢) .

أما الاستمتاع بها فيعني الملاطفة والمجاوزة والصبر عليهن كالضلع من أراد فائدته تحايل عليه حتى يتم له ذلك كما يقول العيني .

٣ - الذي يأكل ولا يشبع :

استمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الحالة معنيين :

أ - لمن يتطلع إلى المال ويطلبه .

ب - لمن يأخذ المال بغير حقه .

١ - لمن يتطلع إلى المال ويلح في طلبه شوقاً إليه ورغبة فيه . وكأن في هذا مخالفة للفطرة فقد صار يأكل ولا يشبع .

قال عليه السلام لحكيم بن حزام بعد أن سأله ثلاثا فأعطاه " يا حكيمُ إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فيه وَمَنْ أَخَذَهُ بإِشْرافِ نَفْسٍ لم يُبَارَكْ لَهُ فيه كالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ "

وعدم الشبع من الطعام " داء " يصيب الإنسان يسمى الجوع الكاذب ، وقد يسمى بجوع الكلب لأنَّ صاحبه كلما ازداد أكلاً ازداد جوعاً ، وازداد سقماً فلا يشبع أبداً ، ويزعم أهل الطب أن ذلك من غلبة السوداء ويسمونها الشهوة الكلبية ، فكلما نزل الطعام في المعدة احترق (٣)

---

(١) و (٢) انظر عمدة القاري: ٢٠/١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) انظر عمدة القاري ، العيني: ٩/٥٢ .

وحين شبه الرسول الكريم من يطلب المال من الآخرين ويلح في طلبه ويريق ماء وجهه من أجله بالذي يأكل ولا يشبع أراد استبشاع هذا الصنف من الناس ممن غلبه المال واستعبده ،وسيطر على جميع حواسه وعند ذلك يمحق الله بركة هذا المال المطلوب بعد تدني النفس كالطعام حين يأكله هذا المريض يحترق على الفور ولا يستفيد منه ، فوجوده كعدمه ، فهو ليس إلا مالاً محروقاً ،وفي الحاجة إليه وشغل النفس به شبه من هذا الآكل النهم دون أي فائدة. ثم إن ذلك داء يصيب معدة الإنسان وهذا داء يصيب نفس الإنسان حيث يظل المال شغله الشاغل ومحركه كما أنه يظل متتبعاً له أينما كان باذلاً نفسه في سبيل الحصول عليه . عازفاً عن كل ما أهم من أمر الدنيا .

٢ - وهذه الصورة نفسها استمد منها رسول الله عليه السلام معنى آخر غير المعنى الأول ، حيث جاءت مثلاً لمن يأخذ المال بغير حقه . يقول عليه السلام في حديث أبي سعيد الخدري "... وإنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، ونعم صاحبُ المُسْلِم من أَخَذَهُ بِحَقّه فجَعَلَهُ في سبيل الله واليتامى والمَساكينِ ،ومن لم يأخذها بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع ويكونُ عليه شهيداً يوم القيامة "(١) وقد جاء هذا القول في أعقاب الحديث عن وجوه الإقبال على الدنيا وملذاتها من مال وغيره وقد ورد ذلك بأسلوب التمثيل " إنَّ مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم إلاَّ أكلة الخضراء ..

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ٣٢ .

وهذا الجزء من حديث جاء مثلاً لبيان أنواع الكسب ، بحقه وغير حقه ، وضرب المثل للصنف الثاني الذي يأخذ المال بغير حقه بصورة الآكل الذي لا يشبع من الطعام ، يظل يأكل ويأكل آملاً في إطفاء جوعه لكنه كلما أكل ازداد جوعاً وكذلك هو مكتسب المال على غير وجهه الشرعي من الطرق المنهية والمحرمة يذهب ماله في وجوه لا تعود عليه بالنفع ، فكما أنه يكتسبه من غير وجوهه فإنه يذهب في غير وجوهه دون تحصيل أي منفعة . والحديث جاء لبيان عدم الإفادة من مال محرم مهما زاد وكثر . والحديث الأول جاء لبيان محق البركة من المال المطلوب باستشراف نفس فهنا مال محرم وهناك مال مأخوذ بإشراف نفس وتطلع . . وهكذا نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استخدم كثيراً من العناصر المتنوعة ، وكان أحياناً ينتزع من أحوال العنصر الواحد معاني متعددة .

فقد جاءت الإبل في أمثاله عليه السلام مثلاً لكثير من المعاني ، جاءت مثلاً لندرة الأخيار من الناس كندرة الراحلة في الإبل ، فقد رأى أن الإبل مثل الناس تتشابه في كثير من الصفات ، وتتمايز في كثير من الصفات ، وأنها تتباين تبايناً متسعاً وأن منها الطيب النادر .

ثم نظر إلى الإبل من حيث ما في طباعها من حب الانطلاق والتفلت والشرود فاستخرج من ذلك مثل حفظ القرآن ، وأن من حفظه لا بد أن يظل قائماً عليه وإلا تفلت منه وضاع كما أن من قيد الإبل لا بد أن يظل قائماً عليها لأنها تحاول التخلص من قيدها فإذا أمكنها ذلك ضلت وشردت .

ثم نظر إلى الإبل من جهة طعامها وما تنتشي به من أنواعه فوجد أن فيها من يأكل كل ما وجد أمامه دون تمييز فتصاب بالحبط فتموت ومنها من لا تنبهر بأطايب الربيع فتأكل كل ما اعتادت عليه فتسلم وهذه هي آكلة الخضرة فأخذ منها مثلاً لمن ينبهر بالمال فلا يحسن التعرف فيه فيهلك ، ومثلاً لمن أوجد ضابطاً لنفسه تجاه هذا المال .

ونظر إليها من جهة شرودها عن جماعتها ،ومحاولتها الإقحام في جماعات أخرى من الإبل ،فتحاول أن تأكل معهم ، وتشرب معهم ولكنها لا تجد إلا الطرد والدفع لأنها غريبة ولا تتآلفها الإبل الأخرى ، كما أن صاحب الإبل لا يتركها تشرب معهم لعدم أحقيتها فيبالغ في دفعها وطردها ،وهذه الحالة جاءت مثلاً لذبه عليه السلام لمنافقي هذه الأمة عن الحوض.

هذا ما جاء من التمثيل بالإبل في الصحيحين . وفي كتب الأحاديث الأخرى كثير من الأحاديث تُشَبِّه بالإبل في أحوال غير التي ذكرت كأن يُشَبِّه بها في طباع بعضها من أنفة وعزة من الزجر واطراد حسن السير والطواعية ، ففي حديث ذكره الأصبهاني في كتابه أمثال الحديث يقول عليه السلام "المؤمن كالجمل الأنف حيثما قِيدَ انقاد".(١) وكذلك المؤمن لا يحتاج إلى زجر ولا عتاب وما كلف به من حق وتكليف صبر عليه وقام به وأداه على وجهه .

---

(١) ص : ١٢٤ .

واستخرج أيضاً عليه السلام من عنصر الكير معنيين فقد نظر إليه من جهة خبثه وإحراقه من يجاوره ، وتضرر الناس منه فجعله مثلاً لصاحب السوء ، ونظر إليه من جهة تنقيته للمعادن حين توضع فيه ، واستخلاص جيدها وطرح خبيثها فضربه مثلاً لنفي أهل الخبث من المدينة وإبقاء خيارهم ، كما انتزع عليه السلام من البناء معنيين مختلفين ، فرأى شدة تماسكه وإحكام بنائه فضربه مثلاً لوحدة المسلمين . ونظر إلى حسنه وجماله إلاّ من لبنة يحصل بها كمال الحسن فضربه مثلاً للرسالات التي أكملها عليه السلام .

واستخرج عليه السلام من حالة من حالات الإنسان وهي إصابته بمرض خبيث لا يشبع فيه من الطعام معنيين وهما أخذ المال بغير الحق والتطلع إلى المال وطلبه .

وبهذا نجد أن اقتناص المعاني المتعددة من أحوال الشيء الواحد التي كثرت في تمثيله عليه السلام . وقد وقف العلماء عند هذه الحالة من أحوال التشبيه وذكروا من فضائله أنه يأتيك " من الشيء الواحد بأشباه عدة ، ويشتق من الأصل الواحد أغصاناً في كل غصن ثمر على حده ".(١)

هذا من جهة المعاني التي استخرجت من أحوال الإبل وضربت بها الأمثال ، ثم إننا ننظر إلى الأحاديث من جهة ثانية هي جهة المشبه .

---

(١) أسرار البلاغة ، عبد القاهر : ١١٥ .

فنجد أن المؤمن يشبه بالنخلة من حيث عموم النفع ، وبالخامة من الزرع في صبره واستجابته لما قدر له واحتسابه على ذلك ، وبالأترجة من حيث حسن الظاهر ونقاء الباطن وهو يداوم على قراءة القرآن ، وبالشجرة التي تحت ورقها من حيث صبره في مرضه وابتغائه بذلك وجه الله ، وبالراحلة من حيث ندرته بين الناس ، وحامل المسك من حيث بث الفضائل ونشرها في المجالس ، وهو الأرض الطيبة من حيث استجابته لوحي الله وتلقيه للعلم الرباني النازل من السماء .

وقد جاء في غير الصحيحين تشبيه المؤمن بالفرس في آخيته في أنه ينتهي دائماً إلى حدود به ، يتحرك هنا وهناك ويضرب هنا وهناك ثم يرجع إلى حدود الله وينتهي عند شرعه . يقول عليه الصلاة : "مثل المؤمن والإيمان كمثل الفرس في آخيته يجول ما يجول ثم يرجع إلى آخيته ، وكذلك المؤمن يقترف ثم يرجع إلى الإيمان ، فاطعموا طعامكم الأبرار ، وخصوا بمعروفكم المؤمنين "(١).

كما يشبه بالنخلة فهو يستقي منهج حياته من هذا الدين ، ويثمر علماً وعملاً صالحاً هو ثمره هذا الدين .

يقول عليه السلام " مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً ووضعت طيبا "(٢) ويشبه المؤمن أيضاً بأحسن المعادن وأنقاها ، يقول عليه السلام " إن مَثَلَ المُؤْمِنِ مَثَل القِطْعة الجيدة من الذهب أدخلت النَّار فَنُفِخَ عليها فخرجت جيدة "(٣) كما يُشَبَّه بالجمل الأنف حيثما قيد انقاد .

---

(١) أمثال الحديث ، الرامهرمزي : ١٢٦ .

(٢) و (٣) المصدر السابق : ١٠٠ .

ويشبه المنافق والكافر بعناصر عديدة جاءت في تمثيله عليه السلام. يشبه المنافق بالريحانة من حيث حسن المظهر وسوء المخبر، ويشبه بالشاه العائرة في عدم الانضباط والتمزق النفسي، وبمروق السهم من الرمية في عدم تأثرهم بأقل الإيمان. ويشبه الكافر بالأرزة في القسوة والغلظة، وبالحنظلة في فساد الظاهر والباطن لعدم قراءة القرآن، وبالكير من حيث قضائه على معاني الخير ونفث كفره بين الناس، وبالإبل الغريبة من حيث منازعه النبي عن حوضه، وهو يدفعهم ويشتد معهم، وبالأرض القيعان من حيث عدم التأثر بوحي الله، وبالفراش في إلقاء نفوسهم في المهالك وإصرارهم على ذلك.

وهكذا نلاحظ أن أكثر التشبيهات دارت حول المسلمين، وتشبيهات الكفار جاءت تجليه لتشبيهات المسلمين وبيان لها، ولذلك فهي قليلة وتشبيهات المؤمن كثيرة.

وشبه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بالنذير العريان، وبالرجل الذي يتربأ لقومه، وبالرجل الذي استوقد ناراً، وباللبنة التي أكملت البناء.

كما يشبه الصدقة بكل ما يزيد وينمو، بالفلو والحبة التي تطول وكما شبه الرسول عليه السلام بالإبل شبه بالشاة وبالفلو وبالكلب والحمار والحية والفراشة، ولا نكاد نجد ذكراً للنعام أو العنكبوت أو البقرة أو البعوض مما جاء في القرآن الكريم. ولا ذكراً للحمار الوحشي أو الأتن أو الصقر أو الثور أو البقرة الوحشية أو القطاة أو الغراب أو الظباء

مما هو مثبوت في التشبيهات الجاهلية، وعناصر الرسول صلى الله عليه وسلم التي استمد منها التمثيل لها اتصال وثيق بالإنسان في مجال معيشته أو مما يدركه ويراه أبداً.

فيشبه أيضاً بمظاهر الكون التي على مرأى من بصره في كل زمان ومكان كالنهر والمطر والغيث واليم والأرض والكواكب . مما يرد ذكرها في القرآن الكريم في سياقات مختلفة.

كما أن هناك عناصر من التراث الأدبي والحضاري للأمة العربية جاءت في تشبيه واحد . حيث إنه عليه السلام بث فيها معاني إسلامية. وهناك عناصر من أحوال البيئة المعاشة كالرعي حول الحمى والقيام على أمر الرعي والجبة التي تطول والسفينة وحامل المسك .

أو مما هو مختص بالإنسان وأحواله كالجسد والمال والغريب وعابر السبيل والذي يأكل ولا يشبع ... وغير ذلك.

وقد كان لادخال العنصر الإنساني وأحواله - في مجال كثير من الصور التمثيلية - تأصيل الصلة بينه وبين هذه الأشياء ، والتنبيه إلى أنها خُلِقَتْ وسُخرت له يقول عليه السلام " كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوقَدَ ناراً ، كَمَثَل رَجُلٍ بَنَى بنياناً ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأجَرَ قَوماً .. هذه واحدة.

والثانية إن فيه بيان لطبيعة الرسالة المحمدية التي جاءت

أساساً لتبصر الإنسان وترشده إلى الطريق الأسمى ،فهو مخلوق يمتاز بالعقل الذي يفكر به ،ويحدد الطريق الذي سيسلكه ،وهؤلاء الناس يتصرفون من محض مواقف أملتها عليهم عقولهم ،وتفكيرهم الصحيح . فهذا هو الإنسان الذي أرسل الله من أجله الأنبياء والرسل منذ آدم عليه السلام حتى سيدنا محمد عليه السلام ،وكلها تهدف إلى إقامة اعوجاجه ،وتوجيه عقله نحو اتجاه صحيح ، يؤهله لخلافة الأرض ، وقصة الوجود بدأت به وستنتهي به .

ونلاحظ أن العناصر في الحديث النبوى صارت لغة حية وخصبة وثرية تفصح عن دقائق المعاني وبعيد المرامي فمثلاً الأُتْرجة التي هي فاكهة استخرجت منها جملة معانٍ ، من طعمها ومن ريحها ومن ملاستها ومن نفاستها ومن شكلها . . . وكل هذه المعاني وصفت أحوالاً عند المؤمن الذي يقرأ القرآن ،فقد صارت الأترجه أكثر من لفظة ، ولم تعد دالة على هذه الفاكهة فقط.

وهكذا كل العناصر التي أدخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيانه اتسعت وصارت ذات أعماق ، فالريحانة مثلاً لم تعد هذه الزهرة الوادعة الجميلة الخضراء ،إنّما صارت ذات دلالات مختلفة ، فهذا المظهر الجميل دال على ظاهر مموه هو ظاهر المنافق ،وهذه المرارة الجارية في طباعها وعروقها صارت دالة على باطن مشوه هو باطن المنافق الذي يقرأ القرآن ، يُسْمع منه أعظم الكلام وأبلغ الموعظة ، وتهفو إلى سماعه القلوب والأسماع وتتعلق بما ينطق به الأفئدة والأرواح هذا حال الريحانة ،ثم هو إذا خُبر وسُبرت أغواره

رشح بما لا يطاق من فاسد الاعتقاد وسوء الأخلاق ، وهكذا باطـن الريحانة . فالبيان في الواقع يحدث عملية تحليل للأشياء ليستخرج منها عناصر يحولها إلى لغـة وبيان ،وكأن الكلمة تصير جملة كلمات، أو جملة أفكار أو جملة حقائق .

كما نلاحظ أن أكثر التمثيلات جاءت من باب إخراج المعنوي إلى حسي وهذا أصل التمثيل عند عبد القاهر ،كقوله عليه السلام " إنَّ الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها" ،"إنها المدينـة تَنفي خبثها كما يَنْفي الكير خَبَثَ الحديد"، " المُؤْمِنُ للمؤمـــن كالبُنْيَان يَشدّ بعضه بعضاً ".

وقليل هذه التمثيلات التي جاءت على مذهب الخطيب القزويني التي تشبه فيه هيئة حسية بهيئةحسيةأخرى كقوله عليه السلام "والذي نفســي بيده لأذودن رجالا عن حوضي كما تُذاد الغريبة من الإبل عـــن الحوض " وقوله عليه السلام "إنَّ أهل الجنة يتراءيون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءيون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشـــرق أو المغرب " ونلاحظ أن أمثلة هذا النوع جاءت لتصورأحداثاً من عالم الغيبيات.

ثم إن المشبه به الحسي أنواع أكثره مدرك بالبصر ،ومنه مدرك بالذوق ، ومنه مدرك باللمس ،ومنه بالسمع ،ومنه بالشم.

وصور التمثيل في الحديث قد تدرك بحاسة واحدة كحاســة البصر مثلاً في تشبيه إرباء الصدقات بتربية الفلو ،فنحن نرى صاحب الفلو وهو يتفقدها ويقوم عليها ،وهي تربو وتكبر.

وقد تشترك أكثر من حاسة لتحدد جوانب تكوين الصورة ، وتبرز أدق ملامحها ،وكلما تشعبت المنافذ الحسية وازداد تنوعها وازداد إدراكنا للصورة وبالتالي كان ذلك أدعى لثبوت الحقيقة الماثلة.

فمثلاً يُشبه قارئ القرآن العامل به بالأترجه ،ولا نكاد ندرك المعنى المقصود إلاّ من خلال مجموعة إدراكات ، ندرك لونها وشكلها من خلال الرؤية البصرية ،ومذاقها من خلال طعمها ،وريحها من شمها ،وحسن ملمسها من لمسها.

وكذلك الثمرة يدرك شكلها بواسطة البصر ،وطعمها بالذوق ، ورائحتها بالشم. وكذلك الريحانة يدرك جمالها وخضرتها بالعين ، وطعمها بالذوق ،ورائحتها بالشم.

وأحياناً يتداخل اللون في بث اشعاعات الصورة ففي قوله عليه السلام " إن مما يُنْبِت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم " نرى صورة طبيعية من واقع الحياة تتداخل فيها عناصر الألوان المختلفة ،فالربيع يبدو زاهياً بتنوع ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة ، ثم نرى هذه البهيمة وهي مستغرقة في الأكل بنهم ،وهنا يبرز عنصر الطعم فكلما ازدادت أكلاً ازدادت نهماً.

وقد تدخل في الصور حاسة اللمس كالذي نجده في الخامة من الزرع الخضراء وهي تميل يمنة ويسرة ،فلها ملمس لين يساعد على إدراك ليونتها . وأحياناً تبرز الرائحة كعنصر أساسي في الصورة ،كالرائحة

التي تنبعث من صاحب المسك وحامل الكير ، ومع هذا الإدراك تتداخل الرؤية لتكشف عن هيئة كل من صاحب المسك وهو يحمل مسكه وقد كساه منظراً حسناً . وصاحب الكير بناره وقبيح هيئته .

ونجد أن المدركات البصرية تكثر في صور المشبه به ، فهي موجودة في كل صورة ، وذلك لأنها من أقوى المدركات الحسية وأشيعها في عناصر البيان ، وأدلها عليه ، وهي إما أن تستقل بالصورة وتبرز في عنصر المشبه به كما في قوله عليه السلام " كما يمرق السهم من الرمية .. " وإما مشاركة للمدركات الأخرى على حد ما بينا سابقاً .

و يبرز في عنصر البيان عنصر الحركة والتصوير ، فنرى الحياة تدب في كل عنصر ، فالعين تراه ، والخيال يتمثله . فحين تكون الصورة قصة فإننا نرى فيها مشاهد متعددة تقع أحداثاً فمن قصة المتصدق والبخيل نرى مشهدين ، الأول صورة المنفق وهو لابس الجبة ، وفجأة نراها تتمدد وتتسع بحركة بطيئة ، وهو راضي النفس ، بشوش المحيا ، حتى تغطي كل جسمه .

ثم نرى صورة البخيل وقد التصقت الجبة عليه ، وهو يحاول أن يجذبها لتتسع وقد علاه الخوف والضيق مما ألم به ، وهذه الجنة لا تزداد الا لصوقاً . وترى صورة المجاذبة وما يشوبها من انفعالات الخوف والاضطراب . وهكذا تبرز الأحداث مصورة متحركة مع انفعالات وعواطف مرسومة على الوجوه .

وفي صورة الغيث الذي وقع على أرض ، نجد المشهد العام

مشهد المطر الغزير النازل من السماء على هذه الأرض الممتدة القاحلة ثم نرى أصناف الأرض الثلاثة ، الأولى تمسك الماء وتنبت بعدما يجري الماء في أوصالها فتهتز به وتتشقق وتزهو بأنواع الخضرة ، ثم نرى عطاء هذه الأرض يعم الجميع منهم من يأتي ليأخذ منها طعاماً له ومنهم من يرعى فيها وهكذا لا تزال مصدر خير للجميع.

ثم ننتقل إلى المشهد الثاني حيث الصنف الثاني من الأرض ، التي أمسكت الماء فحسب فجاء الناس ليستقوا منها لأنفسهم أو لدوابهم أو لزرعهم .

ثم نلمح الصنف الثالث فنرى تلك الأرض اليابسة الصلبة يمر عليها ماء المطر مروراً فلا تمسكه ولا تمتصه .

وهكذا نجد كل كلمات الصورة تعبر عن أدق المعاني المرادة .

وأحياناً تتوالى المشاهد مرتبة حدثاً بعد حدث وصورة بعد صورة كما في قصة ركاب السفينة .

وقد يبنى التمثيل على الحركة فقط كما في قوله عليه السلام : "كما تأرز الحية إلى جحرها " ، " كما يمرق السهم من الرمية " ، "كما يدور الحمار برحاه " ، ويساعد على ذلك الفعل المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث ، تأمل قوله " تأرز ، يمرق ، يدور ".

* * *

والدراسة البلاغية الحديثة تجعل التناسب النفسي بين طرفي التشبيه ضرورة لقبول التشبيه ، فهي لا تكتفي بتحديد الجامع بين

الطرفين إذا كان هذا الجامع في الحركة وحدها أوفي الشكل وحده ، وإنما تشترط التناسب مما يثيره كل طرف من خواطر وصور في النفس.

ونحن نلاحظ أن هذه الملاءمة النفسية تتخلف أحياناً عن بعض تمثيلات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك يبقى التمثيل في قمة أدائه وتأثيره. فالرسول عليه السلام يشبه عودة الإيمان إلى المدينة بعودة الحية إلى جحرها قال عليه السلام " إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها.

وفي الإيمان معنى الأمن والطمأنينة والسلام وفي المدينة معنى الطهر والقداسة والجلال ، أما الحية ففيها معنى الخبث والنكر ، وقد جرت في كلام العرب موصوفة بالظلم والضلال ، وضرب بها المثل في ذلك فقيل " أَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ ، وأَضَلُّ مِنْ حَيَّة ، لأنها تتخذ لنفسها بيتاً وكل بيت قصدت نحوه هرب أهله وأخلوه لها "(١) ، وكانت العرب تسمي الرجل الشجاع وذا الرأي حيه تعظيماً لشأنه (٢).

ويصف كثير عزة نفسه بقوة الأثر والتفوق والاقتدار ، فيشبهها بالحية فيقول :

وما زالَتْ رُقاكَ تَسُلُّ ضِغْني ... وَتُخْرِجُ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِبَابِي

وَتَرْقِينِي لك الحاوون حَتَّى ... أَجَابَكَ حَيَّةٌ تَحْتَ الحِجَابِ (٣)

---

(١) الحيوان ، الجاحظ ، ٤/١٤٩ - ١٥٠.

(٢) انظر المصدر السابق ٤/٢٣٦.

(٣) المصدر السابق ، ٤/٢٥٠ . الضِباب : بالكسر الضغن والعداوة.

يعني بالحيه التي أجابت تحت الضباب نفسه .

كما أن دواهي الأمور توصف بالحيه أيضاً يقول الاُقَيْبِل القينيّ :

لَقَدْ عَلِمْتُ وخَيْرُ القَوْلِ أنفَعُهُ ... إنَّ انطلاقي إلى الحَجَّاجِ تَغْرِيرُ

لَئِنْ ذَهَبْتُ إلى الحَجّاجِ يَقْتُلُنِي ... إنِّي لأحْمَقُ مَنْ تَحْدى بِهِ العِيَرُ

مستحقباً صُحُفاً تَدْمَى طَوابِعها ... وفي الصَّحائِفِ حَيَّاتٌ مناكيرُ (١)

وفي استعارة الحيات المناكير للكلام المهلك استعارة مناسبة جداً .

وقد انكفت في الحديث كل هذه المعاني الإيحائية ،وشبه عليه السلام عودة الإيمان من جهة معينة في الحيه ،وهو رجوعها إلى جحرها بعد انتشارها .

ويشبه عليه السلام المنافق الذي يقرأ القرآن رياءً بالريحانة وفي الريحانة معنى الاسترواح إليها ،والانتعاش بها ، كما أن لها رائحة عطرة ،تستحسنها النفس ،وقد شبه الرسول عليه السلام حفيديه بها فيقول " هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدنيا " (٢)

---

(١) المصدر السابق: ٤/٢٥٣- ٢٥٤ .

(٢) صحيح البخاري: ٨/٨ .

وفي المنافق معنى الخبث والرياء والحقد والتمزق ،والجامع بين الطرفين في التشبيه السابق لا صلة له بايحاءات كل طرف وقد ذكره الحديث في قوله "ريحها طيب وطعمها مر".

ويشبّه عليه السلام نفي المدينة لشرار الناس بالكير الذي ينفي خبث الحديد . والمدينة توحي بمعانٍ جليلة ،والكير يوحي بالخبث والإحراق والنار ، وهذه الايحاءات للكير تسقط عند التشبيه ،وينظر إلى جهة نقاء الطيب من الخبيث.

... وهكذا فإننا نرى أن الملاءمة النفسية ليست ضرورية لبلاغة التشبيه فقد تكون وتتوافق في الطرفين ،وقد تتخلف و يبقى التشبيه رائعاً بدونها.

ولم يقف العلماء الأوائل أمام هذه الفكرة طويلاً ، ولم يحققوا القول فيها ،إنما أشاروا إليها إشارات موجزة في مصنفاتهم نجدها عند ابن رشيق عندما استبشع بعض صور التشبيه لعدم توفر المناسبة بين الطرفين يقول بعد أن يذكرقول ابن الخباز :

كَأَنَّ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ فِيهِ ثِيَابٌ قد رَوِينَ من الدماءِ

" فهذا وإن كان تشبيهاً مصيباً فإن فيه بشاعة ذكر الدماء "(١).

كذلك أدرك عبد القاهر المناسبة النفسية القائمة بين الليل وحالة النابغة في قوله :

فإنكَ كالليلِ الذي هو مُدْرِكي وَإن خلتُ أنَّ المُنتأى عنك واسعُ

---

(١) العمدة ١/٣٠٠.

ففي ذكر الليل وصف لحالة نفسه الخائفة المرعوبة يقول عبدالقاهر: " فاختصاصه الليل دليل على أنه روّى في نفسه فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى ".(١)

كما ذكر الملاءمة بين النعمة والشمس في قول الشاعر :

نعمةٌ كالشّمسِ لمّا طلعتْ بَثّتِ الأشراقَ في كل بلدْ

يقول " إلاّ أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصي البلاد وانتشارها في العباد بالليل ووصوله إلى كل بلد وبلوغه كل أحد لكان قد أخطأ خطأ فاحشاً ".(٢) انظر إلى قوله " اخطأ خطأ فاحشاً " ودلالته على ضرورة اعتبارها فيما يجب اعتبارها فيه .

ثم يعود عبد القاهر ويدفع قيام هذه الملاءمة في كل تشبيه ويسميه المعنى المتطفل ،لأن اعتباره في كل تشبيه ضرب من التعمق والتطلب وحمل النص معنى لم يقصده صاحبه . يقول عبد القاهر بعد أن ذكر ملاءمة النعمة للشمس " وههنا شيء آخر وهو أن تشبيه النعمة في البيت بالشمس وإن كان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب وملبسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصلاً على سبيل العرض وبضرب من التطفل ،فإن تجريد التشبيه لهذا الوجه الذي هو الآن تابع ،

----

(١) أسرار البلاغة : ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق : ٢٢١-٢٢٢ .

وجعله أصلاً مقصوداً على الانفراد ومألوفاً معروفاً كقولنا " نعمتك شمس ساطعة ، وليس كذلك الحكم في الليل ، لأن تجريده لوصف الممدوح بالسخط مستكره ".(١)

وكلام علمائنا الأقدمين هذا يستوعب تشبيهات القرآن الكريم وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكثيراً من الشعر العربي . وأعني بذلك أن هذه الملاءمات النفسية لها سياقها الذى يقتضيها وقد يجرى التشبيه غير ملتفت إلى هذه الملاءمة ويكون تشبيهاً قوياً لأن السياق لا يقتضي هذه الملاءمة . والدراسة البلاغية الحديثة أغفلت هذا الأصل البلاغي ، وشغلت بتشابه الايحاء النفسي بين الطرفين في التشبيه ، وجعلته أمراً ضرورياً ، وقالت لا بد أن تتلاءم أحاسيس النفس وأحوالها عند ذكر المشبه به مع ما يقع في النفس عند رؤية المشبه به ، وإذا ماغاب في أحد الطرفين سقط التشبيه واستهجن . وعلى هذا استسقطوا كثيراً مما استحسنه القدماء .

وهذه القضية من القضايا التي أثارها وأشاعها العقاد في كثير من كتبه ، والعقاد أحد معالم النهضة الأدبية الحديثة كان له الأثر في التحول والتجديد . وقد هاجم شوقي بهذه القضية في كتابه الديوان في عدة مواطن يقول " إلا أن شعرا يسف إلى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب إلا زغل الصناعة -لاجزى الله صانعيها خيراً - . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا إليه همهم ، ولم يتوسلوا به إلى جلاء معنى ، أو تقريب صورة ، ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن

---

(١) المصدر السابق : ٢٢٢ .

يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به ،وكأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية ،وكأن الناس فقدوا قدرة الإحساس بها على ظواهرها ،نظروا إلى الهلال فإذا هو أعوج معقوف ، فطلبوا له شبهاً ،وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسي لأنه لن يهرب يوماً فنقتفي أثره ،ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه ،وإن كان لا بد من التشبيه فلنشبه ما يبثه في نفوسنا من حنين أو وحشه أو سكون أو ذكرى ، ففي هذا لا في رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر".(١)

ويقول في موضع آخر " فاعلم ،أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصي أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه ،وإنما مزيته أن يقول ماهو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به ،وليس هم الناس من القصيدة أن يتسابقوا في أشواط البصر والسمع ،وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس اخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه ،وإذا كان كدك من التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله في الإحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في نفسك ".(٢)

وذكر العقاد كلاماً يشبه هذا في مواطن متعددة . يقول في كتابه ابن الرومي بعد أن ذكر قصة ابن الرومي مع تشبيهات ابن المعتز:

---

(١) الديوان : ١٧-١٨ .

(٢) المصدر السابق : ٢٠ .

"وقد تصح هذه القصة أو لا تصح ،ولكنها في الحالتين تدل على رأي شائع في التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الأدب في عصر ابن الرومي وبين الذين يتعاطونه في هذه الأيام. فلابن الرومي تشبيهات كثيرة أبلغ من هذه التي مرت في القصة ،وأجمل وأنق في المعنى والديباجة ، ولكنهم لا يختارون له في مقام التحدي والتعجيز إلا هذه الأبيات وأمثالها ، لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه به ،وأن الغرض من التشبيه إنما هو مضاهاة أبيض على أبيض ،وأصفر على أصفر ،ومستدير على مستدير ،ومستطيل على مستطيل مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل".(١)

ويقول في كتاب شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي وهو يتحدث عن تشبيهات السيد توفيق البكري " نرجع إلى التشبيهات التي يخيل إلى بعض القراء والنقاد أنها هي قوام للشعر ،ودليل الشاعرية ،وهي عندنا لا تكون كذلك إلا إذا جاءت وسيلة لحسن التعبير ، ولم تجيء غاية مقصودة يتعمدها الشاعر و يتكلف لها ، ولو لم يكن لها دلالة ولا زيادة في احساسنا بالشيء المشبه أو المعنى المقصود "(٢) ... ثم يقول "وإنما القصد منه أن نعرف وقع الشيء كيف يكون الإحساس به كيف يحيك في النفوس"(٣) .. ويقول " أما التشبيه الذي لا يزيدنا حساً ولا تخيلاً فهو فضول وتعثر يعوق عن الغاية ،ولا يؤدي إليها ،ولذلك ننكر قول ابن المعتز في وصف

---

(١) ص ٣١٦.

(٢) و (٣) ص ٦٦-٦٧.

الهلال وهو المثل الأعلى عند طلاب التشبيه المحض التشبيـــه :

انْظر إليه كزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّـة   قَدْ أثقلته حُمولةً من عنْبــــر (١)

ويقول في كتابه ساعات بين الكتب وهو يبين الفروق بين الأدب العربي والأدب الانجليزي " يشبه الشاعر العربي ما يصفه ، فإذا هو يعني بالصورة المحسوسة دون الصورة الباطنية ،ويريك الهـــلال منجلاً ، والقمر درهماً فضياً ،والبستان طنافس ونمارق ،ولا يحكي لك وقع هذه الأشياء في النفس كما يحكي له صورتها في الأحداق ، ولولا ابن الرومي لخلا الشعر العربي من ملكة التصوير العالية ،وتشبيهاته الخيالية الرفيعة ".(٢)

وهكذا يتشابه الكلام في المعنى والعبارة ، ففي كل نص يلــح على ضرورة قيام الإيحاء النفسي في التشبيه .

تأمل قوله " وإن كان لا بد من التشبيه فلنشبه ما ينبه في نفوسنا من حنين أو وحشة أو سكون أوذكرى " ، وقوله " ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك " ،وقوله " أما التشبيه الذي لا يزيدنا حساً ولا تخيلاً فهو فضول وتمشــر " وقوله "إنما القصد منه أن نعرف وقع الشيء كيف يكون والإحساس به كيف يحيك في النفوس ".

والعقاد-رحمه الله - يعمم كثيراً من الأحكام ، فيها إفتيـــات

----

(١) ص ٦٨ .

(٢) ص ٤٨٩ .

على الشعر العربي ،وشعراء العربية كقوله " جعلوا التشبيه غاية " ولم يتوسلوا به إلى جلاء معنى أو تقريب صورة " ،" أوجبوا على الناظم أن يلحق بالمشبه كل صفات المشبه به " ، " ننكر قول ابن المعتز في وصف الهلال وهو المثل الأعلى عند طلاب التشبيه المحض " ، " يشبه الشاعر العربي ما يصفه فإذا هو يعني بالصور المحسوسة دون الصور الباطنية " ، " لولا ابن الرومي لخلا الشعر من ملكة التصوير العالية وتشبيهاته الخيالية ".

ولا بد أن نشير إلى أوجه الاختلال في كلام العقاد هذا .
ففي قوله جعلو التشبيه غاية نقول إن العقاد أراد بذلك من وصفهم بزغل الصناعة ،ولكن عبارته جاءت على وجه الإطلاق وكان يجب أن يكون أكثر تحديداً .

ويأتي التشبيه في الكلام -عادة- لغايات بيانية يقتضيها المقام . وهكذا كل فن من فنون الكلام . والصور البيانية تحمل من المعاني ما لا تحمله اللغة المجردة ،وتعجز عنه . يقول الرماني : " إن التشبيه والاستعارة جميعاً يخرجان الأغمض إلى الأوضح ويقربان البعيد "(١) وقد عدهما من باب اختصار المعاني ، فهما يختصران كثيراً من المعاني التي يُعبر عنها باللغة المجردة .

ويقول الرماني أيضاً وهو يتحدث عن طبيعة الاستعارة :

" وكل استعارة حسنة فهي توجب بيان لا تنوب منابه الحقيقة ، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة ،كانت أولى به ولم تجز الاستعارة "(٢)

---

(١) العمدة ،ابن رشيق : ١/ ٢٨٧ .
(٢) النكت " ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن " : ٨٦ .

فما تعبر عنه الاستعارة لا تعبر عنه الحقيقة وهذا منسحب على التشبيه لأن الاستعارة مؤسسة على التشبيه، بل هو منسحب على كل فنون البلاغة . وتأتي صور المشبه به لأغراض كثيرة . فقد تأتي لزوال شك أو تقرير معنى أو توضيح مبهم أو بيان مقدار... إلى غير ذلك من الأغراض التي ذكرها البلاغيون كعبد القاهر والسكاكي والقزويني وأغراض أخرى تفهم من السياق ... فكيف يقال إن تشبيهات العرب لم تأت لجلاء معنى أو تقريب صورة .

أما قوله " أوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به" فهو ظاهر الخطأ ،لأن العربي لم يكن همه عقد التشبيه على أي صورة كانت بل لمقتضى الحال أي لا بد أن يكون التشبيه مبيناً عن معنى يتطلبه السياق ، وليس هناك وسيلة للإبانة عن هذا المعنى إلا بهذا التشبيه وهذا هو معنى المطابقة .

ثم إنهم لم ينظروا أبداً إلى هذه الناحية الشكلية الحسية التي رماهم بها العقاد وأخذها الناس عنهم . إنما كانوا كما قال عبد القاهر "ولم ينظر إلى الأشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة بل من حيث تعيها القلوب الفطنة " (١) .

وقد استبشع البلاغيون تشبيهات وردت في كلام العرب بسبب فقدان الملاءمة حيث كان يقتضي السياق هذه الملاءمة كقول ابن الخباز:

كأنَّ شَقائق النُّعمان فيه ثيابٌ قد رَوين من الدماءِ (٢)

---

(١) أسرار البلاغة : ١٢٩ .

(٢) انظر العمدة / ابن رشيق ١/ ٣٠٠ .

لعدم المناسبة بين ذكر الدماء وشقائق النعمان فهم لم يجعلوا ذلك قاعدة استحسان التشبيه ،ولم ينكروا كل تشبيه جاء على خلافه .

كما يرد العقاد تشبيه ابن المعتز ويسميه تشبيهاً محضاً لأنه لا يصور احساساً في النفس ،ونقول إن تشبيهات ابن المعتز فيها من البراعة والاقتدار وسعة الخيال ما استوقف كثيراً من الشعراء والعلماء ، فها هو ابن الرومي يصيح حين يقال له لماذا لا تشبه بتشبيهات ابن المعتز ؟ " التي منها هذا البيت الذي استبشعه العقاد " فيقول " واغوثاه !! تالله لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ذلك إنما يصف ماعون بيته وأنا أي شيء أصف ؟"

ومن الغريب أن العقاد بعد أن يذكر هذه القصة يشك في صحتها فيقول " زعموا " ويقول " وقد تصح هذه القصة أو لا تصح "(١) .

ويسمي الثعالبي هذا البيت الذي استبشعه العقاد بالتشبيهات الملوكية الخاصة بابن المعتز ،والتي لا يجاريه فيها غيره .

يقول الثعالبي " إذا رأيت كاف التشبيه في شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والاحسان ،ولما كان غذى النعمة ،وربيب الخلافة ، ومنقطع القرين في البراعة تهيأ له حسن التشبيه ما لم يتهيأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ،ولم يستحدثوا ما استحدث من نفائس الأشياء ،وطرائف الآلات ،ولهذا المعنى اعتذر ابن الرومي في قصوره عن شأو ابن المعتز في الأوصاف والتشبيهات ، فمن أنموذج تشبيهاته الملوكية قوله : انظر إليه كزورق من فضة "(٢) .

---

(١) ابن الرومي : ٣١٦ .

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : ٢٢٧ .

والإبانة عما يبعثه المشبه في نفوسنا من حنين أو ذكرى شيء حسن وهو واحد من أهداف التشبيه، وغاياته، ويبقى للتشبيه وراء ذلك مناحٍ أخرى متسعة منها ما يدخل في محض الحس، أليس منها قوله تعالى في وصف شرر جهنم ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ (١) وقد أجمع أهل العلم على أن التشبيه بالجمالات الصفر جاء لبيان الشكل والمقدار من حيث الكثرة والتتابع وسرعة الحركة (٢)*، وهي أمور من محض الحس، وليس فيها إبانة عما يبعثه شرر جهنم في نفوسنا من رعب وفزع ومخاوف وهول.

ويقول العقاد أيضاً إن العربي يهتم بتشبيه الصور الحسية الظاهرة، ولا يصف الصور والمعاني والمشاعر الباطنية.

وقد أغفل العقاد - رحمه الله - كثيراً من صور التشبيه في الأدب العربي التي تحمل أجلّ المشاعر الوجدانية، وأدق الأحوال النفسية، فنُصيب يصف حالته غداة سماعه بخبر رحيل صاحبته بصورة شاجية لا يستوعب معانيها إلا التشبيه، وكذلك للخنساء تشبيهات تصف أدق مشاعرها النفسية، وغيرهم كثير كثير.

ويقول العقاد إنه لولا تشبيهات ابن الرومي لخلا الشعر من ملكة التصوير. ونقول: التصوير لا يختص بشعر ابن الرومي، بل إن صور ابن الرومي من صور زهير والنابغة والأعشى، وتمتلئ دواوين الشعر في عصره وغير عصره بألوان التصوير الرائعة.

---

(١) سورة المرسلات: ٣٢-٣٣.

(٢) انظر روح المعاني، الألوسي: ٢٩/١٧٦.

* نحن لا نتمحل في ايجاد الملائمة إنما نعتمد على الدلالات الظاهرة من النص.

ورأي العقاد هذا حول التشبيه جزء من النظرة العامة للخيال العربي لمدرسة الديوان ، وعبد الرحمن شكري يقول بمثل هذا الرأي ، فقد حمل على الخيال العربي والصورة العربية القديمة في كثير من كتاباته النثرية . يقول في مقدمة ديوانه الخامس "الخطرات" "وقيمة التشبيهات في إثارة الذكرى أو الأمل ، أو عاطفة أخرى من عواطف النفس أو اظهار حقيقة ، ولا يراد التشبيه لنفسه ، كما أن الوصف الذي استخدم التشبيه من أجله لا يطلب لذاته إنما يطلب لعلاقة الشيء الموصوف بالنفس البشرية وعقل الإنسان ".(١)

ويقول أيضاً : " والتشبيه لا يراد لذاته كما يفعل الشاعر الصغير ، وإنما يراد لشرح عاطفة أو توضيح حالة ، أو بيان حقيقة ".(٢)

وللدكتور عبد المحسن بدر مقالة بعنوان "أهمية النسخة الخاصة بعبد الرحمن شكري من ديوان أزهار الشر لبودلير" يذكر فيها أن هذا الرأي في التشبيه هو أثر من آثار بودلير في ديوانه " أزهار الشر" على هذه المدرسة ، وتبدو شديدة الوضوح في كلام شكري ، وهو أول من حمل على الخيال العربي ثم تبعه العقاد في ذلك . يقول الدكتور " ولا يستطيع باحث انكار بصمات أصابع بودلير وغيره من الشعراء والنقاد الرومانسيين والتي تبدو واضحة في حديث شكري عن الخيال الصورة ، كما لا يمكن لباحث أن ينكر ريادة شكري في هذا المجال

----

(١) الديوان : ٣٦٣ .

(٢) المصدر السابق : ٣٣٣ .

في نقدنا العربي الحديث ،وقد بارك العقاد آراء شكري وأيدها في كتاب ساعات بين الكتب. ثم بلورها فيما يشبه بيان مدرسة الديوان عن طبيعة الصورة . ويقول العقاد موجها الحديث لشوقي " اعلم أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصي أشكالها ،وأن ليست ميزة الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وإنما ميزته أن يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به.." (١) وقول العقاد هذا عن شوقي قد ذكرناه سابقاً ونحن بصدد ذكر كلام العقاد عن الملاءمة.

فالعقاد وشكري قد اقتبسا هذا الكلام من مقدمة ديوان بودلير " أزهار الشر " ثم نُقل إلى أدبنا ،وكانت هذه الفكرة عند كثير من الدارسين قضية مسلمة ،ورفضوا من أجلها كثيراً من تشبيهات القدماء ومن آراء البلاغيين ،وقد تسللت هذه الفكرة إلى كتبنا المدرسية ،وترى كثيراً منها يستهجن شعراً حسناً لفقدان الملاءمة ، كما وقع بسببها خلط كثير ، وقد تكون الملاءمة خفية محتاجة إلى مراجعة ولكن الدارس العجل الحافظ لها والذي جعلها نوراً يهديه السبيل سرعان ما يهدم هذا الشعر أو هذا الرأي البلاغي وأغفلوا ما جاء في كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم إننا نجد الشبه واضحاً بين كلام شكري والعقاد ،مما يدل على أن الفكرة قد نقلت بحذافيرها ،فكلاهما يتحدث عن الفرق بين التشبيه والوصف ،وكلاهما يتحدث عن فساد تشبيه الأشياء الحسية .

---

(١) مجلة الف،البلاغة المقارنة : ٦٣.

ثم اتسمت هذه المقالة عند المحدثين ، وأُصلت في دراساتهم، ومن اتبعوها وجعلوا التشبيه قائماً عليها ،الدكتور أحمد بدوي في دراسته للتشبيه في القرآن في كتابه "من بلاغة القرآن" فقد بدل ورفض كثيراً من ضوابط هذا الفن ،وكان له رأي فيها يخالف أساسياته التي اكتملت ونضجت على أيدي علماء البلاغة قديماً . يقول -رحمه الله- " أرى واجباً علي قبل الحديث عن التشبيه في القرآن الكريم أن أتحدث قليلاً عن بعض نظرات الأقدمين في هذا الباب ،لا أوافقهم عليها ، ولا أرى لها قيمة في التقدير الفني السليم "(١) ثم يقول " فما اعتمد عليه القدماء في عقد التشبيه العقل ،يجعلونه رابطاً بين أمرين أو مفرقاً بينهما وأغفلوا في كثير من الأحيان وقع الشيء على النفس ، وشعورها به سرورا أو ألماً "(٢).

وهذا هو رأي العقاد وشكري ، صار عند الدكتور أمراً مسلماً وكأنه معلومة من هواجس حسه . نلحظ ذلك في مثل قوله " لا أوافق ، ولا أرى ".

ثم انظر إلى مفهوم التشبيه عنده ، إنه يعرفه فيقول :" وليس التشبيه في واقع الأمر سوى إدراك ما بين أمرين من صلة في وقعهما على النفس "(٣) ،وقوله "التشبيه لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسي "(٤) فهو قد أغفل سائر قيود وضوابط التشبيه التي جهد في تحريرها شيوخ العلم واكتفى بهذا الرذاذ المستمد من كلام شكري

---

(١) ، (٢) من بلاغة القرآن : ١٨٧ .

(٣) المصدر السابق : ١٨٧ .

(٤) المصدر السابق : ١٩٠ .

والعقاد ، والذي مصدره كما قال الأستاذ "عبد المحسن بدر" هو مقدمه ديوان بودلير ،فقد جعل المعنى الجانبي أصلاً في التعريف.

ثم ينظر إلى أمثلة تغيب فيها هذه الناحية النفسية فيرفضها كقول ابن الرومي :

يَبذلُ الوعدَ للأخِلاء سمحاً ... وأبى بَعْدَ ذاك بذلَ العطاءِ
فَغَدا كالخِلافِ يُورق للعيـ ... ـن وَيأبَى الإِثمار كل الإِبـاءِ

يقول " جعلوا الجامع بين الأمرين جمال المنظر وتفاهة المخبر ، وهو جامع عقلي كما ترى ، لا يقوم على تشبيه فني صحيح ،وذلك أن من يقف أمام شجرة الخلاف أوغيرها من الأشجار لا ينطبع في نفسه عند رؤيتها سوى جمالها ،ونضرة ورقها ، وحسن أزهارها ،ولا يخطر بباله أن يكون لتلك الشجرة الوارفة الظلال ثمر يجنيه أو لا يكون ، ولا يقلل من قيمتها لدى رائيها ، ولا يحط من جمالها وجلالها ألا يكون لها بعد ذلك ثمر شهي ، فإذا كانت تفاهة المخبر تقلل من شأن الرجل ذي المنظر الأنيق ،وتعكس صورته منتقصة في نفس رائيه ، فإن الشجرة لا يقلل من جمالها لدى النفس عدم إثمارها ، وبهذا اختلف الوقع لدى النفس بين المشبه والمشبه به ،ولذلك لا يعد من التشبيه الفني المقبول ".(١)

لو سلمنا بمقولته هذه لوجب علينا أن نرد قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين شبه المنافق بالريحانة في قوله " وَمَثَلُ المنافِق

---

(١) المصدر السابق : ١٨٨.

الذي يقرأ القرآن كالريحانة " والجامع بينهما جمال المظهر وقبح المخبر ثم إن الريحانة لها إيحاءات أكثر من إيحاءات الشجرة ،فمن يقف أمام الريحانة يجد سوى جمال المنظر حسن الرائحة وراحة النفس والوداعة والبراءة والصفاء ، وغير ذلك مما لا يتلاءم من قريب ولا من بعيد مع خبث النفاق وضعته وبشاعته ونكره ،ومع ذلك فقد شبه به رسول الله فأدى المعنى على أكمل وجه ، ثم أن بذل الوعد وإباء العطاء أقل بشاعة من المنافق ، والريحانة كما قلنا أكثر ثراء من المنافق ،وهذا يعني أن الأصل الذي استقام عند الباحث الكريم -وهو من أفضل من كتبوا في هذه المسألة - ينتهي لا محالة إلى رد بلاغة أفصح العرب صلوات الله عليه وسلم ،وكفى منقصة وضعة وفسولة لهذا الرأي أن يرد أبلغ بيان عرفته العربية بعد كلام الله رب العالمين .

ثم يرفض الدكتور أحمد بدوي أن يكون الجامع الحسي رابطاً بين طرفي التشبيه في قول ابن المعتز وهو يصف البنفسج :

وَلاَ زَوَرْدِيهٍ تَزْهو بِزُرْقَتِها بَيْنَ الرياضِ على حُمْرِ اليواقيت
كأنَّها فَوْقَ قامات ضَعفن بِها أوائلُ النَّارِ في أطراف كبريتِ

فيقول " فليس ثمة ما يجمع بين البنفسج وعود الكبريت ،وقد بدأت النار تشتعل فيه سوى لون الزرقة التي لا تكاد تبدأ حتى تختفي في حمرة اللهب ، وفضلاً عن التفاوت بين اللونين فهو في البنفسج شديد الزرقة ، وفي أوائل النار ضعيفها فضلاً من هذا التفاوت نجد الوقع النفسي للطرفين شديد التباين "(١).

---

(١) المصدر السابق : ١٨٨.

فقوله هذا تفسير وتطبيق لقول العقاد " يشبه الشاعر العربي ما يصفه فإذا هو يعني بالصور المحسوسة دون الصور الباطنية " والدكتور أحمد بدوي ينفي أي علاقة بين الطرفين إلا علاقة الوقع النفسي ، والقرآن الكريم يشبه بمحض الحس كما في آية ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ وكما في أحاديث الرسول عليه السلام التي ذكرناها سابقاً ،فمسألة اعتبار العلاقة وحدها أمر غير مسلم به .

ويذكر لنا عبد القاهر أبيات ابن المعتز هذه ويقول عنها : انها "أغرب وأعجب وأحق بالولوع وأجدر "(١) ولو قرأ نقادنا الذين هاجموا هذا الأصل تعليق عبد القاهر على هذه الأبيات وأشباهها بروح علمية منصفة لا تسيء الظن بمقالة علمائنا ثم تحسن الظن ،بل وتنبهر بمقالة الآخرين لوجدوا كلام عبد القاهر في استحسان هذه الأبيات راجعاً إلى أمر في هذه الفطرة وهو داخل في طبعها ، وأنفذ في أسرارها وأغوارها . وكان وجه استحسان عبدالقاهر لهذا ومثله هو أن الشاعر عقد بين أمرين متباعدين وكشف بينهما شبهاً صحيحاً معقولاً يقول " ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يُعْهَد ظهوره منه وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر وكان بالشغف منها أجدر "(٢) . وهذه هي علة الاستحسان وهي كما ترى موءسسة على مبنى الطباع وموضوع الجبلة ، وأن الشاعر حين ينفذ في قلب الأشياء ويستخرج لك منها لغة التلامح

---

(١) أسرار البلاغة : ١١٠ .

(٢) المصدر السابق : ١١٠ .

والتناغي والتشابه مع ما بينهما من عظيم الاختلاف يستثير من النفس وفيه الارتياح ،ونعجب كيف يطرح هذا الكلام المعتدل ويطفأ وهجه.

وينكر الدكتور كذلك قول ابن المعتز حين يشبه ضوء الصبح بتطير غراب :

كأنّا وضوء الصبح يستعجلُ الدُّجى
نطير غراباً ذا قوادم جُون

ويقول : " وهكذا لم ير ابن المعتز من الدجى وضوء الصباح سوى لونيهما أما هذا الجلال الذي يشعر به في الدجى ، وتلك الحياة التي يوحي بها ضوء الصبح والتي عبر القرآن عنها بقوله ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ مما لم يحس به شاعرنا "(١).

فالناقد قد أغفل الدقائق التي نبه إليها عبدالقاهر في صنعة هذا الكلام المحكم . فليس المغزى من التشبيه تشبيه لون الليل مع الصبح بالغربان ذات القوادم الجون كما يزعم ،إنما أراد الشاعر كما يقول عبد القاهر في هذا التشبيه أن يصور هيئة دقيقة في الليل اعتبرها عبد القاهر من تمام التدقيق والسحر في هذا التشبيه ، وهي أنه أراد تصوير استعجال ضوء الصبح لظلام الليل ودفعه إياها بتطير الغراب لأنّ الغراب إذا كان هادئاً فأُزعج وأُخيف طار بسرعة وتعجل وهذا يناسب استعجال ضوء الصبح لليل . وبهذا نجد الملائمة بين يستعجل وتطير .

---

(١) من بلاغة القرآن : ١٨٨ .

ولا يزال الدكتور الفاضل يتتبع تشبيهات ابن المعتز مقتبساً الكثير من كلام العقاد دون أن يشير إلى مصدر كلامه يقول " ولن نقدر التشبيه بنفاسة عناصره ، بل بقدرته على التصوير والتأثير فليس تشبيه ابن المعتز للهلال حين يقول :

انظُرْ إليه كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضةٍ قَدْ أثقلتهُ حمولةٌ من عَنْبَرِ

وتلمس شبهاً لهذا الزورق الفضي المثقل بحمولة العنبر ، مما يرفع من شأنه أو ينهض بهذا التشبيه الذي لم يزدنا شعوراً بجمال الهلال ، ولا أنساً بروءيته "(١).

وهذا الكلام يطابق قول العقاد فهو حين يذكر هذا التشبيه في كتابه ابن الرومي يقول " ولكنهم لا يختارون له في مقام التحدي والتعجيز إلا هذه الأبيات وأمثالها لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه به "(٢) فتأمل هذه الجملة الأخيرة ، وتأمل قول الدكتور أحمد بدوي " ولن نقدر التشبيه بنفاسة عناصره بل بقدرته على التصوير " .

وانظر الى قوله بعد أن يذكر بيت ابن المعتز " وتلمس شبهاً له بهذا الزورق ..." وحاول أن تجد الشبه بين قوله هذا وقول العقاد وهو يعلق على البيت نفسه في كتابه شعراء مصر " فلو أننا تمثلنا زورقاً من فضة وتمثلنا حمولة من عنبر تثقله لما زادنا ذلك احساساً بالهلال ولا اعجاباً بحسنه وشكله "(٣).

---

(١) المصدر السابق : ١٨٩.
(٢) ص ٣١٦.
(٣) ص ٦٨.

وهكذا ظل الذين لا يجدون في رؤوسهم إلا ما يحصلون من كلام الآخرين يهدمون أصول البلاغة العالية في تراث العربية العظيم.

ويظل الدكتور محكماً الشعور النفسي في كل تشبيه فيرد كثيراً من التشبيهات التي اتفق البلاغيون على جودتها وحسنها.

فيرد التشبيهات الخيالية، وينكر على الأديب أن يبدع صوره من نسج خياله، كأن يركب صورة المشبه به من عناصر محسوسة خيالية لا وجود لها في الواقع كقول ابن المعتز:

وكأن مُحْمَرَّ الشَّقِيـــقِ ... إذا تصوَّب أو تَصَعَّـــد

أعلامُ ياقوتٍ نُشِـــرْ ... نَ على رماحٍ من زبرجـــد

يقول الدكتور أحمد بدوي راداً هذا النوع " وقبلوا من التشبيه ما كان فيه المشبه به خيالياً، توجد أجزاؤه في الخارج دون صورته المركبة، ولا أتردد في وضع هذا التشبيه بعيداً عن دائرة الفن لأنه لا يحقق الهدف الفني للتشبيه، فكيف تلمح النفس صلة بين صورة ترى وصورة تجمع العقل أجزاءها من هنا وهنا ".(١)

فحين رأى - رحمه الله - أن الإيحاء النفسي لا يستقيم مع هذا النوع الخيالي، رده وأخرجه عن دائرة الفن، وهو الفن الحقيقي، ونحن نلمح في التشبيه النعمة والنضارة والثراء في الياقوت والزبرجد.

---

(١) من بلاغة القرآن : ١٨٩.

فالخيال من المجالات المبدعة التي تدل على براعة الشاعر، وعمق شعوره، وقدرته على إثارة كوامن الحس، وبث الحياة في الأشياء.

ويشبه القرآن الكريم بهيئة ليس لها نظائر في الوجود الإنساني قال تعالى:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ... ﴾ (١)

يقول الحسن البصري - رحمه الله - في قوله ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ لو كانت هذه من شجر الدنيا لكانت إما شرقية أو غربية.

ويقول الشيخ ابن سينا إنها ليست من عالم الحس الذي لا يخلو من أحد الأمرين (٢).

وهذا يعني أن عناصر هذه الآية عناصر غيبية وهذا يساوي قولنا خيالي إلا أننا لا نقول هذا في كلام الله تعالى ولا في كلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويدخل تحت هذا النوع قوله عليه السلام " مَثَلُ البَخيلِ والمتصدق مَثَلُ رجلين عليهما جُبَّتان من حديد... إذا همَّ المُتَصدق بصدقه اتسعت عليه حتى تُعفّي أثره، وإذا همَّ البخيلُ بصدقة تقلصت عليه والتصقت يداه إلى تَرَاقيهِ، وانقبضَتْ كلُّ حلقةٍ إلى صاحبتها".

---

(١) سورة النور : ٣٥.

(٢) انظر روح المعاني، الألوسي : ١٨/١٧٣.

فهل نجد في الوجود الحسي جبة من حديد تلين وتطول على لابسها حتى تُغْطى أثره ، وتخفى بنانه ، وهل نجد جبة تضيق وتتقلص على صاحبها حتى تكاد تخنقه .

فهاتان الصورتان في الآية والحديث لا تختلف عن الصور التي سماها " البيانيون " مركباً خيالياً .

وهكذا نلاحظ أن الدكتور أحمد بدوي يظل متتبعاً لتشبيهات ابن المعتز واحداً واحداً فيردها و ينقض الاساس الذي قامت عليه ، وكأن القضية ليست قضية تشبيه إنما قضية تشبيهات ابن المعتز.

وقد وقفت عند هذه المسألة وقفة طويلة لانها شاعت في الكتب كما شاعت في دروس أدب العربية ،ومثل هذا الكلام تربت عليه أجيال وهوفاسد كما ترى .

الفصل الرابع:
من أسرار الصياغة في التمثيل النبوي

١ - أدوات التشبيه .

٢ - خصائص أسلوبية .

٣ - أحوال إنّ .

٤ - النفي والاستثناء .

٥ - مواقع إنّما .

٦ - وسائل التقرير الفعلية .

٧ - تعريف الطرفين .

٨ - أساليب الانشاء .

٩ - علاقات الجمل .

١٠- الإيجاز .

١١- شذرات بيانيه .

١٢- أسلوب التقسيم .

١٣- أسلوب المقابلة .

من أسرار الصياغة في التمثيل النبوى

يتجه هذا الفصل نحو الكشف عن وجوه صياغة الحديث الذى صيغ فيه التمثيل ، والبحث عن أسراره ،ومحاولة استبطان دقائق معانيه من وراء كلماته في من خلال أحوال وكيفيات اللغة ، ومما يتفق مع ما قاله علماء الحديث ،أو علماء اللغة من غير تزيّد يخل بالمعنى ويرمى به إلى شطآن بعيدة عن جوهر السليقة العربية الخالصة. ومنهجنا الذى اتبعناه هو جمع أهم الأحوال البلاغية كل نظير مع نظيره ، ثم وضعها تحت دراسة مستقلة .ومن وجوه الصياغة التي تناولناها :

أحوال إن - النفى والاستثناء - إنّما - وسائل التقرير الفعلية- تعريف الطرفين - أساليب الإنشاء - علاقات الجمل - الإيجاز - بعض الشذرات البيانية - أسلوب التقسيم - أسلوب المقابلة .

وكنا-أحياناً - لا نجد حرجاً من التعرض لوجوه صياغات أخرى أثناء دراسة هذه الأحوال ، مما يغرينا به النظر ،حرصاً على إبراز مواطن الحسن في النص .

وقد رأينا أن نُسْبق دراسة هذه الأساليب ببيان لأدوات التشبيه المستعملة في الحديث ، لأنّ لها عُلْقة لا تخفى ببحث الصياغة ثم دراسة أهم الخصائص الأسلوبية التي بُني عليها المعنى في تمثيله عليه السلام ، وأدوات التشبيه التي جاءت في تمثيله عليه السلام هي : الكاف ، مثل ،كأنّ ، شبه .

وقد جاءت كلمة تُشْبِه في حديث واحد ، في قوله عليه السلام " أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أو كالرَّجُلِ المُسْلِمِ لا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا ... " وجاءت " كأنَّ " مرة واحدة أيضاً في تمثيله عليه السلام في قولـه : " كُنْ في الدُّنْيَا كأنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سبيلٍ ".

وتكثر" الكاف " و "مثل " في تمثيلاته عليه السلام.

ويذكر ابن جني أن أصل بناء "كأنَّ " في الكلام قولهـم " زيد كعمرو " ثم أرادوا توكيد الجملة الخبرية " بإنَّ " فقالوا : "إنَّ زيداً كعمرو" ثم بالغوا في توكيد التشبيه فقدموا حرفه أول الكلام عناية به ، فلما تقدمت " الكاف " وهي جارة لم يجز أن تباشر " إنَّ " لأنها تنقطع عنها فوجب فتح " إنَّ " فصارت "كأنَّ زيداً عمرو"(١)

ويذكر عبد القاهر في باب النظم أن هناك فرقاً بين " مثل وشبه والكاف " وبين" كأنَّ " لأن كأنَّ تؤدى معنى لا تؤديه سواها من حروف التشبيه (٢).

وقد سمى ابن طباطبا التشبيه " بكأنَّ " تشبيهاً صادقاً وبما عداها ما قارب الصدق (٣).

فكأن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم السابق يكاد ينقل فيه المشبه به إلى المُشبه فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعو المرء من لأن يكون غريباً في الدنيا ويحثه على المبالغة في الابتعاد عنها والشعور الحقيقي بالغربة فيها.

---

(١) انظر الخصائص : ١/٣١٧.
(٢) انظر دلائل الإعجاز : ٤٢٥.
(٣) انظر عيار الشعر : ٢٧.

و " الكاف " إما أن تتصل بـ " مثل " التي بمعنى الحال والقصة العجيبة الشأن في قوله عليه السلام :

" مَثَلِي وَمَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أتَى قَوْماً "

أو أنها تدخل على " ما " كما في قوله عليه السلام :

" كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ ".

" كما تأرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِهَا ".

وقد بنى المعنى في أكثر الأحاديث على هيئات أسلوبية متشابهة تظهر واضحة في تمثيله عليه السلام.

فقد يأتي المشبه مبهماً لا يتضح في الكلام فتأتي صورة المشبه به لتوضحه كما في قوله عليه السلام:

" مَثَلِي وَمَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ غَيْثٍ "

" مَثَلُ المؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِم وتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ "

" مَثَلُ اليَهُودِ والنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ عُمَّالاً "

" مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً "

إلى غير ذلك من الأحاديث .

وهذا النوع يأتي التمثيل فيه بـ " مثل " في الأكثر ، وتكون صورة المشبه به قصة تُحْكَى ، ولهذا قلنا أن المشبه مبهم وما يوضحه هو القصة التي بعدها. ففي قوله عليه السلام : " مَثَلِي وَمَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ " قد يبدو غير مبهم ولكن حين ننظر إلى المشبه به وهو الغيث وأحوال الأرض التي أصابها هذا الغيث يبدو لنا أن قوله

" مَثَلي ومثل ما بَعَثَني اللهُ بهِ " يُراد به غير هذا الظاهر الواضح ، أى يراد به بيان المواقف المختلفة لأحوال النفوس التي تتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحي ربه فمنها كذا ومنها كذا.

ومثله قوله عليه السلام " مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم " لا شك أن التّواد والتراحم المفهوم من لفظ المشبه ليس من البيان الواضح وقد أبان عنه الجسد في تواصله وتعاضده ، وأنه إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء . . وهكذا فالمعنى قبل المشبه به شيء وبعد المشبه به شيء آخر.

وقد يأتي المشبه به واضحاً ثم يأتي التمثيل ليؤكده أو ليقرره أو لأى غرض آخر.

كما في قوله عليه السلام لحكيم بن حزام " يا حكيمُ إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فمن أخذَهُ بسَخَاوَةِ نفسٍ بُورِكَ له فيه ، ومن أخذَهُ بإشْرافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارك له فيه وكان كالّذِى يَأْكُلُ ولا يَشْبَع ".

ومنه قوله عليه السلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : " لا تَشْتَرِهِ ولَوْ بدِرْهم فإنَّ العَائِدَ في هِبَتِهِ كالكلب يَعُودُ في قَيئِهِ ".

وهناك هيئة بنائية تكررت في أكثر صور المشبه به في تمثيله عليه السلام :

كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَاناً .
كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ عُمّالاً .
كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَرْعَى إبلاً أو غَنَماً .
كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى العَدو .
كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ ناراً .

فالرجل عنصر أساسي في الأسلوب ومابعده جملة صفة له .

مواقع إنَّ :

تتنوع مواقع " إن " في أسلوب التمثيل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هذه المواقع :

١ - دخول " إنَّ " على أمور مغيبة أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك إخباره عن الفتن التي ستقع بعد موته ، فهو يخبر بها ويحذر من مغبتها ، والنفس لا تحتاج إلى التوكيد قدر حاجتها إليه في الإخبار عن شيء مغيب يخبر الكلام أنه سيقع .

روى البخاري بسنده قال : " أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أُطُم من آطام المدينة فقال " هل ترون ما أرى قالوا : لا . قال : فإني لأرى مواقعَ الفتن خلال بيوتكم كمواقع القَطْر " . والرؤية بمعنى العلم ، ولما كان أمر الرؤية لم يتحقق بعد فقد أُكّد الحديث بمؤكدين " بإنَّ واللام " وفي ذلك مزيد من التوكيد . يقول عبد القاهر " ثم إنا إذا استقرينا الكلام وجدنا الأمر بيّناً في الكثير من مواقعها أنَّه يقصد بها إلى الجواب "(١) .

ومن الأمور المغيبة التي جاءت بالتوكيد الإخبار برجوع الإيمان في آخر الزمان إلى المدينة ، قال عليه السلام : " إنَّ الإيمان ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرِزُ الحيَّةُ إلى جُحْرِها " . فرجوع الإيمان إلى المدينة بعد أن يضعف أمر حاصل في آخر الزمان ، وقد أُكّد " بان واللام " .

ومما جاء فيه الكلام مؤكداً لأنه خبر مغيب قوله عليه السلام

---

(١) دلائل الإعجاز : ٣٢٤ .

" إنَّ مِنْ ضِئْضِيءِ هذا أو في عقب هذا ـ قوم يَقْرَؤُونَ القرآن لا يجاوز حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرقون من الدِين مُرُوق السّهم من الرمية " . أخبر عليه السلام بحدوث هذا الأمر مؤكدا ذلك " بإن " وفي الحديث غرابة جعلت للتوكيد معنى و مذاقاً من هذه الجهة وهي ما ذكره عليه السلام من أوصاف هؤلاء .

ومعنى قوله " ضئضيء " بضادين مكسورتين وآخره مهموز هو أصل الشيء (١) . واختيار الرسول عليه السلام لهذه الكلمة الغريبة دون غيرها كنسل هذا أو أرومة هذا دلالة على غرابة هذا الرجل وغرابة هذه الفئة . وفي تتابع الحرفان إشارة إلى تشابه لاحقهم بسابقهم ،وكأن بعضهم يشير إلى بعض ،قوم تشابهت قلوبهم ونفوسهم وألسنتهم ،أولهم هذا .

ومن الأمور المغيبة المؤكدة إخباره عليه السلام عن أمر مخوف تقع فيه الأمة من بعده . وهو كثرة الغنى والرفه قال عليه السلام " إنَّمَا أخافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي ما يُفْتَحُ عليكم مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا " .

ومن أجل هذا المعنى فقد بُني الحديث كله على توكيد ذلك ، يروى أبو سعيد الخُدْرِيّ أن رجلاً قال بعد أن سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم السابق قال : " يا رسُولَ اللّه أوَيأْتِي الخيْرُ بالشّرِّ ، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ،فقيل له : ما شأْنُك تكلم النبي صلى الله عليه وسلم ولا يُكَلِّمُكَ ،فَرَأَيْنَا أنه يُنزلُ عليه فيمسح عنه الرُّحَضَاء فقال : أيْنَ السائِلُ ـ وكأنَّه حَمِدَهُ ـ فقال إنَّهُ لا يَأْتِي الخيْرُ بالشّر وإن مما

---

(١) انظر عمدة القاري ، العيني : ١٥ / ٢٣١ .

يُنبِتُ الرَّبيعُ يقتُلُ أو يُلِمُّ، إلّا آكِلةَ الخضراء أكلت حتّى إذا امتدّت خاصِرتاها استقبلت عينَ الشّمسِ فثلطت وبالت ورتعت ، وإن هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فنِعْمَ صاحِبُ المُسْلِمِ ما أعطى منهُ المِسْكينَ واليتيم وابن السّبيلِ ... (١)

افتتح الرسول عليه السلام كلامه بالتوكيد " بإنّ " " إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها " وذلك لغرابة المعنى ، ولأن الخوف يكون من أمر فيه شر وفتنة أما الخوف من خيرات الأرض ونعيم الحياة فهو أمر مستغرب ، وكذلك فإنّ هذا المعنى إخبار لغيب لم يقع بعد ، والأمر المغيب في حاجة إلى التوكيد لإقراره في النفوس .

وفي دخول حرف الجر على " ما " الموصولة في " مما " إشارة إلى أن خوفه هذا هو شيء من أشياء كثيرة يخاف منها عليهم ، ولكن أكثرها خطراً هي هذه ، وهو شديد الحرص على أمته صلى الله عليه وسلم من مواطن الخطر والشرور ، وسبب ذلك أنّ مضرة الغنى أخروية في الغالب ، أما مضرة الفقر فدنيوية .

وفي تقديم المسند اليه " مما " على الخبر الفعلى " أخاف " تأكيد لخوفه ولمزيد العناية بهذا الضرب من المخاوف لأنه من أضرها بالأمة .

وفي قوله " يُفْتَحُ " بالبناء للمجهول دلالة على أن نعم الدنيا حين تشع وتفيض إنّما تكون من الله وليس من فعل العبد . وفي

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ١٥٠ .

كلمة " الفتح " إشارة خفية إلى أنه يأتي بعد شدة وضيق من الرزق وإغلاق ، تتدفق بعدها الخيرات وتفتح .

وانظر إلى جملة التوكيد الأساسية ، وما تشع به من عناصر توكيدية .

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم قد استخلصوا من قوله عليه السلام أن الخير يأتي بالشر فقال رجل يسأل عن حقيقة هذا المعنى الغريب فقال " أويأتي الخير بالشر " ، فالاستفهام جاء هنا للاستبعاد والإنكار كما قال النووي (١) ، وقد جاء حرف العطف بين همزة الاستفهام وبين الفعل للإشارة إلى أن ثمة معنى مقدراً جرى في نفس المتكلم لكنه لم يفصح عنه ، وتقديره الفتح خير والنعمة خير ويأتي الخير بالشر .

ثم نفى الرسول عليه السلام مجيء الخير بالشر بالتوكيد ليزيل غرابة الخبر فقال " إنه لا يأتي الخير بالشر " . وقد أكدت الجملة هنا لأنها واقعة في جواب سائل وهذا من مظان التوكيد .

وقد ذهب سعد الدين التفتازاني إلى أن الجملة الواقعة في جواب سائل تؤكد حين يكون الجواب موافقاً لظن السائل ومادام أن الكلام يؤكد والجواب على وفق ظن السائل فمن باب أولى أن يؤكد حين لا يكون موافقاً ، والسائل هنا يسأل بسؤال منكر مستبعد ، فالأصل عند هذا السائل أن الخير لا يأتي بالشر وإنما يأتي بالخير ، فجاء جواب الرسول صلى الله عليه وسلم موافقاً لظنه . يقول التفتازاني : (٢)
" إن المخاطب إذا كان متردداً في الحكم طالباً له حسن تقويته بمؤكد " .

----

(١) شرح النووي لصحيح مسلم : ١٤٢/٧ .
(٢) المطول : ٢٥٩ .

وهذا يخالف ما ذهب إليه عبد القاهر من أن جملة الجواب تؤكد إذا كان الجواب على غير ما يظن السائل يقول " ولعلم أنها قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلم في الذى كان أنه لا يكون ".(١)

ثم يستأنف الرسول صلى الله عليه وسلم كلاماً جديداً فيقول : " إنَّ مما يُنْبِتُ الربيع يَقْتُلُ أو يُلِمّ " وقد دخلت إن على قصة المثل لتؤكد ما يرمى إليه معنى المثل من أن من زهرة الدنيا ما يقتل الناس كما يقتل وفرة الربيع الأنعام.

وقد جاءت هذه القصة لتؤكد معنى خوفه عليه السلام " إنّ هذا المال خضرة حلوة " فأكدت الجملة بإنّ وقد جاء التوكيد ليربط بين المشبه وهو المال وبين المشبه به وهو الخضرة. وهذا الربط هو أصل المعنى في هذا المثل الشريف . وهكذا نجد الحديث كله مبنياً على توكيد هذا المعنى .

٢ - وتأتي " إنَّ " في بيانه عليه السلام للتنبيه واللفت كما في حديث حكيم بن حزام ، قال له عليه السلام بعد أن سأله المال ثلاثاً " يا حكيم إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ " . حكيم لا ينكر كون المال خضرة حلوة إلاّ أن رسول الله عليه السلام أراد أن يلفته إلى شدة خطر المال على النفس حين يبسط عليها سلطانه ،وقد رأى الرسول عليه السلام شهوة نفس حكيم نحو المال تكاد تتسع وكلما أُطعم منه ازدادت حاجته إليه ولذلك فقد خشي عليه وهو الصحابي الجليل أن تقع نفسه في هذه الحمأة .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٣٢٧ .

٣ - وتأتي " إنَّ " في علة الأمر والنهي كما في قوله عليه السلام لعمر بن الخطاب حين أراد شراء فرس قد أعطاها لرجل " لا تشتره وإنْ أعطاكه بدرهم واحد ، فإنَّ العَائِدَ في صدقته كالكلب يَعُودُ في قَيْئِهِ ".

فالجملة الأولى قد أثارت في النفس سؤالاً لما كان النهي فجاءت الجملة الثانية لتعلل فأُكدت " بإنَّ " وكأن هذه الجملة متولدة من الأولى ، وقد دخلت على الجملة الثانية فاء السبب فعطفتها على الجملة الأولى عطف العلة على المعلول ،وربطت بين الجملتين برباط لفظي .

٤ - ومن مواقع " إنَّ " في بيانه الاحتفاء بالخبر كما في قوله عليه السلام " إني نَذِيرٌ إنَّما مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رأَى العَدو ... " فقد أراد الرسول اشعار عشيرته بأهمية هذا الأمر فأكد " بإنّ والضمير ".

مواقع النفي والاستثناء :

يأتي أسلوب النفي والاستثناء في تمثيله عليه السلام في سياق المقامات ذات الفخامة والجلال . والنبرة الشديدة العالية.(١)

فيدخل على المعاني الغريبة التي تحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يكيدُ أهل المدينة أحدٌ إلاَّ انْمَاعَ كما يَنْمَاعُ المِلحُ في المَاءِ ".

أراد عليه السلام أن يؤكد حرمتها بهذه الأداة القوية حتى تبقى المدينة موضع قداسة وحصانة ،ولتنبيه إلى أن الله ينصر دينه ويحميه ،في بلد رسوله التي ارتضاها له . وانظرالى قوله " انماع " التي تأتي لميع الأشياء القابلة للذوبان كالسمن والفضة ،واستعارتها لشدة هلاك الله وغضبه على من اعتدى على حرمة هذه المدينة.

ومن هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يولد على الفطرة فأبواه يُهودانه أو ينّصرانه أويمجّسانه ".

إن خروج المولود وهو مزود بالفطرة الملائمةللدين والمنطوية على الوحدانية أمر الشأن فيه أنه غير معلوم فالرسول عليه السلام يقرر هذا الأمر ،ويؤكده بالنفي والاستثناء فكل مولود يولد على الفطرة أى الدين . وعندما جاء هذا المعنى بهذه الأداة هزالنفس وايقظها لتحمل تبعات هذا الدين والعمل علىاستدامة هذه الفطرة وترسيخها في النفس والنظر في سلوك من هو مسئول عنهم وتوجيههم نحوالإيمان والمحافظة على أصل الفطرة.

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ؛ ٣٢٢ ومابعدها .
دلالات التراكيب ، د. محمد أبو موسى ؛ ٩٩ ومابعدها .

وانظر إلى قوله "مولود" وكيف أنها جاءت في سياق النفي لتدل على العموم أي كل مولود يولد على فطرة التوحيد والإيمان بالله .

ويأتي النفي والاستثناء للتوكيد في مواضع أخرى كقوله عليه السلام " ما مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذىً إلّا حاتَّ اللّٰه عَنْهُ خَطَاياه كما تَحاتُّ وَرَقُ الشَّجَر ".

فحت ذنوب المؤمن بعمل ليس فيه اختيار منه من المعاني الخفية التي تحتاج إلى توكيد ، وفيه بشرى للمؤمنين بالتخفيف من الذنوب وحتها حتى لا تبقى منها باقية ، ولذلك فقد ناسب توكيدها بالنفي والاستثناء.

ويتجه هذا الحديث إلى مخاطبة كل مؤمن آمن بالله وعمل بما أمر به كثرت ذنوبه أوقلت وهذا ما يفيده " كل مسلم " فالنكرة في سياق النفي تعم .

ويأتي أسلوب النفي والاستثناء في الجملة الاعتراضية في تمثيله عليه السلام ،وهي تعطي الكلام مزيداً من التحديد والضبط.

قال عليه السلام " مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ - ولا يَقْبَلُ اللّٰه إلّا الطَّيِّبَ - وإنّ اللّٰه يَتَقَبَّلُها بِيَمِينه ثم يُرَبِّيها لصاحبِه كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل ".

فالنفي والاستثناء دخل على قوله " ولا يقبل الله إلّا الطيب " وهي جملة اعتراضية .

والجمل الاعتراضية من أساليب العربية التي تدل على قوة النفس

وجزالة البيان يقول ابن جني "إن أسلوب الاعتراض دال على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه"(١).

وقد أعطت هذه الجملة للحديث مزيداً من التحديد والتوكيد لأمر هذه الصدقة، والضبط الدقيق لاعتباراتها، ولفت النفس إلى موضع مكرمة لا تتحقق إلا بقيود، فيمين الله لا تمتد إلا لمن كانت صدقته من الطيب الذي لا يقبل الله غيره، وفيه رجوع النفس إلى النظر في أمر الصدقة التي قد تتهاون في اكتسابها، وحساب النفس أمام كل عمل هو مصدر رزقها، وهل يتحقق فيه الكسب الطيب الذي يقبله الله أم لا ؟

ويلاحظ في الحديث أموراً منها قوله " يتقبلها بيمينه " فالتلقي باليمين فيه دلالة على الرضى والحفاوة بالشيء، وهي تستعار لما عزّ من الأمور، ولكل شيء هو موضع عناية ورعاية وقبول، فيقولون أخذه بيمينه أي محتفياً به ومراعياً له وتستعمل الشمال في عكس ذلك قال ابن ميادة :

أَلَمْ تَكُ في يُمْنَى يَدَيكَ جَعَلْتَني فلا تَجْعَلَنِّي بَعْدَها في شِمالِكا (٢)

قال ابن حجر إن القاضي عياض ذكر أنه " لما كان الشيء الذي يرتضى يتلقى باليمين ويؤخذ بها استعمل في مثل هذا. واستعير للقبول كقول القائل : " تلقاها عرابة باليمين " أي هو مؤهل للمجد والشرف وليس المراد بها الجارحة(٣).

---

(١) الخصائص : ١/٣٤١.

(٢) من شواهد الخطيب القزويني في باب المجاز، الإيضاح ٤٣٩.

(٣) فتح الباري : ٣/٢٨٠.

ثم انظر إلى قوله " يُرَبّيها " ومناسبتها للتلقي باليمين لأنّ في التربية عناية واهتماماً واحتفاءً ،كما أنّ هناك مناسبة بين الكسب الطيب واليمين كما قال العيني نقلاً عن الطيبي (١) وهذا ما يسمى بمراعاة النظير ، فالألفاظ التي هي من مجرى واحد تتداعى وتترابط فيما بينها ،فالكسب الطيب الذي يسر النفس يتناسب مع اليمين التي تمتد لكل ما هو طيب ،... وهكذا يتغلغل خيط من المناسبات بين أكثر كلمات الحديث ،فبين الإ رباء والفلو صلة أيضاً وبين الصدقة والكسب الطيب صلة أيضاً .

---

(١) انظر عمدة القاري ٨/ ٢٧٠ .

مواقــع إنَّما :

تأتي إنَّما في سياق المعاني المألوفة المأنوسة التي لا يجهلها المخاطب ،أو المعاني التي ينزلها المتكلم منزلة المألوفة المعلوسة التي لا تدفع ، كما تأتي للتعريض بأمر هو مقتضاه (١) .

وتأتي" إنَّما " في تمثيله عليه السلام في مواضع متفرقة و معــــان متعددة .

فتأتي للتوكيد كما في قوله عليه السلام " إنما مَثَلُ صَاحِبِ القرآن كمثل صاحب الإبـِلِ المُعَـقَّـلة إنْ عَاهَدَ عليها أمْسَكَها وإنْ أطلقَهـــا ذَهَبَتْ " .

أي ليس لصاحب القرآن مثل في تعهده واستمرار تلاوته للقرآن إلاّ صاحب الإبل المُعَقَّلة . وفي ذلك تأكيد لهذا المعنى ،وبيان أن العلاقة بين صاحب القرآن وصاحب الإبـِل علاقة بينة واضحة ، فصاحب القرآن لا مفر له من تعهده والا تفلت منه ،وكذلك صاحب الإبِل .

وفي قوله " صاحب " دلالة على مصاحبته المستمرة له فهو قــد أطال الجلوس معه يقرأه ويتدارسه . وكذلك صاحب الإبـل أطـــال مصاحبتها والعناية بها .

ومن الأحاديث التي جاءت تحمل هذا المعنى لإنَّما قولــه عليه السلام " إنَّمَا النَّاسُ كالإبلِ المِائةِ لا تكادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَة " .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ، عبد القاهر ٣٥٥ ومابعدها .
ودلالات التراكيب ، د . محمد أبو موسى : ١٤٩ ومابعدها .

فتفاوت الفضل بين الناس أمر مُسلم لا تدفعه النفوس ولا تشك فيه .

وتدخل " إنَّما " على المعاني التي هيئت لها الجمل السابقة لها كما قال عليه السلام في حديث " مثل بعثته عليه السلام " حيث ذكر أنواع الأرض التي استقبلت فيث السماء " فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكَلأ والعُشْب الكثير ، وكانت منها أجادِبُ أمْسَكَتْ المَاءَ فنفع اللّه بها النَّاسَ فَشَرِبُوا وسَقَوا وَزرَعوا ، وأَصَابَتْ منها طَائِفَةً أُخْرَى إنَّما هي قيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً " .

فبعد أن ذكر عليه السلام الأرض النقية ثم الأجادب لم يبق من أنواع الأرض سوى القيعان فأدخل على جملتها " إنما " ، لأنَّ هذا النوع صار في حكم المعاني المأنوسة التي تكاد النفس تدركه لإشارة ما قبله عليه (١) .

---

(١) انظر دلالات التراكيب ، د . محمد أبو موسى : ١٥٥ - ١٥٦ .

وسائل التقرير الفعلية :

أنزل الله تعالى القرآن الكريم فيه تبيان لكل شيء ، فيه أصول التشريع الإسلامي ،ومقاصد الشريعة ،وفيه أسس غرس العقيدة في النفس جملة وتفصيلاً ، وقد أحاط الله هذا الكتاب بسياج من التأثير تخضع أمامه النفس ،ويخشع له القلب ،فيتمكن من النفوس ،ويسيطر عليها فتستجيب. ثم تأتي السنة النبوية لتوضح وتشرح جوانب العقيدة ، وأصول التشريع ،فتتضافر مع القرآن لبث هذا الدين في النفوس والارتقاء بها نحو مدارج الكمال في ظل هذين النبعين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوخى الوسائل التي تكفل له تمام البلاغ من قول أوفعل فاستخدم اللغة بإيحاءاتها وطاقاتها الكامنة فيها ،كما استخدم الحركة والإشارة ،وفي أسلوب التمثيل بعض المصاحبات الفعلية التي تساعد على قذف الحقائق إلى النفس ، وإجالة الفكر فيها ، وتقريرها في الوجدان .

يقول عليه السلام " إنَّ المُؤْمِنَ للمُؤْمِنِ كالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بعْضاً " وشبك بين أصابعه . فشبك بين أصابعه بيان آخر لوجه الشبه يهدف إلى توكيد وتقرير الحديث . يقول ابن حجر " ثم شبك بين أصابعه ، هوبيان لوجه التشبيه أيضاً " أي يشد بعضهم بعضاً مثل هذا الشد ويستفاد منه أنَّ الذي يريد المبالغة في بيان أقواله يمثلها بحركاته ليكون أوقع في نفس السامع ".(١)

---

(١) فتح الباري ١٠/٤٥٠ .

فهذه الحركة جزء من التمثيل ،وقع به المعنى في النفوس بالقدر الذي أراده المتكلم عليه السلام . ومثل هذه الحركات في بيانه تؤدي معنًى رئيسياً في الحديث، فالرسول عليه السلام لم يحرك يديه إلاّ في الأمر الذي يقتضي ذلك . والصحابة رضوان الله عليهم كانوا على وعي بما تحمله مثل هذه الإشارات ،ولذلك فقد اعتنوا بذكرها ووصف أحوالها وكيفياتها ونقلوها كما نقلوا لفظه الشريف صلوات الله عليه .

ومن إشاراته التي لها دلالة عميقة في توضيح المعنى التمثيلي ما أعقبت قوله عليه السلام " مَثَلُ البَخِيلِ والمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عليهما جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إلى ثُدِيِّهِمَا وتَرَاقِيهِمَا ، فَجَعَلَ المُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عنه حَتَّى تَغْشَى أنامله وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ ،وجَعَلَ البَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ بِمَكَانِهَا " قال أبوهريرة : فأنا رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ بِإِصْبَعِيهِ هكذا في جَيْبِهِ " فلورأَيْتَهُ يُوسِعُهَا ولا تَتَوَسَّعُ "(١) وفي رواية ويشير بأصبعيه إلى حلقه (٢). فلغة التمثيل والإشارة قد أبانت عن حالة النفس ،وما يتجاذبها من ضيق وشدة وضنك وهي تهم بالعطاء فلا تقدر ، فالرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يقرر ويوضح المعنى ويبلغ به أقصى درجات الإحاطة الممكنة ليحقق ما يريده من إيقاع الحقيقة التي يعالجها في نفسه كما هي . وفي ذلك دلالة على أن اللغة تظل قاصرة أحياناً عن حمل كل المعاني التي تتزاحم في النفوس فيلجأ الإنسان إلى وسائل تعبيرية أخرى .والرسول عليه السلام وهو أقدر البلغاء على البيان كان يستخدم هذه الوسائل غير اللغوية لمزيد من الإبانة عما يريد .

---

(١) صحيح البخاري: ٧/ ١٨٥ . (٢) المصدر السابق: ٧/ ٦٧ .

وتأمل قوله عليه السلام " أنَا وكَافلُ اليتيم في الجنة هكذا " وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما شيئا[1]، نجد أن المصاحبة دلت عليها الإشارة، ومثل هذه المصاحبات الفعلية كثيرة في كلامه عليه السلام وإنما ذكرنا منها هذه الأمثلة ونحن نتحدث عن عناصر التوكيد في الأمثال الشريفة لننبه إلى هذا الباب فحسب لأنه من الذي نحن فيه بسبيل.

*

تعريف الطرفين :

من المعلوم في بناء الكلام أن تعريف الطرفين يفيد القصر[2].

وقد جاء ذلك في أمثال النبي صلى الله عليه وسلم . يقول عليه السلام " أنَا اللَبِنة وأنَا خَـاتَمُ النبيين " . فالرسول عليه السلام هو اللبنة التي تُكمّل البناء، وتُتمم الاركان، وتُظهر الحسن، وقد قصر الخاتمية عليه صلى الله عليه وسلم فهو آخر الأنبياء والرسل وخاتمهم، به أكملت الشرائع فلا نبي بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ويقول عليه السلام " أنَا النَّذيرُ العُريَان ".

فالإنذار لم يكن إلاّ منه فهو قد رأى العدو، ورأى الخطر المحدق بقومه فجاء لينذرهم، ولا يملك من الأمر شيئاً سواه .

---

(١) المصدر السابق : ٧/٦٨ .
(٢) انظر دلائل الإعجاز : ١٨٠ .

أساليب الإنشاء :

من أساليب الإنشاء التي جاءت في سياق تمثيله عليه السلام الاستفهام - النهي .

الاستفهام :

جاء الاستفهام في أحاديث التمثيل بالأداة " هل " في معانٍ متعددة .

فقد جاءت تفيد معنى النفي كما في قوله عليه السلام حين أشرف على أُطُمٍ من آطام المدينة " هَلْ تَرَوْنَ ما أرَى ، إنِّي لأَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلَالَ بُيوتِكم كَمَوَاقِعِ القَطْرِ ".

أفاد الاستفهام النفي أي أنكم لا ترون ما أرى ،والرؤية هنا بمعنى العلم فيكون المراد لا تعلمون ما أعلم ،وفي الاستفهام لفت وتنبيه إلى ضرورة تلقي الخبر لأن له أهمية ،وتنبثق أهميته من إخباره عن أمر مغيب.

ومما جاء فيه الاستفهام بمعنى النفي قوله عليه السلام " هل تُحِسُّون فيها مِنْ جَدْعَاء ".

الجدعاء المقطوعة الأذن والاستفهام يفيد النفي ،أي لا تحسون فيها من جدعاء ،وفيه رجوع إلى البهيمة والنظر والتأمل في أحوالها هل هي كاملة الخلقة ؟ ، حتى اذا تم التحقق وظهر لنا سلامتها ونفي الجدع عنها ،نعود الى الانسان حين يولد فنعرف سلامته ونقاءه

من كل شرك وعصيان . وفي الاستفهام توكيد للمعنى كما يقول ابن حجر نقلاً عن الطيبي "إن الجملة في موضع الحال أي سليمة مقولاً في حقها ذلك ،وفيه نوع التأكيد أي أن كل من نظر إليها قال ذلك لظهور سلامتها" (١) وقد اجتمع في هذه الجملة النفي والاستفهام والحال والتوكيد ،والمراد بالاحساس في الحديث هو العلم. (٢)

وقد يأتي الاستفهام للأمر كما جاء في حديث عوف بن مالك وقصته مع خالد بن الوليد قال عليه السلام " هل أنتم تاركون لي أمرائي " . فالاستفهام يفيد معنى الأمر أي اتركوا لي أمرائي ، والاستفهام قد دخل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام ، وفيها اسم الفاعل " تاركون " الدال على الثبوت كذلك ،وفي هذا المعنى دلالة على تمام العناية ببقائه على أصله ، وكأنه أمر ثابت دائم ، و" هل " خرجت على اختصاصها بالأفعال إلى الجملة الاسمية التي تفيد شدة الرغبة في ترك مثل فعل عوف ، وعلى المخاطبين أن يتركوا أمر الخلفاء أبداً على الدوام.

ونلمح في الاستفهام معنىً آخر وهو التوبيخ والعتاب ، فالمعاني التي تلقى بها هذه الأداة أرحب وأغزر من أن تحدد ويُحاط بها .

النهـــي :

لأسلوب النهي في أحاديث التمثيل في بيان الرسول صلى الله عليه وسلم معانٍ جانبية غير طلب الكف عن الفعل يقول عليه السلام

---

(١) فتح الباري : ٣/ ٢٥٠ .   (٢) انظر المصدر السابق: ٣/ ٢٥٠ .

في حديث عوف بن مالك لخالد بن الوليد " لَا تُعْطِه يا خالد ... لَا تُعْطِه يَا خَالِدُ هَلْ أَنتُم تَارِكُونَ لِي أُمَرائِي ".

وفي النهي المنع والزجر وفي تكراره بيان لشدة غضبه عليه السلام ، وتأكيد للمنع من إعادة السلب ، وأنه في موقف مخالف عما كان عليه لأنه أمر خالداً بإعطاء السلب لصاحبه ،فلما رأى عوفاً وهو يجر خالداً بردائه ويتجرأ عليه ،عاد فنقض الأمر الأول وأمر خالداً بعدم إعطاء السلب ،واستدعى ذلك التكرار لقطع الأمر الأول ،ثم أردفه بالاستفهام الذى حث على المقصود وهو توقير الأمراء وعدم التهاون بهم .

وقد يأتي النهي للتنفير والزجر كما في قوله عليه السلام لعمر ابن الخطاب لما أراد شراء فرس كان قد حمله في سبيل الله "لا تَشْتَرِه ولو بدرهم ...".

فالنهي ليس للتحريم إنّما للتنفير والزجر والحدة عن مثل هذا الشراء ، وقد قيده عليه السلام بقوله : " ولو بدرهم " لأنه رأى وثوق عمر من شرائه واستحكام هذا الأمر في نفسه ، يفهم ذلك من قول عمر " وظننت أنّه بايعه برخص ".

علاقات الجمل :

الذي يتأمل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجده قوى الترابط ،شديد الأسر ، عظيم التلاحم ،حتى كأن الكلام أفرغ إفراغاً واحداً كما يقول الجاحظ .

وسبيلنا إلى معرفة هذا هو النظر في علاقات الجمل كيف تناسقت وكيف كان أولها مقدمة لثانيها .

وتجد في الأمثال الشريفة أمثالاً كأنها جملة واحدة.من ذلك قوله عليه السلام " مَثَلُ القائِمِ على حُدُودِ اللّٰهِ والوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وبَعْضُهمْ أَسْفلهَا ، فَكَانَ الَّذِين فـي أَسْفَلِها إذا اسْتَقَوا مِنَ الماءِ مَرُّوا على مَنْ فَوْقَهم ،فَقَالوا : لوأنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقاً ولمْ نُؤْذِ مَنْ فوقَنا ،فإنْ يتركُوهُم ومَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً ، وإنْ أخَذُوا على أَيْدِيهِم نَجَوْا و نَجَوْا جَميعاً ". الفاء في الحديث جاءت لتواصل بين أجزائه ،وتحكم ربطه . و جملة " والواقع فيها، معطوفة على " القائم على حدود الله ، و جملة " كمثل قوم " خبر لجملة " مثل القائم . . . والواقع فيها " ، ثم تأتي جملة الصفة " واستهموا على سفينة " لترتبط بما بعدها بفاء التعقيب " فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها " .

وهذه الفاء تدل على تتابع الأحداث فالإصابة ترتبت على الاستهام فبعد أن استهموا أصاب كل فريق مكانه ،ثم ترتبط جملة " فكان الذين في أسفلها " بالتي قبلها بالفاء السببية فاستقاؤهم كان بسبب إصابتهم أسفل السفينة و هذه الجملة جملة شرطية " فكان

الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم " استقوا " فعل الشرط و " مروا " جواب الشرط ، ثم تأتي جملة أخرى معطوفة على الجملة الشرطية السابقة بالفاء " فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا " وهي جملة شرطية أيضاً فعلها مقول القول " لو أنا خرقنا " وجوابها " لم نؤذ " ، ثم تليها جملة أخرى معطوفة عليها بالفاء " فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً " ، ثم تليها جملة شرطية معطوفة عليها بالواو " وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .. " ، وترتبط هذه الجمل الشرطية التي كونت هيئة المشبه به بالجملة الأولى جملة المشبه على أنها خبر لها . وهكذا تترابط جمل الشرط حتى تصير كأنها جملة واحدة تجري بينها الفاء لتربط بين أحداث القصة بتسلسل ونظام .

ومن الأحاديث المبنية على جمل الشرط والتي يقوى ترابطها بالفاء فكأنها جملة واحدة قوله عليه السلام : " إِنَّما مَثَلِي ومَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ ناراً ، فلمَا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدوابُّ التي تَقَعُ في النَّار يَقَعْنَ فِيها ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْزِعُهُنَّ ويَغْلِبْنَه فَيَقْتَحِمْنَ فيها ، فأنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عن النَّار وهم يَقْتَحِمُونَ فيها ".

جملة " اسْتَوْقَدَ ناراً " صفة للخبر " كمثل رجل " ، ثم تعطف على جملة الصفة جملة شرطية " فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش ... " فقوله «جعل الفراش» واقعة في جواب لما لأنه مترتب عليها ثم تأتي جملة " فجعل الرجل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها " معطوفة على جملة جعل الأولى الواقعة في جواب لما " ، وقد عطفت

بالفاء ، والفاء تدل على تتابع الأحداث . وتعطف جملة " يغلبنه " على جملة " فيقتحمن " ، ثم تُعْطف هاتان الجملتان على جملة " ينزعهن " لأنه لما أخذ بنزعهن غلبنه واقتحمن في النار ، ثم تأتي جملة " فأنا آخذٌ بحجزكم " مرتبطة بما قبلها بالفاء الفصيحة التي تقدر جملة كلام محذوف تقديره " إذا كنتم تقحمون أنفسكم في النار وتتهافتون عليها فأنا آخذ بحجزكم .

وتأمل قوله "آخِذٌ " ودلالتها على استمراره عليه السلام في زجر أمته وردها عن طريق الغواية حتى بعد أن لحق بربه لا يزال يرد أمته بالقرآن الكريم الذي أنزل عليه ،وبسنته النبوية .

وقوله عليه السلام " فأنا آخِذٌ بِحُجَزكم " هتاف يتردد على مسامع الأمة ،ويبث في عقولها وقلوبها اليقظة .

وفي قوله " يقتحمون " دلالة على أن اقتحام العصاة يتجدد ويتكرر في كل زمان ، وهذا ما يدل عليه الفعل المضارع . ونلاحظ أن الأفعال المضارعة تتكاثر في الحديث " يقعن ، ينزعهن ، يغلبنه ، يقتحمن ، تقحمون " وهي تتحدث عن تجدد وحدوث المعاصي من الأمة مرة بعد مرة . وإذا تأملنا ألفاظ الحديث عامة نجدها تشع بمعاني القوة والتحمّل والمعاناة فقوله "استوقد " الهمزة والسين والتاء تدل على الكد والطلب في الاستيقاد .

وفي قوله " ينزعهن " ، معنى الجذب والنزع والقلع و منه نزع الميت روحه (١) .

---

(١) لسان العرب ، ٨/ ٣٥٠ .

وقوله " يغلبنه " ،والغَلَبُ في الأصل على غلظ العنق وعظمها [١]

وقوله " يقتحمن " ،الإقحام رمي النفس من غير روية [٢] .

وهكذا فإنَّ معاني الشدة والمبالغة والمكابدة بارزة في ألفاظ الحديث وهي إشارة إلى ما يجده الرسول صلى الله عليه وسلم من أمر الدعوة .

ومن الأحاديث التي تتفرع فيها الجمل و وتقسم ،ولكنها مصاغة صياغة واحدة . قوله عليه السلام " مَثَلُ ما بَعَثَني اللّهُ بِهِ مِن الهُدَى والعِلم كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ أصابَ أَرْضاً فكَانَ مِنْهَا نَقِيةٌ قَبِلَتْ المَاءَ فأنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثيرَ وكانَتْ مِنْهَا أَجادِبُ أمْسَكت المَاءَ فَنَفَعَ اللّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وأَصَابَتْ منها طَائِفَةً أُخرى إنَّما هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللّهِ و نَفَعَهُ ما بَعَثَني اللّه به فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ،وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلِكَ رأْساً وَلَمْ يَقْبلْ هُدَى اللّهِ الّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ " .

قوله " أصاب أرضاً " جملة حالية لجملة الخبر " كمثل الغيث الكثير" وقوله " فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير " الفاء تفصيلية ،وقوله " فأنبتت الكلأ والعشب " معطوفة بالواو على " قبلت" ثم تأتي الجملة التي بعدها " وكانت منها أجادب أمسكت الماء " معطوفة على جملة " فكان " الأولى . وإذا نظرنا إلى هذه الجملة داخلياً نجد أن قوله " فنفع الله بها " جملة مستأنفة و وقوله

---

(١) لسان العرب: ١/٦٥٢ .

(٢) لسان العرب: ١٢/٤٦٢ .

" فشربوا وزرعوا وسقوا " ، جمل عُطِف بعضها على بعض ، وتأتي جملة " وأصابت منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان " معطوفة على جملة " أصاب " الأولى وما تحتويه من جمل فتشمل جملة " فكان منها نقية ".. وجملة " وكان منها أجادب ".

ثم ينتقل الكلام إلى بيان المشبه وتفصيله في قوله " فذلك مثل من فَقِهَ في دين الله فَعَلِمَ وَعَلَّمَ " وقد ارتبط هذا القسم الأخير من الحديث بما قبله برباطين ،الأول الفاء التفصيلية التي تفيد الترتيب والتفريع ،والثاني اسم الإشارة " كذلك " وهذه الجملة تقابل وتعود على النوع الأول من الأرض " أصاب أرضاً فكان منها نقية ... وكان منها أجادب .. ".

ثم تُعطف جملة " ومثل من لم يرفع بذلك رأساً " على التي قبلها وهي تعود وتقابل جملة " أصاب طائفة أخرى إنّما هي قيعان ".

وبهذا تتفرع جمل الحديث وتتقابل فتعطف مجموعة جمل على الجملة الاسمية الأولى ثم تأتي جملة المشبه لتفصل وتبين أحوال المشبه به السابقة عنه .

ومن أسرار نسق المعاني في التمثيل النبوي ،ما نجده في المثل من البدء بجملة هي بمثابة الأصل للمعاني الواردة في الحديث ، ثم يتفرع الكلام عليها تفريعاً يقوم على نسق منضبط ومقابلات بين المعاني ،وهذه المقابلات هي جوهر المعنى الأم الذي كانت الجملة أساساً له كما في حديث حكيم بن حزام قال : سألت رسول الله صلى الله

عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم قال : " يا حكيم إن هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ . فمن أخذه بسخاوة نفس بُورِكَ لَهُ فيه ، ومَنْ أخذه بإشراف نفس لم يُبَارَكْ لَهُ فِيه كالَّذي يأْكُل ولا يَشْبَع ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ من اليَدِ السُّفْلى " . فجملة " إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ " هي الجملة الأم التي هي أصل المعنى ، وهي جملة اسمية مؤكدة " بإنَّ ".

والفاء في قوله " فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه " تفصيلية جاءت لتفصل المعنى الأول ، والجملة بعد الفاء جملة شرطية ، ثم تعطف على هذه الجملة جملة أخرى وهي " ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه " وهي شرطية أيضاً .

ثم تأتي جملة التمثيل متعلقة بجواب الشرط " لم يبارك له فيه " من حيث إنها تشبيه وتمثيل له .

وجملة " من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه " وما عطفت عليها معطوفة على الجملة الأولى بالفاء التي تفيد الترتيب والتفصيل والعطف ، وبهذا يصير الحديث كأنه جملة واحدة ، وبقيت منه جملة واحدة هي " اليد العليا خير من اليد السفلى " وهي موصولة بما قبلها كما يتصل التوكيد بالمؤكد ، لأنَّ معناها مؤكد لفحوى الكلام السابق على حد قوله تعالى * ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فيه * فالحديث متماسك البناء ملتحم الأجزاء .

الإيجـــاز :

كل بيان الرسول صلى الله عليه وسلم يعد من باب الإيجـــاز ، ولذلك فهو من أهم خصائص البيان النبوى وقد أفاض واهتم العلمــاء بدراسة الإيجاز في كلامه قديماً وحديثاً .

وسنقف هنا أمام الإيجاز في أسلوب التمثيل فنقول إنَّ كــل أحاديث التمثيل تدخل تحت باب الإيجاز ،لأنَّ هيئة المشبه به تحمل أدق خصوصيات المعنى المراد وإيحاءاته وإشاراته القريبة والبعيــدة ، ويذكر ابن رشيق أن الرماني يعد التشبيه والاستعارة من باب الاختصار. (١)

وسنتناول بعض أحاديث يتضح فيها الإيجاز من قلة الحروف وكثرة المعنى .

منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم " المَدِينَةُ كالكِير تَنْفِــي خَبَثَهَا وَتَنْصَعُ طِيبَهَا ".

فالرسول عليه السلام نفذ إلى قلوب الكلمات واختار أقدرها ليس على التعبير عن المعنى فقط وإنَّما عن أخفى جوانبه وأدق خصائصه .

والحديث جملتان متقابلتان " تَنْفِي الخَبَثِ ، وَنَصْعُ الطِّيبِ " ، وهما وجهان لحقيقة واحدة . فالنفي يقابله النصوع والخبث يقابله الطيب، وكما أن المدينة تدفع الأشرار وتبعدهم وتخرجهم منها ،كذلك هي تجذب الأخيار وتبرزهم ،وتشرق شخصياتهم وتنقيها . ثم نجد أن إحــدى الجملتين راجعة إلى المشبه بـه ، والأخرى للمشبه ، فالمشبه أدخـل في المشبه به ، وهذا ضرب من ضروب التمثيل في بيانه عليه السلام .

---

(١) انظر العمدة ١/ ٢٨٧ .

ثم إنه عليه السلام شبه خيار الناس بالطيب في فوح الرائحة وانتشاره في الأمكنة . ثم انظر إلى قوله " إنَّما المدينة " فإنَّما بينت أن هذا الأمر قد عرفه الصحابة والناس ، وعرفوا قداستها وطيبها وطهرها .

ومن جوامع كلمه عليه السلام قوله " كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غَريبٌ أو عابرُ سَبيلٍ " .

يحث الرسول عليه السلام المؤمن على أن يظل بمنأى عن الانغماس في الدنيا ، والأمر ليس لابن عمر الذي خوطب بهذا القول إنَّما لجميع المسلمين ، فالحديث من حكم النبوة ، لا يتجاوز عشر كلمات لكنه يرسم منهج حياة أمة ، ليعدها لحياة أخرى هي الحياة الباقية فعليه أن يكون كالغريب ، وتأمل هذه الكلمة وانظر إلى معناها وايحاءاتها ثم اعكسه على المؤمن وتأمل كيف يكون المؤمن غريباً ، وماذا يجب عليه عمله حتى يكون من الغرباء ، ثم انظر إلى تدرج الحديث " كن كالغريب أو عابر سبيل " وعابر السبيل أكثر عزوفاً عن متاع الدنيا من الغريب وليس لديه رغبة في تملك أي شيء ، إنما هو سائح ينظر ويعتبر .

وهكذا كلما أعدنا النظر في هذا الحديث تكشفت لنا معانٍ ومعانٍ لا نستطيع حصرها .

ويدخل تحت هذا الباب قوله عليه السلام " إنَّما النَّاسُ كالإبلِ المائَةُ لا تَكادُ تَجِدُ فيها رَاحِلَةً " .

وقوله " المؤمِنُ للمؤمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً " .

وقوله " إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً هِيَ كالمُسْلِم . . "

وقد حاولنا في فصول سابقة بيان بعض ما احتوته هذه الأحاديث من معانٍ ، ونكتفي هنا بما ذكرناه بالإضافة إلى ماقلناه من أن أسلوب التمثيل من أهم أبواب الإيجاز في كلامه عليه السلام فقدقال عليه السلام " أوتيت جوامع الكلم ".

شذرات بيانية من كلامه عليه السلام :

لا ريب أن كلامه عليه السلام من باب الفصاحة العالية ،فهو أفصح العرب وكل كلامه شذرات مضيئة ،وأردت هنا أن أذكر بعض اللُمع البيانية التي احتوتها أحاديث التمثيل في بيانه عليه السلام.

يقول عليه السلام " فأنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عن النَّار وهم يَقْتَحِمُونَ فيها " . يشبه عليه السلام حالة منعه الناس عن التردي في مهاوي الضلال والفساد بحالة من أخذ يحجز صاحبه الذي يكاد أن يسقط في مهلكة ، فهو يعالج من أمره ما يمنعه من الارتكاس ، ونلمح في الصورة حرص ولهفة هذا الآخذ بالحجز يكلتا يديه وهو خائف على هذا الطائش المتسرع الذي يصر على أن يلقي بنفسه في النار ، ثم نلمح الغباوة والغفلة التي عليها هذا العازم على أن يصم أذنيه عن نداءات صاحبه وتحذيراته/ فهو مستجد في الجذب ليلقي بنفسه غير مبالٍ أو مستمع لنصيحة . وهذه الاستعارة جاءت على سبيل الاستعارة التمثيلية التي يكون المستعار فيها جملة بهيئتها وعمومها ، فهنا رجل آخذ بحجزة صاحبه ،ونار تتوقد وتشتعل ،واستمرار في المجاذبة والتقحم ، فهي قصة كاملة جاءت لتدل على حالة ، ولذلك فهي تجري مجرى المثل . هذا وإنْ كانت العناصر متداولة إلّا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمعها وأفرغها في قالب البيان النبوي الشريف ، فصارت متفردة في معناها وفي طريقة صياغتها ، وانظر إليها وقد بدأها عليه السلام بقوله " أنا " وحين ينطق بها نبي الهدى فإنّ لها وقعاً/ خاصاً يتغلغل صداه في أعماق النفس.

وفي قوله " وهم يقتحمون فيها " انتقال من أسلوب التكلم إلى الغيبة ، وفيه تعريض لطيف للفئة المعاندة واحتراز من مواجهتها لأنها فئة صمّت آذانها عن اتباع الحق والخير، وفيه إهانة لهم وصرف عنهم ، ثم إن أسلوب الغيبة يناسبهم لأنهم لا يواجهون بالخطاب لغفلتهم .

ومن اللمع البيانية قوله عليه السلام " إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ " يشبه عليه السلام المال بالفاكهة الخضراء لجمال لونها ودلالتها على الحياة والنضارة والرواء وتهافت النفوس نحوها .

كما شبهها بالفاكهة الحلوة المستلذ طعمها في الأفواه فالنفوس ترتاح لكل ما هو حلو يستعذبها ، والعرب تشبه الكلام المؤثر البليغ بالعسل في الحلاوة فتقول : " كلام كالعسل في الحلاوة " كما يشبهون الرجل الحليم بالعسل الماذى ، قال كعبُ الغَنَوِيُّ :

هو العَسَلُ الماذِيُّ حِلماً ونائلاً وليثٌ إذا يَلْقَى العدُوَّ غضوبُ (١)

وإذا اجتمعت الخضرة مع الحلاوة كان الميل إليهما أشد كالمال له علقة بالنفس وفي مرأى العين . وقد ذكر الشريف الرضي سراً لطيفاً -كما يقول - من وراء التعبير بالخضرة والحلاوة ، يقول " شبه المال بالثمرة في حسن منظرها وطاب مخبرها وليس كل ثمرة مأكولة كذلك صفتها لأن من النباتات والثمرات ما يحسن ظاهره ويقبح باطنه ، ومنها ما يقبح ظواهره وتحسن مخابره ، فجعل عليه الصلاة والسلام المال

---

(١) الأصمعيات : ٩٥ .

من قسم النابتات التي تروق في العين وتحلو في الأفواه والقلوب ".(١)

ومن الشذرات المضيئة في كلامه عليه السلام قوله " إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفْتَحُ عليكم من زَهْرَةِ الدُّنْيَا وزينتها ".

زهرة الدنيا مستعارة للنعمة والمال وفي اختصاص الزهرة بذلك علة لقصر أجلها ونضارتها ولأن لها منظراً جميلاً في العين ورائحة عطرة زكية ، ولكن لا مخبر لها ، وزهرة الدنيا هي كل ما يحلو منظره في العين من متاع وثياب وزرع ، تقوم عليها حياة الإنسان ، لكنها سرعان ما تزول (٢) .

والزهرة مأخوذة من زهرة الأشجار ، وكأن الدنيا دوحة كبيرة يزهو زهرها لكنه سرعان ما يزول وتبقى الشجرة بأوراقها وأغصانها كما هي .

ويشبه الرسول عليه السلام الدنيا بشجرة كبيرة في قوله " إنما أنا والدُّنْيَا كراكِبٍ اسْتَظَلَّ تحتَ شجرةٍ ثُمَّ راحَ وتركها ".(٣)

فالدنيا شجرة وارفة الظلال والإنسان مستظل بها والنعمة ثمرتها ، وقد شاعت هذه الاستعارة في كلامه عليه السلام / ففي حديث عنه عليه السلام يقول " إن عبداً خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أن يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا ما شاء وبَيْنَ ما عِنْدَهُ فاخْتَارَ ما عِنْدَهُ ".(٤) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو

---

(١) المجازات النبوية : ٧٤ .

(٢) انظر عمدة القاري ، العيني : ٩/٣٩ .

(٣) سنن الترمذي : ١٣٧٩/٢ .

(٤) صحيح البخاري : ٧٣/٥ .

المخيّر في هذا الحديث ،وزهرة الدنيا هو نعيم الدنيا من مال وغيره .

ومن تلك القبسات البيانية قوله عليه السلام " اليدُ العُليا خَيْر من اليد السُّفلى ".

واليد العليا هي يد المعطي ، والسفلى يد الآخذ ، فطالب المال يمد يده ذليلاً ضارعاً مستكيناً يطلب العطاء ، ويد المعطي تمتد مرضية عزيزة منشرحة . فهنا مجاز مرسل أُطلقت اليد وأُريد بها الكل وهو طالب المال و معطي المال . ويتكرر هذا المثل في عدة أحاديث في بيانه عليه السلام . ويختلف معنى اليد فيها باختلاف السياق الواردة فيه .

ومن لمعه البيانيه قوله عليه السلام في حديث " مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً . . . " وهو يذكر المقابل لمن فقه في دين الله " وَمَثَلُ منلَمْ يَرْفع بِذَلِكَ رأْساً ".

وعدم رفع الرأس والتنبه لما يحدث كناية عن الغفلة وعدم الاهتمام . ولنتأمل صورة رؤسهم وهي منكسة لا تجيب لأيِّ داع مهما علا صوته ،وارتفع نداؤه ،وكأن لهعالمه الخاص ومتاهاته البعيدة السحيقة في عوالم أخرى . ومن عادة الإنسان الفطن أنه إذا استثير ثار ،وإذا نودي أجاب ، وإذا رأى ما يحرك عقله ويثير أفكاره تدبر وفكر . أما هذا فيظل رأسه منكساً مخفوضاًهو اصم أبكم أعمى ، لا تشرق نفسه لما تشرق به الحياة من الهدى والإيمان ،ولا يحيا قلبه لما تحيا به القلوب من علم و نور .

وهذه الكناية ناظرة إلى كنايات القرآن الكريم ، حين يكون الرأس مادتها كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ ﴾ (١) .

وقوله ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة المنافقين : ٥ .

(٢) سورة الإسراء : ٥١ .

أسلوب التقسيم :

هو فن يقوم على استقصاء الشيء الواحد وتتبع أحواله ، وهو من النمط العالي والباب الأعظم الذي أشار إليه عبد القاهر ، والذي يتحد فيه أجزاء الكلام ويدق نظمه . يقول عبد القاهر " وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين " (١) .

ففيه يُجمع المتعدد ثم يُقسّم بنظام وتساوٍ ، وتظهر في هذا النوع براعة البلغاء والفصحاء ، لأن الكلام يوضع وضعاً واحداً ، فتجري فيه المعاني بطريقة منسقة متسقة عجيبة .

ويشتد حسنه ويدق مسلكه في أسلوب التشبيه والتمثيل ، ويصفه عبد القاهر حين يأتي فيهما فيقول " وما ندر ولطف مأخذه ودق نظر واضعه ، وجلى لك عن شأو قد تحسر دونه العتاق ، وغاية يعيي من قبلها المذاكي القرح " (٢) ففيه تجد دقة هذا الفن وندرته .

وقد اشتهر زهير بن أبي سلمى في العصر الجاهلي بتقسيماته الحسنة التي لفت إليها عمر بن الخطاب وأغرى بها أهل الأدب فتناقلها العلماء .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٩٣ .

(٢) المصدر السابق : ٩٥ .

وهذا الأسلوب يجري كثيراً في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بل إنه يكاد يكون السمة البارزة في أسلوب التمثيل . يقول عليه السلام " مَثَلُ جَليسِ الصَالِح و السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسك ونافخ الكير ،فحاملُ المِسك إمّا أن يُحذِيك وإمَّا أن تَبْتَاعَ منهُ ،وإمَّا أن تَجِد منه رِيحاً طيبة ،ونَافخُ الكيرِ إمّا أن يُحرِقَ ثيابك ، وإمّا أن تَجِد ريحاً خَبيثَةً " .

ذكر عليه السلام الجليس الصالح الجليس السوء جملة ثم فصل لكل واحد منهما مبيناً أحوال المشبه التي لم تذكر ، ويعد " الجليس الصالح والسوء " بناء ،و" كحامل المسك و نافخ الكير " بناء آخر ، يرجع أول هذا البناء إلى أول البناء الأول وثانيه إلى ثاني البناء الأول . ثم يعود الحديث إلى البناء الأول ليبين أحواله مفصلة ، فيضع الجملة هنا بمقدار ما يضعها هناك ، هنا " يحذيك " و هناك " يحرق ثيابك " وهنا " تجد ريحاً طيبة " و هناك " تجد ريحاً خبيثة ... وهكذا نلاحظ شدة الإحكام والترابط .

ومنه حديثه صلى الله عليه وسلم " مَثلُ البَخيلِ والمُنْفِقِ كمثَلِ رجُلَينِ عليهما جُبّتانِ من حَدِيدٍ من ثُدِيِيهما إلى تَراقيهما ، فأمّا المُنْفِقُ فلا يُنْفِقُ إلاّ سَبغَتْ أو وَفرَتْ ... ، وأما البَخِيلُ فلا يُرِيدُ أن يُنْفِقَ شيئاً إلاّ لَزِقَتْ كلُّ حَلْقَةٍ مكانها ... "

فالرسول عليه السلام ذكر المنفق والبخيل و مثل لهما بحمل " رجلين ... " ثم فرق بينهما وقسمهما و بين أحوال كل واحد منهما ، وساوى بين البنائين في كل الأوصاف ،فذاك لا بعض جبة ،وهذا لا بعض

جية كذلك ، هذا اتسعت عليه والآخر ضاقت ولزقت ... وهكـــذا يتلاحم الحديث .

ومنه قوله عليه السلام " مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به من الهُدى والعِلْـم كَمَثَلِ غيث أصاب أرضاً فَكَانَ منها نَقِيّة قبلت الماء ... وكان منها أجَادِبُ ..." وهكذا فقد أجمل عليه السلام في قوله " أصاب أرضاً " ثـــم فصل وبين أنواع الأرض وقسمها إلى ثلاثة أقسام ، ثم عاد مرة أخرى ففصل في قوله " فذلك مثل من فَقِهَ في دين الله ... ومثل من لـم يرفع بذلك رأساً ".

أعاد البناء الأول على النوعين الأولين من أقسام الأرض ، وأعاد البناء الثاني على النوع الآخر من الأرض . ومثل هذا الجمع والتقسيـــم يدل على النظرة الواعية المنسقة ، وتنظيم عقلية المتكلم ، وتنسيقه لفكرته ، واستوائها ، ونضوجها في نفسه ثم إفراغها إفراغاً واحداً بترتيـــب واتقان .

ومن هذا النوع قوله عليه السلام " مَثَلُ القائمِ على حُدُودِ اللَّه والواقِعِ فيها كَمَثَلِ قَوْم استَهَموا على سفينة " وذكر الأنواع الثلاثة ثم أفرغهـــا في قصة وعت القسمين .

وفيه قوله عليه السلام " يا حكيم إنّ هذا المال خَضِرَةٌ حُلْـوَةٌ فمن أَخَذَه بِسَخَاوَة نَفْسٍ بُورِكَ له فيه ، ومن أَخَذَه بإِشْرَاف نفس لم يُبارَك له فيه ... " فهو قد أجمل ثم قسم .

ويدخل تحت هذا النوع أيضاً قوله عليه السلام " مَثَلِي ومَثَلُ مـــا بَعَثَنِي اللَّهُ به كَمَثَلِ رَجُلٍ أتَى قوماً ... " ، أجمل القصة هنا ، ثـــم

قسم في قوله :

" فأطاعته طائفة ... وكذبته طائفة ... " . فالبناء الأول للحديث قد يتعدد ثم يفصل ، وقد يجمل ثم يفصل ،والتفصيل يأتي ليبين ويقسم البناء الأول .

والتقسيم في التمثيل قد يأتي ظاهراً كما سبق من أمثلة وقد يأتي غير ظاهر كما في قوله عليه السلام : " الحلال بين ،و الحرام بين ،وبينهما مشتبهات ... " .

فلو تأملنا الحديث نجده قائما على التقسيم ، فالأحكام الشرعية إما أن تكون حلالاً أو حراماً أو مختلفاً فيها و هي المشتبهه . ثم يفصل أنواع المشتبهات ،فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات ،كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه .

فالمرء إمَّا أنْ يتقي الشبهات فيستبرئ لعرضه ودينه وإمّا أن لا يتقي الشبهات فيكون كالراعي .. ، وهكذا أحاط عليه السلام بالفكرة من كل جوانبها .

أسلوب المقابلة :

يعرفه السكاكي فيقول " هي أن تجمع بين شيئيــن متوافقين أو أكثر وبين ضديهما ثم إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده "(١).

فالمقابلة من أقدر الأساليب على إظهار نصوع المعانـــي فالأشياء تتميز وتتباين بأضدادها ،وما هذه المقابلات إلا جزء مــن الوجود الكوني والإنساني .

ويتكرر هذا الأسلوب في البيان النبوي عامة فيذكر الكافر مــع المؤمن ، والجنة والنار ، والبخيل والمنفق ، وهذا الأسلوب أثر من آثار القرآن ، فهو مليء بمثل هذه المعاني المتقابلة ؛ الأرض مع السماء ، وأهل الجنة مع أهل النار ، والأبرار مع الفجار ، والأحياء مع الأموات .

وتكثر المقابلات في أسلوب التمثيل : فالقائم على حدود الله يذكر مع الواقع فيها ، ثم يمثل لهما بقصة مليئة بالمتقابلات : أصـــاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، إنْ أخذوا على أيديهم نجوا... ، وإنْ تركوهم وما أرادوا هلكوا ...

ومن أحاديث المقابلة ،مقابلته عليه السلام بين الجليس الصالح وآثاره والجليس السوء وآثاره .

كما يشبه المنفق وحاله مع المال وما يعود عليه من الخير ،ويقابله بالبخيل وأحواله مع ماله وشحه .

---

(١) مفتاح العلوم : ١٧٩ .

كما أنه عليه السلام يشبه أثر وحيه على الناس بأنواع الأرض النقية ، والأجادب ، والقيعان .

ويشبه المؤمن بخامة الزرع ، والكافر بالأرزة .

ويشبه المؤمن الذي يقرأ القرآن مع المؤمن الذي لا يقرأ القرآن . ويذكر المنافق الَّذِي يَقْرأُ القرآن ،والفَاجِر الَّذِي لا يَقْرأُ القرآن .

وهناك نوع من المقابلات خفية لا تظهر ظهور القائم على حدود الله والواقع فيها مما يكثر نظيره في البيان النبوي .

كما في حديث الحلال والحرام ، فهو يذكر موقف الناس من المشتبه ويقابل بينهما " فمن اتَّقَى الشُبُهات فقد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرضِهِ " ، " ومَنْ وَقَعَ في الشُبهات كراعٍ يَرْعَى حول الحِمَى يُوشِكُ أن يواقعه " ، فالوقوع في المشتبه يقابل طلب البراءة من العرض .

ومن خلال هذه المتناقضات والمقابلات تظل النفس يقظة محاصرة بأحوال الشيء الواحد .

ويبين الدكتور محمد أبوموسى أثر هذا الفن على النفس فيقول :

" وهناك أيضاً وجه من وجوه تأثيرها في الكلام يجري معها دائماً وذلك ما نجده في جميع هذه المتناقضات وتجاوزها وتضاربها في العبارة والنفس من توتر واثارة ، فالرضا مع الكره ، والتوحيد مع الشرك ،والتوحد مع التفرق ، وهذه الخصوصية تعطي الأسلوب قدرة على الايقاظ وصيرورة الحس كأنه يكون مستفزاً ومثاراً حين يحس بما وراء هذه المتناقضات من صراعات وتجاذبات وهو يثب على قممها المتغايرة المتناقضة ".(١)

---

(١) قراءة في الأدب القديم : ٢٢٨ .

الفصل الخامس:
أثر القرآن الكريم في التمثيل النبوي

١ - في الأغراض .

٢ - في العناصر .

٣ - في الألفاظ والتراكيب .

أثر القرآن الكريم في أسلوب التمثيل

إنّ دراسة ما أفادته البلاغة النبوية من الأساليب القرآنية ميدان فسيح جداً ومتسع جداً ، تتعدد جوانبه ،وتتشعب مسالكه ، فتشمل كل طرق البيان من حيث الألفاظ والمعاني ووجوه الصياغة .

ويتجه هذا البحث إلى دراسة أثر القرآن الكريم في أسلوب التمثيل في الحديث النبوي الشريف من حيث تشابه المعاني والأغراض أو الاشتراك في عناصر التمثيل أوالتلاحم بينهما ،أو من حيث الألفاظ المقتبسة من العبارات القرآنية .

وستكون هذه الدراسة موجزة تتوخى الإشارة إلى ما في هذه المسائل فقط .

ومن المعاني المشتركة بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف نماء الصدقات ومضاعفتها وآثارها وذلك حين تخرج من يد المؤمن خالصة لوجه الله تعالى ، وقد عبّر القرآن عنها بطريقة التمثيل في مواضع منها قوله تعالى * مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم في سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنبلةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ واللَّهُ يُضَاعِفُ لمن يَشَاءُ واللَّهُ واسعٌ عليمٌ * (١) .

ومنها قوله تعالى * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَموالَهُم ابْتِغاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبوةٍ أَصَابَها وَابِلٌ فآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فإن لَّمْ يُصِبْها وَابِلٌ فَطَلٌّ واللَّهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (٢) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٦٥ .

وقد جاءت هاتان الآيتان في سورة البقرة في سياق ذكر أنواع الإنفاق وفي التمثيل النبوي كذلك حديثان عن إرباء الصدقات . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَنْ تَصَدّق بِعَدْلِ تَمْرة من كَسْبِ طيّبٍ - ولا يَقْبلُ اللّهُ الا الطيّب - وإنّ اللّه يَتَقبّلُها بِيمينه ثم يُرَبّيهـا لصَاحِبها كما يُربّي أحدُكم فَلُوّهُ حتى تكونَ مِثلَ الجبل "(١)

وقال عليه السلام " مَثَلُ البَخيلِ والمُنْفِقِ كمثل رُجلَينِ عليهما جُبّتان من حديد من ثُديِـهما إلى تراقيهما : فأمّا المُنْفق فلا يُنفقُ إلا سبغت - أو وَفَرتْ - على جلدهِ حتّى تُخْفِي بَنَانَهُ وتَعْفُو أثَرَه . وأما البخيلُ فلا يريدُ أن ينفق شيئا إلاّ لَزِقَتْ كلُّ حَلْقةٍ مكانها ، فهو يُوسّعُها ولا تتّسع "(٢)

الآية الأولى تبين جهة الزيادة في ثواب الصدقة بالتضعيف: حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة إلى سبعمائة ضعف وهكذا .. صدقة وثواب فالحسنة بعشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء ، فالتكاثر هنا واضح وهو الذي بُنى عليه المثل يقول عليه السلام " إذا أحْسَنَ أحدُكم إسلامَهُ فكلُّ حَسَنَةٍ يَعْملُها تُكْتبُ له بِعشرِ أمثالِها إلى سَبْعِمِائة ضِعْفٍ "(٣) .

وهذا الحديث بيان لهذه الآية الشريفة بطريقة واضحة لا تخفى ، كما أنه بيان لغيرها من الآيات كقوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عشْرُ أمْثَالِها وَمَنْ جَاءَ بالسّيّئةِ فلا يُجْزَى إلاّ مِثْلَها وهُمْ لا يُظْلَمون﴾(٤)

---

(١) صحيح البخاري : ٢/١٣٤ .
(٢) المصدر السابق: ٢/١٤٢ .
(٣) المصدر السابق: ١/١٧ .
(٤) سورة الأنعام : ١٦٠ .

والآية الثانية فيها التضعيف والزيادة مرتين ،لكنها تركز على صدقة المؤمن حين يستشرف بها ويسمو ، فهي كجنة بربوة تربتها نقية نقاء نفس المؤمن ، صادقة صدق فطرته ،وهذا الصفاء والاستشراف يضاعف الأجر والثواب ففيه الكثرة والوفرة وحسن المعطي وجودته .

أما النماء في الحديث الأول فهو ليس بالتضعيف يعني ضعفين أو ثلاث إلى عشر أمثالها أو إلى مائة ضعف ، إنما يشير إلى زيادة من نوع خاص ،انظر إلى مقدار هذه الصدقة إنها لا تجاوز عدل تمرة ،صدقة قليلة تمتد إليها يد الرحمن فيربّيها ويتعهدها برعايه ،ومزيد عناية حتى تكبر وتصير مثل الجبل ،وهذه أضعاف أُضعاف الصدقة المعطاة ، فهي تفوق السبعمائة ضعفاً ،وتدخل في الحيز الذي بعده وهو إطلاق العطاء إلى ما لا نهاية - فلله در هذه الصدقة ولله در صاحبها - فالنماء يختلف هنا عن النماء في السنبلة وفي الجنة ،لأنها لا تنمو في التربة ولا في الجنة التي في الربوة إنّما في كف الرحمن ،وفي الحديث شيء ليس في الآية القرآنية وهو تكريم الله لصاحب هذه الصدقة حين يتقبلها الحق بيمينه .

أما الحديث الثاني ، فالزيادة فيه سبوغ وستر ونماء ،فكلما استمر العطاء استمر الستر ، فهنا لا يوجد تضعيف إنّما ستر وغطاء من نوع خاص ، ستر يطول فيه الحديد ويمتد ويغطي صاحبه ،فآثار الصدقة هنا ظاهرة وباطنة ، ففيها محو للخطايا وفيها محو للذنوب ،وفيها أيضاً ستر لصاحب الصدقة في دنياه ، وهو ستر لا يُكشف ما دام من الله ، وهذه الناحية ، أي ناحية الستر لها وجهان : ستر الذنوب ،وتكفيرها

وتغطيتها ،وستر حال المؤمن ،فهو تحت ستر سابغ من ربه ، يستر زلته ،ويستر خلته ،وليس للنفس الطيبة مطلب أكرم من هذا المطلب.

تأمل عناصر آيتي القرآن تجدها مستمدة من محور الكون من الأرض الخصبة والتربة النقية ،وعطاء الحياة وجمال الطبيعة ، فالحبة تتوالد ،والجنة تتوالد والوجود يهتز بأسره حين المخاض والنماء والازدهار ،فيعم الخير ،وتبتهج الدنيا ، ويتضاعف العطاء .

ففي الصورة الأولى أرض وبذرة وماء ،ثم ساق وسبع سنابل ، وسبعمائة حبة ، ففيها خصوبة الأرض التي هي خصوبة تلك القلوب التي امتدت إليها يد الله فأخرجت خبأها ومرعاها ،وتجلت بطاعتها مباهج فطرتها .

وفي التشبيه بالحبة دلالة على أن الصدقة من العبادات التي يستقيم بها أمر الدين كالصلاة والصيام ،ومثلها مثل الحبة التي هي قوام الحياة ،وفي حديث آخر يشبه الرسول عليه السلام الصدقة بالماء وهو ما يقيم أود الحياة أيضاً قال عليه السلام " الصَّدقة تُطفيء الخطيئة كما يُطفيء الماء النَّار "(١).

وفي قوله : "أنبتت " حكاية قصة صيرورة الحبة حبات تتضاعف وتتكاثر * والله يضاعف لمن يشاء * أي بحسب حالهم من الإخلاص ،ووضعها في أحسن مواضعها ، فهي من العبادات التي يتفاوت جزاؤها ، * والله واسعٌ عليمٌ * أي واسع الجود والعطاء فلا ينحصر ولا يضيق فضله ،وعليم بما تكنه الصدور نحو المال عند إخراجه .

---

(١) سنن الترمذي ٢/ ٦٢.

وفي الآية الثانية تتسامى العناصر فنجد جنة أي بستاناً عظيماً ، والجنة تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة كما يقول الآلوسي (١) ، وهذه الجنة تبتهج لها النفوس وتسر الأنظار ،وفي تنكير " جنة " معنى العظمة والإتساع وطيب المعدن ثم هي بربوة والربوة ما نشز من الأرض ، وأشجار الروابي تكون أحسن منظراً وأجنى ثمراً ،وألطف هواءً ، وهي بعيدة عن وسخ الأرض بأنواعه ،ثم يصيبها وابل أي مطر شديد ، فيمنحها حياة على حياة ،فتُثمر وتَينع وتُخرج ضعفي ثمرها ، والجنة حين تؤتى أكلها تكون غاية في الحسن والطيب فإذا ما كان الثمر مضاعفاً فإنها تبلغ منزلة لا يدركها الوصف ، ثم إن الحياة تظل فيها ممرعة حتى ولوانقطع هذا الوابل لأنها لا تزال تستحلب حياتها من قطرات الندى فتثمر وتؤتي أكلها ، فمن كلتا الحالتين ثمر جنى ورزق وفير فخيرها لا يتخلف على كل حال . والربوة كأنها قلب المؤمن النقي البعيد عن الخبائث ،وصغائر الأمور . والجنة كأنها عطاء المؤمن ،وكرم نفسه وخصوبة عطائه .

وفي قوله " بربوة " إشارة إلى أن الجنة ملصقة بالربوة وجزء منها ، وهي باقية ببقائها ، فالباء للإلصاق " بخلاف قولنا " " في ربوة " التي تعني أن الجنة قد تنفصل عن الربوة فيتسرب الجدب واليبس إليها ،والمؤمن لا ينقطع عطاؤه ما بقي الإيمان في قلبه كأنهما توأما مهد واحد ،وهذا يؤكد قوله * تثبيتاً من أنفسهم *.

ثم نتأمل سبب كل إنفاق أو قيد كل إنفاق فالأولى تكون في سبيل الله أي من أجل الجهاد واعلاء كلمة الله ونصر دينه . والثانية من

---

(١) روح المعاني : ٣٧/٣ .

أجل * ابتغاء مرضاة اللّٰه وتثبيتاً من أنفسهم * أي أن النفس الإنسانية جامحة تنزع دائماً إلى الهوى وإلى إشباع غرائزها ،وكف ذلك يكون بالعبادات كالصلاة والصوم أو بإنفاق المال وبذله ، فيصير بذل المال تثبيتاً للنفس (ومن) تكون بمعنى التبعيض . أو أن المراد تعويد النفس وتثبيتها على العطاء وقهر الشح الذي يكمن في فطرتها * إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وإِنَّهُ على ذلك لَشَهِيدٌ وإِنَّهُ لِحُبِّ الخيرِ لَشَدِيدٌ *(١) (فمن) هنا بمعنى اللام.

أو أن المقصود الإنفاق والصدقة من غير دعوته إلى ذلك وكأن نفسه تحثه على الصدقة ،وتدعوه إليها وهي نفس لها مكانة عالية عند اللّٰه تعالى لأنها تقود صاحبها إلى الخير (٢) ، فالإنفاق أمر عظيم تهتز له روابي الأرض لأن تعويد النفس عليه من المصاعب التي دونها مصاعب ، وكأنها أساس الصدقة وهذا لا يكون إلا من القلوب الحية التي تحرص على أن تجدد إيمانها وتثبته وتوطن النفس على طاعة الله ،فالانفاق هنا لا يكون بدعوة إليه أو استجابة لمؤشر كما في الآية الأولى التي يكون الإنفاق في سبيل اللّٰه ، فقد ينفق المؤمن في سبيل الله ونفسه تتجاذب بين هواها وابتغاء الأجر ،أما الإنفاق من أجل النفس فهو الذي يصدق فيه المرء.

ومن المعاني التي جاءت بالتمثيل في القرآن الكريم والحديث النبوي وحدة المؤمنين وترابطهم بقوة.

قال تعالى * إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذينَ يُقاتلونَ في سَبِيلِه صَفًّا كَأَنَّهم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ * (٣) وقال عليه الصلاة والسلام " إِن المُؤْمِنَ للمُؤْمِنِ كالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضاً " وَشَبَّكَ أَصابِعَهُ. (٤)

---

(١) سورة العاديات : ٦-٧-٨ .   (٢) انظر روح المعاني ، الالوسي: ٣/ ٣٦ .

(٣) سورة الصف : ٤ .   (٤) صحيح البخاري: ١/ ١٢٩ .

الآية تتحدث عن الحالة التي يجب أن يكون عليها المؤمنون عند لقاء العدو من التحام بعضهم ببعض فلا فرجة بينهم ولا خلل ، فتتلاقى أجسادهم وقلوبهم وكلمتهم حتى يتم لهم النصر (١) .

والحديث النبوي الشريف يذكر علاقة المؤمن بالمؤمن من غير أن يكون الحال حال حرب وجهاد ، وإنّما ذكر البنيان المتلاحم الأجزاء يوحي بهذا السياق القرآني سياق القوة والشدة الناتجة عن التلاحم ، والبنيان هو الحائط المتكامل البناء الذي تتراص لبناته وكل لبنة ترتكز على التي تليها حتى تتحد أجزاؤها ولا يختل بناؤها ، فالمؤمن يشتد بأخيه المؤمن حين الدفاع عن حرمة من حرمات الإسلام . وفي قوله ﴿ اللّٰه يحب ﴾ توكيد حب اللّٰه لهذه الفئة التي إنْ قالت فعلت ، وحب اللّٰه يقتضي حب الرسول والمؤمنين له ، لأنَّ فيه حرصاً على عمل ما يرضي اللّٰه ، وفي توكيد الجملة " بإنّ " وكلامه جلّ وعلا لا يحتاج إلى توكيد ـ الحفاوة بهذا الأمر فهو من أحب الأعمال إلى اللّٰه تعالى ، لأنْ فيه إعلاءً لكلمته . وفي وصف هذا البنيان " بالمرصوص " إشارة إلى النظام والدقة والحكمة عند ملاقاة الأعداء . وفي قوله ﴿ في سبيله ﴾ دلالة على أن الجهاد هو ما ترفع به راية الإسلام ، وتُدحر به ضلالات الجاهلية ، وليس دفاعاً عن قومية أو مكاسب شعوب ، وفيه تنبيه المسلم بعدم رفع سيف إلّا في سبيله ونبذ كل عصبية ودوافع أخرى غير وجه الله ، كما أن فيها معنى الحب والتآخي ، وأن هذا التلاحم الذي هو كالبنيان المرصوص قائم

---

(١) انظر روح المعاني ، الألوسي ٢٨/٨٤ .

على المساندة والمظاهرة والمحبة ،لأنّ الهدف واحد ،والغاية واحدة، فالكل في طريق واحد ، ثم إنّ سبيل اللّه بين عباد اللّه باب من أبواب الحب والرباط الروحي . وبهذا نجد في المثل القرآني أشياء لا نجدها في الحديث النبوي فقد نص على القتال وأومأ إلى الحكمة والنظام بقوله * مرصوص * ودل على وشيجة المحبة بين هؤلاء المجاهدين المتساندين بقوله * في سبيله * وليس في الحديث شيء من هذا وإنّما فيه بيان للتلاحم والتماسك في الحرب معتمدين على الإيماءة في كلمة *البنيان * و * يشد بعضه بعضاً * وبهذا تتصل بالآية القرآنية ،وقد ألمّ الرسول صلى الله عليه وسلم بمعاني التعاطف والتراحم بين المسلمين في حديث آخر حيث قال عليه السلام " مَثَلُ المُؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إِذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سائِرُ الجَسدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى "(١) .

ومن المعاني المتشابهة التي جاءت بأسلوب التمثيل تشبيه ما أنزله اللّه من الوحي والنبوة بالمطر النازل من السماء ، قال تعالى :
* أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ *(٢)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّ مَثَلَ ما بَعَثَنِي اللّه به عزّ وجلّ من الهُدَىٰ والعِلم كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طيبةٌ قَبِلَتِ الماءَ فَأَنْبَتَتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثير وكان مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فنفعَ اللّه بها النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَرَعَوْا وَأَصَابَ طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّما

----

(١) صحيح مسلم: ١٦/ ٤-١٤ . (٢) سورة الرعد : ١٧ .

هي قِيعَان لا تُمسكُ ماءً ولا تُنبتُ كلأً فذلكَ مَثَلُ من فقهَ في دين الله ونفعهُ بما بعثني اللهُ به فعَلِم وعلَّم ومَثَلُ مَن: لم يرفع بذلك رأساً ولم يَقبل هُدَى الله الذي أُرسلتُ به ".(١)

فالآية والحديث يشتركان في إصابة النازل من السماء للأرض، والأرض التي قبلت الماء وانتفعت به، إلاّ أن الحديث يسير بعد ذلك نحو معنىً خاصاً، ويُفصل تفصيلاً آخر، فهو يشرح أنماط الأفئدة المتلقية لما أنزل الله.

والآية تهتم بمرحلة الاهتزاز التي تحصل للأرض ساعة نزول الماء على الأرض الجافة، وهي تقابل النوع الأول والثاني من الأرض في الحديث، وكأنّ الآية وقفت عند مرحلة طوى الحديث ذكرها، فذكر ثمرة هذا الاهتزاز. فحين تنزل الحكمة والنبوة على القلوب المليئة بالكفر والشهوات والأهواء، ويلتقي الحق والباطل والإيمان والكفر، يكون الصراع والمجاذبة والاهتزاز بينهما فينتصر الحق على الباطل بعد أن ينزعه ويلقيه خارجاً، وتنتفع هذه القلوب بهذا النور، فيضيئها بعد ظلمه، ويخصبها بعد جدب، وتغدو نبعاً فياضاً يعبق بمعاني الخير ويفجرها، وهكذا هي القلوب حين تلقي أكدار الجهل والضلال بعد أن تكون شديدة التعلق بها. يقول ابن القيم في شرح هذه المرحلة " كما أن السيل إذا خالط الأرض ومرّ عليها، احتملت غثاءً وزبداً، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثارما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويُذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكرب بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يساكنها وهكذا ".(٢)

---

(١) صحيح مسلم; ١٥/ ٤٦

(٢) الأمثال في القرآن، ابن القيم ; ١٨٢- ١٨٣.

وحين نتأمل صورة المشبه به نجد مطراً نازلاً من السماء أي من جهة العلو وفي تنكير " ماء " دلالة على أنه كثير متدفق ، وهذه تقابل قوله عليه السلام في الحديث " كمثل غيث " بالتنكير التي تفيد الكثـرة والغزارة بعد انقطاع ، وفي قوله * فسالت * بالفاء دلالة علـــى سرعة الاستجابة فما أن نزل الماء حتى سالت الأودية ، * بقدرها * أي بحسب سعتها فمنها ما يسع ماءً كثيراً ومنها ما يسع ماءً قليلاً وفي ذلك دلالة على اختلاف قلوب الناس باختلاف تلقيهم للوحي وقدرتهم على استيعابه ، أو أن المقصود بقدر الله سبحانه وتعالى وبما كتبه على النفوس وقدره .(١)

وفي قوله * احتمل * على وزن افتعل معنى المبالغة في حمل الزبد حالة اندفاع السيل وسيلانه لأنها مترسبة في قعر الوادي ورفعهـــا محتاج إلى جهد ومشقة ، وكذلك القرآن حين يغمر النفس المليئة بالضلالات ، تجد من المشقة والمجاذبة ما يحملها على الجهد والاضطراب ، وهذا السيل قد احتمل " زبداً رابياً " والزبد هو الغثاء الذي يطرحـه الوادي إذا جاش ماؤه ، و* رابياً * أي منتفخاً فوق الماء (٢) ، وهذه خلاصة الاحتمال والمجاذبة ، وفيه أن هذا الزبد ظل مرتفعاً فوق سطـح الماء النقي لم يختلط به ، إنما انفصل عنه لخفته وكدره ، وهكذا يظل الماء نقياً في تلك الأودية ، فيأتي الناس لينتفعوا به . والأوديـــة هي قلوب المؤمنين التي يصيبها الوحي على قدر ما يحييها ، والزبـــد الرابي هو تلك الضلالات والشهوات التي كانت مترسبة في النفوس قبـل أن يأتيها هدى الله .

وتأمل قوله * رابياً * التي تدل على تراكم تلك الضـلالات في النفس حتى غطت عليها لولا لطف الله بعباده .

---

(١) ، (٢) انظر روح المعاني ، الألوسي ١٣/ ١٣٠ .

وأحياناً تتحد عناصر المشبه به في الآية والحديث ،فنلمح نوعاً من التقارب في المعنى كما في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أو كالرَّجُلِ المُسْلِمِ لا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا وَلا وَلا وَلا ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ " قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النَّخْلة ورأيت أبا بكر وعمرلا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هي النَّخْلة" (٢).

قال المفسرون إن الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلاّ الله مغروسة في نفس المؤمن شبهت بالشجرة الطيبة ،وقال السلف إن الشجرة الطيبة في الآية هي النخلة " فعن ابن عباس قال : كنا عند أنس فأتينا بطبق عليه رطب فقال أنس لأبي العالية : كل يا أبا العالية فإن هذا من الشجر التي ذكرها الله تعالى في كتابه ﴿ ضرب اللّه مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ثابت أصلها ﴾ (٣).

أما الحديث النبوي فإنه يشبه المؤمن في جميع أحواله بالنخلة من جهة عموم النفع ، ونستطيع أن نقول إن هناك نوعاً من التقارب بين الآية والحديث من حيث التقاؤهما في الشجرة ،فالكلمة الطيبة

---

(١) سورة ابراهيم : ٢٤-٢٥ .

(٢) صحيح البخاري : ٦/٩٩ .

(٣) روح المعاني ، الالوسي : ١٣/ ٢١٣-٢١٤ .

تشبه الشجرة ،والمؤمن يشبه الشجرة ، ثم إن المؤمن لا يكون مؤمناً إلا إذا غرست هذه الكلمة في جوهر نفسه ، وتغلغلت في أوطار قلبه ، فصار المؤمن كأنه كلمة طيبة ، تنبع منها جميع أفعاله وأقواله الظاهرة والباطنة ،وهذه الكلمة متى رسخت في نفس المؤمن وصبغته بصبغة الإيمان لا تزال تثمر كلماً طيباً وعملاً صالحاً فهي كصفة هذه الشجرة * أصلها ثابت وفرعها في السماء * وعروقها ضاربة في الأرض لآماد بعيدة وفي ذلك دلالة على أنها تجلب ماءها من أعماق الأرض وكلما سقيت منه ازدادت امتداداً إلى أسفل ، و يترتب على هذا علو فرعها وسموقه نحو السماء بعيدة عن وسخ الأرض وعفوناته ، فلاتتنفس إلاّ من الهواء النقي ،ولا تمتص إلا الماء العذب ،وتتواصل جذورها بفروعها فتعطي ثمراً طيباً في كل وقت وكل حين .(١)

وانظر إلى عناصر المشبه به تجد شجرة طيبة وجاءت بالتنكير للدلالة على أنها شجرة عظيمة * طيبة * أي طيبة الرائحة والثمر والطعم .

وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم في المثل يركز على عدم سقوط ورق النخلة، واعطاء ثمرها في كل حين ،بينما الآية القرآنية تركز على طيبها وثبوت أصلها ، وسموق فرعها نحو السماء ،ويشترك مثل القرآن ومثل الحديث في * تؤتي أكلها كل حين * وهو مقتبس في الحديث من المثل القرآني .

---

(١) انظر روح المعاني ،الألوسي :١٣/ ٢١٥ .
الأمثال في القرآن الكريم ،ابن قيم : ٢٢٩- ٢٣٠-٢٣١ .

ويشبه القرآن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي قال عنها أكثر المفسرين إنها الحنظلة (١) ، ويشبه عليه السلام الفاجر الذى لا يقرأ القرآن بالحنظلة التي لا طعم لها ولا ريح . وفي القرآن الكريم تلتقي النخلة مع السنبلة التي تنبت سبع سنابل مع الجنة الزاكية لتصف المؤمن وأعماله فهو دائم الخضرة تسري فيه الحياة أبداً .

والرسول عليه السلام يشبه المؤمن بأطايب الثمر والشجر فكل شجرة نافعة هي مؤمن وكل شجرة خبيثة هي كافر ، فيشبه المؤمن بالنخلة وخامة الزرع والأترجة ، ويشبه الكافر بالحنظلة والأرزة .

وأحياناً تتوحد العناصر بين الآية والحديث من حيث إن عنصر كل منها مستمد من محيط المعرفة والثقافة المترسخة في وجدان القوم ، وهنا لا نجد المشابهة أو المقاربة في المعنى إنما نرى نوعاً من التلامح بين العناصر العامة ، فالقرآن الكريم يشبه باستهواء الشياطين وتغولها وهو اعتقاد راسخ في أذهان العرب ، والحديث النبوي يشبه بالنذير العريان وهي قصة عرفها العرب ، وتداولوها وتمثلوا بها .

يقول الله تعالى ﴿ قُلْ أَندعُوا مِن دُونِ اللَّهِ ما لا يَنفَعُنَا ولا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ على أعقَابِنَا بَعْدَ إذ هَدَانَا اللَّهُ كالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ في الأرض حَيرانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَه إلى الهُدى ائْتِنَا قُلْ إنَّ هُدَى اللَّه هُو الهُدَى .. ﴾ (٢)

ويقول تعالى ﴿ الَّذِين يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُون إلَّا كما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُه الشَّيطانُ مِنَ المَسِّ .. ﴾ (٣)

---

(١) انظر روح المعاني ، الالوسى : ١٣ / ٢١٥ .

(٢) سورة الأنعام : ٧١ . (٣) سورة البقرة : ٢٧٥ .

ويقول عليه الصلاة والسلام " مَثَلِي وَمَثَلُ ما بَعَثَنِي اللّهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْماً فقال : رأيتُ الجيشَ بعَيْنَيَّ وإني أنا النّذيرُ العُرْيَان فالنّجاءَ النّجاءَ ، فأطاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا على مَهْلِهِم فَنَجَوا ،وكذّبته طائفـــةٌ فصبّحهم الجيش فاجْتَاحَهُم ".(١)

يقول الزمخشري في صورة المشبه به عند تفسير الآية الأولى :

" هذا مبني على ما تزعمه العرب و تعتقده أن الجن تستهوى الإنسان ، والغيلان تستولي عليه "(٢) . ويقول في تفسير الآية الثانية ﴿كالذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ "أي المصروع ،وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ،والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء ، فورد على ما كانوا يعتقدون ،والمس الجنون ، ورجل ممسوس . وهذا أيضاً من زعماتهم وأن الجني يمسه يختلـــط عقله "(٣)

وللعرب خاصة الشعراء منهم حكايات طريفة عجيبة عـــن الشياطين والغيلان يزخر بها أدبنا العربي ،وتراثنا الإسلامي ،وللجاحظ حديث طويل ممتع في ذلك فيذكر عن شياطين بعض رجالات العرب ، وطرائف قصصهم ،وعجائب بلادهم كما يذكر قول الرسول صلى اللـــه عليه وسلم فيهم ،وأقوال العلماء(٤) .

---

(١) صحيح البخاري: ١٢٦/٨ .
(٢) الكشاف : ٢٨/٢ .
(٣) المصدر السابق: ٣٩٨/١- ٣٩٩ .
(٤) انظر الحيوان : ١٥٨/٦ ومابعدها .

وهذا كله يعد من معارف العرب التي أنبأ عنها القرآن وأكد وقوعها ،وهذا الذي قدمناه عن الزمخشري هومذهب المعتزلة .أمامذهب أهل السنة والجماعة وهو ما نحن عليه أن الشياطين تستهوي كما وصف القرآن و تتخبط بالمس ولا يقدح في إيماننا بهذا أننا لم نعلمه واقعاً لأننا ما أوتينا من العلم إلاّ قليلاً والله أعلم بمراده .

ومن مظاهر أثر القرآن الكريم في الأمثال النبوية هذه الاقتباسات الظاهرة من ألفاظ و صيغ القرآن الكريم مع اختلاف الأغراض التي سيقت له .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما مَثَلي ومَثَلُ أُمتي كمثل رجُلٍ اسْتَوقَدَ ناراً فجعلت الدوابُّ والفراش يَقَعْنَ فيه فأنا آخذ بحُجَزِكُمْ وانتم تَقَحَّمون فيه "(١) وصورة المثل هذه مقتبسة من قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِم وَتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴾(٢) .

فمستوقد النار في الحديث هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كدّ في البحث عن مشكاة الهدى ، وهذا ما يفهم من قوله "استوقد" يقول ابن حجر " استوقد أي أوقد وزيادة السين والتاء للإشارة إلى أنه عالج ايقادها وسعى في تحصيل آلاتها "(٣) ، والنار التي استوقدها هي نور الشريعة ونور النبوة وقد ظلت متوقدة يقع فيها الضالون ممن عموا عن مواطن نفعها وكذلك النار التي في الآية القرآنية هي نور الإيمان والهدى والنبوة و من أوقدها هم المنافقون

---

(١) صحيح مسلم : ٤٩/١٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٧ . (٣) فتح الباري : ٤٦٣/٦ .

الذين تاقوا إلى نور الفطرة ،حتى إذا أعرضوا عنها أطفأها الله فنار الحديث نار عامة ،والنار التي في الآية نار خاصة .وهذا التأويل لمثل القرآن اتفق عليه المفسرون في تفاسيرهم (١).

وذكر الدكتور عبدالله دراز تأويلاً آخر للآية استنبطه من نظمها ، وهذا التأويل يتفق مع معنى الحديث ،فيقول إن الضمير في قوله تعالى ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ لا يعود على ﴿ الذي استوقد ناراً ﴾ إنما يعود إلى القوم الذين استوقدت النار من أجلهم ، والنور الذي ذهب الله به ليس هو ضوء مستوقد النار لأن هذه النار لم تنطفئ أبداً ، وهي في الآية نور النبوة والهداية ، ومن كد في ايقادها هو المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والنور الذي ذهب هو نور بصائر الكفار لأن أبصارهم قد طمست أمام نور الحق والإيمان وقد قال الله تعالى بعد ذلك ﴿ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ وهذا المثل ضربه الله تعالى للكفار ،والمثل الذي تلاه ضربه مثلاً للمنافقين (٢).

فالنار في الآية إذن هي النار التي في الحديث انبعث منها نور الحق والرسالة والمستوقد في الآية هو المستوقد في الحديث إلا أن الضالين في الآية طمست أبصارهم من قوة الضوء وسطوعه ،أما في الحديث فهم يقعون في النار لا لعمى في أبصارهم إنما لعمى في بصائرهم ، فهم يحسبون النار نوراً ولذلك فإن موقد النار هذا حريص على دفع هؤلاء وتبصيرهم بمواطن الخطر . فأخذ يذنبهم و يبالغ في زجرهم.

---

(١) انظر الكشاف ،الزمخشري : ١/ ١٩٨، ١٩٩ ،روح المعاني ،الآلوسي : ١/ ١٦٤، ١٦٥ .

(٢) انظر النبأ العظيم : ١٧٨ - ١٦٩ - ١٧٠ .

ومن الألفاظ المقتبسة من القرآن الكريم إطلاق لفظتي الحي والميت على الهداية والإيمان وذكر الله، وعلى الضلال والبعد عن الله وذكره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَثَلُ الذي يَذْكُرُ ربَّهُ والذي لا يَذْكُرُ مَثَلُ الحَيّ والميِّتِ "(١) فالحديث يشبه من يذكر الله ويواظب على العمل بما أمر بالحي، ومن مات الإيمان في قلبه فلم يذكر الله بالميت، وذكر الله يشمل كل عمل إيماني مطلق كما يقول ابن حجر إن هذا الحديث" يطلق ذكر الله ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب اليه "(٢).

والقرآن الكريم يطلق الحياة على الهداية والإيمان والموت على الضلال والكفر في مواضع متعددة قال تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾(٣) فالموت في الآية هو الضلال والاحياء الهداية أي من كان ضالاً فهديناه.

وقال تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ ﴾(٤) أي الذين دخلوا في الإسلام واهتدوا به والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر.(٥)

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴾(٦)

---

(١) صحيح البخاري: ١٠٧/٨.

(٢) فتح الباري: ٢٠٩/١١.

(٣) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٤) سورة فاطر: ٢٢.

(٥) الكشاف للزمخشري: ٣٠٦/٣.

(٦) سورة الأنفال: ٢٤.

وإطلاق الحياة والموت على الكفر والإيمان من المعاني الإسلامية التي أشاعها القرآن الكريم ، فليس الموت الحقيقي هو خروج الروح وتعطل الحياة المادية ،إنّما الموت موت القلب وانطفاء نور الإيمان ،وليست الحياة هي بث الحركة في الجسم وممارسة سائر تصاريف الحياة فقط وإنما الحياة في جوهرها إشعاع نور الإيمان في القلوب ، وسريانه في النفوس، وتوثيق الصلة بالله ، فحياة المؤمن ليست هي حياة كل المخلوقات إنّما هي حياة أرقى وأسمى ،وهكذا فإن القرآن قد أضاف للموت والحياة مفهوماً آخر ،ورسول الله صلى الله عليه وسلم شبه بهما المتصل بالله تعالى والمُعْرِض عنه .

ويسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافق خبث والمؤمن طيب ،فعن ابن جابر رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبايعه على الإسلام فجاء من الغد محموماً فقال اقلني ،فأبى - ثلاث مرار - . فقال عليه السلام " المدينة كالكير تَنْفِي خَبَثَها وَيَنْصَعُ طَيِّبُها" .(١)

وقال الله تعالى ﴿ما كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ على مَا أَنْتُمْ عَلَيهِ حتّى يَمِيزَ الخَبِيثَ من الطّيِّب ...﴾ (٢) هذه الآية جاءت بعد استعراض أحداث معركة أحد ،ومكائد المنافقين ودسائسهم ،وما انطوت عليه نفوسهم من الغدر للإسلام ،ورأس المعنى في الآية أن الله لن يترك المدينة تموج بالمنافقين ممن يُظْهر الإيمان ويُبْطن الكفر وسيجزيهم وذلك بأن يكلفهم بتكاليف صعبة ويبتليهم حتى

---

(١) صحيح البخاري، ٢٩/٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٩ .

يمتحن نفوسهم ، ويكشف عن معادنهم ،فيعلم كل واحد ما في قلب أخيه ويجعل ذلك معياراً لإيمانهم فيُعْرف المؤمن ،ويُعْرف المنافق (١)

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر أن المدينة ستخرج خبثها من المنافقين ،وتبرز المؤمنين بأعمالهم الجليلة ،وإيمانهم القوي وذلك بعد الابتلاء .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقتبس بعض الصور البيانية من القرآن الكريم مع اختلاف الغرض المساق فيها كقوله عليه السلام : " زهرة الدنيا " في حديث (" إن مما أخاف عليكم ما يُفتَح عليكم من زهرة الدُّنْيَا وزينتها)" مقتبسة من قوله تعالى ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ (٢).

فقد استعار الزهرة لنعيم الدنيا لأنها حسنة المنظر، سريعة الزوال .ويشبه القرآن الكريم قلب المنافق بالصفوان وهو الحجر الأملس كما يشبه قلوب اليهود بالحجارة . قال تعالى : ﴿ ... كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ... ﴾ (٣).

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ... ﴾ (٤)

---

(١) انظر روح المعاني ، الألوسي ٤/١٣٦-١٣٧.

(٢) سورة طه : ١٣١.

(٣) سورة البقرة : ٢٦٤.

(٤) سورة البقرة : ٧٤.

ويشبه الرسول صلى الله عليه وسلم من لا يستجيب لوحي اللـــه بالأرض القيعان التي لا تتأثر بمطر السماء ولا تنبت عشباً ولا كلأ يقول عليه السلام " وأصابت منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ " . و "القيعان بكسر القاف جمع القاع ،وهـــي الأرض الملساء التي لا نبات فيها "(١) .

وقد يأتي المثل النبوي لشرح آية قرآنية يقول عليه الســـلام " ما مِن مَولودٍ إلاّ يُولَدُ على الفِطرَةِ، فأبَواه يُهَوِّدانه أو يُنصِّرانـــه أو يُمجِّسانه كما تُنتِجُ البهيمةُ بهيمة جمعاء ، هل تُحسُّونَ فيها من جَدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة " فِطرَت اللَّهِ التي فَطَرَ النَاسَ عليها ، لا تَبْديل لخلق اللَّه ذلك الدين القيم "(٢) .

هذا الحديث شرح لقوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطرَتَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيل لِخَلقِ الله ذِلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولِكنّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) . هذه الآية جاءت بعد آيات دالـة على الوحدانية ونفي الشرك وهي خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من بعده ،وفيها الأمر بالثبات على هذا الدين ،والاهتمام به ،وصرف النفس إليه . وفائدة الأمر بأمر واقع من رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم الذي بلغ الكمال في التوجه إلى ربـه في قوله ﴿ فأقـــم وجهك ﴾ إثارة وإلهاب ومزيد من الأمر بالثبوت، والملازمـة عليهـــا

---

(١) عمدة القارى ، العيني : ٢/ ٧٨ .

(٢) صحيح البخاري ٢/ ١١٨ .

(٣) سورة الروم : ٣٠ .

والاستقامة (١) . واقامة الوجه جاء على سبيل التمثيل أي كن كمن اهتم بشيء فصوب نظره نحوه لا يزيغ عنه يمنة ولا يسرة ، مقبلاً عليه ، مأخوذاً به ، منصرفاً إليه انصراف حب وولاء ، فعلى الرسول أن يثبت على هذا الدين ثبوت المستوثق بكل نفسه وحواسه (٢) .

﴿ وفطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ : أي الزموا فطرة الله ، وفيه اغراء للجماعة بدلالة ﴿ منيبين إليه ﴾ في الآية التي بعدها (٣) . وفي إضافة الفطرة إلى الله إشارة إلى أنها فطرة يجب التمسك بها والمحافظة عليها ، لأنها ما دامت فطرة الله فهي باقية مستمرة دائمة ، فالله قد فطر الناس عليها ، فهي فطرة الحق والصواب والسداد ، والفطرة هذه هي الدين والاسلام وقوله ﴿ التي فطر الناس عليها ﴾ توكيد لفطرة الله ، والفطرة في الحديث النبوي الشريف في قوله عليه السلام " كل مولود يولد على الفطرة " هي المقصودة في قوله تعالى ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ . يقول ابن حجر نقلاً عن الطيبي إن ذكر الآية القرآنية عقب الحديث يقوى تفسير الفطرة بالدين في الاية الكريمة فالحديث جاء ليفسر معنى قوله تعالى ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ (٤) .

---

(١) انظر دلالات التراكيب ، د . محمد أبو موسى ٢٦٩ .

(٢) و (٣) انظر روح المعاني ، الالوسي ٢١/٣٩-٤٠ .

(٤) انظر فتح الباري ٣/٢٤٩ .

الفصل السادس:
التمثيل عند الجاهليين

١ - بعض أغراض التمثيل عند الجاهليين وموازنتها بأغراض التمثيل النبوى .

٢ - بعض عناصر التمثيل عند الجاهليين وموازنتها بعناصر التمثيل النبوى .

التمثيل في الشعر الجاهلي

أُريد في هذا البحث أن أدرس صوراً من التمثيل في الشعر الجاهلي ، ذلك الشعر الذي يمثل بيان العربية الذي تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم ولسان بني أبيه ، لنتبين المدى الذي انتقل به هذا الفن البياني في كلامه صلى الله عليه وسلم هذه النقلة الهائلة من حيث الأغراض والمقاصد ، ثم من حيث الدقة والملاءمة ... وغير ذلك مما هو موجود في صور التمثيل في الشعر الجاهلي وصور التمثيل في كلامه صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن التمثيل في الشعر الجاهلي باب مفرد من أبواب الدرس البلاغي ، يستوجب عملاً علمياً مستقلاً ، نأمل أن ينهض به غيرنا ، وإنّما أكتفي هنا باقتباس بعض الصور الدالة على هذا الباب ، والتي تفي بغرضنا في هذه الدراسة ، من وضع هذا النمط البياني العالي في شعر الجاهلية بإزاء ما جاء منه في كلامه صلى الله عليه وسلم .

وتختلف أغراض التمثيل في الشعر الجاهلي عن أغراض التمثيل في كلامه صلى الله عليه وسلم ، وهذا أمر معروف ، لأن أمثاله عليه السلام جاءت لبيان وحي اللّه إلى الناس ، تحمل معها الحق والحكمة وميزان العدل فهي أغراض إسلامية ، تهدف إلى إرشاد الفرد إلى ما تسمو به حياته ويستقيم بها عيشه . أما الشعر الجاهلي فإنّه محض فن وخيال وإبداع ، عبر فيه الشعراء عن أحوال ومواجد ومعانٍ ليست من كلام النبوة .

ودراستي لهذه الصور ستكون دراسة تحليل واجتهاد في الكشف

عن أسرار الكلمات ،والعناية بالنظر في بعض العناصر ،وتأمل جريانها في الشعرالجاهلي ،ثم في التمثيل في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإدراك فيوضات وعطاءات هذه العناصر حين تكون في بيانه عليه السلام.

ومن الواضح أن الجاهليين قد تحدثوا وبرعوا في أغراض كثيرة متعددة منها على سبيل المثال :

١ - تصوير أحوال النفس المختلفة التي تعتري الإنسان من حزن وخوف وألم وهم ... إلى آخر ما جرى عليه بيانهم في هذا الشأن ،وهذه الأحوال قد توارد الشعر عليها غالباً فأبدعوا فيها ، لأنها ليست إلّا عوالج ينفثها الشاعر حين يجيش بها صدره.

وبَشامة بن الغَدير يعبر عن شدة ألمه ووجده على إثر فراق الأحبة ، وهو واقف على تلك الديار الخاوية الخالية إلّا من حشد ذكريات تجسدت فحركت وهيجت ما في نفسه من حنين وأنين ،فانهمرت دموعه تروي نفسه الظامئة الملتاعة يقول :

فَوَقَفْتُ في دار الجَميعِ وَقَدْ جَالَتْ شُؤُون الرَّأْسِ بالدَّمْعِ
كَغُرُوضِ فَيَّاضٍ على فَلَجٍ تَجْرِي جَدَاوِلُهُ على الزَّرْعِ (١)

---

(١) المفضليات : ٤٠٧ - شؤون الرأس : جمع شؤون وهي شعوب قبائل الرأس الأربع ومنها منحدر الدمع إلى العينين ، الفياض : الماء الكثير ، عروضه : نواحيه ، الفلج : النهر الكبير ،الجداول : جمع جدول وهي حياض صغار يسقى فيها الابل . "شرح المفضليات" للتبريزي ، وهامشه تحقيق : علي البجاوي : ١٣٥٩/٣ .

وقف الشاعر في دار الجميع وهي ديار الأحبة ، يتجول ببصره فينسج ذكريات اجهشته بالبكاء ، فانهمر دمعه يجري ، فيشبه كثرة هذه الدموع بتدفق نهر سالت نواحيه بالماء ،فأخذ يجري في جداوله ليروي الزرع ، وهذا التشبيه مبني على المبالغة لتشبيه الدموع بالجداول ،وقوله " تجري جداوله على الزرع " تفصيل للمشبه به وبيان له ، ولكن لماذا ذكره الشاعر؟ .. ولماذا ذكر فيه الماء والزرع وهو في مكان قفر يباب ذهبت معالم الحياة والحركة فيه ؟ .. ربما استوحى الشاعر الأمل في عودة الحياة إلى هذا الربع ، حتى يتبدد السكون وتذهب الوحشة ،ويرجع عامراً بالأحبة والأهل والعشيرة ،فيراهم يروحون ويجيئون ،فيلتقي الجميع في دار الجميع بعد فراق .

وفي ذكر الماء إشارة إلى طلب السقيا لهذه الأرض والدعاء لها ، ولكنه بأسلوب آخر ،وتلمح من خلال خصوبة الأماكن وطلب السقيا وعودة الحياة طلب الشاعر لري آخر يروي به شوقه وتلهفه الشديد ، فهو يرنو إلى النضارة والخصوبة والحياة حين يجتمع شمله مع من أحب ، وكأنه هو هذا الزرع الذي يجري عليه الماء فيحيا .

وللنابغة الذبياني أبيات شاجية يصف فيها حزنه تلتقي مع أبيات بشامة في وصف أسى النفس يقول :

وَقَفْتُ بها القلوصَ على اكتئابٍ وذاكَ تفارُطُ الشّوقِ المُعَنِّي

أُسَائِلُها ،وقد سَفَحتْ دُموعي كأنَّ مفيضَهُنّ غُروبُ شَنِّ

بُكاءُ حَمامةٍ تَدْعو هديلاً مُفَجَّعةٍ على فَنَنٍ تُغَنّي (١)

---

(١) الديوان : ١٣٦ .

وقف بناقته على ديار الأحبة والاكتئاب يعلوها وهو في حالة حزن وشجن أخذ يسائل الديار عن الأحبة علها تعلم من أمرهم شيئاً ، فهو يقول " أسائلها " والمساءلة من باب المفاعلة التي تدل على المشاركة ، وفيها إحياء لهذه الدار وكأنها تجسدت أمامه كما تجسد كل شيء فيها ، فأخذ يسأل الدار ، وهي تسأله عن الأحبة ووراء ذلك الإنباء عن شوق الدار ، وأنها حافظة لعهودهم وأخبارهم ، وأنها وجدت بعدهم مثل ما وجد فراقاً ووحشة ، فالديار تسأله عن مكانهم كما يسألها ، وفي ذلك تخفيف لأمله ، فهو قد التقى بواجده تعلقت برحيلهم وأصيبت كما أصيب ، فليس الحزن والشوق فيه فقط ، وإنما في الدار أيضاً ، وللنابغة مع الديار شئون وشجون ، فكثيراً ما يسأل الدار فلا تجيب فهو يقول

وقفتُ فيها أُصيلا نًا أُسَائِلُهَا عيّتْ جواباً ، وما بالربع من أحدِ (١)

ويقول :

فاستعجمتْ دارُ نُعْمٍ ، ماتُكلّمنا والدّارُ لو كلّمتنا ذات أخبارِ (٢)

نقول إن الشاعر هنا أخذ يسائل الدار وقد سفحت دموعه ، وسفوح الدمع ارساله وانحداره من العين بسرعة وتتابع كحال القرب البالية التي لم تعد قادرة على امساك الماء فأخذ يتدفق منها ، والعرب كثيراً ما تشبه غزارة الدموع بالشن أي القرب البالية . ثم يشبه الشاعر حزنه بصورة أخرى ليؤكد حزنه ووجده ، فهو كالحمامة الباكية التي أخذت تدعو هديلها بعد أن قذفت به المقادير في غياهب الضياع ، فلم تعد تراه

---

(١) الديوان : ٩ . (٢) الديوان : ١٨ .

أو تسمع صوته ،ويقول صاحب اللسان إنّ العرب تزعم أن هديلاً هذا فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فمات تشرداً وضياعاً وعطشاً ،ويقولون ما من حمامة إلاّ وهي تبكي عليه (١) ، والنابغة كهذه الحمامة التي أخذت تبكي وتغني ، ولكن كيف يجتمع الحزن والغناء ؟ ، فهو يقول " بكاء حمامة " ثم يقول " على فنن تغني " وكيف تتمازج أحوالها ؟ .. وكيف يتداخل عنصر الطرب مع عنصر البكاء ، فغناؤها قد يكون بكاء .. وبكاؤها غناء ... وهذه الأحوال لها مذاقاتها في شعر هؤلاء الفحول أمثال النابغة وغيره ، فالنابغة يرمز إلى تلك الأحوال الغريبة المتناقضة المتشاردة التي تجاذب النفس في قمة أحاسيسها ، فهو كهذه الحمامة الضعيفة التي تغني أحزانها ، وتغني شجنها ، فالشاعر هنا لا يصف غزارة دموعه إنّما يصف شوقه وحنينه واحساسه بالضياع ،وشجنه على من لا أمل له في رجوعه ،وفي دعاء الحمامة لوليدها إيماءة إلى وفاء الشاعر وشدة تعلقه بمن أحب و في إضافة البكاء إلى الحمامة اشعار بأنه بكاء محزون مكروب ،والحمامة رمز للحنين والشوق ، فبكاؤها أشد ما يكون البكاء وحنينها أشد ما يكون الحنين . وفي قوله " مفجعة " باسم الفاعل دلالة على استمرار فجيعتها ودوامها ، فهي دائماً في حالة حزن وفجع وكرب .

وهكذا نجد حزن بشامة أنهاراً وجداول رقراقة تتدفق على الزرع ،وحزن النابغة بكاء وغناء يشيع فيه عنصر الصوت والشجن والعويل ، ثم هو مناسب جداً لهذا النغم الشجي الذي أشاعه الروي الذي بنيت عليه القصيدة .

---

(١) لسان العرب: ١١/ ٦٩١ .

راجع الأبيات وتأمل غنة القافية ،وغناء الحمامة ،ومفيض الشنّ

ثم عد إلى أبيات بشامة وتأمل الري والجداول والزرع ،ثم انظر إلى الفرق الشاسع بين المثلين مع تلاقي غرضيهما وهوبيان غزارة الدمع.

وكثيراً ما كان يمزج الشعراء أحزانهم وهمومهم بالليل ،فنرى له لوناً آخر يقول أوس بن حجر :

تُزادُ ليالِيَّ في طُولِها فليستْ بِطلْقٍ ولا سَاكِرة

كَأَنَّ أطَاولَ شَوْكِ السِيالِ تَشُكُّ بها مَضْجَعِي شَاجِرة (١)

يصف الشاعر ليلة من ليالي الغربة والألم في بني أسد حين دُقَّت قدمه في ليل بهيم فسقط من بعيره فنزل ضيفاً على فضاله بن كلدة فأقام فيهم حتى برأ (٢) ،وحال الشاعر في هذه الليلة كحال من بات وقد غرز مضجعه بشوك السَّيَال وهو شجر كثير الأغصان عليه شوك أبيض طويل ، (٣) وفي قوله " أطاول " دلالة على أنها بلغت منتهى الطول . وفي إضافة الصفة للموصوف في قوله " أطاول شوك " مزيد من العناية بالصفة أي صفة الطول ، وفرق كبير بين أطاول الشوك والشوك الطويل ،والشاعر هنا معنى ببيان الصفة التي يعاني بها من شدة الوجع وهذا الشوك قد غرس وتشابك وصار على هيئة متداخلة متماسكة وعلى حالة واحدة من الإيذاء، وهذا ما تفيده كلمة "شاجرة".

ويقول النابغة :

فبتُّ كَأَنَّ العائِداتِ فَرَشْنَنَي هراساً به يَعلى فراشي ويُقشَبُ (٤)

---

(١) الديوان : ٣٤ - ٣٥ . (٢) هامش الديوان : ٣٤ .

(٣) اللسان ١١/ ٣٥١-٣٥٢ . (٤) الديوان : ٢٧ .

هناك شوك وألم وغربة ،وهنا شوك وهم وخوف ووطأة ليل قاسٍ يكتسي بالحزن والرعب ، فكأن العائدات قد فرشن شوك الهراس فوق مضجعه فبات عليه ،والشاعر هنا لم يذكر إيذاء الشوك كما فعل أوس بن حجر إنما ذكر فرش العائدات الشوك له ،والعائدات هن الزائرات اللاتي يزرن المريض وفي ذكرهن إشارة إلى أولئك الوشاة الذين أثاروا حفيظة النعمان عليه ،وإشارة إيضاً إلى خفاء دسائسهم ، فهم في الظاهر شيء وفي الغيب شيء آخر.

والحديث عن النفس وأشجانها لم يكن يجري في بيانه عليه السلام على هذا الحد ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يعد النفس و يهيئها لمواجهة هموم الدنيا ومصائبها بالصبر واليقين . يقول عليه الصلاة والسلام " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُه أَذَى - شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا - إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِها سَيِّئَاتِهِ كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا ".(١)

فالمؤمن إذا صبر واحتسب وعالج ما يعالج نفسه بشيء من الصبر كُفرت عنه سيئاته .

ويقول عليه السلام " ما يُصِيبُ المُسْلمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ ولا حُزْنٍ ولا أَذَى ولا غَمٍّ - حتى الشَّوْكَة يُشاكُها - إِلاّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ ".(٢)

---

(١) صحيح البخاري : ٧/ ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ٧/ ١٤٨-١٤٩ ، النصب: التعب ، الوصب : المرض اللازم ، هم وحزن : هما من أمراض الباطن ،أذى : ما يلحق الشخص من تعدى غيره عليه ، غم : ما يضيق على القلب (فتح الباري ،ابن حجر : ١٠/ ١٠٦) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم قد أُهتم بتكوين قلوب مؤمنة صلبةصابرة قادرة على مواجهة أحداث الحياة بصدق ويقين ,وهذا شيء مخالف لما في صور الشعر الجاهلي . يقول عليه السلام " مَثَلُ المُؤْمِنِ كالخَامَةِ مِن الزَّرْع تُفَيِّئُها الرِّيحُ مَرّة وتَعْدِلُها مَرّةً ، وَمَثَلُ المُنَافِق كالأُرْزَةِ لا تَزالُ حَتَّى يَكُونَ انْجِعافُها مَرّةً واحِدةً "(١). فالمؤمن هو من واجه مصاعب الحياة بأنواعها بتسليم ورضى واحتساب .

ومن أغراض الشعر الجاهلي البارزة ،التي حظيت بنصيب وافر من كلامهم :

٢ - وصف المرأة : فقد احتفى الشعراء بوصفها ،وبأدق طبائعها من حيث رقتها ونعومتها ،وفرط حساسيتها ، ووفرة عواطفها الجياشة ،وقلة صبرها وجلادتها عند عظائم الأمور ، كما يتحدثون عن أحوالها حين ترضى أوحين تغضب أوحين تحزن أو حين تحب ... وسنعرض صورتين من تشبيهات المرأة ،تكشف عن بعض جوانبها بالتحليل السريع ، يقول المخبل السعدي :

وتُريكَ وَجْهاً كالصَّحِيفَةِ لا	ظَمْآنُ مُخْتَلِجٌ ولا جَهْمُ
كَعَقيلةِ الدُّرِّ اسْتَضَاءَ بِها	مِحْرابَ عَرْشٍ عَزيزُها العُجْمُ
أَغْلَى بِها ثَمناً ،وَجاءَ بِها	شَخْتُ العِظَام كأنَّه سَهْمُ
بِلَبانِهِ زَيْتٌ ،وأَخْرَجَها	مِن ذِي غَوارِبَ وَسْطَهُ اللُّخْمُ
أَوْ بَيْضَةِ الدِّعْصِ التي وُضِعَتْ	في الأَرْضِ ،ليسَ لِمَسِّها حَجْمُ

---

(١) صحيح البخاري: ٧/١٤٩ .

سَبقَتْ قرائِنَها وأَدْفَأَهَـا   قَرِدُ الجنَاح كأنَّهُ هِــدمُ
ويَضُمُّها دُونَ الجَناح بِدَفِّهِ   وتَحُفُّهُنَّ قَـوادِمٌ قُتُـمُ (١)

جاءت هذه الأبيات بعد الحديث عن الآثار والأطلال الدارسة لديار الرباب ، فتح الشاعر بعدها باباً لتذكر أيامها الخوالي فقال :

ولقدْ تَحُلُّ بها الرَّبابُ لها   سَلَفٌ يفُلُّ عَدُوَّها فَخْـمُ
بَرْدِيَّةٌ سَبقَ النَّعيمُ بهـا   أقْرانَهَا وغَلاَ بِهـا عَظْـمُ (٢)

وتُريكَ وَجْهاً كالصَّحيفَةِ لا   ....

وفي قوله هذا إيماء إلى مكانة قومها وعزهم ومنعتهم ، فهم يحيطون نساءهم بالرعاية والعناية والصون ،حيث يتقدم السلف " وهم الرجال الذين يتقدمون ركب الظعائن ليستكشفوا لهن غوائل الطريق ،وليسووه لهن حتى لا تتأذى النساء "(٣) ويبدو أن الرباب هذه من علية القوم ،ولذلك فقد ذكر لها سلفاً يقول " لها سلف " فهي حين تحل بالديار يسبقها عسفاء أقوياء يكتشفون لها الطريق ، ويستقبلون موكبها القادم ،وهذا السلف قوي فهو " يفل عدوها " . وأصل الفل : الثلم في السيف . وفل القوم يفلهم فلاً : هزمهم (٤) وكأن من أراد السوء بهذه القبيلة هزموا شر هزيمة أودت بأبطالهم ، واحدثت فيهم ثلمة لا تسد أبداً فلا تقوم لهم بعدها قائمة ،ولا يجبر لهم كسر ، وذلك من أمارات الشجاعة والقوة التي يتميز بها القوم ،

---

(١) المفضليات : ١١٥ .   (٢) المصدر السابق : ١١٤ .
(٣) شرح المفضليات ، التبريزي : ٤٠٣/١-٤٠٤ .
(٤) اللسان : ٥٣٠/١١ .

وفي إضافة العدو لها في قوله " عدوها " وهو عدو القوم أيضاً إشارة إلى أن النساء هن أول من يتضررن من الغارات ،فهن يخشينها و يخفن منها .

ثم يبدأ الشاعر في وصفها فهي كالبردية في البياض والصفاء ، ثم نتأمل قوله في وصفها " سَبَقَ النعيمُ بها " وقوله " وَعَلاَ بِها عَظْمُ " فالنعيم قد استصحبها ورافقها حتى زاد في شبابها ،فارتفعت عن قرائنها في السن وهذا غاية الرفه والنعمة .

ثم يشبهها بعقيلة الدربين ملوك العجم ،وعقيلة الدر هي الدرة الكبيرة النفيسة التي تكون واسطة العقد ،وملك العجم قد صدر بها مجلس عرشه ،فهي في أشرف مكان فيه ، فكأنها القلب من الجسد ، وفيه إيماءة إلى مكانة الرباب في قلب الشاعر . ثم إن العجم قد عظموها واستضاءوا بها ، وفي معنى الإضاءة الاهتداء ،وفي المحراب والعرش واقترانهما بالعجم معنى القداسة لأن العجم كانوا يقدسون ملوكهم ، وهذه الدرة قد استخرجت من أعماق بحر زخار مليء بالأهوال ،فهي من حواري البحرأتى بها غواص ماهر ، بذل من الجهد والتعب لإخراجها ، فهو شخت العظام : أي دقيقها ، وهذه الدقة قد اكسبته خفة وسرعة ومضاء ،صاربها كالسهم السريع الصائب ،وقوله " شخت العظام " كناية عن مهارته واعتياده مواجهة الأخطار . وفي قوله "أخرجها" معنى السلب والنزع والتخليص . وهذا يدل على علو قدرها ونفاستها ، والمخبل وهو يذكر هذه القصة وصراع طالب الدرة مع أهوال البحر و من لخمه المفزع ،" واللخم : ضرب من السمك يحاذر ويخشى "(١) ، يشير

---

(١) شرح المفضليات ، التبريزي : ١/ ٤٠٦ .

إلى نفاسة محبوبته وتفردها بصفات أخرجتها عن بنات جنسها ، ومن رام الوصول إليها قاسى أهوالاً دونها أهوال.

ثم ينتقل الشاعر من محراب المرش وملك العجم إلى بيضة الدعص ، والدعص : "الجبيل من الرمل يخبي فيه النعام بيضه خوفاً عليه من الكسر"(١) ، والبيضة التي ليس لمسها حجم أي ليس لها نتوءاً وبروزاً بل هي مستوية ملساء متساوية الجوانب وهي أول بيضة وضعها النعام(٢) ولذلك فهو حريص عليها ،ضنين بها ، قد أحاطها ذكر النعام المتكاثف الريش بجناحيه دفئاً وحفظاً ،يقول الجاحظ إن بيضة النعام إذا ذكرت دل ذلك على أن محبوبتـه بكر يانعة.(٣)

وانظر إلى قوله " أُدْفَاُها قَرِدُ الجَناح ، يضُمُّها دُونَ الجَناح ، تخفهن قوادم قتم " نجدها تشير إلى مزيد من العناية والصون والحفظ والبعد عن أماكن الامتهان والابتذال فهي في كور من الرمل ، وفيه دلالة على أن الرباب مصونة في قومها منعمة بعيدة عن مواطن الذل ، وفي قوله " قرد الجناح كأنه هدم " إيماءة إلى ميراث الغيرة عنـــد العرب ،وصونهم لحريمهم وحرصهم عليهن ، فلا يكاد يراهن أحد فهن محاطات بقتم القوادم . وانظر إلى الشعر الجاهلي فإنـّــه ملي بهذا .فالتشبيه الأول يدور حول نفاستها وبهائها ونعيمها ، والثاني يدور حول حفظها وصونها ،وقد جاءت " أو " بمعنى الواو العاطفة فهي كعقيلة الدر وكبيضة الدعص .

---

(١) شرح المفضليات للتبريزي : ١/ ٤٠٦-٤٠٧.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٠٧.

(٣) انظر الحيوان : ٤/ ٣٤٦.

والمخيل يزاوج بين صورتين لحضارتين ،صورة العرش والدرة المقدسة عند العجم وصورة بيضة النعام في الصحراء عند العرب ، وكأنه أراد أن يقول إن رباباً هذه سيدة العرب والعجم ،وفي تقديم ذكر الدرة على البيضة دلالة على أن ذكر نفاسة الشيء وأهميته يسبق ذكر حفظه ورعايته .

ولعَبْيد بن الأبرص صورة تمثيلية رائعة المشبه به قصة مليئة بالمعاني الدالة على المعنى المراد يقول :

لِسَعْدَةَ إِذْ كانَتْ تُثِيبُ بِوُدِّها ... وَإِذ هِيَ لا تَلْقاكَ إِلاّ بِأَسْعُدِ
وَإِذْ هِيَ حَوْراءُ المَدامِعِ طَفْلَةٌ ... كَمِثْلِ مَهاةٍ حُرَّةٍ أُمِّ فَرْقَدِ
تُراعِي بِهِ نَبْتَ الخَمائِلِ بالضُّحَى ... وَتَأْوِي بِهِ إِلى أَراكٍ وَغَرْقَدِ
وَتَجْعَلُهُ في سِرْبِها نُصْبَ عَيْنِها ... وَتَثْنِي عَلَيْهِ الجِيدَ في كُلِّ مَرْقَدِ (١)

يصف الشاعر سعدة بأنها حوراء المدامع ،والحور شدة سواد المقلة مع شدة بياضها ، وهي مستعارة في أوصاف النساء ،لأنّ الحور لا يكون إلاّ في الحيوان من بقر وظباء ويقول الأزهري إنّ المرأة لا توصف بالحور حتى تكون بيضاء لون الجسد (٢) ، وقد أضاف الحور إلى المدامع فقال " حوراء المدامع " (٣) والمدامع مجتمع الدمع في نواحي العين والمراد بالمدامع هنا العيون ،ويذكر الشعراء المدامع وهم يريدون العيون في سياق الشجن والحنين والشوق ،ثم يصفها بأنها طفلة " والطَفلة بفتح الطاء وتسكين الفاء رقة البشرة ونعومتها " (٤) ، وفي تتابع الصفات

---

(١) الديوان : ٦٥-٦٦ .

(٢) لسان العرب ٤/ ٢١٩ .

(٣) المصدر السابق: ٨/ ٩١

(٤) المصدر السابق : ١١/ ٤١٣ .

تأكيد لجمالها ، ثم يشبهها بالمهاة أم الفرقد وهو حين يشبهها بذلك لا يريد جمالها فحسب ، إنَّما يريد معاني أخر ، لأنه لو أراد وصف جمالها فقط لقال كمثل مهاة ولم يذكر قصة الفرقد . وقصة المهاة أم الفرقد غنية بمعانٍ ودلالات قصد إليها الشاعر ، وسعدة كالمهاة الحرة أي الكريمة الأصل (١) فهي من أعرق أنساب البقر الوحشي ولها فرقد صغير ، والفرقد هو ولد البقرة الوحشية ،والشاعر هنا يحكي قصة الأمومة الحانية المتمثلة في قصة هذه الأم مع فرقدها ، هي ترعاه بالضحى بين شجيرات الخمائل وهو شجر كبير ملتف كثيف لا يرى فيه الشيء إذا وقع وسطه (٢) ، فهي ترعاه حيث الخصوبة والنعمة ، وقال الضحى لأنه يمثل أحسن أوقات النهار ،وفي قوله " تراعي به " معنى المشاركة على وزن " تفاعل " فهي تلهو معه لتؤنسه وتداريه ليُقضّي حاجات الطفولة ، ولا تتركه مع صغار البقر بل تراعيه بنفسها . وهذا غاية الحرص والحب . ولو قال " تراعي معه " لكانت تفيد أنها قد تغفل عنه وليس ذلك هو المقصود ،ثم إنها تأوي به في آخر النهار إلى أراك و غرقد. والأراك : شجرة طويلة ناعمة كثيرة الأوراق والأغصان (٣) ، والغرقد : شجر عظام وهو من العضاه (٤) ، فهي تختار له مبيتاً ناعماً حانياً كحنانها ،ثم إنها تتوجس تتابع الأعين لها ، فتغيّر مكان مبيتها ما بين الأراك والغرقد .

---

(١) الصحاح : ٦٢٨/٢ .

(٢) اللسان : ٢٢١/١١ .

(٣) المصدر السابق : ٣٨٩/١٠ .

(٤) المصدر السابق : ٣٢٥/٣ .

" وَتَجْعَلُهُ في سِرْبِها نُصْبَ عَيْنِها " لهذه المهاة سرب أو قطيع من البقر تأنسه وتعتاد السير معه ، فهو سربها وحين تهفو إليه تُخْرِج فرقدها معها ،ولكن عينيها لا تغيب عنه ، فهي معه حين يمارس لهو طفولته وهو معها حين تقضي حاجاتها مع سربها ،ولنتأمل قوله " نُصْبَ عينها " فكأنه قائم في عينيها لا يغيب أبداً فهو موضع عناية واهتمام منها صار بذلك كأنه جزء منها .

" وتَثني عليه الجيد في كلّ مَرْقدِ " وحين ينام هذا الفرقد فإنها تعطف عليه جيدها حُبّاً وحناناً من جهة ،وعناية وحماية من جهة أخرى لا تأمن عليه حين يرقد بجانبها فتغفو عنه ، إنّما تفيض عليه من نفسها ما يشعره بذلك ،ويا لله لهذه الأمومة الحانية التي قد يقف على حدودها الإنسان ولا يستطيع أن يبلغها ،وإن بلغها فقد يغفو عنها ، فالأمومة التي تبلغ مدارج الكمال تراها في هذه الصورة الفطرية .

ولنتأمل تتابع الأفعال المضارعة وقدرتها على تجسيد الموقف وتحديد ملامح الصورة : " تراعي بـه ، تأوي به ، تجعله ،تثني عليه" فهي تدل على تجدد هذه الرعاية وهذه المحبة ،وتجدد الأحداث حالاً بعد حال ،وبتجددها تتجدد الحياة ،كما أنها تصور الأحداث في أحوالها المختلفة فتارة هما في الضحى وتارة هما في الليل ،ثم هما في سرب البقر، ثم عند نومهما فقوله : تراعي به .. يطوي وراءه أحوال الفرقد ، والبيت الذي بعده يصور أهم أحوالها معه ، فكل بيت يمثل فترة زمنية ،وفي ذلك إشارة إلى حرص هذه المهاة على تجدد الحياة وإشاعة جو من التنوع .

وعبيد يتحدث عن سعدة من خلال هذه المهاة ومعانيها فنجد الخصوبة الماثلة في قصة التناسل والولادة ، كما أنه يحكي ما في المرأة من حنان وحب ومثالية من خلال الأمومة الصادقة التي تفيض بالحب والعطف والرعاية ، وبكرم الأصل في قوله " مهاة حرة " ثم الرفه والنعمة والعيش الرغيد من الخمائل ، الضحى ،الأراك ،الفرقد " حيث الخصوبة والخضرة والظل الظليل ،وهكذا نجد الشاعر قد خلص من هذه الصورة إلى معنى الرقة والنعمة والحنان والعطف .

وإذا ما قارنا هذه الصورة للمرأة بالتي سبقتها فإننا نجد هنا عطفاً وأمومة وهناك صوناً ونفاسة وحفظاً ،وهنا مهاة وفرقدها وخمائل وأراك وفرقد ،وهناك درة وبيضة .

وإذا ما انتقلنا إلى صورة المرأة عند الرسول صلى الله عليه وسلم نجد أنه لم يكن ليصف المرأة بهذه الصفات ،إنما نراه يصف طبيعتها وما جبلت عليه ، فيوصي بها خيراً يقول عليه السلام " المَرْأةُ كالضِّلَع إنْ أقمْتَها كَسَرْتَهَا وإن اسْتَمْتَعْتَ بِها اسْتَمْتَعْتَ بِها وَفيها عِوَجٌ ".(١)

انظر إليه عليه السلام وهو يشبهها بالضلع المعوج السريع الكسر وفي ذلك دلالة على رقتها وضعفها ومخالفة طباعها لطباع الرجل ، وحاجتها إلى سايسة ومداراة ، وفي قوله "ان أقمتها كسرتها " بيان لقوله كالضلع . فالمرأة خلقت وهي تحمل طبائعاً تنأى بها عن تحمل الأعباء الجسيمة .

---

(١) صحيح البخاري : ٧/٣٣-٣٤ .

وفي حديث آخر يبين الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ماجبلت عليه المرأة من رقة المشاعر وضعف النحائز ،قال عليه السلام لحادي مطية " يا أنْجَشَةُ ، رِفْقاً بالقوارير "(١) والإبل حين يُحدى بها تسير سيراً شديداً فيتأثر النسوة اللاتي في الهوادج لأنهن لا يتحملن ما يتحمله الرجل من الشدة والقسوة ، ثم إن النساء أيضاً ضعيفات النحائز يتأثرن برقيق القول ، ونظن أن أنجشه كان يحدو بشعر الحنين الذي له وقع شديد على نفوس النساء . يقول الشريف الرضي " شبّه النساء في ضعف النحائز ووَهَن الغرائز بالقوارير الرقيقة التي يوهنها الخفيف ، ويصدعها اللطيف ، فنهى عن أن يُسْمعهن ذلك الحادي ما يُحرك مواضع الصَّبوة ،وينقض معاقد العفة "(٢) ، والنساء كهذه القوارير من حيث الصفاء والرقة والحاجة إلى صون وحفظ ورعاية .

وكان من شعراء الجاهلية شعراء حنفاء صوبوا شعرهم نحو الموعظة والعبرة والحكمة والتأهل كشعر أمية بن أبي الصلت ،وتمثيله يتجه نحو وصف العالم العلوي والتفكر في صنع الله ،وأخذ العبرة والعظة منه . يقول وهو يصف الملائكة في السماء :

رسلٌ يجوبون السماءَ بأمره ... لا ينْظُرونَ ثواءَ من يتقصّد

فهمُ كأوْب الرّيح بيتا أدبرت ... رجعتْ بوادرُ وجهها لا تُكرَدُ(٣)

---

(١) المجازات النبوية ، الشريف الرضي : ٣٠

(٢) المصدر السابق : ٣٠

(٣) الديوان : ٣٠ ،يجوبون السماء : يقطعونها ، الثواء : الإقامة . تقصد الشيء : طلبه مرةبعد مرة ،أوب الريح : رجوعها ،أدبرت : تولت ،البوادر: هي أول ما يسبق المرء ، تكرد : تطرد .

فهو يشبه سرعة استجابة ملائكة السماء لأمره تعالى بسرعة الريح .

ويقول أيضاً :

وَالشَّهرِ بَيْنَ هلاله وَمُحاقه أَجلُ لِعلم الناس كيف يُعَدَّدُ

لا نقص فيه غير أَنَّ خبيئه قمرٌ وساهورٌ يُسلُّ وَيُغمد

خَرقٌ يهيم كَهَاجعٍ في نَوْمه لم يقض ريب نعاسه فيهجد (١)

يشبه القمر وهو يسير في جو السماء ليلاً بالخرق الهائم المتحير الذي لم يقض حاجته من النوم فقام يسير تائهاً لا يدري إلى أين .

وتكثر في شعر أمية ألفاظ الكهنة كقوله " ساهور " وقوله في مواضع أخرى من شعره " حاقورة ، وصاقورة " ، وشعره من الناحية الفنية الإبداعية لا يصل إلى شعر النابغة أو المخبل أو عبيد بن الأبرص فشعره يفقد المتانة والرصانة وحسن الصوغ وانسياب النغم ، فهو ينصب على الإبانة عن المعاني الدينية دون الاهتمام بالبنية اللفظية ، وذلك راجع في رأينا إلى جدة المعاني التي يقول بها ، وعدم شيوعها بين الناس ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع شعره ويحتفي به . فعن عمرو بن الشّريد عن أبيه قال : : ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء ؟

---

(١) الديوان : ٣٠ ، الشَّهر : القمر ، الهلال : القمر لليلتين من أول الشَّهر . المَحاق : القمر لليلتين أو ثلاث من آخر الشهر ، السَّاهُور : كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كَسَفَ فيما تزعم العرب الخَرق : المدهوش المتحير . يهيم : يذهب على وجهه ، الهاجع : النائم ليلاً ، الرَّيب : الحاجة . يُهَجِّدُ : يوقظ من النوم .

قلت : نعم . قال هيه فأنشدته بيتاً فقال ،هيه ثم أنشدته بيتاً فقال : هيه . حتى أنشدته مائة بيت ،وقد استشعر له رسول الله الهداية فقال : " إن كَادَ لَيُسْلِم "(١)

وهكذا ... نجد أن كلام الجاهليين عامة يدور حول ما تجيش به النفوس تجاه الحياة والأحياء أو هو نتاج حسن نظر وسعة تأمل للوجود .

أما كلامه عليه السلام ، فقد ظل متفرداً في معانيه التي تضمنها ، وفي بنائه اللفظي ،فمعانيه ليست من جنس المعاني الداخلة في كلام الجاهليين إنَّما هي ترشدنا إلى منهج رباني يهدف إلى إصلاح الأفراد والجماعات، ويلفت النفس إلى حقيقة الوجود ،ويسمو بمطالب الحياة إلى مستوى أرحب وأعمق ،فيعطينا الحكمة والموعظة وحياً من الله ،ويكشف عن أدق دقائق النفس ويعالجها ،فيوجد جسراً من التواصل بين حياة الإنسان في دنياه وحياة أخرى بعد مماته ،أما الأسلوب الذي يلبس هذه المعاني فهو أسلوب يتسم بدقة البيان ،وبديع النظم ،وجودة العبارة ، وسخاء عناصر اللغة حيث يشع فيها نبض اللغة ، وتتفجر طاقاتها ،فترى أن اللغة في كلامه صار لها بعد آخر ،واتساع أرحب ، وكأن هذا الدين جاء ليفجر ينابيع اللغة من خلال القرآن الكريم والحديث النبوي . فكلامه قد بلغ الذروة في بلاغات البشر تقصر دونها بلاغة بلغاء اللغة .

---

(١) صحيح مسلم : ١٥/١١ .

وحسبنا من الأغراض هذا ،ولننتقل إلى عناصر تمثيله عليه السلام لنكشف عن قيمتها أمام عناصر تشبيهات الجاهليين ،فنقول إنه ليس في كلامه عليه السلام عنصراً لم يجر استعماله على صورة أوأخرى في كلام الجاهليين ، إلاّ أن عناصره تتميز بطريقة تركيبها المتفردة ، وبغزارة فيوضات معانيها . وسوف نتتبع ورود بعض العناصر في الشعر الجاهلي ،ثم في تمثيله عليه السلام لنقف على الفروق . ومع علمنا بأن العنصر الواحد يختلف عطاؤه من شاعر لآخر بل إن معانيه تتعدد في شعر الشاعر الواحد تبعاً لاختلاف السياقات ، و مع وعينا بذلك فإننا نرى أن الفرق يتسع بين جريانها في الكلامين .

فالجاهليون يشبهون بالنخلة ،وأكثر ما يشبهون بها المرأة يقول أبو داود الإياديّ وهوشاعر جاهلي :

وَتَرَاهُنَّ في الهوادج كالغِزْ … لَانِ ما إنْ يَنالُهُنَّ السَّهامُ

نَخَلَاتٌ من نَخْلِ بَيْسانَ أيْنَعْـ … ـنَ جميعاً ونَبْتُهُنَّ تُؤامُ

وَتَدَلَّتْ عَلَى مناهِلِ بُرْدٍ … وفُلَيْجٍ من دُونِها وسَنَامُ (١)

ويقول امرؤ القيس :

أوَمَا تَرَى أظْعَانَهُنَّ بَوَاكِرا … كالنَّخل من شَوْكان حينَ صِرامِ (٢)

يشبه اختلاف ألوانهن وهن في الهوادج بالنخل في اختلاف ألوانها

---

(١) الأصمعيات : ١٨٦ ، السهام : الضمر وتغير اللون وذبول الشفتين . بيسان : موضع بالأردن ،تؤام : جمع توأم ، برد وفليج وسنام : مواضع.

(٢) الديوان : ١٦٢ . شوكان : موضع في اليمن اشتهر بكثرة النخل .

حين يحين قطافها . فكما أن النخل يختلف ألوان ثمارها ما بين الحمرة والصفرة كذلك هذه الظعائن ، والهوادج في ارتفاعها تشبه ارتفاع النخل وعلوه .

وهذا العنصر له شأن آخر في الحديث النبوي الشريف ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مشبهاً المؤمن في جميع أحواله بالنخلة " إنَّ منَ الشَّجَرِ شَجَرةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ حَدِّثُونِي ماهِيَ ؟ قالَ : فَوَقَعَ في نفسي أنَّها النَّخْلَةَ ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسولَ الله ، قال: النَّخْلَةُ . (١)

فالحديث يتغلغل في أدق الصفات والمعاني والإيحاءات التي تحملها النخلة ليشبه بها المؤمن ،فالنخلة ضاربة الجذور في الأرض، عالية مرتفعة نحو السماء ،كثيرةالمنافع في كل أجزائها ، ظلها دائم ، وثمرها لا ينقطع . . . وهكذا تتوالى المعاني والفيوضات . يقول ابن حجر نقلاً عن القرطبي : " فوقع التشبيه بينهما من جهة أن أصل دين المسلم ثابت ،وأن ما يصدر عنه من العلوم والخير قوت للأرواح مستطاب ،وأنه لا يزال مستوراً بدينه ،وأنه ينتفع بكل ما يصدر عنه حياً وميتاً ".(٢) فالنخلة هنا عطاء آخر لا يوجد في كلام امرىء القيس ولا أبي داود ولا غيره من شعراء الجاهلية إذا رحنا نستقصي تشبيهاتهم ،وأمام هذه المعاني التي أرادها الرسول صلى الله عليه وسلم يسقط قولهم برمزية النخلة ودلالتها على المرأة ،وأنها في كلام الناس لا تزال تحمل آثاراً من هذا التأليه القديم ،ولو كان الرسول يعلم أن لفظة النخلة توحي بالقداسة لما ذكرها وهذا واضح جداً كما أسلفنا .

---

(١) صحيح البخاري : ٢٤/١ .

(٢) فتح الباري : ١٤٧/١ .

ويجري عنصر الغيث في مجالات متعددة من شعر الجاهليين ، فنجده محدود العطاء ، ضيق الحدود بالقياس إلى كلامه عليه السلام.

يقول السموأل (١) :

عَلَوْنَا إلى خيرِ الظُّهورِ وحطَّنَا   لوقتٍ إلى خيرِ البطونِ نـزولُ

فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا   كَهَامٌ ولا فينا يُعَدُّ بخيـلُ

فقومه كماء المزن في الطهر وصفاء المعدن ونقاء الطبع وفي حسن المنبت وعموم النفع .

ويقول النَّمر بن تولب :

كأَنَّ حَمْدَةَ أوعزَّت لها شَبَهاً   في العَينِ يوماً تلاقينا بأرمام

ميثاءُ جادَ عليها وابِلُ هَطِلُ   فأمْرَعَتْ لاحتيالِ فَرْطَ أعوام

إذا يَجفُّ ثراها بلَّها دِيَمٌ   مِن كوكبٍ بزل بالماء سَجَّام (٢)

شبهها بالأرض الميثاء وهي الأرض السهلة اللينة من غير رمل (٣) ، أمطرت بوابل هطل ويطلق الوابل على المطر الشديد الكثير (٤) ، ثم إنه هطل أي متتابع القطر وفي ذلك معنى الكثرة والفيض والغزارة ، نزل هذا المطر على هذه الأرض الطيبة المستعدة لقبول خير السماء فأمرعت أي أخصبت بأنواع العشب والشجر ، وانظر إلى الفاء في قوله

---

(١) الديوان : ٩١ .

(٢) الحيوان ، الجاحظ : ٣/ ١٢٠ .

(٣) اللسان : ٢/ ١٩٣ .

(٤) المصدر السابق : ١١/ ٧٢٠ .

" فأمرعت " وكيف أفادت استعدادها وقبولها ، فما أن هطل المطر حتى استجابت له فأنبتت الزرع واعشوشبت، وفي ذلك دلالة على خصوبة الأرض وطيب تربتها ،ولا تزال هذه الأرض ممرعة تستسقى من السماء حياتها ، فإذا لم يسقط عليها ذلك الوابل أدامت خصوبتها بديمة تظل تسترضعها لتبقى حياتها ، والديمة : المطر القليل الذي ليس فيه رعد ولا برق فهو حفيف دائم (١) ، وهذا المطر الدائم استمطر من كوكب ملئ بالماء سجام أي دائم القطر . والعرب كانت تضيف الأمطار إلى الساقط من الأنواء والكواكب فتقول مطرنا بنوء كذا ،وقد نسبت كثرة المطر إلى الكواكب لأنها سببه فقال كوكب بزل سجام ، فالغيث في هذه الصورة فيه الخصوبة والحياة والنعمة والرفه .

أما الغيث في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فإن له عطاء آخر انظر إلى هذه الصورة التمثيلية في كلامه حين يقول " مَثَلِي وَمَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَ مِنْها نَقِيَّة قَبِلَتَ المَاء فأنبتت الكلأ والعُشْب الكثير ، وكان منها أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللّه بها النَّاس فَشَرِبوا وسَقَوْا وَزَرَعوا ،وكان منها طائِفَةً إنَّما هي قيعان لا تُمْسِك ماءً ولا تُنْبِتُ كلأ " . . . (٢)

نلاحظ أن الصورة هنا صورة حية فهناك وابل هطل وهنا غيث وانظر إلى ما يرمي به التنكير هنا من الكثرة والغزارة بالإضافة إلى ما تحمله كلمة غيث وما تدل عليه من أنه جاء ليغيث ويروى ويحيي

---

(١) اللسان : ~~١١/ ٢٢٠~~ ١٢/ ٢١٣ .

(٢) صحيح البخاري : ١/ ٣٠ .

بعد جدب ، وهناك أرض ميتاء وهنا أرض نقية صافية طاهرة .

والغيث في الحديث النبوي هو وحي الله من السماء فيه الخير والحياة والنعمة ، نزل على قلوب خصبة فتمكن منها ،وتسرب إلى كل ذرات رملها فانتعشت بالحياة ،ونفضت عنها أسباب الموت واليبس فنمت وأنبتت الخضرة أي حكمة النبوة الشريفة . فالغيث قد أصاب نفس أبي بكر فأثمرت وأصاب نفس عمر وعثمان وغيره من أصفياء النفوس فأحياها وهزها بعدما طرح جاهليتها . فالغيث لم يأت للإرواء والإغاثة والإحياء فقط ، كما في الصورة السابقة ،بل إنه جاء لينقي ويصفي ويميز ويكشف .

وهكذا كلما اقتربنا ودققنا النظر واعدناه انكشفت لنا أبعاد روحية رحبة ،وعطاء بعد عطاء ، تضمر من خلالها فيوضات السؤال والنصر وغيرهما .

فالألفاظ في تمثيله عليه السلام لها مذاق آخر هي من القرآن لكنها لا تبلغه ،وهي من كلام العرب لكنها تعلوها فصاحة وبياناً وعطاء ، فهي تتسع وتخلق خلقاً آخر ،وإذا استقصينا كل عناصر تمثيله عليه السلام لطال بنا البحث وتشعب وهذا ما لا نهدف إليه في هذه الدراسة ، إنما قد يمن الله علينا بالنظر فيه يوماً ما .

الفصل السابع:
دراسات تحليلية لبعض الأحاديث

١ - الحديث الأول : من باب الحلال والحرام.

٢ - الحديث الثاني : من باب بعثته عليه السلام.

٣ - الحديث الثالث : من باب العبادات .

دراسات تحليلية لبعض أحاديث التمثيل

نختم هذا البحث بدراسة تحليلية متكاملة لبعض الأحاديث، تتكامل فيها مناحي النظر . وقد حاولنا أن نتجنب التكرار قدر المستطاع فلم نهتم هنا بما أوليناه فضل عناية في الفصول السابقة .

والطريقة التي ستتبع في الدراسة هي أنني سأتناول أولاً روابط الجمل في الحديث الشريف ، وما يتبع ذلك من ترتيب المعاني بعضها على بعض ، وبناء بعضها على بعض ، ثم النظر في خصائص بناء الجمل وما وراء ذلك من أوجه صياغة وأحوال ومعان ، ثم النظر في الأمر الذي بُني عليه المثل وتحليله تحليلاً شاملاً . وقد سبق وأن درسنا بعض الشذرات البيانية والجمل المختارة من كلامه عليه السلام ، وهنا سنتناول أحاديث كاملة بالتحليل والنظر .

وقد وقع اختياري على ثلاثة أحاديث ذات أغراض مختلفة أولها من باب الحلال والحرام ، وثانيها من باب بعثته عليه السلام ، وآخرها من باب العبادات ، بالإضافة إلى الأحاديث الجانبية التي أقمت من خلالها بعض الموازنات .

*

الحديث الأول :

عن النعمان بن بشير يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " الحَلَالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ

في الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَىٰ حَوْلَ الْحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ . أَلاَ وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللّٰهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلاَ وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وهِيَ القَلْبُ ".(١) رواه البخاري .

وفي رواية مسلم " إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ وإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ من النَّاس فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَات وَقَعَ في الحَرَامِ كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ".(٢)

قال علماء الحديث إن هذا الحديث يمثل ثلث الاسلام ، لأن مدار الإسلام يقوم على ثلاثة أحاديث ، حديث " إنّما الأعمال بالنيات "، وحديث " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " وهذا الحديث(٣) ، ومناط دوران الإسلام عليه في بيان استبراء الدين من الدين كما قال العيني ، وفيه حث على ترك الشبهات التي لا تدخل في باب الحرام ولا الحلال واجتنابها فيه حماية للدين من الذم أي من الإثم لأنّ من تجرأ ومارس الشبهات فهو لا يأمن من الوقوع في الحرام وهذا هو الإثم والذم .

أ - مباني الحديث :

لقد تدرج الحديث في مبانية ومعانيه بشكل محكم ودقيق فبدأ بقوله " إن الحلال بَيِّنٌ " فبيّن الحلال وصفته ثم عطف عليه

---

(١) صحيح البخاري : ١/ ٣٠ .

(٢) صحيح مسلم : ١١/ ٢٧ . (٣) عمدة القاري : ١/ ٢٩٩ .

الحَرَامَ وصفته " والحَرام بَيِّنٌ " ثم جاءت الجملة الثالثة لتستخرج ما بينهما " وبَيْنَهُمَا مُشَبَّهاتٌ " فهذه الجمل الثلاث المتعاطفة قد استقصت أصل المعنى الذي بني عليه الحديث وهو بيان الحلال والحرام والمشتبه ، ثم يمتد الحديث من خلال الجملة الثالثة " وبَيْنَهُمَا مُشَبَّهاتٌ " فتأتي جملة " لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ " صفة للمتشابهات. ثم تأتي "الفاء" في جملة " فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ " تفريعاً وتفصيلاً لما بعدها على ما قبلها وترتيباً له عليه ،والجملة التي بعدها " وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ " معطوفة على جملة " فمن اتَّقَى " وهي داخلة في حكم الفاء و في خبرها ،ثم تأتي جملة " كَرَاعٍ يَرْعَى " جملة مستأنفة وردت على سبيل التمثيل ثم تستأنف مجموعة جمل وهي " أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا إِنَّ حِمى اللَّهِ في أَرْضِهِ مَحَارِمُه أَلَا وإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً .. أَلَا وَهِيَ القَلْبُ " أربع جمل مستأنفة ،والواو في " وإن .. " عطفت مابعدها على مقدر محذوف ،وهذه الواو واو عطف القصة على القصة ،وهي معطوفة عطفاً معنوياً على " كراعٍ يرعى حول الحمى .. ".

وبهذا نجد بناء الكلام متلاحماً متماسكاً ، يتبع ثانيه أوله ويمهد لثالثه " وهكذا حتى يتم البناء على هذه الصورة ،وهذا هو من نسق المعاني في هذا الكلام الشريف .

ب - مباني الجمل :

أُكد أول الحديث بإِنَّ في قوله " إِنَّ الحلالَ بَيِّنٌ ،وإن الحَرَامَ بَيِّنٌ " فالقرآن الكريم نزل يحمل معه طريق السلوك نحو النجاة

ثم جاءت سنته عليه السلام لتوضيح ما في القرآن وتؤكده ،وهذا أمر عرفه المسلمون ،فالحلال والحرام مبثوثان في كتاب الله لا يشذ عنهما إلّا ضال ، وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر البين للإشارة إلى أنه مما يقع فيه الغفلة حتى يكون من يعرفه في حكم من ينكره لأنّ بيانه في النفوس ليس هو منتهى المطلوب ،وإنّما المهم هو بيانه في السلوك وامتثال أمر الله فيه ،ويكون الحلال باباً مسلوكاً وليس معنىً مفهوماً فقط ، ويكون الحرام باباً غير مسلوك ، يعني أن تنكف النفوس عن الحرام وليس القصد فقط أن يعرف الناس الحرام ،ولما كان هذا القدر من السلوك الذي يجب أن يكون مترتباً على العلم مما يتساهل فيه الناس كان تساهلهم هذا قدحاً في علمهم هذا ،وذلك هو مرادنا بقولنا إنّ الغفلة في هذا الباب تجعل من يعرف في حكم من ينكر ،ثم إن هناك أموراً لا هي من الحلال ولا من الحرام ويلتبس أمر المسلمين فيها ولذلك حين ذكر الحلال والحرام استقصى ما بينهما مما لا يقع مع هذا أو ذاك فقال " وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ " والمشتبهات هي " الوسائط التي يكتنفها دليلان من الطرفين بحيث يقع الاشتباه ويعسر ترجيح دليل أحد الطرفين إلّا عند قليل من العلماء "(١) ، وقد بُنِيَتْ هذه الجملة الثالثة على تقديم الخبر الظرف لأنها هي موضع العناية والاهتمام في الحديث.

وجاءت " مُشْتَبِهَاتٌ " بالنكرة للدلالة على أنها مبهمة غامضة غير واضحة الحل أو الحرمة. ثم لما كانت هذه الشبهات لا تلتبس عند العلماء إنّما تشتبه على أكثر الناس وصفها عليه السلام بقوله " لا يَعْلَمُهُنّ كَثِيرٌ مِن النَّاسِ " وقد جاءت هذه الجملة صفة لتؤكد كونها مبهمة غامضة ،

---

(١) المصدر السابق ؛ ١/ ٢٩٩ .

وأنها من الأهمية بمكان لأنها تؤدي إلى فتح باب الحرام.

ثم تأتي الجملة الشرطية " فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ " موصولة بما قبلها بالفاء التي جاءت للترتيب الذكري حيث يترتب على ما قبلها أشياء بعدها . وقوله " اتقى " على وزن " افتعل " أصلها : وقى يقي وقاية ،وقال صاحب اللسان هي من الصون والستر من الأذى (١) . وفرق بين أن نقول اتقى وبين أن نقول ترك ، لأن في الاتقاء مزيداً من الحذر والمبالغة في الدفع وستر النفس مما يُتَّقى ، والإنسان لا يقي نفسه إلاّ من مصدر أذى أوشر يعودان عليه ،وكأن المرء حين يدفع الشبهات ويمتنع عن ممارستها هو بمنزلة من أخذ يقي نفسه من شر محيط به يودي به إلى الهلاك فهو يفعل ذلك بعناية واحتشاد .

ثم انظر إلى قوله " استبرأ " وما أفادته السين والتاء من طلب البراءة لدينه من الذم الشرعي ومن الإثم ،وقوله "اسْتَبْرَأ" مناسبة لقوله " اتقى " لأنها إلحاح في طلب البراءة بعد الاتقاء . ففي المعنيين اعمال وطلب ومجاهدة ،ثم إنه بفعله هذا يصون دينه من الثلم والنقصان بتجنب كثرة الذنوب والوقوع في المعاصي ،هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هو يسمو بعرضه بين الناس ، فالأول يرفعه عند اللّه والثاني يرفعه عند الناس ." والعرض هي الأمور التي يرتفع بها أو يسقط بذكرها ومن جهتها يُحمد ويُذم " (٢) ، فالمرء إذا ما عُرف بتعاطي الشبهات صار مطعوناً في عرضه وفي مروءته

---

(١) المصدر السابق: ٢٩٧/١ ، لسان العرب: ٤٠١/١٥ .

(٢) عمدة القاري : ٢٩٧/١ .

فكأن ترفع المسلم عما يدنس سيرته عند الناس باب من أبواب ثبوت الدين . وقوله بعد ذلك " ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام " صنف آخر لم يتق ولم يدفع الشبهات إنّما اعتادها فوقع فيها ، انظر إلى قوله " وقع " وفيها شدة السقوط تقول العرب وقع المطر ولا تقول سقط المطر لأنّ في وقع المطر شدة ضربه ، ومنها الواقعة والوقيعة[1] . فمن ارتاد الشبهات فقد وقع في أشراكها التي تُلقيه في الحرام . وقد تكرر لفظ الوقوع في الشرط للإشارة إلى أنه مادام قد وقع في الشبهة فهو واقع في الحرام لا محالة ، وهذا غير الاستبراء والحذر والتوقي وما فيها من اختيار وضبط وتماسك ،والاستبراء للدين من الشبهة لا يكون إلا بعد جهد وعناء في دفعها بعكس الخائض في الشبهات . ثم نتأمل الملاءمة والمقابلة بين الجملتين الشرطيتين في الحديث من حيث المبنى والمعنى " فمن اتقى . . .استبرأ ،فالشرط والجواب من باب الافتعال . وقوله في الجملة الثانية " فمن وقع . . .وقع . وهذا التلاؤم يزيد من ترابط الكلام . وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يقلب الحقائق على جميع وجوهها ليبرز المعاني ويجليها لأنه في مقام تربية الأمة وتعليمها .

كما يلاحظ عنصر الإثارة واللفت والإيقاظ وتكرره في آخر الحديث في قوله عليه السلام " ألاَ وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ألاَ إنّ حِمى اللّهِ في أرْضِهِ مَحارِمُهُ ألاَ وَإنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ألاَ وَهِيَ القَلْبُ ".

---

(١) لسان العرب ٨/ ٤٠٢

وهذه الجمل مستأنفة بدأت كلها بالأداة " ألا " وهي حرف استفتاح مركب من الهمزة و حرف النفي كما قال ابن هشام (١) . وفيها تنبيه على أن الكلام بعدها ذو خطر وبال فهي تهيء العقل وتعد النفس لتلقي مابعدها ، وتدل على احتفال المتكلم بالمعنى وحرصه على وقوعه في النفس ، وتستمد هذه الأداة أهميتها من أهمية قائلها ، فحين ينطق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تهز النفس هزاً وتشوق الآذان لتتلقى توجيهاته عليه السلام ،ولهذه الأداة مواقع حسنة في القرآن الكريم حيث لا تجدها إلّا في معارض المعاني القوية الشديدة . المهم أن الواوجاءت بعد " ألا " لتعطف على مقدر محذوف. يقول العيني مقدراً الجملة المحذوفة " الواو عطفت على مقدر تقديره ألا إن الأمر كما تقدم وإن لكل ملك حمى "(٢) فكأن هذه الواو تربط ما قبلها بما بعدها وتشعر أنه من دواعي الكلام الأول وأنها منه بطرف . وفي قوله " ألا وإن لكل ملك حمى" تأكيد بإنّ والتقديم للإشارة إلى أن حمى الملوك حمى عظيم ممنوع لــه حرمته .

وفي قوله " أَلَا إِنَّ حِمى اللّٰه في أَرْضِهِ مَحَارِمُه " أُضيف الحمى لله وفيه تعظيم له وبيان لمنزلته وأنه حمى أي حمى و " ألا " الأولى جاءت لتنبيه إلى جملة الكلام المراد قوله و " ألا " الثانية اختصت بالتنبيه إلى حمى اللّٰه الذي في الأرض . وإذا مُنعت حمى الملوك فالأجدر أن تُحمى حمى اللّٰه ، وشتان ما بينهما ، ثم إن حمى الملوك حسي يزول بزواله ،أما حمى اللّٰه فهو معنوى تدركه القلوب والعقول

---

(١) مغنى اللبيب: ٦٨/١ .

(٢) عمدة القارى : ٢٩٩/١ .

المؤمنة ، وكأن الشبهات هي الستور التي على أبواب الحرام في حديثه عليه السلام " إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَعَلى كَنَفَي الصِّرَاطِ زُوْرَان لهما أبوابٌ مُفَتَّحة وعلى الأبوابِ ستورٌ وداعٍ يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه واللّه يدعو إلى دار السلام .. والأبواب التي على كَنَفَي الصِراط حُدود اللّه فلا يَقَعُ أحد في حُدُود اللّه حتى يكشف الستور والذي يَدْعو من فَوْقه وَاعِظُ ربه ".(١)

ولم تعطف الجملتان " حمى الملوك " و " حمى الله " للإشعار بالبون الشاسع بينهما وكمال الانقطاع هنا انقطاع رتبة ، وفي رواية مسلم عطفت الجملتان بالواو " ألا وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ألاَ وإِنَّ حِمى اللّهِ في أرضِهِ مَحَارِمُه " لوجود المناسبة بينهما من حيث تكرار " ألا وإِنَّ والحمى " وهذا ما يسميه البلاغيون " التوسط بين الكمالين " يقول عبد القاهر : " وجملة الأمر أنها لا تجيء حتى يكون المعنى في هذه الجملة لَفْقاً لمعنى في الأخرى ومُضاماً له "(٢) ويعلل العيني وجوه الارتباط والاختلاف بين الجملتين فيقول " فبالنظر إلى وجود التناسب بين الجملتين من حيث ذكر الحمى فيهما ، وأما وجه تركها فبالنظر إلى بُعد المناسبة بين حمى الملوك وبين حمى الله الذي هو الملك الحق لا ملك حقيقة إلاّ له تعالى ".(٣)

ثم يبدأ الحديث جملة جديدة تبدأ " بألاَ " ولا زالت المعاني حية جياشة قوية متتابعة يسبقها القرع بالأداة " ألا "

---

(١) سنن الترمذي ، ٤/ ٢٢٢.

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٢٥.

(٣) عمدة القاري : ١/ ٢٩٩.

فتهيء النفس لتلقيها فقوله " أَلَا وإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً " توهم أنه معنى آخر لا هومن الحلال ولا من الحرام ولا من الوقوع في الشبهات فهو حديث عن المضغة والقلب ،والمضغة هي " القطعة الصغيرة من اللحم سميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها "(١) وفي تنكيرها إشارة إلى قلتها وصغر حجمها والتعجب من عملها فهي تُسيّر جسم الإنسان على ضخامته .

وفي قوله " إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ " يبدو أن " إِذَا " في الجملة لمجرد الربط لأنها جاءت في معنيين متقابلين وتصف حالين متقابلين وهذا يغرى بالقول بأنها لمجرد الربط وأنها بمعنى "إن " ولكننا إِذَا حققنا النظر قد ندرك فرقًا فحواه هو أن قوله " إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ " جاءت على بابها لأن صلاح القلب وصلاح الجسد المترتب عليه هو أصل الفطرة فالأصل هو الصلاح وبذلك يكون الصلاح من هذه الزاوية أمراً متوقعاً ،وقوله " إِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ " جاءت فيه " إِذَا " للإشارة إلى معنى آخر وهو أنَّ فساد القلب الذي يعني انحراف الفطرة وإنْ كان غير متوقع بالنسبة لما ينبغي أن يكون هومتوقع بالنسبة إلى الأمر الكائن يعني أنه كثير و غالب غلبة الهوى على النفوس . ثم توضح الجملة التي تليها ماهية هذه القطعة . يقول عليه السلام " أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ" فهذه المضغة هي القلب . فالواو عطفت معنيين بينهما مناسبة وصلة .

وهكذا نرى جملتي الاستئناف ذات نسق واحد ، الأولى

---

(١) عمدة القاري ١/ ٢٩٨ .

تتحدث عن الحمى والثانية عن المضغة والقلب " ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمى ألاَ وإِنَّ حِمى اللّٰهِ في أرْضِهِ مَحَارِمُه " ، " ألاَ وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَة... ألا وَهي القَلْبُ " وهذه الجملة الثانية توهم أنها منقطعة عن معنى الحديث ولكنها جاءت بياناً للمشبه فاتقاء الشبهات والوقوع فيهما هما من عمل قلب المؤمن فحين يصلح القلب يظهر أثر ذلك على جوارح الإنسان فيغض بصره وسمعه عن الحرام ولا يمشي برجله نحو الحرام ويصون كل جسده عن الحرام ، أما إذا كان القلب فاسداً فإنه يظهر ذلك على الجوارح فلا يبالي بما ينطق به لسانه وما تمشي به رجليه .

والحديث ذو معنى جامع كما قلنا أولاً إنه ثلث الدين ،والجملة الاولى " ألاَ وإنَّ لِكُلِّ ملك حمى ..." عائدة على صورة المشبه بـه ، ثم إن هذه الواو في " ألا وإنّ لِكُلّ ملك " واو عطف القصة على القصة وقد أبانت عن وجه المناسبة بين المعاني ... وهكذا نجد جمل الحديث قد ترابطت وتشابكت بخيوط دقيقة من الواو والفاء رتبت فيها المعاني وأدارته على وجه من النسق البليغ .

ثم إن في الحديث وجوه صياغة أخرى لا تخفى على ذي نظر وفطنة ،كالطباق بين الحلال والحرام " و " صلحت وفسدت " ، وكالإيضاح بعد الإبهام في جملة " ألاَ وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَة ألاَ وَهي القَلْبُ " وكاستعارة الحمى لحرمات الله ،واستعارة المضغة للقلب .

جـ- المثل في الحديث :

جاء المثل في الحديث ليعطي مزيداً من الإيضاح لمعنى الوقوع

في الشبهات التي تؤدي إلى الوقوع في الحرام في قوله " كراع يرعى حول الحمى " (وهي جملة مستأنفة وردت على سبيل التمثيل للتنبيه بالشاهد على الغائب) كما قال ابن حجر[(١)].

وصورة المشبه به مكونة من عدة عناصر وقد عددها وفرقها العيني وقابل بينها وبين المشبه وسمى هذا التشبيه تشبيهاً ملفوفاً وتمثيلاً يقول " فإن قلت ما يسمى هذا التشبيه قلت هذا التشبيه ملفوف لأنه تشبيه بالمحسوس الذي لا يخفى حاله شبه المكلف بالراعي والنفس البهيمة بالأنعام والمشتبهات بما حول الحمى والمحارم بالحمى وتناول المشتبهات بالرتع حول الحمى فيكون تشبيهاً ملفوفاً باعتبار طرفيه وتمثيلاً باعتبار وجهه "[(٢)] . وهذه نظرة تحليلية دقيقة من العيني فالتشبيه تشبيه ملفوف وتمثيل ، والعيني حين قال إنه تمثيل باعتبار وجهه بعد أن فرق عناصره أراد بالوجه الوجه المركب المنتزع من متعدد فهو قد استشعر العلاقة بين المفردات التي تجعلها كالشيء الواحد والعيني حين يفرق بين عناصر المشبه به ويجعلها مفردات ويسميها تشبيهاً ملفوفاً يخرجها بذلك من التمثيل عند الخطيب ، وهذه الطريقة التي اتبعها العيني والتي تقول إن التركيب لا يحول بيننا وبين دراسة العناصر مفردة طريقة قديمة ذكرها الزمخشري في الكشاف وهو يحلل بعض آيات التشبيه في سورة البقرة كقوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾ وقوله ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ فهو يذكر أنه من الممكن تفريق التشبيه وبيان جزئياته إلا أن القول الفحل والمذهب الجزل النظر إلى الهيئة متكاملة[(٣)] ، وفي تفريق أجزاء المثل مجال

---

(١) فتح الباري: ١ / ١٢٨ .

(٢) عمدة القاري: ١ / ٣٠٢ .

(٣) جـ١ / ٢١١ .

رحب لفحص أحوال المفردات وبيان دلالتها في بناء الصورة.

وهذا المثل، كما علمنا، جاء ليمثل حال ممارس الشبهه وكلمة الشبهة تناسب حال الواقع في الحمى، فهي من الألفاظ الواصفة بأصواتها تأمل حرف الشين وانظر ما تجده فيها من انتشار الصوت وتفشيه وهذا يصف انتشار النفس، وتشتت القلب مع الشبهه، ثم إن هذه الهاء الرادفة لهذا الانتشار والتفشي كأنها المهواة التي يسقط فيها من وقع في الشبهة، وخروجها من أقصى الحلق يشير إلى ذلك.

وفي مجيء لفظة " كراع " بالتنكير إشارة إلى أنه راعٍ تائه مجهول لم يعرف بحسن الرعي والحزم والضبط والتوقي، وهناك مناسبة قائمة بين " حول الحمى " من حيث تكرار صوت الحاء مما يشعر بمداخلة الحول أي المكان الذي حول الحمى، وكأن من رعى حوله وقع فيه.

ويظهر الفرق بين روايتي البخاري ومسلم، في أنه قال في رواية مسلم " ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه " فقوله " وقع في الحرام " ناسب أن يقول في وصف الراعي " يوشك أن يرتع فيه " والرتع هو الانهماك في الرعي والذي يقع في الحرام تأخذه نشوة الإثم فيكون حاله كحال من يرتع. وفي رواية البخاري " ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه " فهو لم يذكر الوقوع في الحرام وإنّما قال " ومن وقع في الشبهات كراع يرعى ... " وناسب ذلك أن يقول في وصف الراعي يوشك أن يواقعه فهو لا يزال بعيداً.

وللحديث رواية أخرى ساقها البخاري في صحيحه يقول عليه السلام : " الحَلَالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ . فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ ، وَالمَعَاصِي حِمَى اللَّهِ ، وَمَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكْ أَنْ يُوَاقِعَهُ "(١)

فهذا الحديث يختلف عن الحديث الأول في الصياغة ولكنه يتفق معه من حيث ذكر المعنى والتمثيل ، إلا أن الحديث الأول جاء مفصلاً ، أما هذا الحديث فقد جاء التمثيل فيه على وجه الإجمال . وفي قوله " وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ " التنكير في "أمور" تفيد أنها أمور قليلة لا تعدل الحلال والحرام ، وقوله " فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ " هو معنى قوله في الحديث الأول " فمن اتَّقى الشُّبُهات اسْتَبْرأ لِدِينِه وعِرضِه". والرسول في قوله " فَمَنْ تَرَكَ . . . " يضع قاعدة شرعية وعلة منطقية تقوم على الخبرة الدقيقة بالنفس الإنسانية والسلوك الإنساني ، فالذي يتورع عن الشبهة ويتوقاها يكون أكثر توقياً للحرام الذي لا شبهة في أنه حرام . أما إذا قارب ولامس الشُبهات فإنَّ أحوال النفس العجيبة لا تنضبط عند حده بل تتجاوزه ، والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع .

وقوله " ومن اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فيه من الإثم أَوْشَكَ أن يواقع ما اسْتَبَانَ " هو معنى قوله " وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ " من حيث المعنى وأسلوب الشرط .

---

(١) صحيح البخاري : ٣ / ٧٠ .

الحديث الثاني :

" عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ : يا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ وإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ فَالنَّجَاءَ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فأدلجوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ واجْتَاحَهُمْ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ ما جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ به من الحَقِّ ". (١)

١ - مباني الحديث وصياغته :

إنَّ هذا الحديث في ترابطه وتلاحمه كأنه جملة واحدة ، وراجع الحديث وتأمله من هذه الناحية تجده مبنياً كله على المثل من أوله إلى آخره وليس كالحديث السابق " الحلال بين والحرام بين " لأنَّ المثل جاء في الحديث السابق لبيان جزء وهو المشتبه ، ولذلك فإنَّ كل عناصر هذا الحديث متداخلة متلاحمة متآزرة لأنها هيئة تركبت وتداخلت وصارت شيئاً واحداً .

ويتضمن الحديث أربعة عناصر :

أ - الرسول صلى الله عليه وسلم ، ب - المبعوث إليهم ، ج - النذير العريان ، د - قومه .

وهذه العناصر الأربعة صاغها الأسلوب الحكيم صياغة واحدة في قوله عليه السلام " إنَّ مَثَلِي ... وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ ...

----

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ١٥/٤٨-٤٩ .

كمثل رجل ... أتى قومه "وقد وضعنا المبعوث إليهم مكان الذي بعثه الله به لأنّ الحديث جرى على بيان ذلك وقد وضحه الرسول صلى الله عليه وسلم آخر الحديث .

وقد بدأ الحديث بقوله : " إنّ مَثَلي وَمَثَلَ ما بَعَثَني " وما اسم موصول مبهم جاء للدلالة على عظم الأمر الذي بعث به وجلاله ، وإبهامه هذا يدل على شرفه وعظم خطره ، ثم تأتي صورة المثل لتقريب المعنى وتحديده . وبعد المثل ينتقل الكلام إلى بيان المشبه وتفصيله وتقسيمه " فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أطَاعَني وَاتَّبَعَ ما جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَاني وَكَذَّبَ ما جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ " وهذا القسم الأخير من الحديث مرتبط بما قبله برباطين وثيقين ، الأول : هو الفاء المفيدة للبيان والتفريع ، والثاني : اسم الإشارة " ذلك " وهو تلخيص لكل ما مضى من أحوال المشبه به لأنه إشارة إليه .

وبين الجملتين مقابلة بين هذين الصنفين الذي أطاع والذي عصى ، وتكرار الألفاظ في الجملتين " مثل من ... ما جئت به يضفي على الكلام مزيداً من التناسق والتلاؤم والتلاحم ثم يلاحظ أن قوله " أطَاعَني " دل على معنى " وَاتَّبَعَ ما جِئْتُ بِهِ " لأنّ المطيع لا يكون مطيعاً إلاّ إذا اتبع ما جاء به عليه السلام من الوحي . وفي هذا العطف نص على الاتباع ، ومفعول الاتباع ليس هو ضمير المتكلم صلى الله عليه وسلم أي لم يقل " واتبعني " كما قال " أطاعني " لأنّ الاتباع اتباع للوحي والرسول صلى الله عليه وسلم لا يدعو إلاّ إلى ما أوحى الله به إليه .

ثم نلاحظ كيفية بناء هذا الكلام وترابطه مع ما قبله ، فالجملة الأولى " فَذَلِكَ مَثَلُ من أطاعني ... " تعود إلى جملة المشبه به ... فأطاعهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ... " ، والجملة الثانية " فذلِك مَثَلُ من عصاني ... " تعود على جملة المشبه به الثانية " وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ منهم ... " وهذا هو النمط العالي الذى أشار إليه عبد القاهر.(١)

٢ - صياغة المثل :

يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بالنذير العريان وهي قصة جاهلية كثرت رواياتها واُختلف في تحديد أصلها ، وقد ذكرنا سابقاً بعض رواياتها ، وهذه الكثرة تدل على أن الحقيقة الأولى غابت في الزمن وبقي مدلولها الذي يعني الإنذار الصريح .

وقد انتقلت هذه القصة من الرواة إلى الشعر فنجدها مبثوثة في الشعر الجاهلي ثم نجدها في الحديث الشريف . يقول زهير بن أبي سلمى يصف حمار الوحش :

كَأَنَّ سَحِيلَهُ في كُلِّ فَجْرٍ ... على أَحْسَاءِ يَمْؤُودَ دُعَاءُ
فَآضَ كَأَنَّهُ رَجُلٌ سَلِيبٌ ... على عَلْيَاءَ ليسَ لَهُ رِدَاءُ(٢)

يشبه زهير حمار الوحش بصورة الرجل السليب العريان وهو واقف على علياء وفي البيت الأول ذكر الدعاء " على أحساء يمؤود دعاء " وقد ذكر

---

(١) انظر دلائل الإعجاز : ٩٣ ومابعدها .

(٢) الديوان ١٣٣ ، السَّحيل : صوت الحمار وبه سمى مسحلا . يموؤد : اسم موضع ، والأحساء : موضع يكون فيه الماء . (صنعة الأعلم) .

الأعلم الشنتمري في تفسير " دعاء " لأشبه صوت الحمار بصوت إنسان يدعو صاحبه ويناديه وإنما يريد أنه في وقت هياجه ، فهو يدعو الأتن ، ويجاوب الحمر "(١).

والرجل السليب على العلياء إشارة إلى هذه القصة وتفسير الأعلم فيه شيء من هذا ، تجد ذلك في قوله " إنسان يدعو صاحبه ويناديه " وقال زهير " رجل سليب على علياء وليس له رداء " فلم يذكر أنه ينادي صاحبه .

وتحتوي جملة المثل على كثير من عناصر التوكيد أولها قوله "يَاقوم إنّي رَأيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ " أكد أمر رؤيته بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي " إنّي رأيْتُ " وما يقتضيه ذلك من تقوية المعنى وتقرير حصول الرؤية منه .

وفي قوله "بِعَيْنَيَّ " تأكيد آخر للرؤية ، والرؤية لا تكون إلا بالعين ولكنهم يقولون ذلك كما يقولون أخذته بيدي وسمعته بأذني للتوكيد لأنّ في اسقاطها من الكلام إهداراً لمعنى أرادة المتكلم ، وفرق بين أن نقول رأيته أو سمعته أو أخذته وأن نقول رأيته بعينيّ وأخذته بيديّ(٢) .. ، والنذير هنا أراد أن يؤكد صدقه ، وأنه رأى الجيش رؤية يقين لا شك فيها ثم إنه سبق هذه الجملة بالنداء فقال "يا قَوْم إنّي رَأيْتُ .." للفت والإثارة والانتباه إلى ماأراد قوله . ثم تعطف على هذه الجملة ، جملة " وإنّي أنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ " وفيها من التوكيد ما ترى ، الجملة الاسمية الدالة على الثبوت ، و "إن" الداخلة عليها . وفي تكرار الضمير والتعريف في قوله " إنّي أنَا

---

(١) الديوان : ١٣٣ .

(٢) انظر خصائص التراكيب ، د . محمد أبوموسى : ٢٥٥ .

النَّذِيرُ " اختصاص وقصر النذير العريان عليه ، وكأنه يعيد إلى الوجدان هذه القصة ويشير إلى أنه هو الأحق بها من صاحبها الأول ، وفي ذلك إشارة إلى تعظيم الهول ، وكأن الهول الذي أنذر به الأول لم يكن هولاً بالنسبة إلى ما ينذرهم به ، وكأن الوصف الحقيقي للنذير العريان يجب أن يكون له هو ولا يزاحمه فيه أحد .

وانظر إلى كلمة " النذير " ترى فيها الخوف والحذر والترقب ، وتأمل التكرار في قوله " إِنِّي رَأَيْتُ . . . وإِنِّي أَنَا . . . " وكيف أن العنصر اللغوي المكرر هو التوكيد . . . ثم تأمل كيف تصاعد التوكيد في الجملة الثانية . . وكيف أن ذلك يشعر بأهمية الأمر وخطره وقطع أدنى شك في تكذيبه أو اتهامه .

وفي قوله " العُرْيَانُ " صفة هذا النذير جاءت لتأكيد أمر إنذاره والتعري هذا هو دليل صدقه القاطع .

وقد قدم جملة " إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ " على جملة " إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ " التي فيها قطع لكل جدل ، وغناء عن كل كلام للإشارة إلى أن رؤية الجيش الدال على قرب الخطر ومداهمته هو رأس الأمر .

ولا يزال النذير يؤكد أمر صدقه بشتى وسائل التأثير فيقول : النَّجاءَ النَّجاءَ ، أي اطلبوا النجاة . . . وحذف الفعل هنا يقتضيه الموقف لأنه موقف سريع متوتر لا تؤثر فيه إلاّ الجمل المختصرة ، فتبعث الفكر وتحرك الخيال ، وتوحي بضرورة الإسراع والنجاة ، ولنتأمل ما وراء هذا الاختصار من معانٍ تومض في النفس فتتأثر بها أشد تأثر .

وفي قولـه " إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ " إشارات تضيء جوانب المشبه ، فالرسول صلى الله عليه وسلم رأى موطن الخطر ، وخبر بها . وفي قوله "النَّذِيرُ العُرْيَانُ " إشارة إلى الحجة العقلية التي جـــاء يحملها عليه السلام وهي ساطعة واضحة تدل دلالة لا تلتبس علـى أنه صادق أمين . وبعد أن بلّغ هذا النذير قومه وأنذرهم بلغـة عالية وأسلوب مؤثر ظهرت طبائع النفوس في استجابتها للدواعـي ، فقد انقسم القوم بعد إنذاره إلى قسمين : قسم أطاعه ، وقسم عصاه ، " فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدلجوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ " فهذه الفئة قد صدقت فور إنذارها وهذا ما تدل عليه الفاء في " فأطاعه "فأدلجوا أي ساروا أول الليل فور إنذارهم حتى لا يدهمهم العدو ،والفاء في "فأدلجوا " تشير إلى ذلك وتربط السلوك ربطاً محكماً وساشراً بالاعتقاد ، وكأنهم ما أن أطاعوه إلاّ أدلجوا ، فالطاعة وحدها لا تُنجّي ،وفيـه إشارة خفية إلى أن من أمن عمل بالشريعة ودخل في سلك الديـن ، وعليه أن يسلك مسالكها وينهج مناهجها ، فهم قد ارتحلوا عن مكان الجهل والضلال أي انتقلوا بأنفسهم أو قل انتقلت نفوسهم وارتحلت عن جاهليتها ،وخلعت رداءها ،وخلّفت مكانها ،فساروا على سـنن الإيمان مطمئني القلب وهذا ما يوحي به اللفظ . وفي قوله "فأدلجوا على مهلتهم " دلالة على أنهم أطاعوا فعملوا بأسباب النجاة فنجوا وفيها إشارة أيضاً إلى أن الايمان لا يكون إلاّ بالعمل بكل مستلزمـات هذا الديـن والانسجام التام معه .

والفئة الثانية ،هي التي كذبت ، " وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمْ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ " هؤلاء رفضوا داعـي

التغيير وتشبثوا بما هم عليه ،ووقفوا في مكانهم حتى هلكوا ،وقد قال " كذبت " هنا و " أطاعت " في الأولى ،ولم يقل " صدقت " لأنّ النجاة موقوفة على الطاعة ،ولا يكفي في ذلك التصديق أما الهلاك فإنّه يتناسب مع التكذيب والعصيان ، ويدل على ذلك قول ابن حجر نقلاً عن الطيبي " عبر في الفرقة الأولى بالطاعة وفي الثانية بالتكذيب ليؤذن بأن الطاعة مسبوقة بالتصديق ، ويشعر بأن التكذيب مستتبع للعصيان "(١) وهذا هو الإيمان ، تصديق بالقلب وعمل بالجوارح .

وفي قوله " كذبت " بقطع المفعول إشارة إلى توفر الغرض على وقوع الفعل من الفاعل أي إثبات التكذيب لهم وأن هذا من شأنهم وكأنهم كذبوا على غير تدبر ومراجعة ونظر ،ولذلك فقد كذبوا كل من ينذرهم سواء كان من قومهم أو من غير قومهم ، فهي فئة عاندت وعميت عن أصل الفطرة ،وهذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان يرفضون التأمل والنظر في كل حق .

وإيقاع التكذيب على الخبر يعني أنهم نظروا في الخبر ،وفرق بين أن نقول " كذب فلان " و " كذب فلان الخبر " لأنّ التكذيب في الثاني يعني أنه راجع ونظر وكذب ولذلك يلاحظ أنه عليه السلام قال في الفرقة الأولى " فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُم " وذكر الفعل معدى إلى مفعول ، وهو يعني أن هذه الطائفة سمعته واستوعبت مقالته بخلاف الفرقة الثانية .

---

(١) فتح الباري : ١١/٣١٧ .

ومعنى قوله " فأصبحوا مكانهم " أي أنهم لم يأخذوا بأدنى أسباب النجاة فلاح عليهم الصباح وهم على ما أمسوا عليه ،وقال فصبحهم الجيش " بدل "فداهمهم" لأنّ الغارة تكون في الصباح والعرب " أكثر ما يغيرون عند الصباح ، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح ".(١)

وفي قوله " فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ " تناغم واضح بين فاصبحوا وصبّحهم من حيث التجانس اللفظي ،وهذه الكلمات من العناصر اللغوية ذات المذاق السمعي المتميز ،وتلاحظ أن كلمة " فأَصْبَحُوا " تهيء وتوطيء لكلمة " فَصَبَّحَهُم " فهم ما داموا قد بقوا في مكانهم فحين يصبحون سوف يدهمهم العدو صباحاً .

وهكذا تتداخل علاقات الكلمات لتؤدي دقائق المعاني .
وقوله " واجْتَاحَهُمْ " من الجائحة وهي الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح وتستأصل (٢) . أي أن هذا الجيش العظيم قد استأصلهم فلم يبق فيهم باقية ، واستحصدهم عن بكرة أبيهم . وهذه نهاية العصيان .

ولنتأمل قوله "فَأَهْلَكَهُمْ واجْتَاحَهُمْ " ودلالة الفاء على سرعة الهجوم والغارة والبطش بهم ،فما أن صبحهم حتى أهلكهم ، ثم دلالة الواو التي عطفت معنيي الهلاك على توكيد المعنى .

وهكذا نجد أن عناصر التوكيد تجرى في الحديث كله مفرداته وجمله ففي قوله " إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ " التوكيد بإنّي وبعينيّ ،

---

(١) لسان العرب :٢/ ٥٠٥ .
(٢) المصدر السابق:٢/ ٤٣١ .

وفي قوله " وإنّي أَنَا النَّذيرُ العُرْيانُ " بإني وبالاختصاص وبالصفة ، ثم انظر إلى التوكيد اللفظي في قوله " فالنَّجاءَ النَّجاءَ " وتكراره في أكثر الروايات ثم التأكيد بالعطف في " فَأَهْلَكَهُمْ واجْتَاحَهُمْ " ثم في جعل التقسيم " فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَني وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي "، فعناصر التوكيد تتضافر لتؤدي المعنى الرئيسي في الحديث.

وهناك حديث آخر يلتقي مع هذا الحديث في المعنى ،وفي تشابه طرائق التركيب والعناصر ، إلا أن له نسقاً آخر يميزه عن هذا الحديث فعن زهير بن عمرو وقبيصة بن المُخَارِق قالا : لَمَّا نَزَلَتْ آيَة ﴿ وَأَنْذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ قال : انْطَلَقَ نَبِيُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى رَضْمَةٍ مِنْ جَبَلٍ فعلا أَعْلاهَا حَجَراً ثُمَّ نَادَى : يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافَاهْ ، إنّي نَذِيرٌ إنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى العَدُوَّ فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ فَجَعَلَ يَهْتِفُ يَا صَبَاحَاهْ "(١).

في هذا الحديث تزداد حدة الإنذار والخوف ، فهو هنا يخاطب أهله ،وفي الحديث الأول كان يخاطب قومه كافة ،ولذلك فالنبرة تزداد هنا وتعلو .

وتتشابه صياغة الحديثين من جهة ،وتختلف من جهة أخرى . فالحديث الأول يبدأ بقوله عليه السلام "إنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ " أما الثاني فقد بدأه بجملة اسمية هي نص في المقصود " إنِّي نَذِيرٌ إنَّما مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ " فهو هنا يخاطب أهله وقد أراد عليه السلام أن يبدأ بأصل القضية التي تكلم من أجلها ،لأن الموقف حاسم ، فهو على رأس رضمة من جبل وحوله أهله ، فكأن النفس تلامس

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ٨١.

الخطر ، وتتوجس من نتائجه ... كيف لا وفيهم الأهل والعشيرة ، بعد ذلك أكد كلامه بإيراد المثل فقال " إنَّما مَثَلي ومَثلُكُم " وتتشابه العناصر فهناك نذير عريان وهنا رجل يربأ العدو ، ومعنى " يَرْبَأُ " بفتح الياء وسكون الراء كما يقول الرامهرمزي من يربأ الرجل أي " يعلو شاهقاً فيرقب العدو لينذر به واسمه الربيئة "(١) ، فهذا الرجل يحفظ قومه ويتطلع لهم وكأنه عين ساهرة تحرسهم ، فبعد أن رأى العدو صعد ليرقب العدو حتى لا يداهم قومه ، ثم انظر إليه وهو يستعجلهم ، فالعدو قريب جداً ، وتأمل مرة أخرى قوله "يَرْبَأُ" وما فيها من أن مراقبته وتطلعه يتجدد ويحدث حالة بعد حالة ، ينظر هنا وهناك ويمعن النظر ، ويحدد مقدار بعد العدو وقربه ، وفيه تجسيد وتصوير للحدث واستحضاره وكأنه يقع منه الآن وهو على الرضمة فنراه بالعين ونتملاه بالخيال ، والصورة الأولى تخلو من كل هذا فهناك حديث مع القوم وإنذار بجيش ، ودليل صدقه ، أما هنا فتطلع وخشية من المداهمة وصرخة تحمل فيها الاستعجال والخوف والإنذار إنه يصرخ " يا صَبَاحَاه " وهي كلمة تقولها العرب إذا أنذرت بغارة من الخيل تفجؤها صباحاً يا صباحاه ينذرون الحي أجمع بالنداء العالي "(٢) .

ثم إن هذا الحديث يأتي في بيان مثله ومثل ما بُعث به من الهدى ، أما الحديث الأول فيبين مثله ومثل ما بُعث به ، ومثل قومه ، وموقفهم مما بُعث به ، وتفصيل لهؤلاء في نهاية الحديث .

---

(١) امثال الحديث : ٢٣ .

(٢) لسان العرب : ٢/٥٠٥ .

ويذكر الرامهرمزي في أمثال الحديث ،حديثاً تتشابه عناصره مع هذين الحديثين ، يقول الحديث " خرج النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فنادى ثلاث مرات " أيها النّاس إنَّما مَثَلِي وَمَثَلُكُم مَثَلُ قَوْمٍ خَافوا عدواً أن يأتيهم فبعثوا رجلاً يَتَرَبَّأُ لهم فَبَيْنَما هو كَذَلِك إذ أَبْصَرَ العَدُوَ فَأَقْبَلَ لينذر قَوْمه فَخَشِي أن يُدْرِكَهُ العدو قَبْلَ أن يُنْذِرَ قَوْمَه فأهوى بثوبه أن أيها الناس أوتيم ثلاث مرات ".(١)

وهذا الحديث يقرب من الحديث الثاني ويشترك معه في بعض المعاني ، فالخطر هنا قد اقترب وأوشك العدو أن يغير بجيشه .. وهكذا نلاحظ اختلاف درجات الخوف والخطر في هذه الأحاديث الثلاثة ،فالأول : رأى العدو عن بعد فجاء ينذر قومه ويخبرهم عما يثبت صدقه وتركهم بعد ذلك للاختيار.

والثاني : هو يتربا لقومه ويحرسهم فرأى العدو وقد اقترب فخشي أن يسبقه إلى قومه قبل أن ينذرهم فصاح بكلمة الإنذار ذات الدلالة على وقوع الخطر.

والثالث : القوم هم الذين بعثوا بالرجل لكي يتربا لهم ، وبينما هو يؤدي ما كُلف به رأى العدو وقد اقترب فخشي من ادراكه فنزع ثوبه وأخذ يلوح به ويصيح أيها الناس قد أوتيتم أي أتاكم أمر عظيم جلل.

وهكذا تتفاوت طرق الإنذار ،فالأول نذير عريان ، والثاني رجل يصيح ،والثالث يشير بثوبه ، فكل هذه الأدلة تلتقي في معنى الإنذار

---

(١) ص : ٢٢-٢٣.

الصريح الذي لا يوارب ولا يمالئ ، وتمثل جزءاً من أصول القصة القديمة .

وهناك فرق كبير بين مثل الحديث الأول والثالث ، فالقوم في المثل الثالث قد صدقوا صاحبهم لأنهم هم الذين اختاروه ، وكانوا متوجسين مداهمة العدو ، بينما في المثل الأول منهم من أطاع فأدلج فنجا ، ومنهم من كذب فأصبح فصبحه العدو ، وهذا التقسيم لموقف الناس من الرسالة ليس منه شيء في رواية الرامهرمزي وكأن هذا المثل الثالث يمثل مرحلة إيمان الناس برسالته عليه السلام وتصديقهم له فلذلك فقد وكلوا أمرهم إليه .

الحديث الثالث :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْساً ما تَقُولُ ذلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟ قالُوا : لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئاً ،قالَ : فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا ".(١)

١ - صياغة المثل :

تختلف طريقة بناء هذا الحديث عن الحديثين السابقين فالحديث مبنى كله على المثل ،هذا وقد تقدمت صورة المشبه به على المشبه وفيه فضل عناية بالمثل المضروب واقامته في النفس فإذا ما جاء المقصود وهو المشبه ،فإنّه يتمكن من النفس فضل تمكن وفي ذلك تشويق وإثارة لمعرفة ما يترتب عليه المثل .

وقيام التشبيه على مثل هذه الطريقة نادر ،و نراه في بعض صور الشعر . وقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدخل على نفوس المؤمنين مدخلاً يؤنسها بهذه الأداة الاستفهامية المحركة لدواعي النفوس والهمزة تهيء الأذهان و تثيرها لمعرفة المسئول بها عنه ، وفي دخولها على "رأيتم " التي هي بمعنى أخبروني دلالة على أنه كالعلم المستحكم الذي تراه العين ،وتدركه الحاسة . وقد جاءت الهمزة لتقرير المعنى في النفوس وتوكيده .

---

(١) صحيح البخاري ١/١٤١ .

ثم نتأمل عناصر صورة المشبه به لنتعرف على أثرها في توضيح المعنى يقول عليه السلام " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْراً " والنهر بفتح الهاء وسكونها ما بين جنبي الوادي سمي بذلك لسعته (١) فهو ماء يشق الأرض ليجري فيها ، وفي تنكيره إشارة إلى سعته وصفائه وطهر مائه ونقائه ،فهو نهر عظيم بما يتميز به من صفات الأنهار الأخرى ،ولهذا النهر صفات متعددة في رواية أخرى لعبدالله بن عمر رضي الله عنه ذكرها الإمام مسلم -رحمه الله- في صحيحه . فعن عبدالله ابن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ " قال مسلم : قال الحسن : مَا يُبْقِي ذَلِكَ مِن الدَّرَنِ. (٢)

فالحديث هنا يضيف إلى النهر صفات أخرى فهو نهر جارٍ غمر ، والصفات إذا ترادفت على هذه الهيئة دون فاصل دل ذلك على اجتماعها في النهر فهو نهر جار أي أن ماءه جارٍ واطلاق النهر على الماء الجاري فيه مجاز للمجاورة ،فماؤه يتجدد ولا يسكن فيتغير طعمه وريحه إنما عطاؤه مستمر . ثم إنه غمر، والماء الغمر هو الكثير ، يغمر من يدخله ويغطيه كما يقول صاحب اللسان ، كما يطلق على كثير المعروف طيب الخلق مجازاً قال الشاعر :

غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ (٣)

ولكل صفة من هذه الصفات فيض من المعاني على الصلاة ذكرناها في

---

(١) فتح الباري: ٢/ ١١ .

(٢) صحيح مسلم : ٥/ ١٧٠ .

(٣) لسان العرب : ٥/ ٢٩ .

باب العناصر . ثم ننظر إلى بقية صفات النهر إنّه " نهر بباب أحدكم " فالباء تفيد الإلصاق فهو شديد القرب من الدار حتى كأنه يجري فيها ، وهو قريب المطلب ،سهل التناول . وفي إضافة الضمير في "أحدكم" إلى المخاطب استحضار للصورة في الأذهان ونقلها إلى واقع الصحابة رضوان الله عليهم والإشعار بأن النفس جزء منها .

وتأمل قوله "يَغْتَسِلُ فيه" ومجيئه على صيغة المضارع الدال على حدوث الفعل وتجدده وحضوره ،وكأننا نرى الرجل وهو يغتسل وقوله " فيه " تفيد الظرفية وتفيد أنه يغتسل فيه ويغمر نفسه بالماء بخلاف قولنا "يغتسل منه" التي تدل على أنه يأخذ منه فيغتسل خارجه . وبما أن الاغتسال يبعث في الجسم الحيوية والنشاط فإنّ تكرار ذلك خمس مرات في قوله " خمساً " ينقي الجسم نقاءً يبعث فيه مزيداً من الحياة ،ويعطيه قدرة على مضاعفة الأعمال التي يمارسها في حياته .وتأمل كل هذه المعاني تمام التأمل ثم انظر إلى فيوضاتها على الصلاة .

وبعد أن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة هذا النهر أراد أن يقرر الصحابة ما يقوله بأفواههم ولذلك قال : " ما تقول ذلك يبقي من درنه " وفي رواية مسلم " هل يبقى من درنه شيء " وقد أجاب الصحابة بالجملة نفسها " لا يبقي من درنه شيئاً " وفي هذا التكرار إقرار وتوكيد بعد أن نظروا وتأملوا أمر هذا النهر ، ثم أدركوا قيمته فقرروا قول الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ساعد على ذلك أيضاً قوله " أحدكم " فنهر على مثل هذه الصفات من عذوبة وطهارة ونظافة جدير بالا يبقي أي درن يعلق بجسم من يغتسل فيه خمس مرات .

وقد أدرك الطيبي فائدة إقرار الصحابة فقال " في هـــذا الحديث مبالغة في نفي الذنوب لأنهم لم يقتصروا في الجواب علـى " لا " بل أعادوا اللفظ تأكيداً" وقول الطيبي هذا ذكره ابن حجـر في شرحه (١) . فهو قد فطن إلى أمور في المشبه انعكست على معاني في المشبه به كما فطن إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد إقــرار أمور في المشبه عن طريق إقرارها في المشبه به .

ثم تأتي في نهاية الحديث جملة المشبه " فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا" الفاء هنا الفصيحة التي تأتي جواباً لجملة مقدرة سبقتها أي إذا تقرر أن النهر الذي يكون على هذه الصفـــة يطهر من يغتسل فيه خمس مرات في اليوم فلا يبقى من درنه شـيء فالصلوات الخمس مثلها . وكأن هذه الفاء قد أغنت عن الإطالة والإطناب وجاءت بالكلام على هذا الإيجاز العجيب ،وهذه هي البلاغة النبويـة العالية .

" وَذَلِكَ " اسم إشارة مع كاف البعد واسم الإشارة يميز الكلام ويطوي وراءه صفات النهر . وكاف البعد تشير إلى علو منزلة النهـر الممثل به ومكانته العالية وصفاته المتفردة ،وأن الصلوات الخمس جديرة بأن تلحق به . والمراد بالدرن الذي ينظفه هذا النهر هو الوسخ الذي يلتصق بالجسم فهو يطلق على الوسخ عامة ويقابله في الحديث الخطايا وتشمل الصغائر والكبائر ، لأن تجنب الكبائر لا يكون إلا بالصلوات الخمس ، فهي تعصم النفس من ارتكابها . وفي تشبيه الصلاة

---

(١) فتح الباري ٢/ ١١ .

بهذه الحالة إشارة إلى سهولة إقامة شعائرها ، وأنها من الأمور التي لا تثقل على المسلم إذا ما أخلص قلبه لها ، فهي من الأمور التي يجد فيها سلوته وبها يتحقق قربه من الله .

وفي قوله " يَمْحُو " من محا الشيء إذا ذهب أثره (١) دلالة على أن هذه الذنوب كانت متراكمة متراكبة ثقيلة على النفس والصلوات الخمس تمحوها فلا تترك لها أثراً .

وفي حديث آخر يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس بخمسة أنهار ، وقد ذكر هذا الحديث ابن حجر والعيني . يقول عليه السلام " أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً كَانَ لَهُ مُعْتَمَلٌ وبَيْنَ منزله و معتمله خمس أنهار ، فإذا انْطَلَقَ إلى مُعْتَمله عمل ما شاءَ فَأَصَابَهُ وَسَخٌ أو عَرَقٌ فكلما مَرّ بنهر اغتسل منه " (١) .

جاء الحديث على طريقة الاستعارة ، وقد بدأه الرسول صلى الله عليه وسلم بهمزة الاستفهام داخله على " رأى " وفيه حث على استحضار الصورة والرجوع إلى النفس والتأمل وهذا يتفق مع المثل الذي نحن بصدده ، فقد بدأ بقوله " أرأيتم " إلا أن هذا الحديث يركز على ما يصيب الإنسان من هفوات وصغائر وهو يمارس أعماله اليومية و يختلط مع الناس فتطهرها الصلوات الخمس وتمحوها فيمسي آخر النهار وما عليه خطيئة .

ويختلف هذا الحديث عن الحديث الأول من حيث العناصر فهنا خمسة أنهار وفي الحديث الأول نهر واحد ، وهنا منزل و معتمل

---

(١) فتح الباري : ١٢/٢ ، عمدة القاري : ١٦/٥ .

وأدران من وسخ وعرق واغتسال منها ،وهناك اغتسال ودرن فقط،
وفي قوله " وسخ أو عرق " إشارة إلى تنوع هفوات المؤمن .
وفي قوله " اغتسل منه " إشارة إلى أنه أخذ منه قليلاً أو كثيراً ،وهذا
يختلف عن قوله في المثل الأول " يغتسل فيه ".

وانظر إلى الحديث في قوله " مُعْتمله " وكيف يعبر به عن
مخالطته للناس وانغماسه في شؤون الحياة ،وقال " معتمله " ولم يقل
" معمله " للدلالة على كثرة عمله وبقائه فيه .

ويدل الحديث على أن مخالطة الناس توقع المرء في الذنوب والآثام
ما لم يحصن نفسه فلذلك هو يغتسل بالصلاة ،وفيه أن ممارسات
الكسب اليومي من مواطن الهفوات فعلى المؤمن أن يتيقظ ويحذر .

والمنزل هو خلوته وخلوده آخر الليل للراحة وتركه العمل ،
ففيه يتجنب الأوساخ .

الخاتمة

الخاتمــــــــــة

قامت هذه الدراسة على مناقشة أمريـن :

الأول : الجانب النظرى وقد قام على دراسة تشبيه التمثيـــل في التراث البلاغي وتحليل كلام العلماء فيه ،ومر بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : بحثت فيها عن جذور هذا الفن في مرحلة متقدمة عند البلاغيين ، فسلكت نهجاً يغاير ما عرف من تتبع هذه الفنون ودراسة مقالة العلماء فيه ،فلم أقف عند حدود المصطلحات التي ميـــزوا بها التمثيل عن التشبيه، إنّما سلكت طريقا آخر يقوم على تأمل شواهـــد العلماء في التشبيه فاستقصيت ما استحسنوه فوجدت أكثرهم يهتم بالصور المركبة فيقفون أمامها يتعجّبون ويُعْجّبون ، فإذا أحصينـــــا ما استحسنوه وجدناهذه التشبيهات المركبة تستوعب أكثر شواهدهم .
ومن العلماء الذين بدا ذلك واضحاً في دراستهم للتشبيه الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن طباطبا وابن المعتز ،وكانت دراسة الرماني أقـــرب إلى التمثيل عند عبد القاهر،ولا شك أن هذه الدراسات قد ألهمـــت عبد القاهر كثيراً من معارفه في هذا الباب.ثم جاء عبدالقاهر وأصّـــل هذا الفن وميزه عن التشبيه . وكانت هذه هي المرحلة الثانية لهـــذا الفن - فعبد القاهر أول من قسم التشبيه إلى قسمين : تشبيه صريح ، وتشبيه تمثيل ،واعتبر أن تشبيه المحسوس بالمحسوس هو الأصل والثاني فرع عنه ، وقد ميز التمثيل بالنظر إليه من جهتين : جهة وجـــه الشبه ، وهو أساس التمييز ،وجهة الطرفين ، فالوجه المؤول تمثيل ، وتشبيه العقلي بالحسي تمثيل أيضا . ثم بين أنواعه ومواقعه في الكلام

وأثره على النفس والفرق بين مجيء المعنى مجرداً وبين مجيئه بصورة التمثيل . ثم يبين مزاياه التي منها ما ينفرد بها كخروج الخفي إلى جلي وهو يُرجع ذلك إلى علقة النفس وانسها بالمحسوس. ومنها ما يشترك فيه مع التشبيه الصريح كالجمع بين المتباعدين وهذا يمثل الأصل في التمثيل ، ثم تحدث عن حاجة التمثيل إلى تفكر وروية في استنباط دقائق معانيه لأنه من المعاني اللطيفة الشريفة ، كما أنه ربطه ببعض قضايا الشعر كالتمحل والكدّ في الشعر وكدقة المعاني والفرق بينها وبين التعقيد .

ثم يتحدث عن مزايا تتعلق بصورة المشبه به يتساوى فيها التمثيل مع التشبيه الصريح كالتفصيل في صورة المشبه به وحمله أدق خصائص المشبه وأحواله ، وإن كان عبد القاهر قد أظهر مجيئه في التشبيه الصريح خاصة . ثم يتحدث عن مزية التشبيه الذى تكون العناصر فيه بعيدة عن العين ، ويرى أنه كلما بَعُدت العناصر حَسُنت الصورة وابتعدت عن الابتذال .

وكان عبد القاهر حريصاً - وهو يتحدث عن هذه المزايا ، على وصلها بالنفس ووصف حركتها أمام هذا النوع ورصد ذلك بدقة .

أما المرحلة الثالثة في مسيرة هذا الفن فهي مرحلة المتأخرين الذين لم يضيفوا جديداً فيه ، وإنّما كانت آراؤهم تدور حول رأى عبد القاهر . ويمثل هذه المرحلة : السكاكي والخطيب القزويني وأصحاب شروح التلخيص التفتازاني ، والسبكى ، وابن يعقوب المغربي .

أما القسم الثاني من البحث فهو القسم التطبيقي وقد وقفنا فيه على التمثيل في أحاديث الصحيحين وخلصنا منه إلى نتائج مهمة وهي :

١ - أنني حاولت أولاً أن استخرج من كلام العلماء في أوصاف بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم أصولاً بلاغية محددة ، وقد تناولت نصاً للجاحظ يعد من أهم ما وُصف به بيانه عليه السلام من كتابه " البيان والتبيين" ، ونصا آخر للخطابي تحدث فيه عن مبلغ فصاحته عليه السلام وما أُوثر من حسن بيانه ، ثم تناولت دراسة الرافعي للبلاغة النبوية وهي تمثل أهم ما قيل من بلاغته عليه السلام في هذا العصر ووقفت فيها على عناصر وأصول مهمة متصلة بالدرس البلاغي .

٢ - بينت المعاني التي جاءت في أسلوب التمثيل باللغة المجردة وحاولت أن ألمح الدقائق التي يحملها الأسلوب ولكنى لم استطع أن أصل إلى حاقها المعنى الذى أراده التمثيل لأن في لغة البيان من المعاني ما لا يكون إلا بها ولا تستطيع أى طريقة أخرى التعبير عنها ،وقد وقف عبد القاهر عند هذه المسألة وكان يخاطب قارئه بمثل قوله - فتمهد الفرق بين أن تقول كذا وتسكت وتقول كذا - ، أى بين أن تأتي بالمعنى مجرداً من التصوير وبين أن تأتي به ممثلاً ومصورا .

وقد رأيت أن المعاني التي عرضها التمثيل تنحصر في خمسة أبواب في باب بعثته عليه السلام ،وباب صفات المؤمنين وغيرهم ،وباب العبادات ،وباب فضل المدينة ، وفي أحوال اليوم الآخر ،وفي موضوعات متفرقة لا تكاد تضبط تحت غرض واحد .

٣ - ثم تناولت عناصر التمثيل التي انتزع منها عليه السلام تمثيله فقسمتها إلى ثلاثة محاور . الكون وما فيه ،وأحوال البيئة الحضارية والفكرية ،وأحوال البيئة المعاشة المتنوعة ،ووجدت أكثرها يدور حول مظاهر الكون مما هو واقع تحت سمع الإنسان وبصره لا يتغير ولا يتبدل

ففي التمثيل النبوى بعض الأغراض جاءت في القرآن الكريم على طريقة التمثيل كنحو الصدقات ومضاعفتها ، وقد تتشابه عناصر التمثيل في القرآن والحديث مع اختلاف الغرض الذى سيقت له أو قد تتلامح ، ثم إننا نجد كثيراً من الألفاظ القرآنية والتراكيب مبثوثة في ثنايا الأحاديث وأحياناً يأتي التمثيل ليشرح ويفسر معنى آية قرآنية.

وهذا الموضوع متسع جداً وما ذكرناه فيض من فيض وقليل من كثير .

٦ - وضعت نماذج من التمثيل المختار عند الجاهليين بإزاء تمثيله عليه السلام ليتبين الفرق بين الطريقين ، ثم تعرضت لبعض عناصر التمثيل عند الجاهليين ورصدت معانيها ، ثم نظرت إلى هذه العناصر في الحديث فوجدتها شيئا آخر لأن من فيوضات المعنى وغزارته ما تنطفي به عناصر الجاهليين ، فاللغة في بيانه لها عطاء آخر و معانٍ أخرى.

٧ - ختمت هذا البحث بفصل تكاملت فيه وجهات النظر ، وقفت فيه على بعض أحاديث التمثيل وحللتها تحليلاً بلاغياً متكاملاً يكشف عن دقائق المعاني وأحوالها .

٨ - راجعت الفكرة البلاغية لأعرف هل استوعبت هذا المدى المنفسح من الحديث أم أنها ضاقت ببعض منه .

وبعد مراجعتي لعبد القاهر - الذى تعد دراسته أصلاً لهذا الباب - وجدته يرجع سبب قرب التشبيه وابتذاله إلى تكرار المشبه به على الحواس ، وقد رأينا أن أكثر عناصر التمثيل في الحديث النبوى من هذا الباب كأنواع الزرع والنهر والمطر والأرض وأصناف الحيوان

من إبل وشاه وكلب .... وغير ذلك ومع هذا بقي التمثيل غريبا رائعاً يؤدي غرضه عن أتم وجه ويتجدد عهده كلما رددناه .

هذه هي النتائج التي توصلت إليها بعد استقصاء وشرح وتحليل ونبتهل إلى الله أن يكون قد شرح صدورنا بنور الاهتداء إلى سلوك طريق المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلاّ ضال . والحمد لله رب العالمين ...

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجــــــع

١ - أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني .
تحقيق : السيد محمد رشيد رضا .
بيروت : دار المعرفةللطباعة والنشر ،ط ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٢ - الأصمعيات : أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن أصمع.
تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر - عبد السلام هارون
مصر : دار المعارف ،الطبعةالخامسة .
٣ - الإعجاز البلاغي : الدكتور محمد محمد أبوموسى .
القاهرة - مكتبة وهبة ،الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
٤ - إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني .
تحقيق : السيد أحمد صقر.
مصر: دارالمعارف ، الطبعةالثالثة .
٥ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي .
بيروت : دار الكتابالعربي ،الطبعة التاسعة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
٦ - أمالي المرتضى " غرر الفوائد ودرر القلائد : الشريف المرتضى على بن الحسين العلوي " . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .
بيروت : دار الكتاب العربي ،الطبعةالثانية ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م
٧ - الأمثال : أبومحمد عبدالله بن محمد المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني
تحقيق : د . عبدالعلى عبد الحميد .
بومباى : الدار السلفية ، الطبعةالأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٨ - أمثال الحديث : أبو محمدالحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى .
تحقيق : د . عبد العلى عبدالحميد الأعظمي .
بومباى : الدارالسلفية ،الطبعةالاولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
٩ - الأمثال في القرآن الكريم : ابن قيم الجوزية .
تحقيق : سعيد محمد نمر الخطيب .
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر ،ط ١٩٨١م.
١٠- الإيضاح : الخطيب القزويني .
تحقيق : د . عبد المنعم خفاجي .
بيروت : دار الكتاب اللبناني ،الطبعة الخامسة ،
١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١١- البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير .

بيروت : مكتبة المعارف ،الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

١٢- البديع : عبدالله بن المعتز.

نشر وتعليق : اغناطيوس كرتشفوفسكى .

دمشق ×: دار الحكمة.

١٣- البيان والتبيين : أبو عثمان عمروبن بحر الجاحظ .

تحقيق : عبد السلام هارون .

مصر : مكتبة الخانجي ،الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٤- تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة الدينورى .

تحقيق : عبد القادر أحمد عطا .

مصر : دار الكتب الاسلامية ،الطبعة الأولى ١٩٨١م.

١٥- التبيان في شرح الديوان : أبوالبقاء العكبرى .

ضبطه وصححه : مصطفى السقا - ابراهيم الأبيان - عبدالحفيظ شلبي .

بيروت : دار المعرفة .

١٦- التصوير البياني : الدكتور محمد محمد أبوموسى .

القاهرة : مكتبة وهبة ،الطبعةالثانية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٧- ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : الرماني - الخطابي - الجرجاني .

تحقيق : محمد خلف الله - د . محمد زغلول سلام.

مصر : دار المعارف ،الطبعةالثالثة.

١٨- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي .

تحقيق : محمدأبوالفضل ابراهيم.

مصر : دار نهضة مصر للطبع والنشر،ط١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

١٩- الجامع الصغير : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي .

بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ،الطبعة الاولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٢٠- الحيوان : أبو عثمان بن عمرو بن بحر الحافظ .

تحقيق : عبد السلام هارون .

بيروت : المجمع العلمي العربي الاسلامي ،ط الثالثة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.

٢١- الخصائص : أبوالفتح عثمان بن جني .

تحقيق : محمد علي النجار .

بيروت : دار الهدى للطباعة والنشر، الطبعة الثانية .

٢٢- خصائص التراكيب : الدكتور محمد محمد أبو موسى .
القاهرة: مكتبة وهبة ،الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٢٣- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني .
تحقيق ج: محمود محمد شاكر.
القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط ١٤٠٤هـ.
٢٤- الديوان (كتاب): عباس محمود العقاد .
القاهرة : مطابع دار الشعب ،الطبعة الثالثة .
٢٥- ديوان أوس بن حجر .
تحقيق : د . محمد يوسف نجم.
بيروت : دار صادر ،الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
٢٦- ديوان الأعشى .
تحقيق : فوزى عطوى .
بيروت : دار صعب ، ط / ١٩٨٠م.
٢٧- ديوان امرئ القيس .
بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ط١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
٢٨- ديوان أمية بن أبي الصلت.
قدم له و علق حواشيه : سيف الدين الكاتب ،احمد عصام الكاتب.
بيروت : دار مكتبة الحياة.
٢٩- ديوان البحترى .
شرح وتحقيق : حسن كامل الصيرفي .
مصر : دار المعارف ،الطبعة الثانية
٣٠- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزى .
تحقيق : محمد عبده عزام.
مصر : دار المعارف ط ١٩٦٤م.
٣١- ديوان حاتم الطائي.
بيروت : دار صادر ،ط / ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٣٢- ديوان الحطيئة.
شرح ابي سعيد السكرى .
٣٣ (أ)- ديوان زهير بن أبي سلمى . صنعة الأعلم الشنتمرى .
تحقيق : د . فخر الدين قباوة.
بيروت : دار الافاق الجديدة ،الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣٣ (ب)- ديوان الشريف الرضي :
بيروت : دار صادر للطباعة ، ط ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.
٣٣ (جـ)- ديوان ابن المعتز : بيروت ، دار صادر .

٣٤- ديوان السموأل .

بيروت : دار صادر بيروت .

٣٥- ديوان الشماخ .

تحقيق : صلاح الدين الهادى .

مصر : دار المعارف .

٣٦- ديوان عبد الرحمن شكرى (مجموعة) .

تحقيق : نقولا يوسف .

مصر : توزيع المعارف بالاسكندرية ، الطبعة الاولى ،

طبع على نفقة عبد العزيز مخيون .

٣٧- ديوان عبيد بن الأبرص .

بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٣٨- ديوان أبي فراس الحمداني .

شرح وتقديم : عباس عبد الساتر .

بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٣٩- ديوان النابغة الذبياني .

شرح وتقديم : عباس عبد الساتر .

بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى .

٤٠- روح المعاني : أبو الفضل شهاب الدين محمود الالوسي .

بيروت : دار احياء التراث العربي - دار الطباعة المنيرية .

٤١- ابن الرومي حياته من شعره : عباس محمود العقاد .

بيروت : دار الكتاب العربي ، الطبعة السابعة ١٩٦٨م.

٤٢- ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد .

بيروت : دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

٤٣- سر الفصاحة : أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي .

بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٤٤- سنن الترمذى : الامام ابو عيسى محمد بن عيسى .

تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان .

المدينة : المكتبة السلفية .

٤٥- شروح التلخيص : مختصر سعد الدين التفتازاني
مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي
عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي .
مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٤٦- شرح المفضليات : أبو زكريا يحيى بن علي الشيباني .
تحقيق : علي محمد البجاوى .
مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .
٤٧- الشعر والشعراء : ابن قتيبة الدينورى +
تحقيق : احمد محمد شاكر ،الطبعة الثالثة ١٩٧٧م .
٤٨- شعراء مصروبيئاتهم في الجيل الماضي : عباس محمود العقاد .
القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة .
٤٩- الشعر العربي المعاصر - ظواهره وقضاياه : د . عزالدين اسماعيل .
بيروت - دار الثقافة ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م .
٥٠- الصحاح : اسماعيل بن حمد الجوهرى .
تحقيق : احمد عبد الغفور عطار .
الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
٥١- صحيح البخارى : أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى .
بيروت : دار احياء التراث العربي .
٥٢- صحيح مسلم بشرح النووى .
بيروت : دار احياء التراث العربي ،الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .
٥٣- صحيح ابن ماجه : الحافظ ابي عبدالله محمد بن يزيد .
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
مصر : عيسى البابي وشركاه .
٥٤- الطراز : يحيى بن حمزة العلوى اليمنى .
بيروت : دار الكتب العلمية ط١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .
٥٥- العمدة : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني .
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .
بيروت : دار الجيل ،الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .
٥٦- عمدة القارى في شرح صحيح البخارى : بدر الدين محمود بن أحمد العيني - بيروت دار احياء التراث العربي .
٥٧- عيار الشعر : محمد أحمد بن طباطبا .
تحقيق : عباس عبد الساتر .
بيروت : دار الكتب العلمية ،الطبعة الاولي ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
٥٨- عيون الأخبار : ابومحمد عبدالله بن قتيبة الدينورى .
نسخة مصورة من طبعة دار الكتب .

٥٩- غريب الحديث : أبوسليمان حمد بن محمد الخطابي البستي .
تحقيق : عبدالكريم ابراهيم العزباوى .
دمشق : دار الفكر ، ط ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٦٠- غريب الحديث : ابو عبيد القاسم بن سلام الهروى .
الهند : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ،
الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
٦١- الفائق في غريب الحديث : جار الله محمود الزمخشري .
تحقيق : محمد أبوالفضل ابراهيم - علي محمد البجاوي .
مصر : عيسى البابي وشركاه ،الطبعة الثانية .
٦٢- فتح الباري بشرح صحيح الامام البخاري : الحافظ أحمد بن علي
ابن حجرالعسقلاني .
رقم كتبه و أبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبدالباقي .
قرأ اصله تصحيحا وتحقيقا : الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله
ابن باز / دار الفكر للطباعةوالنشر والتوزيع.
٦٣- قراءة في الأدب القديم : الدكتور محمد محمد أبو موسى .
القاهرة : دار الفكر العربي ،الطبعة الأولى ١٩٧٨م.
٦٤- الكامل : أبوالعباس محمد بن يزيد المبرد .
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم - السيد شحاته .
مصر - دار نهضة مصر.
٦٥- الكشاف : ابو القاسم جار الله محمود الزمخشري.
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر.
٦٦- لسان العرب : ابو الفضل جمال الدين محمد بن منظور.
بيروت - دار صادر.
٦٧- المثل السائر : ضياء الدين ابن الأثير.
تحقيق : د. أحمد الحوفي . د. بدوى طبانة.
٦٨- المجازات النبوية : الشريف الرضي .
تحقيق : طه محمد الزيني .
القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركاه للطباعة والنشر.
٦٩- مجمع الأمثال : أبوالفضل احمد بن محمد الميداني .
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .
مطبعة السنة المحمدية ط ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

٧٠ - المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها : عبدالله الطيب .
بيروت : دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٩٧٠م.
٧١- مصادر التفكير النقدى والبلاغي عند حازم : د . منصور عبدالرحمن .
مصر: مكتبة الأنجلو المصرية .
٧٢- المطول : سعدالدين التفتازاني .
مطبعة أحمد كامل ، ط ١٣٣٠هـ.
٧٣- معالم السنن : أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي .
بيروت : المكتبة العلمية ،الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٧٤- مغني اللبيب : أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن
هشام . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .
بيروت : دار احياء التراث العربي .
٧٥- مفتاح العلوم : أبويعقوب يوسف السكاكي .
بيروت : دار الكتب العلمية .
٧٦- مفردات القرآن : أبوالقاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب
الاصفهاني . تحقيق وضبط : محمد سيدكيلاني .
بيروت : دارالمعرفة .
٧٧- المفضليات : المفضل بن محمد بن يعلى الضبي .
تحقيق : احمد محمد شاكر - عبد السلام هارون .
مصر x : دار المعارف ،الطبعة السادسة .
٧٨- من بلاغة القرآن : أحمد بدوى .
٧٩- منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ابو الحسن حازم القرطاجني .
تحقيق وتقديم : محمد الحبيب ابن خوجه .
تونس : دار الكتب الشرقية ،ط - ١٩٦٦م.
٨٠- النبأ العظيم : محمد عبدالله دراز.
دار القلم ،الطبعةالثانية ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
٨١- نقد الشعر : أبو الفرج قدامة بن جعفر .
تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي .
القاهرة : مكتبة الكليات الازهرية ،الطبعة الاولى ١٣٩٨هـ
١٩٧٨م.

٨٢- النهاية في غريب الحديث والأثر : مجد الدين أبي السعادات ابن الأثير -
تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي .
دار احياء الكتب العربية ،الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٨٣- الوساطة بين المتنبي وخصومه : علي بن عبد العزيز الجرجاني
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم - على محمد البجاوى
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

*

- مجلة البلاغة المقارنة : اصدار الجامعة الأمريكية .
القاهرة : العدد الثاني ، " الف " ربيع عام ١٩٨٢م.

فهرس الموضوعـــــــات

***